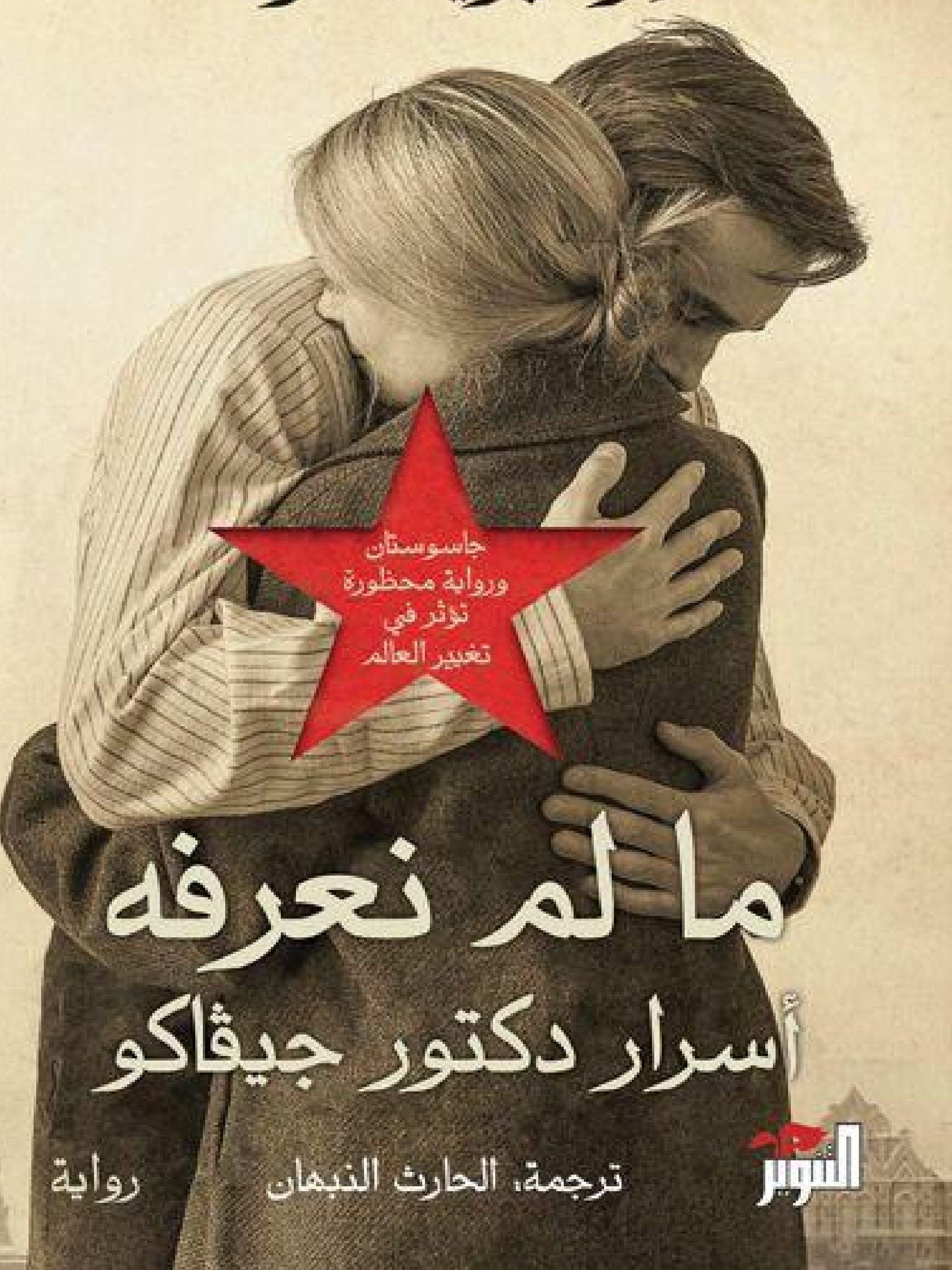
لارا بريسكوت



ما لم نعرفه

أسرار دكتور جيفاكو

التنوير

ترجمة، الحارث النبهان

رواية

لارا بريسكوت

ما لم نعرفه
أسرار دكتور جيفاكو

رواية

دار التنوير 2020

كلمة الغلاف

حكاية مثيرة مستوحاة من قصة حقيقية عن مؤامرة ال. "سي آى إيه" لاختراق قلوب وعقول الشعب السوفييتي ليس عن طريق الحب، لكن من خلال أعظم قصة حب في القرن العشرين: دكتور جيفاكو!

في عام 1956، كاتب روسي شهير يؤلف رواية عنوانها "دكتور جيفاكو". يخشى النظام قوتها الهدامة فيقرر حظرها.

لكن الرواية سرعان ما تثير ضجة كبيرة في العالم.

في واشنطن، تخطط ال سي آى إيه للاستفادة من الرواية في الحرب الباردة، لكنها لا تستخدم النمط المعتاد من الجواسيس. ضاربتا آلة كاتبة، سالي الساحرة صاحبة الخبرة، وإيرينا الموهوبة المبتدئة، تكلّفان بأكبر مهما لهما: تهريب الرواية إلى داخل روسيا!

لن يكون الأمر سهلًا، فهناك أشخاص مستعدون للموت وعملاء مستعدون للقتل من أجل هذا الكتاب، لكن الفشل غير مقبول: هذا كتاب قادر على تغيير التاريخ.

إلى مات

أود أن أكون مع أولئك
الذين يعرفون أسرارًا...
وإلا فوحدي!

- راينر ماريا ريلكه

مقدمة

ضاربات الآلة الكاتبة

كنا نطبع مئة كلمة في الدقيقة ، ولا نسهو عن أيِّ حرفٍ. وكان كل واحدٍ من مكاتبنا المتماثلة مجهّزًا بآلة كاتبة من نوع رويال دويت ديلوكس ذات غلاف أخضر ، وبهاتف أسود ذي قرصٍ من صنع شركة وسترن إلكتريك ، ورزمة من ورق الاختزال الأصفر. كانت أصابعنا تطير على المفاتيح. نقراتنا متواصلة لا تهدأ. وما كنا نتوقّف عن الطباعة إلا للردِّ على الهاتف أو لأخذ نَفَسٍ من السيجارة ؛ لكن بعضنا كنّ قادرات على فعل ذلك حتى من غير أي انقطاع عن العمل.

كان الرجال يصلون قرابة الساعة العاشرة. واحدًا تلو آخر ، كانوا يأخذوننا إلى مكاتبهم. نجلس على كراسٍ صغيرةٍ منزويةٍ في أركان غرف المكاتب ، وأما هم فيجلسون خلف مكاتبهم الضخمة المصنوعة من خشب فاخر ، أو يذرعون السجادة جيئة وذهابًا وهم يكلّمون السقف. كنا نصغي. وكنا نسجّل ما يقال. كانت كل واحدة منّا جمهورًا مؤلفًا من شخص واحد يستمع إلى مذكّراتهم وتقاريرهم وبياناتهم ، وكذلك إلى ما يطلبونه من طعام من أجل الغداء. كانوا ينسون وجودنا أحيانًا ، فنعرف أشياء أكثر: من يحاول التخلّص ممن ، ومن يقوم ببعض ألعاب السلطة ، ومن يقيم علاقة غرامية ، ومن هو مستمرٌّ بالعمل هنا ، ومن كفَّ عن العمل.

أحيانًا ، كانوا لا يشيرون إلينا بأسمائنا ، بل بلون الشعر أو شكل الجسم: الشقراء ، الحمراء ، ذات النهدين الكبيرين. وكانت لنا أيضًا أسماء سرية لهم: الانتهازي ، أنفاس برائحة القهوة ، الأسنان الكبيرة.

كانوا يسمّوننا بناتًا ، كأننا صغيرات! لكننا لم نكن كذلك.

جئنا إلى الوكالة من جامعات رادكليف وفاسار وسميث. كنا أولى بنات عائلاتنا اللواتي يحزْنَ شهادات جامعية. تتكلم بعضنا اللغة الصينية، الماندارين. وتستطيع بعضنا قيادة الطائرات. وكانت منا من تعرف كيف تتعامل مع مسدس كولت 1873 بمهارة أكبر من مهارة جون واين. لكنهم لم يسألونا في المقابلات التي سبقت تعييننا إلا عن أمر واحد: «هل تستطيعين الطباعة على الآلة الكاتبة؟».

يقال إن الآلة الكاتبة مصنوعة للنساء - مفاتيحها في حاجة إلى لمسة أنثوية حتى تغنّي حقًّا؛ ثم إن أصابعنا الرقيقة مناسبة لهذه الآلة. ففي حين يصلُح الرجال للسيارات والقنابل والصواريخ، فإن الآلة الكاتبة آلتنا نحن.

حسنًا، لسنا نعرف شيئًا عن هذا كلّه. لكن ما سنقوله هو أننا كنا نطبع على الآلة الكاتبة فتصير أصابعنا امتدادات لأدمغتنا من غير تأخير بين خروج الكلمات من أفواههم (كلمات يقولون لنا ألا نتذكرها) وحركة المفاتيح التي تطبع الحبر على الورق. عندما نفكّر في الأمر على هذا النحو، في آليات حدوث هذا كله، يكاد كل شيء يبدو شعرًا... تقريبًا!

لكن، هل كنا طامحات إلى صداع التوتر وتورم المعاصم ووضعية الجلوس السيئة؟ أهذا ما حلمنا به في المدرسة الثانوية عندما كنا ندرس بجدٍّ مضاعفٍ عن دراسة الأولاد؟ هل كان هذا العمل الوظيفي الصغير هو ما فكّرنا فيه عندما فتحنا مغلّفات الورق المقوى التي كانت فيها رسائل قبولنا في الجامعات؟ أو... أين كنا نظن أننا ذاهبات عندما جلسنا على تلك المقاعد الخشبية البيضاء في صف طوله خمسين ياردًا مرتدياتٍ عباءات التخرّج وقبعاته، فتلقينا الشهادات الملفوفة على شكل أسطوانات، تلك الشهادات التي أكدت أننا مؤهلات لفعل ما يفوق هذا كثيرًا؟

كانت أكثرنا تعتبر العمل في «مجموعة الآلة الكاتبة» وظيفة مؤقتة. لم نكن نقرّ بهذا صراحة (ولا حتى في ما بيننا)، لكنَّ كثيرات كن تعتقدن أنه سيكون خطوة أولى في اتجاه إنجاز ما يصل إليه الرجال بعد الجامعة مباشرة: ضباط! وأن تكون لنا مكاتبنا الخاصّة التي فيها مصابيح بإنارة مريحة، وسجادات وثيرة، وطاولات مكتب خشبية، وضاربات آلة كاتبة يطبعن ما نقوله لهن. كنا ننظر إلى هذا العمل على أنه بداية، وليس نهاية... على الرغم مما كان الجميع يقوله لنا طيلة حياتنا.

كانت هناك نساء أخريات لم يكن مجيئهن إلى الوكالة بداية حياتهن المهنية ، بل ختامًا لها. موظفات بقين من «مكتب الخدمات الاستراتيجية»(1) حيث كن أساطير في زمن الحرب ، فصرن الآن بقايا مُقْصاة إلى «مجموعة الآلة الكاتبة» أو إلى قسم السجلات ، أو إلى مكتب في زاوية من الزوايا من غير أن يكون لديهن شيء تفعلنه.

كانت لدينا بِتي التي كانت تدير عمليات سوداء خلال الحرب وتوجّه ضربات إلى معنويات الأعداء من خلال زرع مقالات في الصحف وإلقاء منشورات دعائية من الطائرات. سمعنا أنها قامت ذات مرة بتأمين الديناميت لرجل نسف قطار إمداد عندما مروره فوق جسر في مكان ما في بورما. لكننا لم نكن قادرات أبدًا على التثبت مما هو صحيح أو غير صحيح ؛ وذلك لأن سجلّات مكتب الخدمات الاستراتيجية القديمة كان لها أسلوبها الخاص في الاختفاء. لكنَّ ما عرفناه بالفعل هو أن بيتي كانت تجلس في «الوكالة» إلى طاولة مكتب مثلنا ، بينما صار شباب جامعات «رابطة اللبلاب» الذين كانوا زملاءها ، زمن الحرب ، مديريها الآن.

نفكّر في فرجينيا الجالسة إلى طاولة مماثلة وقد لفّت كتفيها بوشاحها الأصفر الثقيل بصرف النظر عن الطقس ، وغرست قلم رصاص في شعرها الذي ربطته على شكل كرة فوق رأسها. نفكّر في فردة شبشبها الأزرق ذي الزغب تحت مكتبها - لا حاجة إلى فردتها الأخرى ، لأن قدمها اليسرى بُترت بعد حادثة صيد في طفولتها. تدعو ساقها الاصطناعية «كوثبرت» ؛ وعندما تشرب كؤوسًا كثيرة ، تفكّ تلك الساق وتناولك إياها. نادرًا ما تقول فرجينيا شيئًا عن أيام خدمتها في «مكتب الخدمات الاستراتيجية». وإذا كنت لم تسمع ، من الآخرين ، قصصًا عن عملها في الجاسوسية ، فسوف تعتقد أنها ليست إلا موظفة حكومية تقدّمت بها السن. لكننا سمعنا تلك القصص ؛ كتلك التي تقول إنها تنكّرت مرة على هيئة راعية ، وقادت أبقارها إلى الحدود ، ومعها اثنان من مقاتلي المقاومة الفرنسية. يقال إن رجال الغستابو كانوا يعتبرونها أخطر جواسيس الحلفاء. كنا نصادف فرجينيا في الممر أحيانًا ، أو نكون في المصعد معًا ، أو نراها تنتظر الباص رقم ستة عشر عند زاوية شارعي إي وواحد وعشرين. وكنا نرغب في التوقّف وسؤالها عن أيامها في الحرب ضد النازيين... نسألها إن كانت لا تزال تفكّر في تلك الأيام وهي جالسة إلى مكتبها منتظرة الحرب التالية ، أو منتظرة من يقول لها أن تذهب إلى البيت.

ظلّوا سنوات يحاولون دفع موظفات «مكتب الخدمات الاستراتيجية» إلى ترك الوظيفة -

ليسوا في حاجة إليهن في حربهم الباردة الجديدة. يبدو أن تلك الأصابع نفسها التي كانت تضغط على الزناد في ما مضى صارت الآن مناسبة أكثر للضرب على الآلة الكاتبة. لكن، من عسانا نكون لكي نتذمّر. هذه وظيفة جيّدة. ونحن محظوظات لأننا حصلنا عليها. ثم إنها، بالتأكيد، أكثر إثارة من معظم الوظائف الحكومية الأخرى. وزارة الزراعة؟ وزارة الداخلية؟ هل تتخيّلون هذا؟

صار «قسم روسيا السوفييتية» بيتنا الثاني. وتمامًا مثلما كانت الوكالة معروفة بأنها «نادي الرجال»، فقد شكّلنا مجموعتنا الخاصة بنا. صرنا ننظر إلى أنفسنا باعتبارنا «مجموعة الآلة الكاتبة»، وهذا ما جعلنا نشعر بأننا أكثر قوة.

ثم إن طريق ذهابنا إلى العمل وعودتنا منه لم يكن سيئًا. كنا نستخدم الباص أو الترام عندما يكون الطقس سيئًا، ونمشي عندما يكون لطيفًا. عاش أكثرنا في أحياء قريبة من قلب المدينة: جورجتاون، دوبونت، كليفلاند بارك، كاثيدرال هايتس: كنا نعيش وحيدات في بنايات من غير مصاعد، في شقق صغيرة جدًا تستطيع الواحدة منا، عمليًا، أن تستلقي بحيث يمسّ رأسها الجدار وتمس أصابع قدميها الجدار الآخر. وكنا نعيش في آخر ما بقي من «مساكن داخلية» في جادة ماساشوستس؛ أماكن فيها صفوف من أسرّة بطابقين يمنع الدخول والخروج منها بعد العاشرة والنصف ليلًا. وغالبًا ما كانت لنا شريكات في السكن - موظفات حكومة أسماؤهن آغنيس أو بيج تتركن دائمًا لفافات الشعر الوردية في المغسلة، أو بقعًا من زبدة الفستق على سكين الزبدة، أو فوطًا صحية مستخدمة غير ملفوفة جيدًا في سلة المهملات الصغيرة إلى جانب المغسلة.

في تلك الأيام، كانت ليندا ميرفي الوحيدة المتزوّجة بيننا؛ وكانت متزوجة حديثًا. المتزوّجات لم تكن تبقين طويلًا. بعضهن كن تبقين إلى أن تحملن؛ لكن الحالة المعتادة كانت أن تبدأ الواحدة منهن التخطيط للرحيل فور وضع الخاتم في إصبعها. كنا نأكل كيك «مع السلامة» في غرفة الاستراحة عند وداعهن. وكان الرجال يأتون لكي ينالوا نصيبهم من الكيك، ولكي يقولوا إنهم حزينون جدًا لذهابهن؛ لكنا كنا نلتقط تلك الالتماعة في عيونهم وهم يفكّرون في الفتاة الجديدة، الأصغر سنًا، التي ستحتل مكان الفتاة الذاهبة. كنا نتبادل الوعود بأن نبقى على اتصال، لكنّهن يذهبن للاستقرار في أبعد نواحي المدينة بعد الزفاف والولادة... يعشن في أماكن لا بد من سيارة تاكسي، أو باصين، للوصول إليها... أماكن من

قبيل بيفيسدا أو ألكساندريا أو فيرفاكس. قد نذهب في تلك الرحلة مرة من أجل عيد الميلاد الأول للطفل، لكن من المستبعد أن يحدث أي شيء بعد ذلك.

كان أكثرنا من العازبات اللواتي يضعن عملهن في المقام الأول؛ خيارٌ كان علينا أن نقول لأهلنا، ونكرّر القول مرات كثيرة، إنه ليس موقفًا سياسيًا. من المؤكد أنهم كانوا فخورين بنا عند تخرّجنا من الجامعة. لكن كل سنة نمضيها في «صنع سيرتنا المهنية» بدلًا من «صنع الأطفال» كانت تجعلهم أكثر حيرة إزاء حالة «اللازوج» وإزاء قرارنا الغريب بأن نعيش في مدينة مبنية فوق مستنقع.

وبالتأكيد، كانت رطوبة واشنطن في الصيف أشبه ببطانية ثقيلة مبللة؛ وكان بعوضها شرسًا كالنمور. ففي الصباح، كان شعرنا الذي لففناه في الليلة الماضية ينسدل من جديد مع أول خطوة خارج البيت. وكان المرء يحس في الباصات وعربات الترام كأنه في غرفة ساونا، لكن رائحتها أشبه برائحة إسفنجة متعفنة. لم تكن هناك لحظة يشعر فيها المرء بأنه غير متعرّق إلا بعد دوش بارد.

لكن الشتاء لم يكن أكثر رحمة بنا. كنا نلتفّ بملابسنا ونندفع من موقف الباص خافضين رؤوسنا اتقاء الريح التي تهب من نهر بوتوماك المتجمِّد.

وفي الخريف، تدبّ الحياة في المدينة. تبدو الأشجار على امتداد جادة كونيكتكيت مثل ألعاب نارية برتقالية وحمراء. وتكون درجات الحرارة لطيفة، فلا حاجة بنا إلى القلق من تشبُّع بلوزاتنا بالعرق تحت آباطنا. نشتري الكستناء المشوية على النار من بائعي الهوت دوغ، نأخذها في أكياس ورقية (كمية مناسبة من أجل العودة إلى البيت سيرًا على الأقدام).

يأتي كل ربيع بأزهار الكرز وباصات محمّلة سياحًا يتنزهون بين التماثيل ويقطفون زهورًا وردية وبيضاء من غير اكتراث باللافتات الكثيرة التي تمنع قطف الأزهار... يعلّقونها فوق آذانهم أو في جيوب ستراتهم. كان الخريف والربيع في واشنطن فصلين للتمهل. في تلك اللحظات، كنا نتوقف فنجلس على مقعد أو نذهب في جولة من حول «بركة التأمّل». لكن أضواء مصابيح النيون داخل الوكالة التي في شارع إي كانت تغمر كل شيء بألقها القاسي فتزيد لمعان جباهنا وتكشف الرؤوس السوداء على أنوفنا. لكننا نخرج بعد أن ننهي عمل اليوم، فتداعب برودة الهواء اللطيفة أذرعنا العارية ونقرّر أن نأخذ الطريق الأطول في العودة مشيًا إلى البيت، الطريق الذي يمر عبر منتزه «ذا مول»... في تلك اللحظات، تصير المدينة

المبنية فوق مستنقع كأنها صورة على بطاقة بريدية.

لكننا نتذكّر أيضًا أصابعنا المتورّمة ومعاصمنا التي تؤلمنا والمذكّرات والتقارير وجلسات الإملاء التي لا نهاية لها. كنا نطبع كثيرًا، كثيرًا جدًّا؛ بل كان بعضنا يرى الطباعة في أحلامهنّ. وحتى بعد سنين من ذلك، كان الرجال الذين شاركناهم الفراش يقولون لنا إن أصابعنا تتحرّك أحيانًا أثناء نومنا. نتذكّر كيف كنا ننظر إلى الساعة كل خمس دقائق بعد ظهر أيام الجمعة. ونتذكّر القصاصات الورقية، وورق المرحاض الخشن، ورائحة أرضية الردهة الخشبية المطلية بصابون «زيت ميرفي» في الصباح، وكيف تظلّ أحذيتنا تنزلق عليها عدة أيام بعد تشميعها. نتذكّر صفّ النوافذ الوحيد في آخر «قسم روسيا السوفييتية»، وكيف كانت النوافذ عالية لا تسمح بالنظر إلى الخارج، وكيف أن الشيء الوحيد الذي كانت رؤيته عبر تلك النوافذ ممكنة هو بناء وزارة الخارجية الرمادي الواقع إلى الجهة الأخرى من الشارع، ذلك البناء الذي كان شكله مثل شكل بنائنا الرمادي تمامًا. كنا نتساءل عن مجموعة فتيات الطباعة هناك. كيف شكلهنّ؟ وكيف هي حياتهنّ؟ وهل ينظرن من نوافذهنّ إلى بنائنا الرمادي ويتساءلن عنا؟ في ذلك الوقت، كانت تلك الأيام تبدو طويلة، وكان لكل يوم منها معالمه المميزة له؛ لكنها تختلط جميعًا عند النظر إليها الآن. لا نستطيع إخباركم إن كانت حفلة عيد الميلاد التي دلق فيها ولتر أندرسون النبيذ الأحمر على صدر قميصه كله، ثم فقد الوعي في الحفلة، وكانت مثبتة على بطاقته الاسمية ورقة كتب عليها «لا توقظوني»... لا نستطيع إخباركم إن كان هذا قد حدث في العام 1951 أو في العام 1955. ولا نتذكّر أيضًا إن كانت هولي فالكون قد طُردت من العمل لأنها سمحت لضابط زائر بأن يلتقط لها صورًا عارية في غرفة الاجتماعات في الطابق الثاني، أو أنها نالت ترقية بسبب تلك الصور، ثم طردوها لسبب آخر بعد ذلك بفترة قصيرة.

لكنْ هناك أشياء أخرى نتذكّرها.

إذا أتيتم إلى مقرّ القيادة ورأيتم امرأة في بدلة أنيقة خضراء من التويد تسير خلف رجل وتدخل مكتبه، أو امرأة تنتعل حذاء أحمر وترتدي كنزة صوف حمراء مثله جالسة في مكتب الاستقبال، فقد تفترضون أنهما ضاربتي آلة كاتبة، أو سكرتيرتين... وسوف تكونون محقّين. لكنكم قد تكونون مخطئين أيضًا. سكرتيرة: شخص مؤتمن على سر. كلمة آتية من اللاتينية (secretum - سر). كنا نطبع على الآلة الكاتبة، كلّنا... لكن بعضنا كنّ يقمن بما هو أكثر من

هذا. لم نكن نقول أية كلمة عن العمل الذي نقوم به بعد أن نغطّي آلاتنا الكاتبة كل يوم. فخلافًا لبعض الرجال ، كنا قادرات على حفظ أسرارنا.

): وكالة الاستخبارات الأميركية التي حلّتOSSمكتب الخدمات الاستراتيجية ((1)
».CIAمحلها «وكالة المخابرات المركزية -

شرق

1949 — 1950

الفصل الأول
ربّةُ الإلهامِ

عندما جاء ذوو البدلات السوداء ، عرضتْ عليهم ابنتي أن تعدّ لهم شايًا. وافق الرجال على ذلك موافقة مهذّبة كأنهم ضيوفٌ مدعوون. وعندما راحوا يفرغون دروج مكتبٍ على الأرض ، ويسقطون الكتب عن الرف ، ويقلّبون الفرشات ، ويفتشون الخزائن كلّها ، أنزلت إيرا الإبريق ذي الصفارة عن الموقد وأعادت فناجين الشاي والأطباق إلى الخزانة.

وعندما وجّه رجل يحمل صندوقًا كبيرًا أمره إلى بقية الرجال بأن يضعوا في الصندوق كل شيء مفيد. أسرعِ ميتيا ، ابني الصغير ، إلى الشرفة حيث يضع قنفذه. خبأ قنفذه داخل كنزته

إذ ظنَّ أن الرجال يريدون وضعه في الصندوق أيضًا. وضع أحد الرجال يده على رأس ميتيا وقال له إنه ولد طيف - هو الرجل نفسه الذي انزلقت يده إلى أسفل ظهري ، بعد ذلك ، عندما كانوا يضعونني في سيارتهم السوداء. لكن ميتيا ، ميتيا اللطيف ، دفع يد الرجل بحركة عنيفة ليبعدها عنه ، وانسحب إلى غرفة النوم التي يتشاركها مع أخته.

كانت أمي في الحمام عند وصول الرجال. خرجت مرتدية مئزر الحمام وحده - شعرها لا يزال مبتلًا ، ووجهها متوردًا. «قلت لك إن هذا سيحدث. قلت لك إنهم سيأتون». أخذ الرجال الرسائل التي وصلتني من بوريس ، ومعها ملاحظاتي وقوائم الطعام وقصاصات الصحف ومجلات وكتب. «قلت لك يا أولغا إنه لن يجلب لنا شيئًا غير الألم».

قبل أن أجيبها بشيء ، أمسك أحد الرجال بذراعي -حركة أشبه بحركة عاشق منها بحركة شخص جاء لاعتقالي- ثم قال إن وقت الذهاب قد حان. أحسست أنفاسه حارة عند رقبتي. تجمّدت. لم يُعِدني إلى تلك اللحظة غير بكاء ابني وابنتي. أُغلق الباب من خلفنا ، لكن صوت بكائهما صار أشدّ من ذي قبل.

انعطفت السيارة مرّتين في اتجاه اليسار ، ثم مرة في اتجاه اليمين ، وبعدها مرة أخرى في اتجاه اليمين. لم أكن في حاجة إلى النظر من النافذة حتى أعرف المكان الذي كان ذوو البدلات السوداء يأخذونني إليه. أحسست بالغثيان فأخبرت الرجل الجالس إلى جانبي الذي كانت رائحته مثل رائحة البصل والملفوف المقليين. فتح الرجل النافذة -شيء من اللطف- لكن الغثيان استمر. وعندما رأيت البناء القرميدي الكبير الأصفر ، كدت أتقيأ.

عندما كنت طفلة ، علّموني أن أحبس أنفاسي وأُخلي ذهني من أي شيء عندما أمر بلوبيانكا - كانوا يقولون إن وزارة أمن الدولة تستطيع معرفة إن كانت في رأس المرء أفكار معادية للاتحاد السوفييتي. في ذلك الوقت لم أكن أعرف أبدًا ما تعنيه عبارة «أفكار معادية للاتحاد السوفييتي». اجتازت السيارة ساحة كبيرة ، ثم عبرت بوابة الفناء الداخلي في لوبيانكا. امتلأ فمي قيئًا ، لكنني ابتلعته سريعًا. تحرك الرجلان الجالسان إلى جانبي مبتعدين عني بأسرع ما استطاعا. توقّفت السيارة. فتح الرجل ذو رائحة البصل والملفوف باب السيارة وسألني: «ما أعلى مبنى في موسكو؟». أتتني موجة غثيان أخرى ، فانحنيت إلى الأمام مفرغة على حافة الرصيف البيض المقلي الذي تناولته على الإفطار ، تمامًا إلى جوار حذاء الرجل ذي اللون الأسود الكامد. «إنه لوبيانكا ، بالطبع. يقولون إنك تستطيعين أن تري من القبو طريق

الذهاب إلى سيبيريا كلّه».

ضحك الرجل الثاني، وأطفأ عقب سيجارته بأسفل حذائه.

بصقت مرتين ومسحت فمي بظاهر يدي.

دخلنا ذلك المبنى الكبير الأصفر فسلّمني الرجال ذوو البدلات السوداء إلى حارستين في الداخل، لكن ليس قبل أن ينظروا إليّ تلك النظرة التي قالت إن عليَّ أن أكون ممتنة لأنهم ليسوا من يأخذونني إلى زنزانتي. جلست المرأة الأكبر جسمًا (لها شارب خفيف) على كرسي بلاستيكي أزرق في الزاوية، بينما قالت لي المرأة الأصغر جسمًا أن أخلع ملابسي (قالت هذا بصوت ناعم جداً كأنها تحاول إقناع طفل صغير بأن يجلس على النونيّة). خلعت سترتي وفستاني وحذائي ووقفت بملابسي الداخلية ذات اللون اللحمي في حين نزعت المرأة ساعتي وخواتمي من يديَّ. ألقت الساعة والخواتم في علبة معدنية فصدر عنها رنين ردّدت الجدران الإسمنتية صداه، ثم أشارت إلي بأن أفك حمالة الثديين. تمنّعت، وعقدت ذراعي على صدري.

قالت المرأة الجالسة على الكرسي الأزرق، وكانت تلك أول كلمات تقولها لي: «علينا أن نأخذها، فقد تشنقين نفسك بها».

فككت البكلة وخلعت حمالة الثديين. أحسست بالهواء البارد على صدري. وأحسست عيونهما تمسح جسدي. حتى في ظروف من هذا النوع، لا تهمل المرأة تقييم أية امرأة أخرى.

سألتني المرأة الضخمة: «هل أنت حبلى؟».

أجبتها: «أجل». كانت تلك أول مرة أقرّ فيها بحبلي بصوت مسموع.

كانت آخر مرة مارسنا فيها الحب، أنا وبوريس، بعد أسبوع واحد من إنهائه علاقته معي للمرة الثالثة. لقد قال لي: «انتهى الأمر. ينبغي أن ينتهي». كنت أدمر أسرته. وكان هذا مؤلمًا له. لقد أخبرني بهذا كلّه عندما كنا سائرين في زقاق متفرّع عن شارع آربات فسقطتُ في مدخل مخبز هناك. أتى لكي يرفعني عن الأرض فصرخت به طالبة منه أن يتركني وشأني. توقّف الناس ونظروا إلينا.

أتى إلى بابي في الأسبوع الذي أعقب ذلك. أحضر لي هدية: ثوبٌ منزلي ياباني فاخر اشترته أخته من لندن. قال راجيًا: «جرّبيه حتى أراه». دلفت خلف ستارة ارتداء الملابس، ولبست الثوب. كان نسيجه قاسيًا، غير مريح. تجمع عند بطني. كان الثوب كبيرًا عليّ... لعله قال

لأخته إنه أراده هدية من أجل زوجته. قلت له إن الثوب لم يعجبني. ضحك ، ثم قال راجيًا: «إذًا ، اخلعيه». فخلعته.

وبعد شهر واحد ، بدأت أشعر تنميلًا في جلدي كأنني أغمس نفسي في حوض استحمام حار بعد مجيئي من البرد في الخارج. عرفت هذا التنميل من قبل ؛ عرفته مع إيرا ومع ميتيا. وعرفت أنني أحمل طفله.

قالت الحارسة القصيرة: «إذًا ، سيزورك الطبيب قريبًا».

فتشتني المرأة. أخذت كل شيء. قدّمت إلي رداء رماديًا كبيرًا وخُفًّا منزليًا أكبر من مقاس قدمي بدرجتين ؛ ثم رافقتني المرأتان إلى علبة إسمنتية ليس فيها غير فراش ودلو.

بقيت في العلبة الإسمنتية ثلاثة أيام كنت أتلقى فيها كاشا(2) وحليبًا حامضًا ، مرتين في اليوم.

أتى طبيب لكي يفحصني ، لكنه لم يفعل شيئًا غير تأكيد ما كنت أعرفه من قبل. إنني مدينة لذلك الجنين الذي كان ينمو في أحشائي بأنه حماني من أشياء فظيعة كنت أسمع أنها تحدث للنساء في تلك الصناديق الإسمنتية.

نقلوني بعد ثلاثة أيام إلى غرفة كبيرة ، إسمنتية أيضًا ، فيها أربع عشرة سجينة غيري. أعطوني سريرًا ذا إطار حديدي مثبت إلى الأرض. استلقيت على السرير فور انصراف الحرس وإغلاق الباب.

قالت لي شابة جالسة على السرير المجاور: «لا تستطيعين النوم الآن». كانت ذراعاها نحيلتين متكدّمتين عند مرفقيهما... «سيأتون ويوقظونك»... أشارت إلى مصابيح النيون المتوهّجة في الأعلى... «النوم ممنوع خلال النهار».

قالت امرأة أخرى: «وسوف تكونين محظوظة إذا تسنى لك أن تنامي ساعة في الليل». كانت شبيهة بالمرأة الأولى ، إلى حد ما ؛ لكنها بدت أكبر سنًا إلى حدٍّ يمكن معه أن تكون أمًا لها. تساءلت إن كانت بينهما قرابة أو ، لعل الوجود في هذا المكان ، تحت الإنارة الساطعة ، ومع ارتداء هذه الملابس نفسها ، يجعل الجميع متشابهين في آخر الأمر. «إنهم يأتون في الليل لأخذك من أجل بعض الكلام معك».

نظرت الشابة إلى المرأة الأخرى نظرة كأنّ فيها تحذيرًا.

سألتهما: «ماذا تفعلان بدلًا من النوم؟».

«ننتظر».

«ونلعب الشطرنج».

«الشطرنج!».

قالت امرأة ثالثة كانت جالسة إلى طاولة في الناحية الأخرى من الغرفة: «أجل، هل تلعبين الشطرنج؟». رفعتْ قطعة شطرنج (حصان)، مصنوعة من كشتبان خياطة. لم أكن ألعب الشطرنج، لكني سأتعلمها خلال بضعة شهور من الانتظار بعد ذلك.

كان الحرس يأتون ويأخذون في كل ليلة امرأة من الزنزانة رقم 7، امرأة واحدة في كل مرة، ثم يعيدونها بعد بضع ساعات صامتة محمرّة العينين. كنت أتوقّع أن يأخذوني في كل ليلة، لكني فوجئت عندما أخذوني أخيرًا. أيقظوني بنقرة هراوة خشبية على كتفي العارية. قال الحارس الواقف فوقي: «الأحرف الأولى من اسمك!». كان الرجال الذين يأتون في الليل يطلبون دائمًا الأحرف الأولى من أسمائنا قبل أخذنا. أجبته مغمغمة. قال لي الحارس أن أرتدي ملابسي، ولم يدر وجهه ريثما أرتديها.

اجتزنا ممرًا مظلمًا طويلًا، ثم نزلنا عدة طوابق. تساءلت في نفسي إن كانت الشائعات التي سمعتها صحيحة: إن في لوبانيكا عشرين طابقًا تحت الأرض. وهي متّصلة بالكرملين عبر أنفاق. يذهب أحدها إلى معقِل مجهّز بوسائل الراحة كلّها بني من أجل ستالين خلال الحرب.

أخذوني حتى نهاية ممر آخر. توقّفنا عند باب كتب عليه الرقم 271. فتح الحارس الباب قليلًا ونظر إلى الداخل، ثم فتح الباب على اتساعه مطلقًا ضحكة. لم يكن ذلك المكان زنزانة، بل مستودعٌ فيه أبراج من اللحوم المعلبة وصناديق شاي مصفوفة بانتظام، وأكياس من طحين الشيلم. نخر الحارس وأشار إلى باب آخر في الناحية الأخرى من الغرفة. لم يكن على الباب رقم. فتحت الباب. وفي الداخل، أبهرتِ الإنارة الشديدة عينيَّ. كان ذلك مكتبًا فيه أثاث فاخر مناسب تمامًا لأن يوضع في ردهة فندق. على أحد الجدران خزائن فيها كتب ذات أغلفة جلدية؛ وثلاثة حراس عند الجدار الآخر. رجل في ملابس عسكرية جالس إلى طاولة مكتب كبيرة في وسط الغرفة. وعلى مكتبه أكداس من الكتب والرسائل: هذه كتبي، وهذه رسائلي.

قال الرجل: «اجلسي يا أولغا فسيفولودوفنا». كانت للرجل كتفان منحنيتان مثلما تكون أكتاف من ينفقون أعمارهم جالسين خلف المكاتب أو منحنين يقومون بأعمال مجهدة. كانت أصابع يديه المعتنى بهما جيدًا متشابكة من حول فنجان شاي... خمّنت أنه فنجان شاي.

جلست على كرسي صغير أمامه.

قال: «يؤسفني أنك انتظرت طويلًا».

بدأت أقول كلامًا أمضيت أسابيع في تحضيره: «لم أفعل شيئًا خاطئًا. ينبغي أن تطلقوا سراحي. إن لديَّ أسرة. ليس هناك أي...».

رفع إصبعه. «لم تفعلي شيئًا خاطئًا؟ نحن من يقرر هذا... في الوقت المناسب». تنهّد، ثم أزال بظفر إبهامه الثخين المصفر شيئًا عالقًا بين أسنانه... «وسوف يستغرق هذا زمنًا».

كنت أتوقّع أن يطلقوا سراحي في أي يوم؛ وكنت أتوقّع أن الأمور ستجد حلاًّ لها بحيث أمضي ليلة رأس السنة إلى جانب مدفأة حارّة وأشرب مع بوريس كأس نبيذ من صنع جورجيا.

«إذًا، ماذا فعلتِ؟». قلّب الأوراق، ثم رفع ورقة لها شكل مذكرة رسمية. «التعبير عن آراء معادية للاتحاد السوفييتي ذات طبيعة إرهابية». كان يقرأ كمن يستعرض مكوّنات وصفة لإعداد الكيك بالعسل.

قد يظن المرء أن الذعر يجعل إحساسًا بالبرد يسري في جسده... بردٌ يخدر الجسم استعدادًا للألم الآتي! لكن، بالنسبة إليَّ، كان ذلك حرارة سرت كالنار، سرت في جسدي، من أوله إلى آخره. قلت له: «من فضلك، أريد أن أكلّم أسرتي».

«اسمحي لي بتقديم نفسي...». ابتسم واستند في كرسيه إلى الخلف فطقطق الجلد من تحته... «أنا مستجوبك المتواضع. هل أستطيع أن أقدم لك الشاي؟».

«أجل».

لم يأت بأية حركة لإحضار الشاي. «اسمي أناتولي سرغييفيتش سميونوف».

«يا أناتولي سرغييفيتش سميونوف...».

«يمكنك مخاطبتي باسمي الأول، أناتولي. سوف تنشأ بيننا معرفة جيّدة جدًّا، يا أولغا».

«أرجو أن تخاطبني باسم أولغا فسيفولودوفنا».

«لا بأس».

«وأتمنى أن تكون واضحًا معي، يا أناتولي سرغييفيتش سميونوف».

«وأنا أتمنى أن تكوني صادقة معي، يا أولغا فسيفولودوفنا». أخرج من جيبه منديلًا متّسخًا وتمخط فيه... «أخبريني عن تلك الرواية التي يكتبها. لقد سمعتُ عنها أشياء».

«مثل ماذا؟».

قال: «أخبريني عم تتحدّث هذه الرواية، دكتور جيفاكو؟».

«لست أدري».

«ألا تدرين؟».

«لا يزال يكتبها».

«لنقل، إذا تركتك هنا... إذا تركتك فترة وحدك، مع ورقة وقلم... فقد تكوني قادرة على التفكير في ما تعرفينه وفي ما لا تعرفينه عن ذلك الكتاب بحيث تكتبي ذلك كلّه على الورقة. هل هذه خطة مناسبة؟».

لم أجبه بشيء.

نهض واقفًا، ثم ناولني رزمة أوراق. أخرج من جيبه قلم حبر مذهَّبًا. «خذي، استخدمي قلمي».

تركني مع قلمه وأوراقه وحرّاسه الثلاثة.

عزيزي أناتولي سرغييفيتش سميونوف،

هل أكتب هذا مثلما أكتب لك رسالة؟ كيف هي الطريقة المناسبة لأن يدلي المرء باعتراف؟

لدي شيء أعترف به؛ لكنه ليس ما تودّ سماعه. عندما يكون الاعتراف هكذا، فمن أين يبدأ المرء؟ لعل عليه أن يبدأ من البداية!

وضعت القلم من يدي.

كان بوريس في أمسية لإلقاء أشعاره عندما رأيته أول مرة. كان واقفًا خلف منبر خشبي بسيط ومن فوقه مصباح موجّه يتألّق ضوؤه على شعره الفضي وينعكس على جبهته المرتفعة. كانت عيناه متسعتين عندما راح يقرأ شِعره. وكانت قسمات وجهه كبيرة، طفولية، مشعّة عبر جمهور الحاضرين كأنها موجات متتالية تصل حتى مقعدي في شرفة تلك الصالة. كانت يداه تتحركان سريعًا كأنه يقود أوركسترا. وعلى نحو ما، كان بالفعل يقود أوركسترا. أحيانًا، كان الجمهور يعجز عن التزام الصمت، فيردّد معه أبياتًا من القصيدة قبل أن يفرغ منها. وفي لحظة، توقّف بوريس قليلًا ونظر إلى الأعلى، في الأضواء... أقسم أنه رآني أنظر إليه من الشرفة... أقسم أن نظرتي عبرت تلك الأنوار البيضاء فلاقت نظرته. نهضْتُ واقفةً عندما انتهى - كفاي متلاصقتين... نسيت أن أصفق. كنت أنظر إلى الناس يندفعون إلى المنصّة فيحيطون به؛ وبقيت واقفة في مكاني بينما كانت الشرفة تخلو من الناس، ثم تخلو الصالة

كلها. أمسكت بالقلم.

... أو، هل أبدأ من حيث بدأ الأمر؟

بعد أقل من أسبوع من تلك الأمسية الشعرية، كان بوريس واقفًا على سجادة حمراء وثيرة في ردهة فندق نوفي مير يتحدّث مع المحرّر الجديد في المجلة الأدبيّة. كان اسم المحرر كونستانتين ميخايلوفيتش سميونوف؛ وكان رجلًا لديه خزانة كاملة من بدلات ما قبل الحرب، وخاتمان من العقيق منقوشان يصطدم أحدهما بالآخر كلما رفع غليونه إلى فمه. لم يكن مجيء الكتّاب لزيارة مكتبه أمرًا غير مألوف. والحقيقة أنني كثيرًا ما كنت أكلَّف بمرافقة الزائرين في جولة على المكاتب، وبتقديم الشاي إليهم، وبأخذهم لتناول الغداء... المجاملات العادية! لكن بوريس ليونيدوفيتش باسترناك كان أوسع الشعراء الروس الأحياء شهرة، فقام كونستانتين بدور المضيف وسار معه على امتداد صف المكاتب الطويل معرِّفًا إياه على الكتّاب والمصممين والمترجمين، وبقية العاملين المهمّين. عند النظر إليه من مسافة قريبة، كان بوريس أكثر جاذبية مما بدا لي عندما رأيته على المنصة. كان في الخامسة والستين، لكن المرء يحسبه في الأربعين. كانت عيناه تتنقّلان بين الناس وهو يتبادل معهم المجاملات، وقد جعلت ابتسامته العريضة وجنتيه أكثر بروزًا.

عندما اقتربا من طاولتي، تناولت الترجمة التي كنت أعمل عليها، وبدأت أضع إشارات عشوائية على المقاطع الشعرية. وتحت الطاولة، دسست قدميَّ في حذائي.

قال كونستانتين لبوريس: «أود أن أعرّفك على واحدة من أكثر المعجبين بك حماسة. هذه هي أولغا فسيفولودوفنا إيفينسكايا».

مددت يدِي.

قلب بوريس كفي ورفع معصمي فقبّل يدي: «يسعدني لقاؤك».

«لقد أحببت قصائدك منذ كنت صغيرة». قلت هذا - بغباء - وهو يبتعد عني.

ابتسم فكشفت ابتسامته عن الثغرة التي بين أسنانه: «الحقيقة أنني أعمل الآن على رواية».

سألته: «ما موضوعها؟»، ثم لعنت نفسي لأنني طلبت من كاتب أن يشرح مشروعه قبل أن ينهيه.

«إنها رواية عن موسكو القديمة... المدينة التي أنت أصغر سنًا من أن تستطيعي تذكّرها».

قال كونستانتين: «أمر مثير حقًا! لكن علينا أن نتحدّث عنه في مكتبي».

قال بوريس: «إذًا ، آمل أن أراك من جديد يا أولغا فسيفولودوفنا. ما ألطف أن يكون لدي معجبون حتى الآن».

من هنا بدأ الأمر.

في المرة الأولى التي وافقت فيها على لقائه ، تأخّرت عن الموعد ، وجاء مبكرًا.

قال إنه لا مشكلة لديه في ذلك ، وإنه وصل إلى ساحة بوشكينسكايا قبل ساعة من الموعد وتمتّع بالنظر إلى الحمائم وهي تقف ، واحدة بعد أخرى ، على قمة تمثال بوشكين البرونزي كأنها قبّعات حيّة لها ريش. وعندما جلست على المقعد إلى جانبه أمسك يدي وقال إنه لم يستطع التفكير في أي شيء آخر منذ أن قابلني في المكتب. قال إنه لم يستطع الكف عن التفكير في ما سيشعر به عندما يراني أقترب وأجلس إلى جانبه ، وعندما يمسك بيدي.

وفي كل يوم بعد ذلك ، صار يأتي وينتظرني أمام شقتي. كنا نمشي قبل العمل ، نسير في الجادّات العريضة ، ونمر بالساحات والحدائق ، ونجتاز جيئة وذهابًا كل جسر من الجسور التي على نهر موسكوفا من غير أن تكون لنا وجهة محدّدة. كانت أشجار اللايم ممتلئة أزهارًا في ذلك الصيف ؛ وكانت المدينة كلّها فائحة بشذًى عسليٍّ حلوٍ ، وبرائحة عفونةٍ خفيفةٍ.

أخبرته بكل شيء: حكيت له عن زوجي الأول ، وكيف شنق نفسه في شقتنا ؛ حدّثته عن الزوج الثاني الذي مات بين ذراعيَّ ؛ وحدثته عن الرجال الذي عرفتهم قبلهما ، وعن الرجال الذين عرفتهم بعدهما. حدّثته عما يثير خجلي ، وعما يجعلني أشعر بالإهانة. حدّثته عن مسرّاتي الخفية: أن أكون أول شخص ينزل من القطار ، وأن أرتب العطور وكريمات الوجه بحيث تكون لصاقاتها إلى الأمام ، وسعادتي بطعم فطيرة الكرز الحامض على الإفطار. في تلك الشهور القليلة الأولى ، كنت أتكلّم وأتكلّم ، وكان بوريس يستمع.

ومع نهاية الصيف ، صرت أدعوه بوريا ، وصار يدعوني أوليا. وبدأ الناس يتكلّمون عنا -خاصة أمي. قالت لي مرات كثيرة لم أعد أعرف عددها: «هذا غير مقبول. إنه رجل متزوج ، يا أولغا».

لكني كنت أعرف أن أناتولي سرغييفيتش غير مهتمٍ بسماع هذا النوع من الاعترافات. كنت أعرف الاعتراف الذي يريد مني كتابته. تذكّرت كلماته: «سوف يتوقّف مصير باسترناك على مدى صدقك». أمسكت بالقلم وبدأت من جديد.

عزيزي أناتولي سرغييفيتش سميونوف ،

دكتور جيڤاكو رواية عن طبيب.

إنها قصة عن السنين الفاصلة بين الحربين.

إنها عن يوري ولارا.

إنها عن موسكو القديمة.

إنها عن روسيا القديمة.

إنها عن الحب.

إنها عنا.

دكتور جيفاكو ليست رواية ضد الاتحاد السوفييتي.

عاد سميونوف بعد ساعة من ذلك، فناولته الرسالة التي كتبتها. نظر إلى الورقة ثم قلَبها. «يمكنك أن تحاولي مرة أخرى، ليلة غد». كرمش الورقة فصارت كرة صغيرة رماها من يده، ثم أشار إلى الحرّاس لكي يأخذوني.

ليلة بعد ليلة، كان حارس يأتي لأخذي؛ وكانت تجري تلك الأحاديث الصغيرة بيني وبين سميونوف. وليلة بعد ليلة، كان مستجوبي المتواضع يكرّر الأسئلة نفسها: ما موضوع الرواية؟ لماذا يكتبها؟ لماذا تحمينه؟

لم أقل له ما يريد سماعه مني. لم أقل له إن الرواية تنتقد الثورة. لم أقل له إن بوريس قد رفض الواقعية الاشتراكية مفضِّلًا الكتابة عن شخصيات تحيا وتحب بوحيٍ من قلوبها، باستقلال عن نفوذ الدولة.

لم أقل له إن بوريا بدأ كتابة الرواية قبل لقائنا. لم أقل له إن لارا هي التي كانت في ذهنه آنذاك... وإن بطلة الرواية، في الصفحات الأولى، تمثل زوجته زينايدا. ولم أقل له إن لارا صارت آخر الأمر أنا، مع مرور الوقت. أو، لعلّي صرت لارا!

لم أخبره كيف كان بوريا يدعوني «ربة إلهامه»، وكيف كان يقول لي إنه حقّق تقدمًا في الرواية، خلال تلك السنة الأولى من علاقتنا، فاق ما أنجزه خلال ثلاث سنين سبقتها. لم أخبره كيف انجذبت إليه أول الأمر بسبب من اسمه -الاسم الذي يعرفه الجميع- لكني وقعت في حبه على الرغم من ذلك الاسم. لم أقل له كيف كان، بالنسبة إليّ، أكثر من ذلك الشاعر الشهير الواقف على المنصة، وأكثر من صاحب الصور في الصحف، وأكثر من الشخص الذي تنصَبّ عليه الأضواء. لم أخبره كم كانت نواقصه تفرحني. الثغرة بين أسنانه، والمشط الذي يرفض استبداله مع أن عمره تجاوز عشرين عامًا؛ وكيف يحكّ خدّه بالقلم عندما يفكّر فيترك

على وجهه خطوطًا من حبر أسود ؛ لم أقل له كيف يدفع نفسه دفعًا ليحملها على كتابة عمله العظيم مهما تكن التكلفة باهظة.

وقد كان يدفع نفسه دفعًا. كان يكتب بسرعة محمومة في النهار ، ويترك الأوراق الممتلئة تسقط في سلة من عيدان مضفورة تحت طاولة مكتبه. وفي الليل ، كان يقرأ لي ما كتبه.

كان يقرأ أحيانًا أمام مجموعات صغيرة من الناس في شقق في أنحاء موسكو. أصدقاء يجلسون على كراسٍ مصفوفة في نصف دائرة أمام طاولة صغيرة يجلس بوريا من خلفها. كنت أجلس إلى جانبه ، وأشعر -باعتزاز- أنني ألعب دور المضيفة ، المرأة التي إلى جانبه ، زوجته تقريبًا. كان يقرأ بطريقته الحماسية فتتداخل كلماته وتطير عيناه محدّقتين فوق رؤوس الناس الجالسين أمامه. كنت أحضر جلسات القراءة في المدينة ، لكني لا أذهب إلى جلسات القراءة في بيريدلكينو الواقعة على مسافة رحلة قصيرة بالقطار من موسكو. كانت الداتشا(3) في «قرية الكُتّاب» منطقة زوجته. ذلك البيت الخشبي ذو اللون البني المحمرّ والنوافذ الواطئة الكبيرة المتربِّعُ على قمة تلة منحدرة ، ومن خلفه صفوف من أشجار البتولا والتنوب ، وإلى جانبه درب ترابي مؤدٍ إلى حديقة كبيرة. عندما أخذني بوريا إلى ذلك البيت أول مرة ، حدّثني متمهِّلًا عن الخضار التي نجحتْ زراعتها على مر السنين ، وعن النباتات التي فشلت زراعتها ، وعن أسباب ذلك الفشل.

كانت الداتشا أكبر من معظم بيوت المواطنين العادية ؛ وكانت مقدَّمة إليه من الحكومة. والحقيقة أن قرية بيريدلكينو كلّها كانت تقدمة من ستالين نفسه من أجل المساعدة في تطور وازدهار مجموعة مختارة من كتّاب الوطن. لقد قال ستالين: «إن إنتاج الأرواح أكثر أهمية من إنتاج الدبابات».

وكما قال بوريا ، فقد كانت تلك أيضًا طريقة ممتازة لمراقبتهم. كان البيت المجاور لكونستانتين ألكساندروفيتش فيدين. وكان كورني إيفانوفيتش تشوكوفسكي يعيش في بيت قريب يستخدمه من أجل عمله على كتب الأطفال. وأسفل التلة ، كان البيت الذي عاش فيه إسحاق إيمانويلوفيتش بابيل ، واعتُقل فيه ، ثم لم يعد إليه أبدًا.

لم أقل لسميونوف أية كلمة عما اعترف لي بوريا به من أن ما يكتبه يمكن أن يؤدّي إلى موته ؛ وكيف أسرَّ لي بخشيته من أن ينهي ستالين حياته مثلما أنهى حياة كثير من أصدقائه خلال فترة التطهيرات.

لكن الإجابات الغامضة التي قدّمتها لم ترضي مستجوبي أبدًا. كان يعطيني قلمه، وأوراقًا جديدة، ويقول لي إن عليّ أن أحاول من جديد.

جرّب سميونوف كل شيء حتى يستدرجني إلى تقديم اعتراف. كان لطيفًا بعض الأحيان... يجلب لي الشاي، ويسألني عن آرائي في الشعر، ويقول إنه كان دائمًا من المعجبين بأشعار بوريا المبكرة. وقد جعل الطبيب يزورني كل أسبوع. وأمر الحرّاس بإعطائي بطانية صوف إضافية.

وفي مرات أخرى، كان يحاول الإيقاع بي بالقول إن بوريا قد حاول تسليم نفسه مقابل الإفراج عني. وذات يوم، جرَت عربة معدنية صغيرة بالممر فاصطدمت بالجدار مصدرة صوتًا. قال سميونوف مازحًا إن ذلك كان صوت ضربات بوريس على جدران لوبيانكا محاولًا دخولها.

أو كان يقول لي إن بوريس شوهد في مناسبة من المناسبات، وقد بدا في أحسن حال، وكانت زوجته إلى جانبه. كانت الكلمة التي يستخدمها «خليّ البال». وأحيانًا، لم تكن زوجته إلى جانبه، بل شابّة جميلة... «فرنسية، على ما أظنّ». كنت أرغم نفسي على الابتسام والتعبير عن سروري بسماع أنه سعيد وفي صحّة جيدة.

لم يرفع سميونوف يده عليّ أبدًا، بل حتى لم يهدّدني بذلك. لكن العنف كان موجودًا دائمًا، وكانت حركاته اللطيفة محسوبة دائمًا. لقد عرفت رجالًا مثله طيلة حياتي، وكنت أعرف ما هم قادرون على فعله.

في الليل، كانت نزيلات زنزانتي تضعن على أعينهن عصابات من قماش عتيق... محاولة غير مجدية لحجب الأنوار التي لا تنطفئ أبدًا. كان الحراس يأتون ويذهبون، وكان النوم يأتي ويذهب.

وفي الليالي التي يجافيني فيها النوم تمامًا، كنت أحاول التنفّس بانتظام، وأحاول أن أركّز تفكيري زمنًا كافيًا لفتح نافذة على الجنين الذي ينمو في داخلي. أضع يدي على بطني محاولة أن أحسَّ شيئًا. وذات مرة، أحسست شيئًا صغيرًا، صغيرًا كأنه انفجار فقاعة. تشبّثت بذلك الإحساس أطول فترة ممكنة.

ومع تقدّمي في الحبل، سمحوا لي بالبقاء مستلقية ساعة واحدة زيادة على الزمن المسموح لبقية النساء. صاروا يعطونني أيضًا حصة إضافية من الكاشا، وأطباقًا عارضة من الملفوف المطهو على البخار. كانت زميلاتي في الزنزانة يعطينني أيضًا أجزاءً من حصصهنّ.

وأخيرًا ، أعطوني ثوبًا أكبر حجمًا. كانت نزيلات الزنزانة تطلبن مني أن أسمح لهنّ بلمس بطني للإحساس بركلات الجنين. وكانت ركلاته تمنحهنّ إحساسًا كأنه وعد بحياة خارج الزنزانة رقم 7. كن يهدلن قائلات: سجيننا الصغير.

بدأت الليلة مثلما تبدأ كل ليلة أخرى. أيقظتني من نومي وخزة برأس هراوة ، ثم أخذوني إلى غرفة الاستجواب. جلست قبالة سميونوف ، وأُعْطِيت ورقة جديدة.

وعندها ، كان هناك نقر على الباب. دخل الغرفة رجل شعره شديد البياض حتى يكاد يبدو مزرق اللون. قال الرجل لسميونوف إن المقابلة قد جرى ترتيبها. التفت الرجل إليَّ وقال: «لقد طلبتِ مقابلة ؛ وسوف تكون لك الآن مقابلة».

سألته: «حقًا ؟ مع من ؟».

أجابني سميونوف بصوت غدا أكثر ارتفاعًا وخشونة في حضور الرجل الآخر: «مع باسترناك. إنه في انتظارك». لم أصدّق ؛ لكنّي سمحت لنفسي بالتصديق عندما وضعوني في مؤخرة شاحنة مغلقة من غير نوافذ. صدّقتهم... أو ، بالأحرى ، لم أستطع كبت ذلك الأمل الضئيل في رؤيته. كانت فكرة رؤيته ، حتى في ظل هذه الظروف ، أكبر فرحة أحسستها منذ ركلة جنيني الأولى.

وصلنا إلى بناية حكومية أخرى ، فقادوني عبر سلسلة من الممرات وعبر سلالم نازلة عدة طوابق تحت الأرض. وعند وصولنا إلى غرفة مظلمة في القبو ، كنت مرهقة متعرّقة ، ولم أستطع منع نفسي من التفكير في أن بوريا سيراني في هذه الحالة البشعة.

استدرت ناظرة إلى الغرفة العارية. لم يكن فيها كراسٍ ؛ لم تكن فيها طاولة. مصباح كهربائي عار متدلٍ من السقف. والأرض مائلة صوب بالوعة صدئة في وسط الغرفة.

سألت: «أين هو ؟». أدركت على الفور كم كنت غبيّة. بدلًا من الإجابة ، دفعني حارسي فجأة عبر باب معدني أغلق من خلفي. هاجمتني الرائحة. رائحة حلوة لا يخطئها الأنف. تبيّنت عيناي طاولاتٍ عليها أشكال متطاولة تحت قماش متين. انثنت ركبتاي من تحتي فسقطت على الأرض الباردة الرطبة. أيكون بوريس تحت هذا القماش ؟ أهذا هو سبب إحضاري إلى هذا المكان ؟

انفتح الباب من جديد ، انفتح بعد زمن لعله دقائق أو ساعات ؛ رفعتني ذراعان فجعلتاني أقف على قدميّ. جُرِرت في طريق العودة إلى الأعلى عبر السلم ، ثم عبر مزيد من ممرّات بدت

لي من غير نهاية. دخلنا مصعدًا للحمولة في نهاية واحد من الممرات. أغلق الحارس باب المصعد وجذب رافعة. بدأت المحركات عملها واهتز المصعد اهتزازًا عنيفًا من غير أن يتحرّك. جذب الحارس الرافعة مرة أخرى، وفتح الباب. قال مطلقًا ضحكة صغيرة وهو يدفعني خارج المصعد: «إنني أنسى دائمًا. المصعد معطل منذ زمن بعيد».

عاد الحارس إلى الباب الأول، إلى اليسار، وفتحه. كان سميونوف في الداخل. قال: «نحن ننتظرك».

من نحن؟

دق على الجدار مرتين. انفتح الباب من جديد، ودخل الغرفة رجل مسنٌّ. اقتضاني الأمر لحظة حتى أدرك أنه سيرجي نيكولايفيتش نيكيفوروف الذي كان يعلّم إيرا اللغة الإنجليزية... أو، هو ظِلٌّ له. كانت لحية الأستاذ المعتنى بها جيدًا في الأحوال العادية مشعّثة الآن، وكان بنطلونه يكاد يسقط عن جسده النحيل. حذاؤه من غير رباط. فاحت منه رائحة بول.

قلت: «سيرجي». لكنه رفض أن ينظر إليّ.

سأل سميونوف: «هل نبدأ؟»... ثم أضاف من غير أن ينتظر إجابة: «جيد! فلنستعرض هذا من جديد. سيرجي نيكولايفيتش نيكيفوروف، هل تؤكد الآن ما قلته لنا يوم أمس: إنك كنت حاضرًا على حديث معادٍ للاتحاد السوفييتي دار بين باسترناك وإيفينسكايا؟».

صرختُ، لكن صفعة من الحارس الواقف عند الباب أخرستني فورًا. اصطدمت بالجدار الحجري، لكني لم أشعر بشيء.

أجاب نيكيفوروف: «أجل». كان لا يزال مطرقًا برأسه إلى الأرض.

«وهل تؤكّد أن إيفينسكايا أخبرتك عن خطتها للهرب خارج البلاد مع باسترناك؟».

قال نيكيفوروف: «أجل».

صحت: «هذا غير صحيح!». انقضَّ الحارس عليّ.

«وأنك استمعت في بيت إيفينسكايا إلى بث إذاعي ضد الاتحاد السوفييتي؟».

«هذا ليس... في الواقع، لا... أظن أن...».

«إذًا، هذا يعني أنك كنت تكذب علينا!».

«لا». رفع الرجل المسن يديه المرتعشتين فغطى وجهه بهما مطلقًا صوت نحيب غريبًا جدًا. قلت لنفسي إن عليَّ أن أشيح بوجهي، لكني لم أشح بوجهي.

أخذوا نيكيفوروف بعد اعترافه هذا. وأعادوني إلى الزنزانة رقم 7.

لست أدري متى بدأ الألم -بقيت عدة ساعات في حالة خدر- لكن زميلات في الزنزانة نبهوا الحراس ، في لحظة ما ، إلى أن الدم قد أغرق فراشي.

أخذوني إلى مستشفى لوبيانكا. وعندما راح الطبيب يخبرني بما كنت قد أدركته بنفسي ، لم أستطع التفكير إلا في أن رائحة المشرحة صارت فائحة من ملابسي... رائحة الموت.

«ساعدتنا إفادات الشهود في الكشف عن أفعالك: لقد كنت ماضية في تشويه سمعة النظام والاتحاد السوفييتي. أصغيتِ إلى إذاعة صوت أميركا. لقد كنت تذمّين الكتّاب السوفييت أصحاب الآراء الوطنية ، وتمتدحين أعمال باسترناك كثيرًا على الرغم من كونه صاحب آراء ضد النظام».

استمعت إلى قرار القاضي. سمعت الكلمات ، وسمعت الرقم الذي ذكره. لكني لم أستطع الربط بين الكلمات والرقم إلى أن أعادوني إلى زنزانتي. سألتني إحداهن فأجبتها: «خمس سنين». لم أدرك الأمر إلا في تلك اللحظة: خمس سنين في معسكر بوتما ، خمس سنين في مكان بعيد عن موسكو ستمئة كيلومتر. سوف يصير ابني وابنتي مراهقَيْن. وسيكون عمر أمي قد قارب السبعين. هل سأجدها حية ؟ وبوريس... سوف يمضي في حياته... لعله يعثر على ربة إلهام جديدة ، على لارا جديدة. لعله عثر عليها منذ الآن!

في الليلة التي أعقبت صدور الحكم ، أعطوني معطفًا شتويًا أكله العث ، ثم جعلوني أصعد إلى صندوق شاحنة له غطاء من قماش. كانت السيارة ممتلئة نساء. رحنا ننظر إلى موسكو عبر فتحة في آخر تلك الشاحنة.

وفي لحظة من اللحظات ، عبرت من خلف الشاحنة مجموعة من أطفال المدارس. كانوا يسيرون صفًا ، اثنان خلف اثنين. صاحت معلمتهم بهم طالبة منهم أن ينظروا أمامهم من غير التفات ، لكن صبيًا صغيرًا التفت فتلاقت عيوننا. تخيلت لحظة أنه ابني ، أنه ميتيا... أو أنه طفلي الذي لم أعرفه أبدًا.

عندما توقفت الشاحنة ، صاح الحرس بنا أن ننزل ونمضي سريعًا إلى القطار الذي سيأخذنا إلى الغولاغ. تذكّرت الصفحات الأولى من رواية بوريا ، وكيف صعد يوري جيفاكو إلى القطار مع أسرته الصغيرة محاولًا التماس السلامة في جبال الأورال.

أجلسنا الحراس على مقاعد في عربة من غير نوافذ. وعندما بدأ القطار سيره ، أغمضت عينيَّ.

موسكو منتشرة على شكل دوائر ، مثل حصاة ألقيت في ماء راكد. تنتشر المدينة انطلاقًا من مركزها الأحمر ممتدة صوب جاداتها ونصبها التذكارية ثم إلى بناياتها السكنية... بنايات كل واحدة منها أكثر ارتفاعًا وعرضًا من التي تليها. ثم تأتي الأشجار ، ثم الريف ، ثم الثلج ، ثم الثلج.

(2) كاشا: طبق روسي - عصيدة مصنوعة من الحنطة السوداء.
(3) الداتشا: بيت ريفي صغير من أجل الاصطياف.

غرب
خريف 1956

الفصل الثاني
الموظّفة الجديدة

كان يومًا من تلك الأيام الرطبة في واشنطن. الهواء كثيف فوق نهر بوتوماك. حتى في شهر أيلول ، يحسّ المرء كأنه يتنفس عبر خرقة رطبة. ندمت على ارتدائي تنورتي الرمادية فور

خروجي من شقة القبو التي أسكنها مع أمي. فمع كل خطوة، لم أكن قادرة على التفكير في شيء غير الصوف... صوف، صوف. ومع صعودي إلى الباص رقم ثمانية واحتلالي مقعدًا في آخره، بدأت أشعر بالعرق تحت بلوزتي البيضاء. بل أسوأ من هذا... أحسست كأن بقعتين كبيرتين من العرق قد تشكّلتا عند مؤخرتي، بقعة من كل ناحية. كنت في حاجة شديدة إلى هذه الوظيفة لأن صاحب البيت بدأ يهدّدنا برفع الإيجار. لماذا لم أرتد ملابس كتانية؟

بعد رحلتي في الباص، وسَيْري مسافة ثلاث كتل سكنية، وصلت إلى منطقة «فوغي بوتم». سرت في شارع إي، وحاولت خفية أن أنظر إلى بقعتيّ العرق على مؤخرتي في زجاج واجهة صيدلية «بيبولز دراغ». لكني لم أستطع رؤية شيء لشدة وهج الشمس، وكذلك لأنني لم أضع نظارتي.

كنت في العشرين عندما ذهبت أول مرة إلى اختصاصي النظارات. لكني كنت في ذلك الوقت قد اعتدت عدم وضوح الحياة من حولي. وعندما رأيت العالم على حقيقته، صار كل شيء شديد الوضوح إلى حد مزعج. صرت قادرة على رؤية كل ورقة من أوراق الأشجار، وعلى رؤية مسام أنفي كلها. صرت أرى كل شعرة بيضاء من شعر القطط على كل قطعة ملابس... شعر ميسكا، قطة جيراننا في الطابق الذي فوقنا. كان هذا كلّه يثير صداعي. ووجدت نفسي أفضّل رؤية الأشياء كتلة واحدة متداخلة من غير تفصيلها إلى أجزاء واضحة. ولهذا، كنت نادرًا ما أضع نظارتي. أو، لعلي كنت عنيدة فحسب! كانت لديَّ فكرتي عن العالم؛ وكان كل ما يخالفها يثير انزعاجي.

مررت برجل جالس على مقعد في الطريق فأحسست بعينيه تتبعاني. هل كان ينظر إلى كتفيّ المتهدلتين وإلى شدّة تركيز نظري على الأرض في سَيري؟ لقد تمرّنت على تصحيح انتصاب كتفيّ عن طريق السير في غرفتي ساعات طويلة واضعة كتبًا على رأسي؛ لكن ذلك التمرين كله لم يصلح الأمر. كلما أحسست رجلًا ينظر إليَّ، أفترض أنه ينظر إلى وضعية جسمي الغريبة. وأما الاحتمال الآخر، احتمال أنه يجدني جذابة، فلم يكن يخطر لي على بالٍ، أبدًا. كان ما أفكر فيه دائمًا طريقة سَيري، أو ملابسي منزلية الصنع، أو احتمال أن أكون قد أطلت النظر -مصادفة- إلى شخص ما... وهذا ما يحدث لي كثيرًا. لم يكن الأمر أبدًا أنني جميلة المظهر، لا... لم يكن كذلك.

أسرعت في سيري، ودخلت أحد المطاعم، وذهبت مباشرة إلى الحمام. لم أجد بقعتَيْ عرق

على مؤخّرتي... الشكر للرب. لكن كل ما عدا ذلك كان سيئًا: خصلات شعري ملتصقة بجبهتي ؛ والماسكارا التي قالت أمي إنها تجعلني أبدو مثل عروس قد سالت على وجهي ؛ والبودرة التي وضعت قليلًا منها على ما دعته البائعة في متجر وولوورث «مواضع العيوب» كانت كثيفة كأنها طحين. غسلت وجهي بالماء ، وكنت موشكة على تجفيفه بمنديل عندما سمعت نقرًا على الباب.

«لحظة واحدة».

تواصل النقر على الباب.

«مشغول».

بدأ الشخص الواقف خلف الباب يحاول إدارة مقبضه لفتحه.

شققت الباب قليلًا ، ودسست وجهي المبلل في الفتحة. قلت للرجل الذي كان حاملًا صحيفة دسّها تحت إبطه: «سأخرج حالًا» ، ثم أغلقت الباب. رفعت تنورتي ، ووضعت منديلًا ورقيًا مطويًا بين سروالي الداخلي وحزامي ، ثم نظرت إلى ساعتي: بقيت خمسٌ وعشرون دقيقة حتى موعد مقابلتي.

كان سيدني ، صديقي السابق (إن كان ممكنًا إطلاق هذه الصفة عليه) أول من أخبرني عن وجود فرصة عمل عندما كنا نتناول البيتزا والبيرة في إحدى الليالي في مطعم بايو. كان سيدني واحدًا من أولئك الشباب في واشنطن الذين يفخرون بأنهم مطّلعون على كل شيء. وكان يعرف أنني أحاول العثور على وظيفة حكومية منذ تخرّجي قبل سنتين. لكن الوظائف متدنّية السوية صارت نادرة ؛ وعادة ما يكون ضروريًا أن تعرف شخصًا يعرف شخصًا هناك حتى تتمكّن من الفوز بوظيفة حكومية. كان سيدني واسطتي. كانت لديه وظيفة في وزارة الخارجية ؛ وقد سمع من واحد من معارف أحد أصدقائه أنهم يريدون ضاربات آلة كاتبة. كنت أعرف أن فرصتي قليلة لأن مهاراتي في الطباعة والاختزال كانت من سوية مقبولة فحسب ، ولم تكن لديَّ خبرات عمل أخرى تتجاوز الرد على الاتصالات الهاتفية في مكتب محامٍ شبه متقاعدٍ يرتدي ملابس ليست على مقاسه. لكن سيدني قال إن لي حظًا طيبًا لأنه «وضع كلمة عند شخص يعرفه في «الوكالة». كان لديَّ شكٌّ في أنه يعرف حقًا شخصًا ما في «الوكالة» يمكن أن يوصيه بي ؛ لكنني شكرته على أية حال. وبعد ذلك ، عندما مال سيدني صوبي لكي يقبّلني ، مددت يدي فصافحته وشكرته من جديد.

خرجت من الحمام فارتحت عندما رأيت أن الرجل صاحب الصحيفة قد ذهب. طلبت كأسًا كبيرة من الكوكا كولا فقدّمها اليوناني القصير الواقف خلف طاولة البيع وغمز لي بعينه. سألني: «أهي بداية صعبة؟» أومأت برأسي وأخذت رشفة من الكأس وقلت: «شكرًا لك». وضعت قطعة نقود على سطح الطاولة ودفعتها باتجاهه. دفعها بإصبعه معيدًا إياها. قال: «على حسابي». وغمز لي بعينه من جديد.

وصلت مبكرة خمس عشرة دقيقة إلى البوابة المعدنية السوداء المفضية إلى المجمع ذي البنايات الكبيرة الحمراء على نيفي هيل. التبكير خمس دقائق أمر معقول؛ لكن خمس عشرة دقيقة مدة كافية لأن أسير من حول كتلة المباني ثلاث مرات قبل دخولي. لم تنقضِ تلك المدة إلا وقد غمرني العرق من جديد. دفعت الباب الثقيل متوقعة أن تستقبلني نفحة لذيذة من هواء التكييف البارد، لكني لم أظفر إلا بموجة جديدة من هواء حار.

بعد انتظار طويل في صف التفتيش، جاء دوري في إبراز بطاقتي الشخصية لكي يتحقّقوا من وجود اسمي في قائمة مَنْ جرتِ الموافقة مسبقًا على دخولهم. وعندما توجّهت لاستلام بطاقتي الشخصية، دفعني رجل أبيض الشعر يضع نظارة ذات إطار سلكي واصطدم بي أثناء مروره فسقطت حقيبتي من يدي. طارت من يدي سيرتي الذاتية الهزيلة المؤلّفة من صفحة واحدة واستقرت على الأرض. استدار الرجل الذي مر متجاوزًا الإجراءات الأمنية وعاد في اتجاهي. التقط الورقة عن الأرض وأعطاني إياها... ورقتي التي صارت مجعّدة متّسخة لكنها بقيت مثلما كانت، قائمة هزيلة فيها إنجازاتي ومؤهّلاتي كلّها. قال لي الرجل: «تفضّلي، يا آنسة». ثم ذهب قبل أن أفلح في قول أي شيء.

في المصعد، بللت رأس إصبعي بلساني وحاولت إزالة البقعة عن الورقة، لكن الوضع صار أسوأ من ذي قبل، فلعنت نفسي لأنني لم أجلب معي نسخة إضافية. لقد كتبتها مستعينة بكتاب وجدته في المكتبة العامة، وكان عنوانه «كيف تضمن حصولك على الوظيفة». رتّبت سيرتي الذاتية بحسب التعليمات الواردة في ذلك الكتاب، ودفعت ثمنًا أعلى من المعتاد لشراء رزمة من الورق الثقيل ذي اللون الأبيض الكامد. صارت سيرتي الذاتية المتّسخة أشبه بما يمكن أن يدعوه ذلك الكتاب «عمل شخص مبتدئ».

وحتى يزداد الأمر سوءًا، كان المنديل الورقي الذي وضعته في الحمام قد انزاح إلى أعلى عندما انحنيت لالتقاط الورقة. أحسسته الآن ضاغطًا على أسفل ظهري. قلت لنفسي إن عليَّ

ألّا أفكّر فيه ؛ لكن هذا جعلني أفكّر فيه أكثر.

سألتني المرأة الواقفة في المصعد إلى جانبي: «إلى أي طابق ؟». كانت أصابعها على لوحة المفاتيح.

قلت: «أوه ، الثالث. لا ، الرابع».

«مقابلة ؟».

أشرت إلى سيرتي الذاتية.

«ضاربة آلة كاتبة ؟».

«كيف عرفت ؟».

«إنني ماهرة في التخمين السريع». مدّت لي المرأة يدها. كانت لها عينان متباعدتان قليلًا وفم ممتلئ عليه أحمر شفاه شمعي جعل شفتيها أشبه بسمكتين سويديتين(4). قالت: «اسمي لوني رينولدز. أعمل في الوكالة من قبل أن يصير اسمها الوكالة». بدا عليها الاعتزاز والتعب معًا إزاء تلك الحقيقة. عندما صافحتني ، لاحظت شريطًا أبيض على جلد إصبعها مكان الخاتم. انتبهتْ لوني إلى أنني لاحظت عدم وجود خاتم وإلى أنني حدقت في إصبعها لحظة أطول مما ينبغي. توقف المصعد عند الطابق الثالث.

سألتها وهي تخرج من المصعد: «ألديك نصيحة لي ؟».

«اطبعي بسرعة. لا تطرحي أسئلة. لا تهتمي بشيء». ومع دخول رجلين إلى المصعد ، سمعتها تصيح من خلفهما ، «بالمناسبة ، دولز هو من اصطدم بك».

أُغلق باب المصعد قبل أن أتمكّن من سؤالها عن دولز.

في الطابق الرابع ، رحبت بي موظفة الاستقبال بأن أشارت لي إلى صفٍ من مقاعد بلاستيكية مصفوفة عند الجدار حيث رأيت امرأتين جالستين هناك قبلي. جلست على واحد من تلك الكراسي وأحسست بالمنديل الورقي يرتفع قليلًا.

لعنت نفسي لأنني لم أدخل في وقت أبكر عندما كانت الفرصة متاحة لذلك.

كانت جالسة إلى يميني امرأة وضعت على كتفيها وشاحًا أخضر ثقيلًا يبدو عمره نحو عشرين عامًا. كانت ترتدي تنورة طويلة بنية اللون. ملابس أشبه بملابس مدرِّسة منها بما قد ترتديه ضاربة آلة كاتبة ، أو بما كنت أتخيّل شكل ملابس ضاربة الآلة الكاتبة. وبّخت نفسي على ميلي إلى إصدار الأحكام على الناس. كانت تمسك بسيرتها الذاتية في حضنها ، بين سبابتها

وإبهامها. هل كانت متوتّرة مثلما كنت ؟ وهل هي عائدة إلى العمل بعد أن كبر أطفالها وطاروا من العش ؟ هل بدأت مهنة جديدة ، فتلقّت دروسًا مسائية في «سكرتاريا الأعمال» لأنها أرادت أن تبدأ شيئًا جديدًا في حياتها ؟ نظرت إليِّ وهمست: «حظًا طيبًا». ابتسمتُ وقلت في نفسي إن عليَّ أن أكف عن هذا التفكير.

اتخذت النظر إلى الساعة الجدارية ذريعة لاستراق نظرة إلى السمراء القصيرة الجالسة إلى يساري. بدت كأنها آتية من مدرسة السكرتاريا... لعلها في العشرين ، لكن مظهرها كان يوحي بأنها لا تزال في السادسة عشرة. إنها أجمل مني ؛ وقد طلت أظافرها بلون وردي لامع يشبه لون أحذية راقصات الباليه. كان شعرها مصففًا بطريقة يبدو معها أن إنجاز تلك التسريحة قد استهلك زمنًا طويلًا وكمية كبيرة من دبابيس الشعر. بدا لي فستانها جديدًا: فستان طويل الكمين له ياقة بيضاء ومعه حذاء عليه خطوط متكسرة سوداء وبيضاء. كان فستانها من النوع الذي يمكن أن أراه في واجهة أحد المتاجر فأتمنى أن أستطيع شراءه بدلًا من أن أعود إلى البيت وأرسمه على قطعة من الورق حتى تخيط لي أمي مثله. كانت تنورتي الصوفية الملعونة نسخة عن تنورة رمادية جميلة رأيتها على مانيكان في واجهة متجر دارفينكل في السنة الماضية.

كنت أتذمّر كثيرًا من أن ملابسي لم تكن مشتراة من المتاجر ، بل حتى لم تكن مسايرة للموضة ؛ لكن المحامي الذي كنت أعمل عنده تقاعد تقاعدًا كاملًا وتخلّى عني ، وصار عمل أمي في الخياطة مصدر الدخل الوحيد من أجل دفع إيجار شقتنا التي في القبو. كانت تعمل في غرفة الطعام على طاولة بينغ بونغ قديمة وجدناها متروكة على الرصيف. وضعت أمي عليها آلة الخياطة التي كانت محل اعتزازها وفخرها... آلة خياطة من نوع فيستا تعمل بدواسة ؛ وقد كانت هدية من أبي. هذه الآلة هي الشيء الوحيد الذي حملته معها في رحلتها من موسكو. كانت أمي تعمل في مصنع بولشيفيتشكا في موسكو ؛ لكنها كانت تعمل دائمًا عملًا جانبيًا (في السوق السوداء) فتخيط فساتين رسمية وفساتين زفاف. كانت امرأة شديدة التصميم... من حيث مظهرها ومن حيث طبعها. لقد أتت إلى أميركا في آخر الموجة الثانية من المهاجرين الروس التي غادرت الوطن. كانت الحدود موشكة على الإغلاق ؛ ولو انتظر أبي وأمي بضعة شهور أخرى ، لترعرعت خلف الستار الحديدي بدلًا من عيشي في «أرض الأحرار». كانت ماما حاملًا بي ، في شهرها الثالث ، عندما حزم أبي وأمي المتاع الذي كان في غرفتهما

الصغيرة في شقة مشتركة مع أربع أسر أخرى. وكانت ترجو أن تبلغ الشواطئ الأميركية قبل ولادتي. الحقيقة أن حمل أمي كان الحافز الذي دفع أبي وأمي إلى الرحيل. ومع تزايد حجم بطنها ، أمّن أبي الوثائق الضرورية ومكانًا مؤقتًا حتى يعيشا فيه عند وصولهما (مع اثنين من أبناء العمومة غير المباشرين كانا يعيشان ويعملان في مكان اسمه بيكسفيل ، في ماريلاند).

آنذاك ، بدا اسم ذلك المكان لماما شديد الغرابة ، فكانت تهمس به لنفسها كأنه صلاة ، «ماريلاند ، ماريلاند».

في تلك الأيام ، كان أبي يعمل في مصنع للأسلحة ؛ كان في الأصل منتسبًا إلى «معهد المدرسين الحمر» حيث درس الفلسفة. لكنهم طردوه خلال السنة الثالثة في المعهد جراء تعبيره عن «أفكار تعتبر خارج المنهاج المقرر». وكانت خطة أبي أن يبحث عن عمل في واحدة من الجامعات الكثيرة في بلتيمور أو واشنطن ، وأن يدّخر المال خلال عيشه مع أبناء عمومته فترة تستمر سنة أو سنتين ، يشتري بعدها بيتًا وسيارة وينجب طفلًا آخر... كل شيء.

كان أبي وأمي يحلمان بالطفل الذي سينجباه. وكانا يتخيلان حياته كلها: ولادة في مستشفى أميركي نظيف ، وتعلّم الكلمات الأولى بالروسية والإنكليزية ، والذهاب إلى أفضل المدارس ، وتعلم قيادة سيارة أميركية كبيرة في طريق أميركي كبير سريع ، وربما أيضًا ممارسة لعبة البيسبول. وفي أحلامهما ، كانا يريان نفسيهما جالسين في المدرّجات يأكلان الفستق ويهتفان له. في بيتهما المستقبلي ، ستكون لماما غرفة خاصة لخياطة الفساتين ؛ بل ربما تنشئ شركتها الخاصة بها.

ودَّعا أهلهما وأقاربهما... كل من عرفاه وكل ما عرفاه. كانا مدركين أن رحيلهما يعني أنهما لن يستطيعا العودة أبدًا لأن الجنسية ستسقط عنهما تلقائيًا نتيجة سيرهما خلف الحلم الأميركي.

ولدت في مستشفى جون هوبكنز. وكانت الكلمة الأولى التي أنطقها روسية ، «دا» ، ثم تلتها كلمتي الإنكليزية الأولى ، «نو». ذهبت إلى مدرسة عامة ممتازة ، بل لعبت أيضًا «الكرة اللينة» (سوفتبول) ، وتعلمت القيادة على سيارة كروزلي كانت لابن عمي. لكن أبي لم ير شيئًا من هذا كله. مرت سنين كثيرة قبل أن تخبرني أمي عن سبب عدم رؤيتي له أبدًا ؛ وعندما أخبرتني ، تدفق الكلام من فمها سريعًا كأن لديها شيئًا تريد الاعتراف به. قالت لي إنهما كانا واقفين في الصف من أجل الصعود إلى السفينة التي ستجتاز بهما المحيط الأطلسي ، عندما أتى رجلان في ملابس رسمية وطلبا من أبي أن يريهما أوراقه. كان أبي وأمي قد اجتازا عملية

تدقيق الأوراق التي قام بها رجال آخرون في ملابس رسمية ، وهذا ما جعل أمي غير مدركة الخطر الذي كان فيه أبي عندما أخرج الأوراق من جيب سترته. لكن الرجلين لم ينظرا إلى وثائق السفر ، بل أمسكا بذراعي أبي قائلين إن رئيسهما يجب أن يلقي نظرة على الأوراق... على انفراد. أمسكت ماما بأبي ، لكن الرجلين جذباه وسارا به. صرخت ماما ، فقال لها أبي بصوت هادئ أن تصعد إلى السفينة. قال لها إنه سيلحق بها بعد قليل. وعندما اعترضتْ على ذلك ، قال لها من جديد ، «اصعدي إلى السفينة».

انطلقت صافرة السفينة. إذ كانت على أهبة بدء الحركة. فلم تندفع أمي إلى حافتها لترى إن كان أبي يجري صاعدًا السلالم في اللحظة الأخيرة. عرفت أنها لن ترى زوجها بعد ذلك. سقطت على السرير المحجوز لها في قمرة من قمرات الدرجة الثالثة. سوف يظلّ السرير المجاور فارغًا طيلة الرحلة. لم يعد لها من رفيق في دربها غير رفساتي المستمرّة داخل بطنها.

بعد سنين من ذلك ، تلقينا برقية من أخت أمي في موسكو تقول إن أبي قد مات في الغولاغ. عندها ، لزمت ماما السرير أسبوعًا كاملًا. في ذلك الوقت ، كنت في الثامنة فحسب ؛ لكني ظللت أقوم بتنظيف البيت والطهو والذهاب إلى المدرسة والعودة منها ، والمساعدة في إنجاز أعمال الخياطة التي كانت لدى أمي... إصلاح أكمام ممزّقة وتقصير بنطلونات ، ثم تسليم الأعمال المنجزة. كانت وظيفتها الأولى في أميركا في مؤسسة «لوز كلينرز آند آلتيريشنز» حيث كانت تكوي قمصانًا رجالية طيلة النهار ، ثم تعود إلى البيت كل مساء بيدين عليهما بقع وجروح ناتجة عن المواد الكيميائية القاسية. لم تكن تسنح لها غير فرص قليلة للإمساك بإبرتها وتقصير بنطلون أو إصلاح أزرار سترة. لكنها نهضت من فراشها بعد أسبوع من تلقيها نبأ موت أبي ، فزينت وجهها ، وتركت وظيفتها في تلك المؤسسة ، واندفعت إلى العمل. غرزة بعد غرزة ، وخرزة بعد خرزة ، وريشة بعد ريشة ، راحت تطبّق كل ما لديها من مواهب في صنع الفساتين. لم تكد تغادر البيت طيلة شهرين كاملين. ومع نهاية الشهرين ، كانت قد ملأت صندوقين بفساتين أجمل من أية فساتين صنعتْها قبل ذلك. تمكّنت من إقناع القس في كنيسة الصليب الأقدس الأرثوذكسية الروسية بأن يسمح لها بوضع طاولة صغيرة في مهرجان الخريف السنوي الذي تقيمه الكنيسة. باعت فساتينها كلّها خلال ساعات ، بل باعت أيضًا القطعة التي كانت مخصصة للعرض: فستان عروس اشترته امرأة من أجل ابنتها البالغة أحد عشر عامًا حتى ترتديه في وقت ما في المستقبل. وعندما انتهى بيع الفساتين صار لدينا

مال كافٍ للانتقال من بيت أبناء العم المزدحم في ماريلاند، ولدفع إيجار شقة في واشنطن، وكذلك لجعل عمل ماما في خياطة الفساتين ينطلق إلى الأمام. صار لديها الآن حلمها الأميركي، حتى إن كان عليها أن تحققه وحدها.

أقامت أمي متجرها -«فساتين يو إس إيه، والمزيد من أجلكم»- في شقتنا في القبو، ثم سرت بين الناس أنباء عن مواهبها. صار الأميركيون الروس من الجيل الأول والثاني يقصدونها من أجل العمل الدقيق الذي تستطيع القيام به من أجل حفلات الزفاف أو الجنازات أو أية مناسبات أخرى. كانت تباهي بقدرتها على تزيين أي صدار بكمية من الخرز والحلي اللامعة بمهارة لا يستطيع مجاراتها أحد في القارة كلّها. وخلال مدة قصيرة صارت معروفة بأنها ثاني أفضل خياطة روسية في واشنطن. كانت الخياطة الأولى امرأة اسمها بيانكا. نشأ بينها وبين ماما نوع من المنافسة. كانت ماما تقول لكل من يحب الإصغاء إليها: «إنها تلحق بالقماش جروحًا. خياطتها غير محكمة. والحواشي التي تخيطها تنفتح عندما تهب الريح. إنها مقيمة في أميركا منذ مدة طويلة أكثر مما ينبغي».

تمكّنت أمي من إعالتنا عن طريق هذا العمل، بل حتى من إكمال أقساط تعليمي الجامعي بعد نيلي منحة جزئية للدراسة في «ترينتي». لكن مالك الشقة هدّدنا بزيادة الأجرة، فصار حصولي على الوظيفة أمرًا ضروريًا. كنت جالسة في بهو الاستقبال أنظر إلى منافساتي عندما أطبقت تلك الفكرة على صدري فضغطت بيدي عليها حتى أكبتها.

دخل رجل لحظةَ هممت بسؤال موظفة الاستقبال عن حمّام السيدات (حتى أعيد تثبيت المنديل الورقي الذي صار الآن عند منتصف ظهري). أطبق الرجل كفيه كأنه يقتل ذبابة. وعندها عرفته: إنه الرجل نفسه الذي كان منتظرًا عند باب الحمام في المطعم حاملًا جريدة عند إبطه. كانت مفاجأة شديدة جدًا. سأل الرجل: «أهذا ما لدينا». نظرت كل منا إلى الأخرى. لم نعرف من منا كان سؤاله موجهًا إليها.

رفعت موظفة الاستقبال رأسها: «أجل».

أحسست برغبة في الاختفاء خلف مشجب المعاطف.

سرنا خلف الرجل عبر الممر حتى بلغنا غرفة فيها صفوف من الطاولات. آلة كاتبة ورزمة أوراق على كل طاولة. جلست في الصف الثاني لأنني لم أرد أن أبدو شديدة اللهفة على نيل الوظيفة. لكن الظاهر أن أيًا منا لم تكن لديها رغبة شديدة في نيل الوظيفة. مما جعل الصف

الثاني صفًا أول في نهاية الأمر.

كان لوجه الرجل... حسنًا ، لأنفه على أية حال... مظهر من كان يمارس رياضة الهوكي أو الملاكمة. نظر إليَّ مليًّا عندما جلست خلف طاولتي ؛ لكن ، الشكر لله ، لم يبد عليه أنه تذكّر وجهي من المطعم. خلع سترته وطوى أكمام قميصه ذي اللون الأزرق الفاتح.

بدأ الرجل يقول: «أنا وولتر أندرسون» ، ثم كرر... «أندرسون». توقّعت أن يستدير ويكتب على اللوح اسمه بحروف كبيرة. لكنه فتح حقيبته وأخرج منها ساعة توقيت. «إذا استطعتن إنجاز هذا الاختبار الأول ، فسوف أسأل عن أسمائكن. وإذا كنتن غير قادرات على الطباعة السريعة ، فنصيحتي أن تذهبن الآن». نظر في عينيّ كل واحدة منا ، فاستجبت بالنظر في عينيه مباشرة مثلما كانت أمي تعلّمني دائمًا. كانت تقول لي: «لن يحترموك ، يا إيرينا ، إذا لم تنظري مباشرة في أعينهم... الرجال خاصّة».

تململت بعض النساء في مقاعدهنّ ، لكن أيًا منهنّ لم تنهض.

قال أندرسون: «جيد ، فلنبدأ».

قالت المرأة الأكبر سنًا ، صاحبة الوشاح الثقيل: «عفوًا...». لقد رفعت يدها عندما تكلّمت ، فأحسستُ حرجًا شديدًا من أجلها.

قال أندرسون: «أنا لست معلمك».

أنزلت المرأة يدها: «صحيح».

نظر أندرسون إلى السقف ، ثم أطلق زفرة: «هل كان لديك سؤال ؟».

«ماذا سنطبع ؟».

جلس خلف طاولة مكتب كبيرة في صدر الغرفة ، وأخرج من حقيبته كتابًا أصفر اللون. إنه رواية: «جسور توكو ري». «هل لدينا هنا من تحب الأدب ؟».

رفعنا أيدينا جميعًا.

قال: «جيد. وهل بينكنّ من تحب أعمال جيمس ميتشنر ؟».

أسرعت وقلت: «لقد رأيت الفيلم. كانت غريس كيلي رائعة».

قال أندرسون: «هذا جيد». فتح الكتاب على الصفحة الأولى.

«هل نبدأ ؟». مد يده إلى ساعة التوقيت.

في ما بعد ، عندما كنت واقفة في المصعد المزدحم ، مددت يدي خفية فأبعدت بلوزتي عن

ظهري المتعرّق. أدخلت يدي تحت البلوزة وبحثت عن المنديل الورقي. لا شيء. لقد اختفى. هل سقط المنديل في المصعد؟ أو لعله، لا سمح الله، سقط مني عندما نهضت واقفة بعد انتهاء الاختبار؟ هل ينظر وولتر أندرسون إلى ذلك الشيء المقزِّز في هذه اللحظة. فكّرت في العودة مقتفية خطواتي لأرى إن كنت أستطيع العثور عليه، لكني قرّرت أن هذا أمر لا أهمية له. لن أحصل على الوظيفة، على أية حال.

لقد كنت ثاني أبطأ ضاربة آلة كاتبة في المجموعة. أعرف هذا لأن وولتر أندرسون سجل نتائجنا كلّها، ثم قرأها علينا.

بينما كان المصعد نازلًا بنا، قالت الشابة الجميلة ذات الشعر الأسود التي اسمها بيكي: «حسنًا، هكذا هو الأمر على ما أظن». لقد كانت أكثرنا بطئًا.

قالت المرأة ذات الوشاح، أكبرنا سنًا: «ستكون هناك فرص أخرى». كانت تحاول كتم ذلك، لكني سمعت في صوتها شيئًا من البهجة... لقد تفوقتْ علينا؛ تفوقت علينا بفارق كبير.

واصلت بيكي كلامها: «ذلك الرجل... لقد بدا تافهًا تمامًا، على أية حال. هل رأيتما كيف كان ينظر إلينا؟... كأننا شرائح لحم من أجل العشاء...». نظرت إليّ... «هكذا كان ينظر إليك أنت خاصّة».

أجبتها: «نعم، هذا صحيح». لقد لاحظت نظرات أندرسون إليّ، لكني ظننته ينظر مثلما يفعل من يجري مقابلة مع فتاة متقدّمة من أجل وظيفة. لكن الأمر بيني وبين الرجال كان دائمًا هكذا. إذا وجدني رجل جذّابة، فأنا آخر من يعرف ذلك. على الرجل أن يخبرني مباشرة حتى أصدق الأمر... وحتى في تلك الحالة، فأنا لا أصدّق إلا نصف تصديق. كنت أرى نفسي عادية المظهر؛ امرأة قد يمرّ بها المرء في الشارع، أو يجلس إلى جانبها في الباص، من غير أن يكرّر النظر إليها مرتين. وكانت أمي تقول لي دائمًا إنني من ذلك النوع من النساء اللواتي ينبغي النظر إليهن مليًّا لتقديرهنّ حق قدرهنّ. والحقيقة أنني كنت أفضّل التلاشي والاختفاء في خلفية الصورة. تصير الحياة أكثر سهولة عندما يكون الإنسان غير ملحوظ... من غير تلك الصَّفرات التي تلاحق النساء، ومن غير التعليقات التي تجعلهنّ يحجبن أثداءهنّ بحقائبهنّ... النساء اللواتي تلاحقهنّ العيون في كل مكان.

لكني عرفت قدرًا طفيفًا من الخيبة عندما أدركت، في السادسة عشرة، أنني لن أصير امرأة

جميلة مثلما كانت أمي في صباها. ففي حين كانت تدويرات جسد ماما كلّها جميلة، كنت كلّي زوايا. عندما كنت صغيرة، كانت ماما ترتدي، طيلة النهار، فساتين بيتية لا شكل لها... عندما تعمل. لكنها كانت تبدّل تلك الفساتين أحيانًا، في الليل، فترتدي فساتين خاطتها بنفسها وتستعرض ما أنجزته من أجل نساء ثريات. كانت تدور على نفسها وتجعل التنورات الطويلة تطير في المطبخ فأقول لها إن تلك الملابس لن تبدو جميلة هذا الجمال كله على أية امرأة غيرها.

رأيت صورة لها عندما كانت في سني. كانت في ملابس المصنع... بدلة خضراء زيتونية، وقبعة من لونها. لا يمكن أن نبدو أكثر بعدًا عن التشابه. لقد كان شكلي أقرب كثيرًا إلى شكل أبي. فبعد موته، وضعت أمي في الدرج الأسفل في طاولة الزينة صورة له مرتديًا بدلته العسكرية. وأحيانًا، عندما تكون خارج البيت، كنت أُخرج تلك الصورة من الدرج وأنظر إليها وأقول لنفسي إنني إذا نسيت شكله في يوم من الأيام، فسوف تظلّ في داخلي فجوة فارغة لا يمكن أن تُغلق من جديد.

افترقت المتقدّمات إلى الوظيفة عند بوابة الوكالة مع تلويحة وداع. قالت المرأة الأكبر سنًا التي تفوّقت علينا كلنا: «حظًا طيبًا!».

قالت المرأة التي كانت جالسة إلى جانبي أثناء الاختبار وهي تشعل سيجارة: «سأكون في حاجة إلى حظٍّ طيّبٍ».

أنا أيضًا كنت في حاجة إلى الحظِّ الطيّبِ؛ لكني لم أكن مؤمنة بالحظ.

انقضى أسبوعان. وجدت نفسي أعود إلى جلستي عند طاولة المطبخ أشرب الشاي وأبحث عن إعلانات تطلب موظفين. كانت ماما عند طاولة البينغ بونغ تعمل على فستان من أجل كوينسينيرا، ابنة صاحب الشقة، أملًا منها في استرضائه حتى لا يرفع الإيجار. كانت تحكي لي للمرة الثانية في ذلك اليوم قصة قرأتها في صحيفة «بوست» عن امرأة وضعت مولودتها على «جسر كي». صاحت من الغرفة الأخرى: «لم يستطيعوا الوصول إلى المستشفى في الوقت المناسب، فأوقفوا السيارة وولّدوا المرأة هناك. هل تستطيعين تصديق هذا؟». وعندما لم أجبها كرّرت القصة من جديد، لكن بصوت أكثر ارتفاعًا.

«سمعتك من المرة الأولى».

«هل تستطيعين تصديق هذا؟».

«لا أستطيع».

«ماذا؟».

«قلت لك إنني لا أستطيع تصديقه».

كنت في حاجة إلى الخروج من البيت... إلى الذهاب في نزهة، الذهاب إلى أي مكان. كانت ماما ترسلني لأداء بعض المهمات؛ وأما ما عدا ذلك، فما من أشياء كثيرة أفعلها. اتصلت مع أصحاب أكثر من عشرة إعلانات، لكني لم أحصل إلا على مقابلة واحدة موعدها في الأسبوع التالي. رُن الهاتف عندما كنت أرتدي معطفي. جريت إلى غرفة المعيشة، لكن ماما سبقتني ورفعت السماعة. قالت بذلك الصوت شديد الارتفاع الذي تدّخره من أجل المكالمات الهاتفية: «ماذا تقولين؟».

سألتها: «من هذا؟».

«إيريني؟ ليست لدينا إيريني هنا. لماذا تتّصلون بهذا الرقم؟».

أمسكت بالهاتف. «ألو!»... رفعت ماما كتفيها وعادت إلى طاولة البينغ بونغ. سألني صوت نسائي: «هل أنت الآنسة إيرينا دروزدوفا؟».

«أجل، أنا هي. آسفة لما حدث. أمي لم تكن...».

«من فضلك، انتظري يريد ولتر أندرسون أن يكلمكِ».

«ماذا؟».

موسيقى كلاسيكية. تقلّصت عضلات معدتي. توقّفت الموسيقى بعد لحظة. قطعها صوت السيد أندرسون: «نريد منك أن تأتي مرة ثانية».

«ظننت أنني احتللت المرتبة قبل الأخيرة!». قلت هذا ثم شددت على أسناني. لماذا أذكّره بسوء أدائي؟

«هذا صحيح».

«وكنت أعرف أن هناك وظيفة واحدة شاغرة فقط». هل كنت أحاول الإضرار بنفسي؟

«لقد أعجبَنا ما رأيناه».

«هل حصلت على الوظيفة؟».

قال: «ليس بعد، يا متسرّعة... أم أن علي أن أخترع لك اسمًا آخر يكون ملائمًا لمستوى مهارتك في الطباعة؟ هل أنت قادرة على المجيء في الساعة الثانية؟».

«اليوم؟...». كانت أمي تريد مني الذهاب إلى متجر للأقمشة في فريندشيب هايتس حتى أجلب لها بعض الزينات الفضية من أجل فستان كوينسينيرا. لم تكن ماما تحبّ الذهاب إلى ذلك المتجر وحدها لاعتقادها أن صاحبته متحاملة على الروس. قالت لي بعد آخر مرة ذهبتْ فيها وحدها إلى ذلك المتجر: «إنها تأخذ مني ثمنًا مضاعفًا... لا، بل ثلاثة أضعاف! تنظر إلي كأنني موشكة على رمي قنبلة في متجرها... في كل مرة!».

أجابني: «أجل. تعالي اليوم».

«عند الساعة الثانية؟».

«عند الساعة الثانية».

اقتربتْ ماما من باب الغرفة: «الساعة الثانية؟ علينا أن نذهب إلى المتجر في فريندشيب هايتس في الساعة الثانية».

أشرت لها أن تبتعد، ثم أكملت: «سأكون هناك»؛ لكن الهاتف صمت. لقد أغلق أندرسون الخط. لدي ساعة واحدة لكي أرتدي ملابسي وأذهب إلى وسط المدينة.

سألتني ماما: «إذًا؟».

«لدي مقابلة أخرى. اليوم».

«لقد أجريتِ اختبار الطباعة. ما الذي يريدون منك فعله أيضًا؟ هل يريدون منك تأدية تمرينات في الجمباز؟ أم إعداد الكيك؟ ما الذي يريدون معرفته أكثر من ذلك؟».

«لست أدري».

نظرتْ إليَّ من رأسي إلى قدميّ. نظرتْ إلى فستاني البيتي ذي الأزهار: «مهما يكن الأمر، لا يمكنك الذهاب بهذا المظهر».

في هذه المرة، ارتديت ملابس من الكتان.

ومن جديد، وصلت في وقت مبكر، لكنهم أدخلوني إلى مكتب وولتر أندرسون فور وصولي. لم يكن أول سؤال يطرحه علي شيئًا مما توقّعته. لم يسألني أين أرى نفسي بعد خمس سنين من الآن؛ ولم يسألني عما أظنه أهم نقاط ضعفي؛ ولا عن السبب الذي يجعلني راغبة في هذه الوظيفة. لم يسألني أيضًا إن كنت شيوعية، أو إن كان لدي أيّ ولاء لمكان ولادتي. بدأ حديثه فور جلوسي: «أخبريني عن والدك».

فتح مصنفًا ثخينًا رأيت اسمي مكتوبًا عليه... «ميخائيل أبراموفيتش دروزدوف». انقبض

صدري. لم أسمع اسم أبي منذ سنين. على الرغم من ارتدائي الكتان هذه المرّة، أحسست بقطرات العرق تتجمّع أسفل رقبتي.

«لم أعرف أبي أبدًا».

قال لي: «لحظة واحدة...»، ثم أرجع كرسيه إلى الخلف قليلًا. أخرج آلة تسجيل من الدرج السفلي... «أنسى دائمًا تشغيل آلة التسجيل. هل لديك مانع؟». ضغط زر التسجيل من غير أن ينتظر إجابتي... «مكتوب هنا أنهم حكموا عليه بالأشغال الشاقة لأنه حصل على وثائق سفر بطريقة غير قانونية».

هذا هو الأمر إذًا: هذا هو السبب الذي جعلهم يأخذونه من رصيف الميناء. لكن، لماذا سمحوا لأمي بالذهاب؟ طرحت هذا السؤال على أندرسون لحظة وروده إلى ذهني. أجابني: «عقوبة».

حدّقت في بقع القهوة على طاولة مكتبه؛ بقع متداخلة مثل حلقات الألعاب الأولمبية. سرَت في ذراعيَّ وساقيَّ موجة خاطفة من الحرارة، وأحسست بشيء من الدوار. أفلحت في القول: «كنت في الثامنة عندما علمت بالأمر». لم نعرف شيئًا طيلة ثماني سنين. كنت طفلة، وكنت أتخيل لحظة لقائنا، أنا وأبي... كيف سيكون شكله، وكيف سيحملني بين ذراعيه... هل ستكون له رائحة مميزة، رائحة تبغ أو رائحة كولونيا الحلاقة... هذا ما كنت أتخيله.

نظرت في وجه أندرسون باحثة فيه عن تعاطف معي، لكني لم أر غير أثر انزعاج طفيفٍ... كأنه كان عليّ أن أعرف ما كان «الوحش الأحمر الكبير» قادرًا على فعله... «إنني آسفة! ما علاقة هذا بوظيفة ضاربة الآلة الكاتبة؟».

«إن له كل العلاقة بعملك هنا. إذا أحببت التوقّف الآن، وإذا كنت تجدين الأمر غير مريح، فلا مشكلة عندي».

«لا، إنني...». أردت أن أصرخ قائلة إن الغلطة غلطتي، وإنني كنت السبب في موته، فلو لم تحمل أمي بي، لما غامر والدي هذه المغامرة كلّها. لكني تمالكت نفسي ولم أقل شيئًا.

سألني أندرسون: «هل تعرفين كيف مات؟».

«قيل لنا إن نوبة قلبية أصابته خلال عمله في مناجم القصدير في بيرلاغ».

«وهل تصدّقين هذا؟».

«لا، لا أصدّقه». كنت أحسّ دائمًا بأن الإجابة مدفونة في مكان عميق، لكني لم أعبّر عن

هذا صراحة... ولا حتى أمام ماما.

«لم يصل أبدًا إلى المعسكر. لقد مات في موسكو...». توقّف لحظة... «مات أثناء الاستجواب».

تساءلت في سرّي عما كانت ماما تعرفه ، وعما لم تكن تعرفه. هل صدّقتْ ما جاء في البرقية التي أرسلتْها أختها لكي تخبرنا بموت أبي ؟ أم إنها تعرف أكثر من ذلك ؟ هل كانت تخفي معرفتها تلك السنين كلّها... من أجلي ؟

سألني أندرسون: «ما شعورك تجاه هذا الأمر ؟».

لم أكن مستعدة لهذا السؤال. تعلقت عيناي بالحلقات التي تركتها آثار القهوة على طاولته: «أشعر بالحيرة».

«وغير ذلك ؟».

«أشعر بالغضب».

«الغضب ؟».

«أجل».

أغلق الملف الذي عليه اسمي: «انظري... نحن نرى فيك شيئًا».

«ما معنى هذا ؟».

«نحن ماهرون في رصد المواهب الخفية».

(4) السمكة السويدية: نوع من السكاكر الطرية المصنوعة على شكل أسماك. تدعى سويدية لأن شركة سويدية كانت أول من أنتجها.

الفصل الثالث
ضاربات الآلة الكاتبة

حلَّ الخريف على واشنطن. نستيقظ في الظلمة، ونغادر المكتب في الظلمة. انخفضت الحرارة عشرين درجة. وفي طريق ذهابنا إلى العمل والعودة منه، كنا نخفض رؤوسنا اتقاء الريح المنقضّة علينا كالسياط عبر الفراغات بين البنايات. نسير بخطوات محترسة كي لا ننزلق على أوراق الأشجار الرطبة، وكي لا نتعثّر على الأرصفة الزلقة. في تلك الصباحات، عندما تكاد تجعلُنا نتّصل بالمكتب مدَّعياتٍ المرض فكرةُ الخروج من الفراش الدافئ والوقوف في عربة ترام مزدحمة تحت إبط رجل ما، وقضاء اليوم كله في مكتب تتسرّب إليه الريح تحت مصابيح النيون الفضّة. كنا نلتقي في مقهى رالف لشرب القهوة وتناول دونَتس قبل العمل. كنا في حاجة إلى هذه الدقائق العشرين، وإلى تلك الجرعة من السُّكّر، فضلًا عن فنجان القهوة اللذيذ. صحيح أن في الوكالة قهوة حارة بنية اللون، لكن طعمها كان مثل طعم كؤوس الستيروفوم الصغيرة التي نشربها منها.

كان رالف، في الواقع، كهلًا يونانيًا قصيرًا اسمه الحقيقي ماركوس. أخبرنا أنه جاء إلى الولايات المتحدة من أجل فرصة «تسمين» الفتيات الأميركيات الجميلات من أمثالنا بالمعجنات التي ينهض في الرابعة من صباح كل يوم حتى يصنعها. كان يخاطبنا بألقاب من قبيل «الجميلة» و«الرائعة» على الرغم من أن عينيه الحسيرتين كانتا شبه عاجزتين عن رؤيتنا. كان ماركوس يتغزّل بالفتيات من غير خجل، على الرغم من وجود زوجته هناك، خلف طاولة البيع (امرأة بيضاء الشعر اسمها أثينا لها صدر ضخم يضطرها إلى التراجع إلى الخلف خطوة عندما تريد فتح درج النقود). لكنها لم تكن تبدي أي انزعاج من غزله هذا. كانت تفتح عينيها على اتساعهما وتضحك من زوجها الكهل. وكنا نضحك أيضًا، ونمسّ ذراعه آملاتٍ أن يضع في الكيس قطعة دونَتس إضافية مغلّفة بالسكر المطحون، ثم يناولنا الكيس مع غمزة من عينه التي لا ترانا جيدًا.

يكون على من تصل إلى مقهى رالف قبل الأخريات أن تحجز لنا مقصورة في القسم الداخلي

من المقهى. كان أمرًا مهمًّا أن نحصل على مقصورة في القسم الداخلي حتى نتمكّن من مراقبة الباب لرؤية الداخلين. لم يكن مقهى رالف أقرب مقهى إلى مقر القيادة ؛ لكن من المحتمل أن يدخل المكان ، من وقت لآخر ، واحد من الموظفين. كان أكثر ما نقوله خلال لقاءاتنا الصباحية مما لا نحب أن يسترق السمع إليه أحد.

عادة ما كانت غيل كارتر تصل أولًا لأنها تسير مسافة ثلاث كتل سكنية فقط قادمة من شقتها الصغيرة الكائنة فوق متجر القبعات في شارع إتش. كانت تسكن معها في تلك الشقة امرأة في السنة الثالثة في كلية «هيل» يملك والدها مصنعًا للنسيج في نيو هامبشاير ويدفع نفقات معيشتها كلها.

بدأ صباح يوم الاثنين من شهر تشرين الأول بالحوار المعتاد نفسه. قالت نورما كيلي: «جحيم خالص! لقد كان الأسبوع الماضي جحيمًا خالصًا». لقد انتقلت نورما إلى نيويورك عندما كان سنها ثماني عشرة سنة ؛ أتت حاملة أحلامًا بأن تصير شاعرة. أميركية هولندية يبرهن شعرها الأحمر بلون الفراولة على أصلها. نزلت في محطة ديكسي للباصات في الشارع الثاني والأربعين غرب ، حاملة حقيبتها ، واتجهت إلى مقهى كوستيلو حتى يصير لها احتكاك برجال الإعلان في جادة ماديسون وبكتاب صحيفة ذا نيويوركر. لكنها تبيّنت آخر الأمر أن اهتمام هؤلاء وأولئك بما هو في سروالها الداخلي كان أكبر من اهتمامهم بالكلمات التي تودّ صوغها على الورق. لكنها التقت في كوستيلو أيضًا عددًا من رجال الوكالة. لقد شجعوها على التقدم إلى هذه الوظيفة (كان ذلك أسلوبًا للتودد إليها ، لا أكثر) ، لكنها اهتمّت بالأمر لأنها كانت في حاجة إلى دخل. أزاحت نورما عن وجهها خصلة شعر فوضعتها خلف أذنها ، ثم حلّت قهوتها بثلاث قطع سكر. «لا ، لقد كان هذا الأسبوع أسوأ من الجحيم».

قطعت جودي هندركس الدونَتس التي كانت عارية في طبقها من غير أية إضافات ، إلى أربعة أجزاء متساوية مستخدمة سكين الزبدة. كانت جودي تتبع دائمًا نوعًا من أنواع الحميات الدارجة التي تقرأ عنها في «وومانز داي» أو «رِد بوك». قالت جودي: «ماذا يكون أسوأ من الجحيم ؟».

أجابتها نورما: «هذا الأسبوع... كان أسوأ من الجحيم». ثم تناولت رشفة من قهوتها.

قالت جودي: «لست أدري. كان الأسبوع الماضي سيّئًا حقًّا. أعني ذلك الاجتماع من أجل آلات التسجيل «موهاوت نودجتيبس»! أظننا قادرات على فهم كيفية الضغط على مفتاح

التسجيل من غير محاضرة توجيهية تستمر ساعتين. لو أن ذلك الرجل أشار إلى مخطط التشغيل مرة أخرى، لخرجت عيناي من محجرَيهما». مسحت شفتها لتزيل عنها فتاتًا غير مرئي على الرغم من أنها لم تتناول بعد شيئًا من الدونتس.

وضعت نورما منديل الطعام على صدرها. سألت بصوت حاولت أن يكون شبيهًا بصوت سكارلت أوهارا: «لكن، كيف يمكن أن نفهم إذا لم يشرح لنا رجلُ الأمرَ من أوله إلى آخره؟».

قالت ليندا: «من الممكن دائمًا أن تسوء الأمور أكثر من ذلك. لا يجوز أن تتركوا تلك الأمور الصغيرة تحبطكنّ. عليكنّ توفير صداعكنّ من أجل أشياء أهم... أشياء من قبيل أنهم لم يعيدوا ملء آلة الكوتكس منذ أيام الرئيس ترومان».

كانت ليندا في الثالثة والعشرين فحسب لكنها، بعد أن تزوجت، صارت تتحدث إلينا كأنها حازت حكمة الدنيا كلها بطريقة لا يمكن لنا، نحن الفتيات العازبات، سبر غورها... كأننا لا نزال عذراوات، أو شيئًا من هذا القبيل! كان أسلوبها يثير أعصابنا؛ لكننا ظللنا نعتبرها شخصية أمومية: كانت أول من يهدّئ من روعنا عندما نريد أن نصرف عنا رجلًا من الرجال، وأول من تلفت نظرنا إلى تشعّث شعرنا. وهي التي تخبرنا بالوقت المناسب لجعل رجل يعرف أنه يمكن أن يحقّق شيئًا معنا، وتقول لنا ما نفعله إذا لم يتصل بنا في الليلة التالية.

قالت غيل: «إذا كان عليَّ أن أصغي مرة أخرى إلى أندرسون وهو يقول لي إن صوتي يبدو جادًا زيادة عن اللزوم عندما أجيب على الهاتف، فأقسم بالرب...». كان وولتر أندرسون رجلًا أشبه بجرو دب. سالفان غير متساويي الطول، دائمًا... رجل يبدو كأنه كان يلعب كرة القدم في المدرسة، لكنه صار يعتبر سيره من موقف الباص إلى المكتب تمرينًا رياضيًا كافيًا. وكان مشرفًا على «مجموعة الطباعة» وعلى أمور إدارية أخرى في «قسم روسيا السوفييتية». إنه يعمل في هذا المجال منذ أيام «مكتب الخدمات الاستراتيجية»؛ وقد وضعوه في عمل مكتبي بعد فترة قصيرة من تشكيل الوكالة في سنة 1947. لكن الجلوس خلف طاولة المكتب لم يكن من طبيعته أبدًا، فكان يسير في ذلك الطابق باحثًا عن شيء، أو شخص، يفرغ عليه انزعاجه كلّه. لكنه كثيرًا ما كان يأسف بعد أن يفعل ذلك بواحد من العاملين، فيبالغ في التعويض عن فعلته فيأتي إلى غرفة الاستراحة بعلب الدونَتس وبأزهار نضرة. كان يفضل أن ندعوه باسمه الأول، وولتر؛ وهذا ما كان يجعلنا نناديه أندرسون!

غمست غيل طرف منديل ورقي في كأس الماء ومسحت به نقطة جيلي وردية سقطت على

كم قميصها. «يظلّ عمل موظفات الحكومة الأميركية مقتصرًا على الآلة الكاتبة، في حين يأتي أطفال كبار مثل أندرسون ليقولوا لنا ما يتعيّن علينا فعله». لم يكن أثر هذا على غيل بسيطًا، بل أشبه بكتلة إسمنت تحملها على قلبها. تقدمتْ إلى المؤسسة الوطنية للعلوم، وإلى وزارة الدفاع، بعد حصولها على شهادة الهندسة من جامعة بيركلي؛ لكنهم لم يقبلوها لأنها «لا تحمل شهادة متقدّمة»... عبارة رمزية تشير إلى أنها امرأة سوداء. كانت غيل واثقة من أن عددًا من زملائها البيض السابقين الذين حصلوا على شهادات مثل شهادتها قد جرى بالفعل تعيينهم هناك، بل صاروا يتلقّون الترقيات أيضًا. ونظرًا لقلة مدّخراتها، تقدّمت إلى وظيفة ضاربة آلة كاتبة، ثم راحت تقفز من وظيفة حكومية إلى وظيفة حكومية أخرى. ومع وصولها إلى «الوكالة»، كانت قد ضاقت ذرعًا لأن أحدًا لم يُلق بالًا إلى مهاراتها الحقيقية. واصلت غيل كلامها: «هل تعرفن ما قاله لي في ذلك اليوم؟ قال إنه، وزوجته، يحبّان برنامج نات كينغ كوله(5)، وإن عليَّ أن أكون فخورة جدًا لظهوره على التلفزيون. سألته عما يجب أن أكون فخورة به، تحديدًا، فغمغم بشيء ما وانصرف». أخذت رشفة من فنجانها... «أنا فخورة حقًا، لكني لم أكن لأقول له ذلك أبدًا».

أدلت كاثي بوتر بدلوها: «على الأقلّ، ساعات دوامنا جيدة...». كاثي المتفائلة الأبدية صاحبة تسريحة الشعر المنفوشة. لقد أتت إلى «الوكالة» مع سارة، شقيقتها الكبرى، التي تزوجت ضابطًا بعد ثلاثة أشهر من عملها، ثم انتقلت معه إلى مركز للوكالة خارج البلاد. صارت كاثي شديدة الهدوء بعد رحيل سارة؛ لكنها تحرص دائمًا، عندما تتكلّم، على أن تقول لنا شيئًا يذكّرنا بنصف الكأس الملآن.

قالت نورما وهي ترفع فنجانها: «حسنًا، سأشرب نخب ساعات العمل من التاسعة إلى الخامسة». لم يحذُ حذوها أحد، فأعادت فنجانها.

أضافت ليندا: «ثم لدينا أيضًا مزايا إضافية! عندما كنت أعمل في عيادة طبيب أسنان، بعد الجامعة، لم يكن لديَّ تأمين صحي للأسنان. هل تستطعن تصديق هذا؟ لقد وضع لي الطبيب حشوة جديدة بدلًا من الحشوة التالفة، لكنه قام بذلك «تحت الطاولة»، بعد أوقات العمل الرسمية. ولم يفعل هذا إلا لأنه أراد -كما عبر عن الأمر- أن يعرفني معرفة أفضل! كان يظن أن الغاز الضاحك(6) سيكون عاملًا مساعدًا في ذلك».

سألتها كاثي: «وهل حقق الغاز الضاحك ما كان مرجوًا منه؟».

«حسنًا...». قضمتْ لقمة من الدونتس.

استحثتها نورما: «حسنًا ، ماذا ؟».

ابتلعت ليندا لقمتها: «إن تلك المادة تجعلك في مزاج حسن حقًا!».

سرنا متمهِّلات في اتجاه عملنا بعد خروجنا من مقهى رالف. كانت هناك مسافة تفصل بين الشارع ومقر قيادة الوكالة... مجمّع كان مقرًا لمكتب الخدمات الاستراتيجية في فترة الحرب. اجتزنا البوابة الحديدية السوداء ، ومضينا في الممر الذي خلفها. ستمر سنتان قبل انتقال الوكالة إلى لانغلي. وأما في ذلك الوقت ، فقد كان مقر القيادة منتشرًا في بضع بنايات عديمة الشكل مطلّة على منتزه «ناشيونال هول». كنا نسمّيها البنايات «المؤقتة» لأنهم ظلوا يقولون لنا ، منذ أن بدأنا العمل هنا ، إننا سننتقل قريبًا. كانت تدفئة تلك البنايات ذات السقوف القصديرية في الشتاء أمرًا صعبًا ؛ وكانت جودة نظام تكييف الهواء تعادل جودة عمل أي شيء آخر في واشنطن.

كانت نورما تكرّر المزحة نفسها ، فتقف متردّدة قبل عبور الباب الخشبي الثقيل المفضي إلى الردهة. في ذلك الاثنين تشبّثت بشجرة كرز عارية قرب الباب وقالت: «لن أدخل». شددناها فأدخلناها معنا ووقفنا جميعًا في صف التفتيش حاملات بطاقات تعريفنا المغلّفة بنايلون قاس ؛ وكانت حقائب يدنا مفتوحة ، جاهزة للتفيش.

عرفنا اسمها قبل وصولها. لقد قالته لنا لوني رينولدز من دائرة شؤون العاملين منذ يوم الجمعة الذي كان قبل مجيئها. إيرينا دروزدوفا. «سوف يأتي أندرسون معها صباح يوم الاثنين لكي يعرّفها عليكنّ».

قالت نورما: «روسية أخرى!...». لقد عبَّرت عما كنا نفكّر به جميعًا. لم يكن مجيء الروس للعمل معنا أمرًا غير معتاد - والواقع أن قسم روسيا السوفييتية كان يضم كثيرًا من الروس المنشقّين. وكنا نقول مازحات إن مبرّد الماء مليء بالفودكا. لكن دولز لم يكن يحب استخدام كلمة «منشقّين» بل يفضل عليها كلمة «متطوّعين». بصرف النظر عن هذا ، اعتدنا أن يكون الروس الذين معنا رجالًا ، لا ضاربات آلة كاتبة.

قالت لوني: «كنّ لطيفات معها. تبدو فتاة طيبة».

«نحن لطيفات دائمًا».

قالت لوني: «كما تردن» ، ثم خرجت من الصالة.

لم تكن لوني تعجبنا أبدًا.

عندما دخلنا الصالة في ذلك الاثنين ، كانت إيرينا جالسة إلى طاولة مكتبها. رشيقة كشجرة بتولا ، متوسطة الطول ، شقراء الشعر ، جالسة منتصبة الظهر مثلما تجلس المبتدئات دائمًا. تجاهلناها ساعة كاملة ، ومضينا في عملنا اليومي كالمعتاد في حين كانت تُجري تعديلات بسيطة على كرسيّها وآلتها الكاتبة وتعبث بأزرار سترتها البنية وتنقل مشابك الورق من درج إلى آخر.

لم نكن نريد أن نكون غير مهذّبات معها ؛ لكن هذه الفتاة الجديدة حلّت محل تابيثا جينكيز التي كانت واحدة من أقدم الموظفات في «مجموعة الآلة الكاتبة». كان زوج تابيثا قد تقاعد من شركة لوكهيد ، ثم رحلا سريعًا إلى بيت صغير في فورت لودرديل المشمسة. والآن ، صارت هذه الروسية جالسة مكانها.

أجّلنا المجاملات المعتادة زمنًا أطول قليلًا مما هو معتاد. لكن الجو صار غير مريح مع تجاوز الساعة العاشرة. كان على إحدانا أن تقول شيئًا ؛ لكن ما حدث هو أن إيرينا هي التي بادرت إلى كسر الجليد. نهضت واقفة فاتجهت إليها الأعين كلّها ، إلى قوامها الرشيق.

قالت كأنها توجّه كلامها إلى الأرض ، لا إلى شخص محدّد: «عذرًا... أين هو حمام السيدات ؟». التقطتْ خيطًا صغيرًا كان على سترتها ، وأضافت... «إنه يومي الأول هنا». احمرَّ وجهها لأن الجميع يعرف هذا. كانت لها طريقتها الخاصة في الكلام: ليست لكنة أجنبية أبدًا ، بل شيء غير مألوف ، قليلًا ، كأنها تفكّر في كل كلمة قبل أن تقولها.

قالت نورما ، بدلًا من إرشادها إلى الحمام: «لا يبدو من كلامك أنك روسية».

«لست روسية. حسنًا ، ليس تمامًا. لقد ولدت هنا ؛ لكن أبي وأمي من هناك».

«هذا ما يقوله كل روسي يعمل هنا». قالت نورما هذا ، فضحكنا جميعًا. مدت يدها لكي تصافحها: «اسمي نورما. وأنا مولودة هنا أيضًا».

صافحتها إيرينا. أحسسنا بأن التوتر قد زال. قالت لنا: «مسرورة بلقائكنّ جميعًا». تجوّلت عيناها في الصالة فصافحتا عينَيّ كل واحدة منا.

قالت ليندا: «إنه في الممر ، انعطفي يمينًا ، ثم يمينًا مرة أخرى».

سألتها إيرينا: «ماذا ؟».

«حمام الفتيات الصغيرات!».

قالت: «أوه ، نعم. شكرًا».

نظرنا إليها وهي ذاهبة في الممر إلى أن اختفت ، ثم بدأنا نتحدث عنها: روسيَّتها (أو قلة روسيتها) ، ولون شعرها (ليس مصبوغًا) ، وطريقتها الغريبة في الكلام (كأنها نسخة اقتصادية من كاثرين هيبورن) ، وملابسها ذات الطراز القديم بعض الشيء (تصفيات المتاجر ، أم مصنوعة في البيت ؟).

خلصت جودي إلى نتيجة: «تبدو فتاة لطيفة».

قالت ليندا: «لطيفة إلى حدٍّ معقول».

«أين وجدوها ؟».

«هل أتوا بها من الغولاغ ؟».

قالت غيل: «أرى أنها جميلة».

كان علينا أن نقرّ بهذا. لم تكن إيرينا فتاة ممن يفزن في مسابقات الجمال ، لكنها جميلة... ذلك النوع من الجمال الذي يكاد يكون خفيًا.

عادت إيرينا إلى الصالة ، وإلى جانبها سارت لوني. قالت لها لوني: «أنا واثقة من أن الفتيات قد جعلنك تشعرين بأنك مرحّب بك هنا!».

أجابت إيرينا من غير أي أثر من التهكم في إجابتها: «أوه ، نعم».

«جيّد. أحيانًا ، تصير الفتيات هنا مجموعة يصعب فهمها».

قالت نورما: «سمعت أنهم يضعون من يحسنون الفهم في قسم شؤون العاملين».

فتحت لوني عينيها على اتساعهما ، ثم قالت: «على أية حال ، بما أن السيد أندرسون لم يشرّفنا بحضوره هذا الصباح...».

قاطعتها ليندا: «هل هو مريض ؟». عادة ما نتأخر في استراحة الغداء عندما لا يكون أندرسون موجودًا.

«هو ليس هنا ، هذا كل ما أعرفه. إن كان قد فقد الوعي على مقعد في المنتزه ، أو ذهب لإجراء عملية استئصال اللوزتين ، فإن هذا ليس من شأني». وقفت لوني في مواجهة إيرينا ، وظهرها إلينا... «على أية حال ، علي أن أتأكّد من أن لديك كل ما يلزمك. وبعد ذلك ، سوف...». رفعت أصابعها في الهواء كأنها تقتبس عبارة ليست لها... «سآخذك إلى اجتماع في المبنى الجنوبي».

قالت إيرينا للوني إن لديها كل ما يلزمها، ثم سارت خلفها إلى الخارج. وفور انصرافهما، ذهبنا إلى الحمام من أجل مزيد من تداول التخمينات المتعمّقة... سألت ليندا: «اجتماع؟ منذ الآن!».

قالت كاثي: «أظنّه اجتماعًا مع ج. م.». كانت تعني جين موري، رئيس قسم روسيا السوفييتية.

قالت غيل: «لقد قالت لها إنها ستأخذها إلى المبنى الجنوبي».

كان هذا التعبير مستخدمًا للإشارة إلى البناء الخشبي عتيق الطراز بالقرب من نصب لنكولن التذكاري.

«إن فرانك هناك».

أشعلت نورما سيجارة: «أهذا سر من أسرار موسكو؟...». سحبت نفَسًا من سيجارتها... «بالطبع، اجتماع مع فرانك».

كان فرانك ويزنر المدير الذي يلي المدير الكبير؛ وكان أبا العمليات السرية في الوكالة. عضو مؤسس في «مجموعة جورج تاون» واسعة النفوذ المؤلفة من سياسيين وصحافيين موظفين كبار في الوكالة... ويزنر، صاحب اللكنة والسحر الجنوبيين، كان معروفًا عنه أنه ينجز القسم الأكبر من أعماله خلال لقاءات العشاء المبكر الشهيرة التي يقيمها كل يوم أحد. في تلك اللقاءات، بعد تقديم اللحوم المطهوة في الفرن وفطيرة التفاح، وبعد أن يسرف الحاضرون جميعًا في تدخين السيجار وشرب ويسكي بوربون، يبدأ تشكّل رؤيتهم للعالم الجديد.

لماذا تذهب إيرينا إلى اجتماع مع فرانك؟... في أول يوم لها! ليس الأمر في حاجة إلى شخص عبقري حتى يفهمه. لم يعينوا إيرينا هنا نتيجة سرعتها في الطباعة على الآلة الكاتبة.

كان من عادة مجموعة الآلة الكاتبة أن تدعو كل موظّفة إلى تناول طعام الغداء في مقهى رالف... لإشاعة الدفء في نفسها، ولمعرفة معلومات عنها: في أي حي تعيش؟ خريجة جامعة، أم مدرسة السكرتاريا؟ عازبة أم مرتبطة؟ جدية أم مرحة؟ ثم نسألها أين تصفّف شعرها، وكيف تحب قضاء عطلة نهاية الأسبوع، ولماذا أتت إلى الوكالة، وما رأيها في التعليمات الجديدة القاضية بمنعنا من استخدام أحذية مسطحة وارتداء فساتين من غير أكمام. لكن ساعة الغداء أتت، ثم انتهت، ولم تعد إيرينا. فكان علينا أن نقنع بتناول طعامنا سريعًا في الكافيتريا من غير أن ننتظرها.

عادت إيرينا بعد ظهر ذلك اليوم حاملة رزمة من تقارير ميدانية مكتوبة بخط اليد، حتى تطبعها. لم يتغير شيء في مظهرها. ألسنا كلنا محترفات؟ لذا، لم نسألها عن اجتماعها، ولا عن المهارات الخاصّة التي من المؤكد أنها تمتلكها؛ ولم نسألها عن المهمات الأخرى التي لعلّهم عهدوا بها إليها.

بلغت الساعة الرابعة والنصف... إنه الوقت الذي يبدأ فيه تباطؤ طباعتنا ونركز فيه على إنهاء ما بين أيدينا، ونبدأ النظر إلى الساعة كل ثلاث دقائق. لكن إيرينا واصلت الطباعة من غير إبطاء. سرّتنا رؤية أن لدى هذه الفتاة الجديدة أخلاقيات عمل صلبة، فضلًا عما قد يكون لديها من مواهب أخرى خبيئة. ليس من شأن «حلقة ضعيفة»، في مجموعة الآلة الكاتبة إلا أن تسبّب مزيدًا من ضغط العمل على بقيتنا. ظللنا واقفات لحظة بلوغ الساعة الخامسة، وطلبنا من إيرينا أن تنضمّ إلينا في الذهاب إلى مقهى مارتين.

سألتها دودي: «مارتيني؟ توم كولينز؟ سينغابور سلينغ؟... ما نوع السُّم المفضل إليك؟».

قالت إيرينا مشيرة إلى رزمة الأوراق التي أمامها: «لا أستطيع، عليَّ أن أنجز ما لديَّ».

قالت ليندا بعد خروجنا: «تنجز ما عليها من عمل؟... في يومها الأول؟».

قالت غيل: «هل اجتمعتِ مع فرانك في يومك الأول هنا؟».

قالت نورما: «أنا لم أر فرانك حتى الآن!».

دبّت الغيرة فينا جميعًا، وأردنا أن نعرف المزيد. أردنا أن نعرف كل شيء عن هذه الفتاة الروسية الجديدة.

اندمجت إيرينا سريعًا في العمل. مضت أسابيع ولم تطلب أية مساعدة. الشّكر للرب... لأنه لم يكن لدينا وقت أبدًا. ازداد التوتر في قسم روسيا السوفييتية ثلاث مرات خلال تشرين الثاني بعد أنباء الانتفاضة الفاشلة ضد الاتحاد السوفييتي في هنغاريا - وبعد أنباء عن دورنا فيها. أدت الحملات الدعائية التي قامت بها الوكالة إلى تشجيع المحتجّين الهنغاريين، فنزلوا إلى شوارع بودابست معبّرين عن معارضتهم الاحتلال السوفييتي. كان لديهم انطباع بأن تعزيزات ستأتيهم من الحلفاء الغربيين. لم تأتِ التعزيزات! ولم تستمر الثورة أكثر من اثني عشر يومًا قبل أن يضع السوفييت نهاية عنيفة لها. كان عدد الهنغاريين التي قالت صحيفة تايمز أنهم قتلوا عددًا مفزعًا حقًا؛ لكن العدد الذي ورد في التقارير التي طبعناها كان أكثر هولًا. لقد ظنوا أنهم يفعلون الشيء الصحيح، وأن خططهم التي وضعوها بعناية ستكون

ناجحة. لقد عمل أفضل رجالنا على تلك الخطط ؛ فكيف تفشل ؟ لكن هنغاريا صارت خرابًا. لقد فشلت الوكالة. طلب آلن دولز إجابات (كان هو كبير المسؤولين عن الجواسيس ؛ كان الشخص الذي لم تره أية واحدة منا إلا عندما طلبوا من أكثرنا تمتّعًا بالثقة تسجيل الملاحظات في اجتماع مهم) ، لكن الرجال المجتمعين وجدوا صعوبة في تقديم تلك الإجابات.

كانوا يطلبون منا أن نعمل ساعات إضافية حتى وقت متأخر ، وأن نبقى من أجل اجتماعات تعقد بعد انتهاء ساعات العمل. وكانوا يدفعون لنا من أجل العودة إلى بيوتنا بسيارات تاكسي عندما نتأخّر إلى ما بعد توقّف عمل خطوط الباصات والترام. اقترب عيد الشكر ، وخشينا أن يلغوا عطلتنا. لكنهم لم يلغوها.

اعتادت من تقيمُ عائلاتهن في أماكن بعيدة تقتضي سفرًا بالطائرة أن تمضين تلك العطلة في واشنطن من أجل توفير المال للسفر في عطلة عيد الميلاد. كنا نحتفل بعيد الشكر عند صاحبة أكبر شقة بيننا ، أو عند من تكون زميلتها في السكن مسافرة. كنا نجلب كرسيًا ، وطبقًا مغطى ؛ بل كنا نحاول أيضًا التخطيط لكي تجلب كل منا جزءًا مما يلزم للاحتفال... لكن الأمر ينتهي بنا دائمًا إلى بقاء أربع من فطائر حلوى اليقطين الفائضة عن الحاجة ، مع كمية من الديك الرومي تكفينا أسبوعًا.

وأما من كانت عائلتها مقيمة في مكان لا يتطلّب أكثر من سفر بالباص أو القطار ، فكانت تذهب إليها. وكانت عائلاتنا ترحّب بنا دائمًا كما لو أننا بناتها المُبذّرات. ففي نظرهم ، كانت واشنطن أكثر من عالم بعيد... إنه المكان الذي تُصنع فيه الأخبار التي يستمعون إليها في الليل. وكنا نتعمّد الغموض عندما نتحدث عن عملنا فتظنّ عائلاتنا أن في حياتنا من الإثارة ما يتجاوز الحقيقة كثيرًا. كنا نتعمّد أن نلقي على مسامعهم أسماء من قبيل نلسون روكفلر ، وأدلي ستيفنسون ، وعضو مجلس الشيوخ الوسيم عن ماساشوستس ، جون كندي. ونقول إننا نلتقي أولئك الأشخاص المهمّين في مناسبات وحفلات كثيرة... على الرغم من أننا كنا نعتبر أنفسنا محظوظات إن عرفنا شخصًا يعرف شخصًا يعرفهم.

بالنسبة إلى الفتيات اللواتي يعدن إلى بلداتهنّ ، فقد كانت الليلة التي تسبق عيد الشكر تعني دائمًا لقاءً كبيرًا في البار المحلّي في البلدة. يجتمع من كانوا معًا في المدرسة الثانوية للاحتفال وتناول الشراب. كنا ننتعل أفضل ما لدينا من أحذية ، ونرتدي أنعم ما لدينا من

كنزات صوفية ، ونحرص على تصفيف شعرنا ، ونتأكّد من عدم وجود أية بقعة من أحمر الشفاه على أسناننا. يأتي الفتيان ذوو الشعبية ، بعد أن يتناسوا خواتم الزواج في البيت ، أولئك الذين كانوا يتجاهلوننا في المدرسة الثانوية ، فيقولون لنا إنهم سعداء جدًا لرؤيتنا ، وإن علينا أن نزور البلدة كثيرًا. كنا جزءًا من جمهور موظفي الحكومة في واشنطن ؛ وأما في بلداتنا ، فنحن من أحرزن النجاح.

كنا نودّع زملاء المدرسة قائلين: «نراكم السنة القادمة» ، ثم نعود إلى البيت ثملات بعض الشيء ، أو على الأقل نعود إلى أحد أبوينا فنجده نائمًا على الأريكة بعد أن حاول البقاء ساهرًا في انتظارنا.

وفي اليوم التالي ، نطهو الديك الرومي ، ثم نأكل الديك الرومي ، ومن بعد ذلك قيلولة ، ثم المزيد من الديك الرومي ، ثم ننام من جديد. نقول لخالاتنا وعماتنا وأعمامنا ، وأبنائهنّ وبناتهنّ: ما ألطف أن يكون المرء في موطنه! لكننا ، بعد يوم أو اثنين ، نكون عائدات إلى واشنطن ، بالباص أو بالقطار ، وفي حقيبة اليد سندويتش من بقية ذلك الديك الرومي.

كنا قد نسينا أمر إيرينا عندما عدنا يوم الاثنين الذي أعقب عيد الشكر هذه السنة. فوجئنا برؤيتها جالسة خلف الطاولة التي كانت لتابيثا. كنّا مهذّبات ، فسألناها عما فعلته في العطلة.

قالت لنا إنها وأمها ، في حقيقة الأمر ، لم تحتفلا بعيد الشكر ؛ لكنها اشترت وجبتي ديك رومي من سوانسون فكانتا لذيذتين إلى حد مفاجئ. قالت لنا: «أكلت أمي نصف حصتي من البازلاء والبطاطس المهروسة عندما نهضت لأسكب لنفسي كأسًا آخر من النبيذ». لم نكن نعرف أن إيرينا تعيش مع أمها. وقبل أن نفلح في طرح مزيد من الأسئلة عليها ، جاء أندرسون حاملًا مزيدًا من الأوراق لكي نعمل عليها.

قال لنا: «جاء عيد الميلاد مبكرًا ، يا بنات».

ما أسوأ حظنا! كنا نحسد زميلاتنا في كابيتول هيل لأنهن يتمتّعن باستراحات طويلة عندما لا يكون الكونغرس منعقدًا. لم يكن لدينا حظّهنّ: وكالتنا لا تنام أبدًا.

«لديكنّ عمل كثير لإنجازه ، يا فتيات. فلنأمل في أن تتمكنَّ من ذلك!».

«لقد حشوتَ بطنك كثيرًا في الأسبوع الماضي ، أليس كذلك؟». قالت غيل هذا بعد أن سار أندرسون مبتعدًا.

عدنا إلى العمل آخر الأمر ، ومرّت ساعات الصباح بطيئة. وعندما بلغت الساعة الحادية

عشرة ، كنا قد بلغنا السيجارة الخامسة ، وصرنا ننظر إلى الساعة. جاء وقت الظهر ، فقفزنا ناهضات من كراسينا وانطلقنا إلى الغداء. كان لدى أكثرنا سندويتشات ديك رومي باقية معنا ؛ وقد أحضرت كاثي ترمسًا فيه حساء الديك الرومي مع النودلز. لكن ذلك لم يكن مجرد يوم من الأيام التي نخرج فيها من المكتب لتناول الغداء... إنه اليوم الأول بعد العطلة ، اليوم الذي يكون دائمًا أسوأ يوم ، حتى وإن تكن عطلة قصيرة.

كانت ليندا أول من نهض. طقطقت أصابعها: «الكافيتريا ؟».

سألتها نورما: «حقًّا ؟ هل نذهب إلى هوت شوبس ؟ يمكن أن أتناول عصير البرتقال المجمّد».

قالت جودي: «البرد شديد في الخارج».

قالت كاثي: «المسافة بعيدة».

اقترحت ليندا متسائلة: «لا نيسواز ؟».

قالت غيل: «ليس الجميع متمتّعات برفاهية راتب الزوج».

تبادلنا النظرات ، ثم قلنا معًا: «هل نذهب إلى مقهى رالف ؟».

لم يكن مقهى رالف متميزًا بأنه يقدّم أفضل دونتس في واشنطن فحسب ، بل أيضًا بأن لديه ألذ أصابع بطاطس مقلية وكاتشب يصنعه بنفسه. ثم إن الرجال لم يكونوا يذهبون أبدًا إلى تناول طعام الغداء هناك. كانوا يفضلون «أولد إيبيت غريل» حيث يستمتعون بتناول المحار واحتساء المارتيني الذي يدفعون عشرة سنتات لإعادة ملء الكأس منه. أحيانًا ، كان الرجال يدعوننا عندما تأتيهم مشاعر الكرم ، أو الحب ، أو كلاهما معًا. كانوا يطلبون للطاولة أطباقًا من المحار وعدة جولات من المارتيني على الرغم من أن كاثي لديها حساسية من ثمار البحر ومن أن دودي ترفض أكل أي شيء مستخرج من المحيط.

سألنا إيرينا إن كانت تحب الانضمام إلينا... هذا لأنها صارت تتكلّم ، ولأننا أردنا جعلها تستمر بالكلام. فاجأتنا موافقتها على الرغم من أننا رأيناها في غرفة الاستراحة وهي تضع سندويتشها في البراد في ذلك الصباح.

وفي طريق الخروج ، رأينا تيدي هيلمز وهنري رينيت داخلين. كان تيدي يعجبنا ، لكن هنري حالة مختلفة. يعتقد الرجال في الوكالة أننا نجلس في الزاوية ونطبع على الآلة الكاتبة بهدوء ، فحسب. لكننا لم نكن نسجل ما يقولونه فحسب... كنا نسجل أسماءهم أيضًا ، في

أذهاننا! كان هنري في رأس قائمتنا. وأما عن سبب الصداقة بين تيدي وهنري، فلم نكن نعرف شيئًا. لقد كان هنري من ذلك النوع من الرجال الذين يكون نصيبهم في الحياة كبيرًا بفضل ثقتهم بأنفسهم، لا بفضل مظهرهم... يكون نصيبهم كبيرًا جدًّا! نساء، ووظيفة رفيعة فور التخرّج من جامعة ييل، ودعوات إلى كل ما في واشنطن من مناسبات مفيدة. لكن تيدي كان عكس ذلك... كان شخصًا يفكّر قبل أن يتكلّم، شخصًا كثير التأمل، بل رجلٌ غامضٌ بعض الشيء.

بادرنا هنري بالقول: «لم تُعرّفوني على الفتاة الجديدة». قال لنا هذا على الرغم من أنه يتجنّب دائمًا التقاء نظراتنا. كان تيدي واقفًا إلى جانبه، يداه في جيبيه، ينظر جانبيًا إلى إيرينا.

همست كاثي: «بدأت القروش تحوم منذ الآن».

سألتْ نورما من غير أن تهتم كثيرًا بإخفاء نفورها من هنري: «هل كنتما تتوقّعان دعوة إلى حفل استقبالها؟».

في الصيف الماضي، سرَت في قسم روسيا السوفييتية شائعة تقول إنه ضاجع نورما بعد حفلة شواء في بيت أندرسون. والحقيقة أن هنري عرض على نورما أن يوصلها إلى بيتها؛ وأثناء توقفه عند إشارة السير، مد يده تحت تنورتها وتلمّسها. لم تقل نورما أية كلمة. فتحت باب السيارة وخرجت منها وسط الشارع. صاح هنري بها عبر النافذة قائلًا لها أن تكف عن هذا الغباء وأن تعود إلى السيارة عندما أطلق بقية السائقين أبواق سياراتهم حتى تبتعد عن طريقهم. انتهى الأمر بأن عادت مسافة أربعة أميال سيرًا على الأقدام، ثم ظلت شهورًا من غير أن تخبرنا شيئًا عن تلك الحادثة.

قال هنري: «بالطبع! عملي أن أعرف كل ما يجري هنا».

سألت جودي: «أهو عملك حقًا؟».

«اسمي إيرينا». مدت يدها فصافحته. ضحك هنري.

قال هنري وهو يهزّ يدها بطريقته التي تكاد تحطم العظام: «ما ألطف هذا! وأنا هنري. يسرني لقاؤك...». ثم التفت إلى نورما... «والآن، لم يكن أمرًا شديد الصعوبة، أليس كذلك؟».

مد تيدي يده لكي يصافح إيرينا: «وأنا تيدي».

«يسرني لقاؤك». كان واضحًا أن إيرينا تحاول أن تتصرّف بشكل مهذّب، لا أكثر. لكن مشية تيدي المتثاقلة التي تذكّر بتلكؤ تلميذ مدرسة، كانت دليلًا واضحًا على أنه غير راغب في

الانصراف.

قالت نورما وهي تشير بإصبعها إلى ساعة غير مرئية: «حسنًا ، ساعة الغداء صارت الآن نصف ساعة».

صرنا في الخارج ، فلاقتنا صفعة ريح. أحكمنا لف وشاحاتنا حول أعناقنا ، ووضعت إيرينا على رأسها شالًا له شرّابات ، ثم لفته من حول رقبتها. تساءلنا في أنفسنا عن مقدار ما هو باقٍ فيها من بلدها القديم. أردنا تحذير إيرينا من هنري ؛ وأردنا أيضًا أن نعرف على الفور رأيها في تيدي. لكننا قررنا تأجيل ذلك ريثما نصل إلى مقهى رالف ، لأننا لم نرد أن يسمع ذلك أحد غيرنا.

كانت أطواق الزهور وأكاليل عيد الميلاد على أعمدة المصابيح كلّها قد حلّت محل آخر آثار الخريف. مررنا بمتجر «كانز» فتوقّفنا للنظر إلى شابة تضع اللمسات الأخيرة على منظر لبلاد العجائب في واجهة المتجر. رأيناها تضع حبال زينة فضّية على أغصان شجرة كرز مزهرة ثم تتراجع خطوة إلى الخلف وتنظر إلى عملها بإعجاب. قالت إيرينا: «جميل جدًا. كم أحب عيد الميلاد!».

قالت ليندا: «كنت أظن بأن الروس لا يحتفلون بعيد الميلاد! أليسوا غير مهتمين بالدين ، وتلك الأشياء كلّها».

تبادلنا النظرات في ما بيننا غير عارفات إن كان ما قالته قد أزعج إيرينا. أحكمت إيرينا لف شالها من حول وجهها وقالت بلكنة روسية ثقيلة: «حسنًا ، إنني مولودة هنا ، أليس كذلك ؟». ثم ابتسمت. ضحكنا جميعًا وأحسسنا بأن الجدران الخفية المحيطة بمجموعتنا قد سقطت.

(5) نات كينغ كوله: عازف بيانو أميركي أسود شهير.

(6) الغاز الضاحك: غاز يستخدم للتخدير الموضعي.

الفصل الرابع
السنونو

قال أندرسون وهو يوازن كأس الشامبانيا على حافة سياج «مس كريستين» ساكبًا إياها في نهر بوتوماك: «هل تتذكّرون الأفعى ؟». كان يخاطب ستة أشخاص سمعوا تلك القصة مرات

كثيرة ؛ بمن فيهم أنا.

سألتُه: «ومن يستطيع نسيان الأفعى ؟».

«بالتأكيد ، لست من تنسينها ، يا سالي». قال هذا وغمز لي بعينه غمزة مبالغًا فيها.

كنت أحبّ مضايقة أندرسون ؛ وكان يحب أن يجيبني بمثلها من غير تأخير. لقد خدمنا معًا في كاندي ، أثناء الحرب ؛ وكنا نقوم ب.«عمليات معنوية» لنشر رسالة الخير العام. بكلمات أخرى ، كنا من العاملين في البروباغاندا. في تلك الأيام ، بذل جهدًا كبيرًا لكي يتقرّب مني. وعندما صددته للمرة العاشرة ، قنع بلعب دور الأخ الأكبر.

سألته: «هل أصاب عينك شيء ؟».

كان أكثر الناس يجدون أندرسون كريهًا ، لكني كنت أراه شخصًا مبتذلًا لا ضرر منه.

إلا أن الجماعة التقطت الطعم. هذا ما يحدث دائمًا: كلما اجتمعنا معًا ، يبدأ تكرار القصص القديمة مع تتالي كؤوس الشراب. بعد الحرب ، كان أكثرهم قد تابع عمله وصارت له قصص جديدة لا يجوز الكلام عنها. وهكذا ، فقد كانوا يعودون إلى القصص القديمة ، إلى تلك القصص التي رووها مئة مرة قبل ذلك. كانت قصة الأفعى من قصص أندرسون القديمة التي يكرّرها دائمًا. فبعد خدمته في «مكتب الخدمات الاستراتيجية» ، سرت شائعة تقول إنه حاول كتابة نصوص من أجل هوليوود. سمعنا أنه عمل على مسلسل اسمه «عباءة وخنجر» ، مسلسل على نمط فيلم «قادم من الفضاء الخارجي» ، فكانت له بضع لقاءات مبكرة مع عدد من المنتجين ، لكن الأمر لم يتقدّم أكثر من ذلك. ثم قرّر أن ينفق أيامه في إتقان الضربات الخلفية في لعبة الغولف في «نادي كولومبيا الريفي» ، لكن ذلك صار مملًا. وبعد شهر أو اثنين ، قرع باب دولز ، باب بيته الحقيقي في جورجتاون ، وطلب منه وظيفة في الوكالة. كان أندرسون في بداية الخمسينات من عمره ، فأعطوه وظيفة إدارية على الرغم من توسّله من أجل العودة إلى العمل الميداني.

كانت العصبة القديمة قد اجتمعت للاحتفال بذكرى سنوية من نوع ما. فقبل أحد عشر عامًا ، غادرنا مراكزنا في سيلان بعد أن انتهت الحرب. كان مستقبل «مكتب الخدمات الاستراتيجية» والاستخبارات الأميركية لا يزال غير واضح. وسوف تمر سنتان بعد ذلك قبل إنشاء «الوكالة»... سنتان قبل وجود مكان يجمع عاملي «مكتب الخدمات الاستراتيجية» الذين تفرّقت بهم السبل وملّوا جني المال في مكاتب المحاماة والوساطة التي أقاموها في

نيويورك ، وصاروا راغبين (حتى أكثر من رغبتهم في خدمة بلادهم من جديد) في السلطة الآتية من كونهم «حفظة الأسرار». كانت سلطة يجدها بعض الناس ، وأنا منهم ، مُسكرة أكثر من المخدرات أو الجنس أو غير ذلك مما يجعل نبض المرء يتسارع. لقد خطّطنا للاحتفال بالذكرى العاشرة ، لكن الأمر تأجّل مرة بعد مرة إلى أن أقدم أحدنا على تحديد موعد.

قال أندرسون: «أقسم بالرب ، كان طول تلك اللعينة تسعة أمتار».

قال واحد من رجال الوكالة الأحدث عهدًا: «تسعًا وعشرين قدمًا!».

«هذا صحيح ، يا هنري ، يا ولدي. تذكّر كلماتي... لقد كانت من أكلة البشر. عندما استدعوني ، كانت قد قتلت نصف دزينة من البورميين».

سألته: «وكيف عرفت أنها أنثى ؟».

«صدقيني ، يا سالي ، لا يمكن إلا لأنثى أن تحدث ذلك الأذى كلّه. كانوا في حاجة إلى رجل حتى يضعها في مكانها الذي تستحق».

قلت: «إذًا ، لماذا استدعوك أنت ؟».

تجاهل تلك الوخزة وقال بوجهٍ جادّ: «علاقات مجتمعية. لقد كانت تلك الأفعى خطرًا عليهم. أقول لك إنها كانت كأنها شيء آتٍ من فيلم رعبٍ. لا تزال تلك الأفعى تزورني أحيانًا في أحلامي. اسألي برودي». أشار إلى زوجته التي كانت امرأة قصيرة تضع قرطين بلاستيكيين ضخمين جعلا شحمتي أذنيها ممطوطتين إلى الأسفل. كانت جالسة في صالون اليخت الدافئ مع بقية الزوجات. نظرتْ من النافذة ولوّحت لنا بيدها... «على أية حال ، لم تكن لتخرج من جحرها...».

صاح شخص واقف في آخر الحشد: «كما في القصة!».

تابع كلامه متجاهلًا ذلك الذي قاطعه: «الواقع أنه كان كهفًا أكثر منه جحرًا. كانت في ذلك الكهف منذ شهور. نائمة ، تنتظر. وفي يوم من الأيام ، زحفت خارجة وتجمعت على نفسها إلى جانب بقرة. ثم انقضت عليها!»... صفّق بيديه من أجل مزيد من التأثير... «لقد جرّت البقرة المسكينة إلى الكهف من غير أن تتركها تصدر أي صوت. لقد كانت تلحق ضررًا حقيقيًّا باقتصاد القرية. ونحن لم نكن نريد حدوث ذلك ، أليس هذا صحيحًا ؟».

قال فرانك ويزنر وهو ينضم إلى المجموعة: «ألم يكن ذلك شيئًا فظيعًا ؟». أفسح الناس له طريقًا حتى يجلس في مقعد في الصف الأول بين من يستمعون إلى قصة أندرسون. كان

فرانك هو من دفع ثمن القارب الذي كنا عليه ، وثمن الكحول الذي نشربه ، وثمن كوكتيل الروبيان الذي كنا نتناوله. تابع كلامه: «وما كانت تعرف أنها آتية إليها. كانت واقفة في ذلك الحقل المعشوشب تجتر طعامها. ولعلها كانت تفكّر في المكان الذي ستقصده حتى تشرب من الجدول ، وعند ذلك...».

قال أندرسون: «يا إلهي ، لا تكن مزعجًا يا فرانك!».

كان أندرسون قد بدأ يغمغم ويبتلع بعض الكلمات. وعندما يفعل ذلك ، عادة ما تؤدّي الكلمات التي يفلح في نطقها إلى بعض المتاعب. وبما أن المدير صار بيننا الآن ، فقد أشرت إلى أندرسون بأن يسرع وينهي قصته البائسة.

«لقد أشرفتُ على العملية كلها».

سألته صديقتي بيفرلي: «عملية كل.هاا ؟» نصف ضحكة ، ونصف فواق. بدأ الناس يقهقهون.

«حبًا بالرب ، ألا أستطيع إنهاء قصتي ؟».

قالت بيفرلي بصوت عميق مرتفع ، كان واضحًا منه أنها شربت كؤوسًا كثيرة بعد النقطة التي كان ينبغي أن تتوقّف عندها: «لا أحد يمنعك». كانت في فستان أسود طويل من تصميم جيفنشي اشترته في رحلتها الأخيرة إلى باريس. تزوجت بيفرلي بعد الحرب واحدًا من جماعة لوبي النفط يشتري لها آخر صيحات الأزياء شرط أن تتغاضى عن هفواته عندما يعود إلى البيت فائحًا برائحة الويسكي وعطر شانيل. كانت تكره ذلك الرجل. وهذا ما جعلها تحرص دائمًا على أن تكون الصفقة بينهما متكافئة إلى أقصى حد ممكن ، فتشتري كل شيء جديد ، فور ظهوره ، فضلًا عن كونها تعبث من حين لآخر مع واحد من زملائها القدامى في «مكتب الخدمات الاستراتيجية». لم يفدها فستانها الفضفاض شيئًا في إخفاء بدانتها ، لكني كنت معجبة بمحاولتها إخفاءها. ناول أحدهم أندرسون زجاجة شراب ، فأخذ منها جرعة ، ثم سعل.

«على أية حال ، جلبت معي عشرة رجال إلى الكهف ، إلى الجحر ، ادعوه كما تشاؤون. كانت الخطة أن نستخدم الدخان لإخراجها ، ثم نضعها في كيس».

سأله فرانك: «وأي كيس يتّسع لأفعى طولها ثلاثين قدمًا ؟». كان فرانك مبتسمًا. كان يستفز أندرسون. لقد دخلا «مكتب الخدمات الاستراتيجية» ، لكن أندرسون صعد إلى القمة بينما بقي فرانك عالقًا في الوسط. كان فرانك محافظًا على وسامته وعلى لياقته الجسدية منذ أن كان نجم رياضة الجري في الجامعة منذ ثلاثين عامًا. رجل من أولئك الرجال الذين يرون أي شيئًا

ممكنًا - وعلى وجه الخصوص، عندما يكونون في القمة. لكن شيئًا فيه لم يكن على ما يرام تلك الليلة. رأيته مرتين واقفًا وحده، منعزلًا عن الضيوف، ينظر إلى نهر بوتوماك الجاري بطيئًا. تساءلت في نفسي إن كانت صحيحة تلك الشائعات التي قالت إن نكسة أصابته بعد إنهاء السوفييت الانتفاضة الهنغارية التي كانت له مساهمة في تنسيقها.

أخذ أندرسون جرعة أخرى من الزجاجة، ثم تنحنح وقال: «سؤال جيد، يا زعيم. لقد خطنا كيسي خيش كبيرين معًا، ثم وضعنا لهما سحابًا ضخمًا».

ابتسم فرانك. بالطبع، كان يعرف نهاية القصة. سأله: «وهل صمد ذلك الكيس؟».

أخذ أندرسون جرعة أخرى من الزجاجة: «كلّفت خمسة رجال بأن يمسكوا بالكيس، واثنين بأن يغلقوا السحاب عندما تصير الأفعى فيه، ووقف رجلان آخران حاملين مسدسيهما. وأما أنا فكنت مشرفًا على ذلك كله... تحسّبًا لأن يجري شيء ما على غير ما يرام».

«وما الذي يمكن أن يجري على غير ما يرام؟».

قال فرانك: «ما الذي لا يمكن أن يجري على غير ما يرام؟». فضحك الجميع ضحكًا أكثر مما تستحقه نكتة المدير.

أجابني أندرسون: «سأقول لك». لكن المركب «مس كريستين» اهتزّ في تلك اللحظة، وتوقّف المحرّك قبل أن يتمكّن أندرسون من مواصلة كلامه. ذهب أحدهم لكي يسأل القبطان عن الأمر فلم يجده في غرفة القيادة. كان في الصالون، محاطًا بالزوجات، مستمتعًا بالشراب. ذهب القبطان لتفقّد الأمر مع المهندس الذي أكّد له أن أحد الفيوزات قد احترق وقال إنه سيتصل بالميناء لكي يرسلوا زورقًا لقطرنا إلى الرصيف. قال فرانك للقبطان أن يتريث ساعة قبل الاتصال، ثم استمر احتفالنا من غير أن يتأثّر بما حدث.

تابع أندرسون قصّته بينما كان المركب ينساب بنا مع النهر. قال إنهم أخرجوا الأفعى من جحرها باستخدام عبوة غاز مسيل للدموع. وعندما خرجت وصارت في الكيس، أغلقوا السحاب؛ لكن الأفعى لم تقبل بالهزيمة فشقّت الكيس وخرجت منه خلال دقائق معدودة. لا شيء مقلقًا في هذا لأن أندرسون كان في انتظارها حاملًا مسدسه. أنهى الحكاية قائلًا: «بين عينيها تمامًا».

قلت: «يا لها من مسكينة».

قال فرانك: «لا أصدق هذا».

وضع أندرسون يده على قلبه وقال: «أقسم بالرب».

الحقيقة أن برودي ، زوجة أندرسون ، كانت قد أكّدت تلك الحكاية عندما سمعتها أول مرة (كنا مدعوّين إلى تناول شرائح اللحم على عشاء في «المستوطنة») ، وقالت لي إن جلد الأفعى كان في قبو بيتهما يتعفّن تدريجيًا في صندوق تبريد قديم. قالت ، «ليس لدي أيّة فكرة عما جعله يأتي بهذا الشيء القذر إلى البيت».

ضغطتُ على ذراع أندرسون واستأذنت بالذهاب ، ثم انضممت إلى بيفرلي عند مقدّمة المركب.

اقتربت مني وأشعلت لي سيجارتي. قالت: «مرحبًا ، أيتها الغريبة. هل انتهت القصة ؟».

«انتهت أخيرًا».

كان نصب جيفرسون التذكاري منارًا في البعيد ؛ ومن خلفه واشنطن الغافية. بدت المدينة وادعة تحت سماء الليل البرتقالية... ألاعيب السلطة والمكائد المتواصلة متوقّفة في الليل.

سألتني بيفرلي: «هذا ليس سيّئًا كثيرًا ، أليس كذلك ؟».

«ليس سيّئًا أبدًا ، يا بيفرلي». كنت في دهشة لأنني استمتعت بتلك الأمسية. عدت إلى واشنطن بعد الحرب آملة في الحصول على وظيفة في وزارة الخارجية. وقد حدث هذا. لكنهم لم يمنحوني عملًا مريحًا في الوزارة بحيث يكون لي مكتبي الخاص ، بل وضعوني في القبو حتى أعمل في تصنيف السجلات. استطعت احتمال ذلك ستة أشهر قبل أن أترك العمل. وبعد ذلك ، ابتعدت عن «نادي الزملاء القدامى».

لقد قمت بأعمال كثيرة ، لكني لا أصلح لوظيفة حفظ السجلات ؛ بل لا أستطيع حتى أن أتظاهر بذلك. لقد عملت ممرّضة ، ونادلة ، وورثت مالًا. بل عملت مرة في مكتبة. كنت زوجة أحدهم ، وعشيقة أحدهم ، وخطيبة أحدهم ، ومحبوبة أحدهم. كنت روسية ، وفرنسية ، وبريطانية. كنت من بيتسبيرغ ، وبالم سبرينغز ، ووينيبيغ ، كنت قادرة على أن أصير أي شخص ، تقريبًا. كان لي واحد من تلك الوجوه... عينان واسعتان ، وابتسامة حاضرة توحي بأنني كتاب مفتوح وبأنني امرأة ما من أسرار لديها حتى تخفيها. وإذا كانت لديها أسرار ، فهي غير قادرة على إخفائها أصلًا. وفوق هذا ، مع تصاعد شعبية الممثلات ذوات الخصور الأكثر امتلاء ، كمارلين مونرو وجين مانسفيلد ، صار مظهري ، الذي حاولت استخدام حميات غذائية لتغييره عندما كنت مراهقة ، يعمل لصالحي عندما أصطاد أسرار رجال من ذوي

النفوذ.

خرجت من وزارة الخارجية مرفوعة الرأس ، وذهبت مع الفتيات لتناول الشراب ثم للرقص في «كافيه ترينيداد» حتى ساعة الإغلاق التي كانت ، لسوء الحظ ، منتصف الليل في واشنطن. لكن انهيارًا صغيرًا أصابني بعد صباح اليوم التالي بعد أن عالجت الصداع الباقي من أثر الشراب بكمّادات باردة وبكأس من بلادي ميري ، فقد أدركت أنني صرت من غير وظيفة ، ومن غير دخل ، ومن غير مدّخرات. صرت من غير مدّخرات نتيجة شيء هو نعمة ونقمة: تقييمي الحماسي للأشياء الجميلة! تمثّلت النعمة في أن إحساسي الداخلي بالأناقة جعل الناس يظنون بأنني وُلدت وفي فمي ملعقة من ذهب ، في غروسبوينت ، أو غرينويتش ، أو أي مكان من هذا القبيل ، وليس في بيت خشبيّ في حي «إيطاليا الصغرى» في بيتسبيرغ. وأما النقمة فهي أن تقديري للأناقة والجمال كثيرًا ما كان يجعلني أتجاوز قدراتي المالية.

أدركت أنه لا بد لي من وضع خطة قبل أن يتناقص حسابي المصرفي حتى يبلغ حد الخطر. لم تكن أمامي إمكانية الجري إلى ماما أو بابا مثلما تفعل بعض صديقاتي ممن تتمتّعن بتلك الرفاهية عندما تسوء الأمور. وفي ذلك المساء ، بحثت في دفتري الصغير الأسود ووضعت مجموعة مواعيد مع المحامي الذي من لوبي النفط في واشنطن ، ودبلوماسي عابر ، وواحد أو اثنين من أعضاء الكونغرس. كانت تلك المواعيد شاقّة ، مرهقة ؛ لكنها سمحت لي ، في آخر الأمر ، بتسديد إيجار شقتي في جورجتاون ، فوقها بضع أمسيات لطيفة على العشاء معهم ، ثم إن الرجال الذين كنت أتظاهر بأنني مستمتعة بصحبتهم اشتروا لي ملابس فاخرة لا تقل عما كان لدى بيفرلي. لم أجد فيهم أية جاذبية ، لكن إقناعهم بأنني منجذبة إليهم كان أمرًا في غاية السهولة.

لقد كان هذا التوجّه في العمل مناسبًا لي تمامًا. لكني ضجرت بعد فترة ، ضجرت من سيارات التاكسي ودعوات العشاء ، والفنادق. ثم سيارات التاكسي ودعوات العشاء والفنادق ، وهكذا دواليك. أتعبني هذا كله ، وأتعبتني أيضًا السوية المرتفعة الضرورية من الحرص على نظافتي وصحتي ومظهري. تسريح واقتلاع للشعر الزائد وصباغة وشمع وضغط وإزالة للبقع... بل حتى التسوّق الذي لا ينتهي... بدأ ذلك كله يصير ثقيلًا جدًا.

فكّرت في العمل مضيفة طيران. سأبدو رائعة في ملابس شركة بان أميركان الزرقاء! ثم إني أحب السفر. كان السفر أكثر ما أحببته في فترة الحرب - إمكانية الانتقال إلى مكان جديد كل

بضعة أشهر. لكنهم ألقوا نظرة واحدة إلى سني -اثنان وثلاثون عامًا، إن كنت صادقة؛ أو ستة وثلاثون عامًا، إن كنت صادقة حقًا- وقالوا لي إنني «أعلى تأهيلًا» مما يلزم لهذه الوظيفة.

كانت الحقيقة أنني اشتقت إلى العمل الاستخباراتي، اشتقت إلى أن أكون «ممن يعرفون». وهكذا وافقت عندما اتصلتْ بيفرلي آخر مرة ورجتني أن أذهب معها إلى تلك الحفلة.

قالت بيفرلي وهي تجول بعينيها بين الناس: «وجوه مألوفة كثيرة جدًا». كانت الموسيقى قد بدأت من جديد، وراح الناس يرقصون على إيقاعها، فيندلق بعض ما في كؤوسهم. رأيت جيم روبرتس في الجهة الأخرى من سطح المركب. كان يحدّث فتاة مسكينة هناك وقد انحنى فوقها كأنه يتنفس في رقبتها. حاصرني جين مرة في حفلة لإحدى السفارات في شنغهاي، فوضع يديه على وسطي قائلًا إنه لن يتركني إذا لم أمنحه ابتسامة. ابتسمت له، ثم ضربته بركبتي بين ساقيه.

«لعل في هذا المكان بضعة وجوه مألوفة أكثر مما ينبغي».

قالت: «سأرفع نخب هذا». استندت بيفرلي إلى الجدار وأزاحت خصلة من شعرها البني الداكن عن وجهها. كانت بيفرلي واحدة من تلك النساء اللواتي يأتي جمالهن متأخّرًا فلا يظهر في سنوات المدرسة، ولا في الجامعة، ولا في أوائل العشرينات كلّها، ثم يصل في أواخر العشرينات ولا يبلغ اكتمال مجده حتى الثلاثينات. لقد مرّت بيفرلي نفسها بكثير من «تجارب جيم روبرتس». واصلت كلامها: «ومع هذا، أتمنى لو أن الفتيات كن هنا جميعًا».

قلت: «وأنا أيضًا».

من مجموعتنا القديمة، كنا الوحيدتين اللتين تعيشان في واشنطن. جوليا في فرنسا مع زوجها الجديد؛ وجين في جاكارتا مع زوج امرأة أخرى؛ وآنّا في البندقية أو في مدريد، بحسب حالتها المزاجية في ذلك الشهر. كان أول لقاء لمجموعتنا على متن السفينة «ماريبوزا» التي كانت في ما مضى سفينة فاخرة للمسافرين ثم أعيد استخدامها لنقل الجنود الأميركيين إلى ميادين القتال. كنا النساء الوحيدات على متن تلك السفينة حيث تشاركنا قمرة مزدحمة واحدة مزودة بأسرّة معدنية ومرحاض واحد ومغسلة يبصق صنبورها ماء مالحًا باردًا. وعلى الرغم من دوار البحر وظروف المعيشة في السفينة التي كانت أشبه بظروف المعيشة في معسكر، فقد كان الانسجام بيننا في أعلى مستوياته. كنا فتيات في أوائل العشرينات، مستعدات لاقتحام العالم. وكنا فتيات نشأن على قراءة «جزيرة الكنز» و«روبنسن كروزو»، ثم

انتقلنا في المدرسة الثانوية إلى قراءة رواية «هي» لـ.هـ. رايدر هاغارد. وكنا متمسكات باعتقادنا أن حياة المغامرة غير مقتصرة على الرجال، فانطلقنا لكي نحظى بنصيبنا منها.

وأهم من هذا كله حسّ الفكاهة المشترك بيننا، ذلك الحسّ الذي يصير له ميدان متّسع عند مشاركة مرحاض واحد لا يصرّف جيدًا (عندما يكون البحر هائجًا خاصّة). كانت جوليا تحب المقالب. وقد أطلقت ذات مرة شائعة مفادها أننا مجموعة من الراهبات المتّجهات إلى كالكوتا. صار الرجال يبدون لنا الاحترام عندما نصادفهم في ممرات السفينة بعد أن كانوا يصفّرون لنا منتهزين أية فرصة تسنح لهم. بل إن واحدًا من الجنود طلب منا الدعاء من أجل كلبه المريض. رسمتُ إشارة الصليب فانفجرت بيفرلي ضاحكة.

لم تبلغ السفينة ماريبوزا مرساها في سيلان قبل أن نصير مجموعة شديدة الترابط. جلسنا في صندوق شاحنة بطيئة، وتمسكت كل منا بالأخرى بينما راح اهتزاز الشاحنة يتقاذفنا في ذلك الطريق بين الأدغال حتى ميناء كاندي. كانت كاندي محاطة بمزارع الشاي وبحقول الأرز المدرّجة ذات الخضرة المتألقة على التلال؛ ولم يكن يفصلها عن الفظائع الجارية في بورما غير خليج بحري، لكننا أحسسنا أننا بعيدات عن الحرب أقصى ما يمكن للمرء أن يكون بعيدًا عنها.

يتذكّر أكثرنا تلك الأيام في كاندي بنوع من الولع. وعندما تكتب إحدانا للأخرى -أو عندما تلتقي إحدانا بالأخرى، إن كان لنا حظ اللقاء- فإننا نتحسّر على تلك الليالي الكثيرة التي أمضيناها تحت سماء شديدة الاتساع والظلمة تظهر النجوم فيها طبقات فوق طبقات. نحكي قصصًا عن قطع ثمار البابايا بمنجل صدئ من الأشجار المحيطة بمقر «مكتب الخدمات الاستراتيجية» المسقوف بالقش، أو نتذكّر قصة الفيل الذي دخل مجمّعنا فكان لا بد من إغرائه بعلبة من زبدة الفول السوداني حتى يخرج منه. وكنا نتذكّر حفلات تستمر طيلة الليل في «نادي الضباط» وكيف كنا ندلّي سيقاننا في بركة زرقاء مخضرة، ثم نسحبها عندما ينزعج مخلوق يطلق الفقاعات وهو قابع في أعماقها. كانت هناك صفوف من الرهبان الذاهبين إلى معبد «أثر السن المقدسة»، والعائدين منه، وكذلك عطلات نهايات الأسبوع الحارة في كولومبو، والقردة الصغيرة التي ولدت في كوخ الطعام لدينا فأسميناها ماتيلدا.

بدأت العمل بصفة موظفة دعم متعددّة المهمات: تصنيف الأوراق، والطباعة، وتلك الأشياء. لكن مساري المهني تغيّر عندما تلقيت دعوة إلى حفل عشاء في مقر إقامة إيرل لويس

ماونتباتن القائم فوق تل مشرف على مجمع «مكتب الخدمات الاستراتيجية». كانت ذلك العشاء الأول من بين عشاءات كثيرة أعقبته ؛ وكانت تلك المرة الأولى التي أكتشف فيها أن أصحاب النفوذ من الرجال يكونون مستعدين لإعطائي المعلومات عن طيب خاطر ، حتى من غير أن أطلبها منهم.

هكذا بدأ الأمر. في ذلك العشاء الأول ، ارتديت فستان سهرة أسود مفتوح الصدر كانت بيفرلي قد وضعته مع ملابسي «من باب التحسّب فقط». وفي آخر تلك الليلة ، قال لي تاجر أسلحة برازيلي كان يحدّثني إنه يشتبه في وجود جاسوس مزروع ضمن العاملين لدى ماونتباتن. وفي اليوم التالي ، أبلغت أندرسون بذلك. ليست لدي أية فكرة عما فعله «مكتب الخدمات الاستراتيجية» بتلك المعلومات. لكني صرت أتلقى مزيدًا من دعوات العشاء المقامة من أجل زائرين مهمّين ، وصاروا يزوّدونني بأسئلة لكي أطرحها على الرجال الذين لا يعرفون كيف يغلقون أفواههم.

صرت ماهرة في عملي الجديد... ماهرة إلى حد جعلهم يعطونني مخصصات لشراء فساتين كانت تأتيني مشحونة مع اللحوم المعلبة وورق المرحاض ومواد الوقاية من البعوض. لكن المضحك في الأمر أنني لم أكن أعتبر نفسي جاسوسة. من المؤكد أن هذه المهنة في حاجة إلى ما يتجاوز الابتسام والضحك عند سماع نكات سخيفة ، والتظاهر بالاهتمام بكل ما يقوله أولئك الرجال. لم يكن لهذا العمل اسم في تلك الأيام ؛ لكني صرت «سنونو» منذ تلك الدعوة الأولى إلى العشاء: امرأة تستخدم مواهبها للحصول على معلومات - المواهب التي كانت تتراكم عندي منذ مراهقتي ، ثم تعمقت في العشرينات وبلغت اكتمالها في الثلاثينات. كان أولئك الرجال يظنون أنهم يستغلونني ، لكن الأمر كان عكس ذلك دائمًا ؛ وكانت نقطة القوة عندي متمثّلة في قدرتي على جعلهم يظنون أن الأمر ليس كذلك.

سألتني بيفرلي: «ألا تريدين الرقص ؟».

كشرتُ قليلًا عندما بدأت بيفرلي تهز ردفيها. صحت بها عبر موسيقى أغنية لبيري كومو: «أنرقص على هذه الموسيقى ؟». لكن بيفرلي لم تكن مبالية بهذا. أمسكت بذراعيَّ وراحت تهزهما إلى الأمام والخلف حتى استسلمت لها. لكني لم أكد أبدأ الاندماج في الرقص حتى أوقف أحدهم آلة التسجيل. ومن آخر حشد المجتمعين ، بدأ شخص يدق بالشوكة على كأسه فبدأ الجميع يفعلون مثله إلى أن صار القارب كلّه يرنّ مثل ثريا تؤرجحها الريح.

قالت بيفرلي: «أوه ، ها قد بدأنا!».

شرع الرجال يرفعون الأنخاب: في صحة فرانك! في صحة وايلد بيل(7)! في صحة الجواسيس القدامى! ثم أتت الأغنيات التي اعتدنا أن ننهي ليالينا بها عندما كنا في كاندي: «سوف أراك» و«ويلي مارلين» ، وبعدها أغاني ناديهم الذي لم يكن سرّيًا تمامًا ، أغاني من هارفارد وبرينستون وييل. كنا ، أنا وبيفرلي ، ننسلّ منصرفتين عندما تبدأ تلك الأغاني الثملة في آخر كل حفلة. وأما في هذه الليلة ، فلم نستطع منع نفسينا من أن نشبك ذراعينا معًا وننضم إلى الآخرين.

قطع أغنية ييل الثالثة «نيس ذا إلمز» صفير زورق القَطر الذي جاء لكي يعيدنا إلى الميناء. صحنا بقبطان ذلك الزورق قائلين له أن ينضم إلينا لكي يتناول معنا كأسًا. لم يكن الرجل شديد السرور بأنهم أيقظوه من نومه لكي ينقذ هذه المجموعة من المحتفلين الثملين ، فانصرف إلى ربط «مس كريستين» إلى زورقه يساعده في ذلك رجل آخر.

عدنا إلى اليابسة ؛ وراح الرجال يناقشون التوجّه إلى «النادي الاجتماعي» أو إلى «سكستينز» أو إلى مطعم في «شارع يو» يعمل أربعًا وعشرين ساعة. ودّعت بيفرلي أمام السيارة السوداء التي أرسلها زوجها من أجلها ، ووعدتْ كل منا الأخرى بألّا تترك وقتًا طويلًا يمر قبل أن نلتقي من جديد. سألتني: «هل أنت واثقة من أنك لا تريدين أن أوصلك بالسيارة ؟».

«أريد العودة سيرًا لكي أستنشق الهواء».

«كما تريدين». بدأت السيارة تتحرّك مبتعدة فأرسلت لي قبلة من نافذتها.

نقر أحدهم على كتفي. إنه فرانك: «هل أستطيع السير معك ؟ أريد استنشاق الهواء أيضًا». شممت في أنفاسه رائحة النعناع مع شيء من التبغ. بدا لي صاحيًا تمامًا فتساءلت في نفسي إن كان قد أمضى الليلة كلها يرتشف الكوكا كولا: «نحن ذاهبان في الاتجاه نفسه ، أليس هذا صحيحًا ؟».

كان بيت فرانك في شارعي نفسه ، بعد بيتي بمسافة قصيرة. لكن المسافة بين البيتين تصير سنوات ضوئية عند مقارنة منزله الكبير في جورجتاون بشقتي الصغيرة الواقعة فوق مخبز فرنسي. أجبته: «هذا صحيح». لم يكن فرانك من ذلك النوع من الرجال الذين تكون لديهم نية مبيتة عندما يقترحون على فتاة أن يسيروا معها حتى بيتها. فمنذ أن عرفته ، لم يحاول

شيئًا معي أبدًا. إذا قال فرانك إنه يريد السير ، فهذا يعني عادة أن لديه ما يقوله في شأن العمل. أشار إلى سائقه الذي كان واقفًا عند باب سياراته السوداء المفتوح وصاح: «سوف أعود الليلة ماشيًا». رفع السائق يده إلى قبعته ثم أغلق الباب. سرنا مبتعدين عن نهر بوتوماك عبر الشوارع الغافية في قلب واشنطن. قال لي: «سرَّني قدومك. كنت آمل أن تتمكن بيفرلي من إقناعك بالمجيء».

«هل كان الأمر خدعة من جانبها ؟».

«وهل يمكن أن يكون غير ذلك ؟».

ضحكت: «لا ، أظنّه غير ممكن».

صمت من جديد كأنه نسي السبب الذي جعله يطلب مني أن نسير معًا.

«كان يمكنك إخبار سائقك بأن ينصرف في وقت أبكر من غير أن تجعله ينتظرك طيلة الليل».

قال: «لم أكن أعرف أنني سأرغب في المشي. لم أعرف ذلك قبل أن أتخذ قراري».

«تتخذ قرارك !».

«ألا تشتاقين إلى العمل ؟».

أجبته: «أشتاق دائمًا».

«إنني أحسدكِ. أحسدك حقًا».

«هل تتمنّى لو أنك توقّفت ؟ بعد انتهاء الحرب ؟».

قال فرانك: «لم أعتد أبدًا أن أفكر في 'ماذا لو' ، لكنّي... غير واثق الآن. لم تعد الأمور بيضاء أو سوداء مثلما كانت».

بلغنا المخبز الفرنسي. كانت أنواره مضاءة ؛ وكان الخباز الصباحي قد بدأ وضع الأرغفة في الفرن. عندما بدأت عملي في وزارة الخارجية ، لم أختر العيش في هذا المكان لمجرّد أن سعره مناسب لإمكانياتي ، بل أيضًا لأنني أحب رائحة الخبز الطازج... أحب رائحته أكثر مما أحب أكله».

«سمعت أنك تبحثين عن اتجاه جديد في العمل».

«ألا أستطيع إخفاء أي سرّ عنك ، يا فرانك ؟».

ضحك: «لا ، لا تستطيعين أبدًا».

«لماذا؟ هل سمعت عن شيء ما؟».
ابتسم ابتسامة صغيرة بشفتين مضغوطتين: «حسنًا، لدي شيء قد يثير اهتمامك».
ملت برأسي مقربة أذني منه: «الأمر متصل بكتاب».

(7) وايلد بيل: هو ويليام دونوفان، أول مدير لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (CIA).

شرق

1950 — 1955

الفصل الخامس

امرأة في المعسكر الإصلاحي

المحترم أناتولي سرغييفيتش سميونوف ،

ليست هذه بالرسالة التي تريد تلقيها مني. إنها ليست عن الكتاب. وهي ليست اعترافًا يثبت الجرائم التي نسبتها إليّ ؛ ولا هي توسل من أجل براءتي. إنني بريئة مما اتُهمت به ، لكنني لست بريئة من كل شيء. لقد استوليت على رجل أعرف أن له زوجة. وقد فشلت في أن أكون ابنة صالحة وأمًا صالحة - تركت أمي تلملم شظايا ما خلّفته ورائي. ذلك كله صار الآن منتهيًا ، لكني لا أزال أحس بحاجة إلى الكتابة.

قد تصدق كل كلمة أكتبها بهذا القلم الرصاص الذي بادلته بحصة يومين من السكر ، أو قد تعتبره من نسج الخيال. لا مشكلة. لست أكتب من أجلك ؛ فأنت لست إلا اسمًا في رأس رسالتي. رسالة لن أرسلها أبدًا. سأحرق كل صفحة من صفحاتها عندما أنتهي منها. الآن ، ليس اسمك أكثر من استهلال للرسالة.

كنت تقول لي إنني لم أخبرك بكل شيء خلال أحاديثنا الليلية ، وإنني تركت ثغرات كبيرة في «قصصي». بما أنك محقّق ، فلا بد أنك تعرف كم يمكن أن يكون الركون إلى الذاكرة غير كافٍ. لا يستطيع عقل المرء استعادة القصة كلها استعادة صحيحة. لكني سأحاول.

ليس لديّ غير هذا القلم... قلم الرصاص المبري. إنه أقصر من إبهامي. بدأ معصمي يؤلمني منذ الآن. لكني سأكتب إلى أن ينتهي القلم ويستحيل غبارًا.

لكن ، من أين أبدأ ؟ هل أبدأ بهذه اللحظة ؟ كيف أمضيت يومي ، يومي السادس والثمانين من 1825 يومًا سوف يستغرقها جعلي امرأة مُصلَحة ؟ أم أبدأ بما قد تبيّن حتى الآن ؟ هل تريد أن أخبرك عن رحلة ستمئة كيلومتر إلى هذا المكان ؟ هل كنتَ مرة في واحد من القطارات التي تذهب إلى اللامكان ؟ هل زرت تلك الصناديق الخشبية التي لا نوافذ لها حيث وضعونا في البرد مرتجفات بانتظار نقلنا إلى الموقع التالي ؟ هل تريد أن تعرف كيف يكون العيش على حافة العالم ، يا أناتولي ؟ بعيدًا هذا البعد كله ، عن موسكو ، وعن أسرتك ، وعن كل ما هو دافئ وكل ما هو لطيف ؟

هل تريد معرفة أن الحرّاس أرغمونا على المشي طيلة المرحلة الأخيرة من رحلتنا ؟ وكيف كان الطقس شديد البرودة عندما انهارت امرأة سائرة إلى جانبي فنزعوا حذاءها من قدميها... بقي إصبعها الصغير في الحذاء ؟ أو كيف تشاركت مقصورة القطار مع امرأة لها ضفيرتان نحيلتان

منسدلتان على طول ظهرها، امرأة زعمت أنها أغرقت طفليها الصغيرين في الحمام؟ وكيف سألتْها إحداهنّ عن السبب الذي جعلها تفعل ذلك فقالت إن صوتًا لا يريد أن يصمت حتى الآن قد طلب منها فعل ذلك؟ هل أخبرك كيف كانت تستيقظ من نومها صارخة؟

لا، يا أناتولي، لن أكتب لك عن هذه الهموم. فبالنسبة إلى ما تريد معرفته، ليست هذه أكثر من تفاصيل من المرجَّح أن تجدها مضجرة! وأنا لا أريد إضجارك! لا أريد منك إلا أن تواصل القراءة.

دعني أرجع في الزمن.

بعد موسكو، وصلنا أولًا إلى معسكر الترحيل الذي تديره حارسات من النساء - تحسن طفيف بالمقارنة مع المكان الذي التقينا فيه، أنا وأنت. كانت فيه زنازين نظيفة لها أرضيات من الإسمنت؛ وكانت فيها رائحة الأمونيا. كان لكل امرأة فراشها في زنزانتنا، الزنزانة 142؛ وكانت الحارسات يطفئن الأنوار في الليل حتى يتركننا ننام أخيرًا. لكن ذلك لم يستمر طويلًا.

بعد أيام من وصولنا، أتوا في الليل وأفرغوا الزنزانة رقم 142. جعلونا نصعد إلى قطارات، وقالوا لنا إن المحطة التالية، المحطة الوحيدة، هي بوتما. كان القطار مظلمًا، فائحًا برائحة الخشب المهترئ. قضبان حديدية تفصل كل مقصورة عن الممر بحيث يظل الحراس قادرين على رؤيتنا طيلة الوقت. دلوان معدنيان في الزاوية - واحد هو المرحاض، والآخر مليء بمادة قلوية لكي نغطي بها فضلاتنا.

اتخذت لنفسي مكانًا على رف المنامة العلوي حيث أستطيع أن أستلقي وأمد ساقيَّ. وإذا أملت رأسي قليلًا، أستطيع رؤية شريط فضي من السماء عبر شقوق السقف. لولا تلك السماء الصغيرة لما كنت قادرة على معرفة الليل من النهار، ولا على معرفة عدد الأيام والليالي التي أمضيناها في ذلك القطار.

كان الوقت ليلًا عندما توقف القطار أخيرًا.

بدا المكان أشبه بحظيرة منه بمحطة قطار. لكن، بدلًا من الأغنام والحمير، كان في انتظارنا على الرصيف، رجال في بدلات عسكرية مهترئة معهم كلاب تشبه أسودًا قوية. صاح الحرس بأن ننزل من القطار فراحت كل منا تنظر إلى الأخرى خائفة. وعندما لم نتحرّك، أمسك حارس بذراع شابة لها شعر أحمر قصير وقال لها أن تقف في الصف. تبعناها صامتات.

رفع الحارس الذي في مقدمة الصف يده فبدأ المسير. مع خروجنا من رصيف المحطة،

أدركنا أن ما من قطار آخر ، وما من شاحنة لنقلنا عبر المسافة الباقية من طريقنا. جذبت كمَّي معطفي حتى يسترا يديَّ المتكورتين. كانت يداي دافئتين آنذاك ، لكنهما لن تبقيا كذلك طويلًا.

سرنا في الثلج البكر ، سرنا مع سكة القطار إلى أن انتهت واختفت في ذلك البياض. لم تسأل واحدة منا كم سيطول هذا المسير ؛ لكن هذا ما كنا نفكر فيه جميعًا. هل سيطول الأمر ساعتين ، أم يومين ؟ أم أسبوعين ؟ بدلًا من هذا ، كنت أحاول التركيز على آثار أقدام المرأة التي أمامي ، المرأة التي لم أعرف اسمها أبدًا. كنت أحاول وضع قدمي داخل الحفرة التي تركها أثر قدمها. وكنت أحاول ألا أفكر في أصابع يديَّ وقدميَّ التي بدأت أحس وخزًا فيها ، وفي المخاط الذي كان يقطر من أنفي فيتجمّد على شفتي العليا في تلك الغمازة التي كان بوريا كثيرًا ما يمسها بإصبعه عندما يعابثني.

كان ذلك شيئًا من رواية «دكتور جيڤاكو». نعم ، يا أناتولي ، كان شيئًا من الكتاب الذي أنت توّاق إلى قراءته. كان مسيرنا كأنه نابع من ذهن بوريا. كان القمر بدرًا ينير الطريق الذي كساه الثلج ويلقي ألقًا فضيًا على آثار أقدامنا. كان ذلك جمالًا قاتلًا ؛ ولو كان باقيًا عندي أي قدر من العقل ، فلعلي كنت أجري هاربة إلى الغابات الممتدة على طول الطريق ، فأجري وأجري إلى أن يستسلم جسدي ، أو إلى أن يوقفني أحد ما. أظنني كنت أحب أن أموت هناك ، في ذلك المكان الذي أحسسته مكانًا مستحضرًا من أحلام بوريا.

أول الأمر ، أطلّت علينا أبراج الحراسة -فوق كل واحد منها نجمة حمراء باهتة- أطلت من فوق ذرى أشجار الصنوبر الباسقة ، في البعيد. ثم اقتربنا أكثر: سياج من الأسلاك الشائكة ، وباحة عارية ، وصف من المهاجع ، وخيط دخان نحيل يصل بين السماء الرمادية ومدخنة كل مهجع. كان ديك جائع يسير على امتداد السياج... منقاره مكسور ، وعرفه الأحمر مشوّه. لقد وصلنا.

لا أستطيع الكلام باسم الجميع ، لكني كنت أحلم بالدفء في كل ثانية ، وكل دقيقة ، وكل ساعة ، وكل يوم من مسيرتنا التي استمرت أربعة أيام. لكنهم أدخلونا عبر سياج الأسلاك الشائكة وجمعونا في الباحة وتركونا ندفئ أنفسنا عند النيران المشتعلة في براميل معدنية في تلك الباحة ، فلم أشعر إلا بمزيد من البرد.

في الناحية القصية من الباحة ، كانت أربعون أو خمسون امرأة واقفات في صف حاملات

أطباقًا وكؤوسًا معدنية ، منتظرات توزيع العشاء. التفتن عند اقترابنا ونظرنَ إلى وجوهنا الشاحبة وإلى رؤوسنا التي لا يزال شعرها سليمًا ، وإلى أيدينا: أيد متجمدة ، نعم ، لكنها غير متقرّحة. نظرنا إلى وجوههنّ الصفراء ، وإلى رؤوسهنّ الحليقة أو المغطاة بمناديل ، وإلى أكتافهن العريضة المحدودبة. سرعان ما سيصير هذا أشبه بالنظر في مرآة. وسرعان ما سنكون نحن الواقفات في صف توزيع العشاء بينما تبدأ مجموعة جديدة من النساء مشوار إصلاحهنّ.

ظهرت مجموعة حارسات ، فما كان من الرجال الذين أتوا بنا إلا أن استداروا صامتين وساروا عائدين في الثلج. أُخذنا إلى مهجع ضخم له أرضية إسمنتية ، وفيه موقد. وهناك ، أمرتنا الحارسات بأن نخلع ملابسنا. وقفنا عاريات ، مرتجفات ، بينما رحن يمررنا أصابعهن في شعورنا ، ثم على أجسادنا ، ويرفعن أذرعتنا وينظرن تحت أثدائنا. جعلونا نباعد بين أصابع أيدينا ، وأصابع أقدامنا ، وبين سيقاننا. أدخلوا أصابعهن في أفواهنا. بدأت أشعر بالدفء ، لكن ليس بدفء الموقد المشتعل. اشتعل في داخلي غضب لم أستطع فهمه حتى الآن. هل شعرت يومًا بهذا الغضب ، يا أناتولي ، غضب يضطرم في مكان داخلك لا تستطيع تحديده ، لكنه قادر على إشعالك كلك مثلما يشعل عود الثقاب البنزين! هل يأتيك هذا الغضب في الليل مثلما يأتيني ؟ أهو السبب الذي يجعلك في الموقع الذي أنت فيه الآن ؟ أتكون السلطة ، مهما تكن تكلفتها ، الترياق الوحيد لهذا الغضب ؟

وبعد التفتيش ، أوقفونا في صف آخر. هناك دائمًا صف آخر ، في الغولاغ ، يا أناتولي. أعطونا قطعًا من صابون قلوي ، قلامة صابون فقط ؛ ثم فتحوا ماء الدوش. كان الماء باردًا ، لكننا أحسسنا به حارق الحرارة على جلودنا المتجمدة. جفف الهواء أجسادنا ، ثم رشوا علينا مسحوقًا لقتل ما يمكن أن نكون قد أحضرناه معنا.

كانت امرأة بولندية ذات خصلات شعر جميلة على محيط رأسها العاري من الشعر جالسة إلى طاولة تصلح أثوابًا لونها مثل لون نهار مدلهم. كانت تنظر إلى كل واحدة منا وتشير إلى كدس الأثواب الذي إلى يمينها أو إلى ذلك الذي إلى يسارها ، مقاس كبير ، ومقاس أكبر.

ومن بعدها ، أعطتنا امرأة أخرى لها أذنان بارزتان وأنف أكثر بروزًا أحذية من غير أية محاولة لتخمين المقاس المناسب. وضعت قدمي في الحذاء الجلدي الأسود ، ثم مشيت فسقط نعله. سوف أوفر حصتي اليومية من السكر شهرًا كاملًا إلى أن أتمكن من مبادلة ذلك السكر مع

سجينة أخرى - لا لكي أحصل على حذاء آخر ، فهذا لا بد له من توفير السكر خمسة شهور على الأقل - بل على بكرة شريط لاصق لكي ألف حذائي به.

قسمت الحارسات صف السجينات إلى ثلاثة صفوف ، فسرت مع صفي إلى المهجع رقم 11. سأعيش في ذلك المهجع ثلاث سنين ، يا أناتولي ؛ وسأظل أجر قدمي جرًا على الأرض حتى لا أفقد حذائي.

كان المهجع رقم 11 فارغًا لأن نزيلاته الحاليات تعملن في الحقول. أشارت الحارسة إلى رفوف النوم الفارغة الثلاثة ، واحد فوق الآخر ، في آخر المهجع بعيدًا عن الموقد الذي يعمل بالحطب. انحنينا عند عبورنا تحت حبل الغسيل الممتد من الجدار إلى الجدار ؛ ذلك الحبل الذي علقت عليه النساء جواربهن وملابسهن الداخلية التي لا تزال مبقعة ، بعد غسلها. كان المهجع فائحًا برائحة العرق والبصل والأجساد الدافئة. رائحة حياة ؛ شيء من السلوى.

وضعت البطانية الصوفية التي استلمتها على رف النوم العلوي ، لا في الصف الذي عند الجدار ، بل الذي يليه. اخترت ذلك المكان لأن امرأة ضئيلة الجسم في القطار احتلت الموقع الذي تحته. قدرت أنها في مثل سني ، أواسط الثلاثينات ، لها شعر أسود ويدان رقيقتان ، فتوقعت أن من الممكن أن نصير صديقتين. كان اسمها آنّا.

لم تنشأ صداقة بيني وبين آنّا. ولم تنشأ لي صداقة مع أية امرأة أخرى في المهجع رقم 11. ففي نهاية كل يوم ، نكون منهكات ، وفي حاجة إلى المحافظة على طاقة تسمح لنا بالنهوض من الفراش في اليوم التالي.

كانت تلك الليلة الأولى في بوتما هادئة. كانت الليالي كلّها هادئة هناك ليس فيها غير عويل الريح يهدهدنا حتى ننام. كنا نسمع أحيانًا صرخة امرأة هزمتها الوحدة ترن في المعسكر كلّه كأنها صفارة إنذار. سرعان ما يُخمد صوت المرأة... كيف؟ لم يكن لنا غير أن نتخيل ذلك. ومع أن أحدًا لم يكن يتكلّم عن تلك الصرخات ، فقد كنا نسمعها جميعًا ، وكنا ننضم إليها جميعًا صامتات.

كانت الأرض متجمّدة قاسية في يومي الأول في الحقول ، والمعول شديد الثقل عليّ فلا أستطيع رفعه أعلى من وسطي. ظهرت فقاعات في كفيّ بعد نصف ساعة فقط. كنت أستخدم قوتي كلها حتى أغرس معولي في التراب - رقاقة صغيرة في كل مرة ، رقاقة بعرض الإصبع. كان حظ المرأة التي إلى جانبي أفضل مني ، لأنهم أعطوها رفشًا تستطيع أن تدوس عليه فتستخدم

ثقلها لجعله ينغرس في الأرض. وأما أنا ، فما كان لدي غير معول ، وبضعة أمتار مكعبة من التربة التي يتعين عليَّ حفرها حتى يعطوني حصتي من الطعام في ذلك اليوم.

في يومي الأول من إصلاحي ، لم آكل شيئًا.

وفي يومي الثاني من إصلاحي ، لم آكل شيئًا.

وفي يومي الثالث ، لم أستطع فعل شيء أكثر من حفر بضعة ثقوب صغيرة في الأرض ، فحرمت من الطعام مرة أخرى. لكن راهبة شابة كسرت جزءًا من خبزها وناولتني إياه عندما مررت بها في صف الدخول إلى الحمام. كنت ممتنّة لها ؛ وللمرة الأولى ، منذ أن أخذني الرجال من شقتي في موسكو ، قلت في نفسي إنه قد يكون من الأفضل لي أن أبدأ الصلاة.

لقد سحرتني الراهبات في بوتما ، يا أناتولي. كن مجموعة صغيرة من بولندا ؛ وكنَّ أشد صلابة من أكثر عتاة المجرمين. كن يرفضن التراجع عندما يرين أن أمرًا توجهه إليهن واحدة من الحارسات غير مقبول. كن يصلين بصوت مرتفع عند الاستيقاظ في الصباح. كان هذا يثير حنق الحارسات ، لكنه يمنحني راحة على الرغم من كوني امرأة غير متدينة كثيرًا. وأحيانًا ، كانت الحارسات يحاولن جعل واحدة من الراهبات عبرة للآخرين ، فيمسكن بثوبها ويخرجنها من الصف حتى تركع على ركبتيها أمامنا. أرغمت إحدى الراهبات على البقاء راكعة يومًا كاملًا. كانت ركبتاها العاريتان على الأرض الصخرية المتجمدة. لكنها لم تضعف ، ولم تطلب السماح لها بالوقوف - ظلت طيلة الوقت تصلّي وعلى وجهها ابتسامة صافية مثل ابتسامة مجذوب. كن يحرّكن أصابعهن كأنها تتداول حبات مسابح غير مرئية حتى عندما تحترق وجوههن في الشمس التي لا تعرف رحمة ، وحتى عندما يقطر البول من أثوابهن فيرسم خطًا على التراب.

مرة أو مرتان ، زجت بهن الحارسات في مهجع العقوبة -أول مهجع بني في المعسكر- مهجع سقفه نصف منهار ، تدخله الريح الباردة والحشرات والجرذان.

كان صعبًا ألا أشعر بالغيرة منهن مع أن أحكامهن كانت أطول كثيرًا من حكمي. كن معًا ، الواحدة للأخرى ؛ وما كن في حاجة إلى كلمة تشجيع من العالم الخارجي ، إلى تلك الكلمة التي كانت بقيتنا تواقة إليها. وحتى عند التفريق بينهن ، لم يكن يستسلمن للوحدة القاتمة التي غزت نفوسنا جميعًا. لقد كان ربهن معهن. وأما أنا ، فقد كان لي إيمان وحيد ، إيمان برجل: بوريا... برجل فانٍ ، بشاعر. وبما أنني كنت غير قادرة على التواصل معه منذ أن أخذني الرجال من شقتي ، فقد كنت أجهل إن كان حيًا أو ميتًا.

مع حلول اليوم الرابع من إصلاحي، تشكلت على راحتي يدي اللتين كانتا ناعمتين طبقة كثيفة من جلد متقرِّن، فصرت، أخيرًا، قادرة على استخدام معولي. صرت أرفعه إلى ما فوق رأسي، ثم أنهال به على الأرض بقوة مفاجئة. وفي نهاية ذلك النهار تمكنت من الانتهاء من قلب التربة في المساحة المخصصة لي فنلت حصتي من الطعام، لكني لم أستطع أن آكل منها أكثر من بضع لقمات. لقد كان تكيف جسدي أسرع من تكيف عقلي. ألا يكون الأمر هكذا دائمًا، يا أناتولي؟

تلك الأيام المخيفة الأولى، ثم الأسابيع، ثم الشهور، ثم السنين، مرت كلها... لم يكن ذلك مرور أيام في التقويم، بل حفرًا في الأرض، وقملًا أنتزعه من شعري. مرت تلك الأيام ثآليل في كفي تنفجر وتصير جلدًا متيبّسًا مع استمرار الحفر، صراصير نقتلها تحت رفوف النوم، عدد الأضلاع التي صارت بارزة. وما كان لدينا غير فصلين اثنين: صيف وشتاء؛ كل منهما أشد قسوة من الآخر.

تعلمت ما يحتاجه الجسد البشري حتى يظلّ حيًا، وكم هي قليلة حاجتنا. كنت قادرة على العيش على ثمانمئة غرام من الخبز وقطعتين من السكر وحساء رقيق تصعب معرفة إن كان طعامًا حقيقيًا أم ماء وضعوا فيه ملحًا.

لكن العقل في حاجة إلى ما يتجاوز هذا كثيرًا حتى يعيش؛ ولم يكن عقل بوريا بعيدًا عني في أي يوم. اعتدت التفكير في أنني قادرة على الإحساس به عندما يفكر بي... ذلك التنميل الذي أحسه مثل همس يسري في رقبتي أو على امتداد ذراعي، إنه هو. ظللت أحسه شهورًا. ثم مرت سنة من غير ذلك الإحساس، من غير ذلك التنميل؛ ثم مرت سنة أخرى. هل كان معنى هذا أنه مات؟ إن كانوا قد أرسلوني إلى الغولاغ، فمن المؤكد أنهم فعلوا به ما هو أسوأ من ذلك.

أناتولي... أستطيع اليوم إخبارك بأن سنوات حكمي الخمس كانت نعمة ونقمة! لا يحظى غير برجوازيي موسكو بهذه الأحكام المخففة: حقيقة كانت تذكّرني بها، مرة بعد مرة، قائدة فريق العمل في مهجعنا - امرأة أوكرانية اسمها بوينايا. حكموا عليها بعشر سنين لأنها سرقت كيس طحين من مزرعتها التعاونية. كانت امرأة قوية، عنيفة، وكانت كل ما لم أكنه. مع الزمن، ازددت قوة في الحقل؛ لكني بقيت واحدة من أبطأ العاملات، فكانت بوينايا مصرة على أن تجعلني الهدف الأول للسانها السليط.

عدنا من الحقول ذات يوم ، وكنت متعبة إلى حد جعلني غير قادرة على الاستحمام فذهبت إلى فراشي مباشرة. كنت مستنفدة القوى فلم أخلع ثوبي الملوث بالتراب. وعندما أغمضت عيني ، سمعت صوت بوينايا الذي لا تخطئه أذن. صاحت مثل غراب أصابه سعال ؛ «رقم 3478»... استخدمت رقمي في السجن مثلما تفعل الحارسات. لم أتحرك. لكنها صاحت من جديد مكررة رقمي ، فنقرت آنا على أسفل رفّي. رفستِ الرف عندما لم أستجب لنقراتها ، وهمست لي: «أجيبيها وإلا ستكون هناك مشكلة».

جلست وقلت: «ماذا؟».

«كنت أظن أن الموسكوفيين يهتمون بالنظافة. رائحتك كرائحة الخراء».

سرَتْ في المهجع رقم 11 موجة من الضحك ، فأحسست بحرارة الحرجِ والخجل تسري في صدري ثم تصعد إلى رقبتي ووجنتي. صحيح أن رائحتي كريهة ، لكن في المهجع نساء رائحتهن أسوأ منها.

واصلت كلامها: «لقد ولدت في حفرة ، لكنهم علموني أن عليَّ أن أغسل ما بين ساقي مرة ، على الأقل ، كل أسبوع. لا عجب في أن يكون الشعراء الخائنون وحدهم مهتمين بما بين ساقيك. أليس هذا سبب وجودك هنا؟».

ازدادت أصوات الضحك ارتفاعًا عندما دلّيت ساقيَّ من فوق حافة رف النوم ، ثم نزلت. كانت ساقاي ترتعشان ارتعاشًا قويًا جعل ألواح الأرض الخشبية تهتز بدورها. أحسست بالعيون كلها مسلطة عليّ ، منتظرة ردة فعلي. لكني ترددت ، ثم استدرت فواجهت الجدار. وهذا ما جعل ضحك بوينايا ، ثم الأخريات ، أشد من ذي قبل. تناولتْ بوينايا بعضًا من ملابسها الداخلية المتسخة وسارت إلى وسط المهجع حتى صارت قبالة مكاني. رمت بالملابس على الأرض وقالت: «خذي! لا أظن أنك ترفضين غسل بعض أشيائي وأنت تنظفين جسدك القذر! لا مانع عندك ، بالطبع!».

أناتولي ، أود إخبارك بأنني استدرت مبتعدة عن الجدار وقذفت بملابس بوينايا القذرة في وجهها. وبأنني لم أتراجع أمامها ، بل صفعتها. وهذا ما أثار مشاجرة تركت عليّ آثار كدمات في اليوم التالي ، صحيح أنني خسرت العراك ، لكني فرضت احترامي على بوينايا.

لكني لم أفعل هذا. أخذت ملابسها القذرة إلى حوض الاغتسال فدعكتها بحصتي من الصابون ، ثم علقتها بعناية حتى تجف ، علقتها في أفضل موقع إلى جوار الموقد المشتعل ،

ثم غسلت ملابسي وغسلت نفسي بالماء البارد العكر. وبعدها نمت. ثم تكرر الأمر نفسه في اليوم التالي.

إن أعطيتك الآن ما كنت تطلبه مني خلال أحاديثنا الليلية في لوبيانكا، يا أناتولي، فهل يفيدني هذا شيئًا؟ هل يُخفف حكمي إذا صرت الآن متعاونة. إذا اعترفت بكل تهمة، فهل أخرج من هذا المكان؟ إذا أمسكت بالحافة الحادة لمعولي، ثم استخدمت قوتي كلها، فهل أتخلص من هذه الأشياء كلها إلى الأبد؟

قد يظن المرء أن الشتاء هو الأسوأ، لكن الصيف كان أشد وطأة علينا. كنا نعمل في الحقول، نحفر أو نجرّ أو نحمل، فيتصبّب العرق منا تحت أثوابنا الرمادية. كنا ندعو هذه الأثواب «جلود الشياطين» لأنها لا تسمح للجلد بالتنفس. كنا نصاب بالالتهابات وبالطفح الجلدي، ونجتذب حشرات سوداء تلسعنا لسعًا لئيمًا. وحتى نقي أنفسنا حرارة الشمس، كنا نضع قماشًا على سلك صدئ فنصنع قبعات تشبه ما يضعه مربّو النحل. لكن بقية النساء ممن أحرقت الشمس جلودهن على امتداد عشر سنين، أو أكثر، من العمل في الحقول، كن يسخرن من قبعاتنا ومن جلودنا الموسكوفية البيضاء الغالية علينا. كن في الثلاثين أو الأربعين من أعمارهن، لكنهن بدَون في الستين، أو في السبعين. وكن يعرفن أن المسألة ليست أكثر من مسألة وقت قبل أن نقلع عن محاولة اتقاء الشمس - قبل أن نرفع وجوهنا إليها ونترك أشعتها تجرّدنا من آخر ما يذكرنا بالنساء اللواتي كنّاهن قبل مجيئنا إلى بوتما.

كنا نمضي في الحقول اثنتي عشرة ساعة متواصلة، يا أناتولي. كنت أمضي هذه الساعات في تكرار قصائد بوريا في ذهني فأضبط إيقاع كل بيت، وكل لحظة توقّف، على ضربات مجرفتي. وفي المساء، نعود من الحقول، فتجري أيديهن على أجسادنا للتأكد من أننا لم نجلب معنا شيئًا إلى المهاجع، فأكرّر كلمات بوريا في ذهني من جديد، أكررها بقوة فأقتل بها ما يحدث لجسدي.

وكنت أؤلّف أيضًا قصائد من عندي، تظهر أبياتها في رأسي كأنها تظهر على الورق. كنت أكررها مرة بعد مرة حتى تترسّخ في ذهني. لكني، لسبب لا أعرفه، غير قادرة الآن على استعادتها، الآن بعد أن صار عندي ورق أكتبها عليه. لعل هناك قصائد يصوغها المرء لنفسه فقط!

نادوني ذات مرة بعد انتهائي من غسل ملابس بوينايا القذرة. كنت موشكة على الاستلقاء في

فراشي عندما أتت حارسة جديدة لم تتمكّن بعد من إتقان نبرة الصوت التي تستخدمها بقية الحارسات عندما تنبحن علينا. دخلت الحارسة المهجع وصاحت برقمي... بصوتها الذي لا يزال موسيقيًا. ارتديت ثوبي ، وانتعلت حذائي ، وخرجت خلفها.

أدركت وجهتنا عندما انعطفت الحارسة يسارًا عند آخر الممر الذي بين المهاجع: إنه الكوخ الصغير تتولّى تنظيفه والعناية به سجينات تحظين بعطف «عرّاب» المعسكر. كان شكل ذلك الكوخ غير منسجم مع بقية المعسكر ؛ بل إنني ظننت نفسي أهلوس عندما رأيته أول مرة. كوخ يشبه كوخ الجدة... لون أخضر زاهٍ عليه نقوش بيضاء وعلى نوافذه أصص زهور أنيقة.

رأيت في إحدى النوافذ ألقَ مصباح عليه ظلّة حمراء. ومن وراء ذلك المصباح ، رأيت العراب جالسًا خلف طاولة مكتبه - رجل لم أره قبل ذلك إلا مرة واحدة عندما كان واقفًا وسط نصف حلقة من مسؤولين حكوميين أدنى سوية كانوا في جولة في المعسكر. حتى من مسافة بعيدة ، استطعت رؤية حاجبيه الأبيضين الكثيفين. بدا لي أنهما ممتدان على طول جبهته حتى يكادا يمسّان الشعر الأبيض الذي يمشّطه بحيث يغطي البقعة الصلعاء في مقدمة رأسه. بدا شخصًا ودودًا جالسًا هناك ، خلف الطاولة ، مثل أية جدة طيبة. لكني كنت أعلم من نساء أخريات أنه ليس جدة طيبة. كانت لدى العراب مهمتان: استجواب السجينات ، وتجنيد المخبرات. وكان معروفًا عنه ، على نطاق واسع ، اتخاذه عدة زوجات في المعسكر - نساء يستدعيهن إلى الكوخ الأخضر ويخيرهن بين أمرين: أن يدعنه يفعل بهن ما يشاء ، أو أن يمضين بقية أحكامهن في معسكر آخر تؤخذ إليه السجينات الأكثر خطورة.

كانت زوجات عراب المعسكر متميّزات بالأثواب الحريرية التي يرتدينها بعد الاستحمام ، وبقبعات القش الواسعة التي يضعنها لحماية وجوههن من الشمس. وكن أيضًا يؤخذن من الحقول لكي يوضعن في أعمال أكثر سهولة ، كالمطبخ أو قسم غسل الملابس. أو كنّ ، ببساطة ، يمضين الساعات في العناية بزينة الكوخ وأزهاره ، وبكل ما يحتاج إلى عناية داخل الكوخ. كانت كل واحدة من زوجات المعسكر امرأة جميلة ؛ وكانت أجملهن فتاة في الثامنة عشرة اسمها لينا. لم أر لينا أبدًا ، لكن المعسكر كله كان يتحدّث عن شعرها الأسود الطويل الصقيل. وكان من بين ما يقال إن لينا تستخدم نوعًا خاصًا من الشامبو أتى به العراب من فرنسا تهريبًا ، فضلًا عن زوج من قفازات من جلد العجل لحماية أصابعها الرقيقة لأنها كانت

عازفة بيانو واعدة في جورجيا قبل اعتقالها. وكان يقال أيضًا إنها حبلت مرة ، وإنهم أتوا بعجوز ، معها سنارات حياكة ، حتى تجهض حملها.

لكن هذه كانت إشاعات ، إشاعات فحسب. هكذا قلت لنفسي عندما أشارت الحارسة إلى باب الكوخ بهراوتها. قلت في نفسي إن سنّي أكبر كثيرًا مما يلائم ذوق العراب ، فقد سمعت أنه يفضّل النساء اللواتي لم تنجبن بعد ، أو النساء اللواتي بلغن الثانية والعشرين ، أيهما أولًا.

دخلت الكوخ المؤلف من غرفتين ، ووقفت عند الباب. كان العراب جالسًا عند طاولته. كان يكتب. أردتهأن يتكلم ، لكنه لم يفعل غير أن أشار بقلمه الحبر إلى كرسي أمام طاولته. مضت عشر دقائق قبل أن يضع قلمه وينظر إليّ. ومن غير أية كلمة ، فتح درج مكتبه وناولني حزمة صغيرة. قال لي: «هذه لك. لا يجوز أن تخرج من هذا المكتب. عليك قراءتها هنا...». دفع برزمة الأوراق صوبي... «وعندما تنتهين من القراءة ، عليك التوقيع على أنك رأيتها».

«ما هي ؟».

«لا شيء مهمًا».

وجدت في الرزمة رسالة من اثنتي عشرة صفحة ، ومعها دفتر ملاحظات صغير أخضر اللون. فتحت الدفتر ، لكن عقلي لم يدرك معنى الكلمات. لم أستطع رؤية شيء غير خط يده... غير خط يده الذي كانت انحناءاته العريضة تذكّرني دائمًا ببجعات تطير. قلّبت الصفحات ، ثم قلبت صفحات الرسالة ، ثم بدأت أستوعب الكلمات. بوريا حي. بوريا حر. وقد كتب لي قصيدة.

لن أطلعك على هذه القصيدة ، يا أناتولي ، فهل ظننت أنني سأطلعك عليها ؟ قرأتها مرة بعد مرة إلى أن رسخت في ذاكرتي. ثم لم أر تلك الصفحات بعد ذلك. لعلك قرأتها قبلي ؛ لكني سأتظاهر بأنك لم تقرأها. سأتظاهر بأن كلماته ظلت لي ، لي وحدي.

كتب في رسالته أنه يفعل كل ما في مقدوره ليخرجني من السجن. وقال إنه سيكون سعيدًا إن دخل السجن بدلًا مني. قال إن إحساسه بالذنب يثقل صدره ، ويزداد ثقلًا كل يوم. قال إنه يخشى أن يصير هذا الثقل كبيرًا فيحطم أضلاعه ويسحقه حتى الموت.

عندما قرأت الرسالة ، أحسست شيئًا أظن أن راهبات المعسكر وحدهن قادرات على فهمه... دفء الإيمان وحمايته.

لماذا سُمح لي بقراءة ما كتبه بوريا من أجلي ، يا أناتولي ؟ ولماذا أعطاني العراب الرسالة بعد ذلك الزمن كله ؟ لعله أراد شيئًا مقابلها. أدركت في تلك اللحظة أنني مستعدة لفعل ما يطلبه مني ، مهما يكن. سأصير مخبرة ، وسأصير واحدة من زوجات المعسكر - سأفعل كل ما يتعيّن فعله لكي أسمع منه شيئًا.

لكن ، يا أناتولي ، لم يطلب العراب أبدًا أن أصير واحدة من زوجاته ، ولم يحاول استدراجي لكي أصير مخبرة. لم أكتشف إلا بعد ذلك أن بوريا طلب دليلًا يثبت أنني لا أزال حية ، وأنهم أرسلوا إليه - بعد شهور من ذلك - الورقة التي وضعت توقيعي عليها بعد قراءة رسالته.

كانت هناك إشاعات تقول إن ستالين مريض ، وإن قبضته صارت في ضعف متزايد.

وبعد ليلة زيارتي إلى كوخ العراب ، سمحوا لي بتلقّي رسائل أخرى من أسرتي ومن بوريا. كتب لي عن نوبات قلبية أصابته ، وقال إنه يعزوها إلى اعتقالي. حدّثني كيف أمضى شهورًا في سرير في المستشفى خائفًا ألا يراني بعدها أبدًا.

حدثني عن تجدد الدافع إلى إنهاء روايته الآن بعد أن تحسنت صحته وصارًا قادرًا على التواصل معي. قال إنه سينهي الرواية مهما يكن الثمن ، وإن ما من شيء قادر على منعه من فعل ذلك - لا قلبه الضعيف ولا السلطات التي من المرجَّح أنها تقرأ رسائله.

عزيزي أناتولي ، هل تتذكّر الليلة التي سبقت موت ستالين ؟ حلمت بطيور في تلك الليلة. ليست هي الحمامات البيضاء التي كنت تواقة إلى رؤيتها - حمامات تعتقد نساء المخيم أنها إشارة إلى إفراج وشيك ، بل غربان سوداء ، آلاف الغربان الواقفة صفوفًا كبيادق الشطرنج على مساحة أسمنتية خالية. لم يكن يكاد يبدو على الغربان أنها تتنفّس. ظلت ساكنة عندما سرت إليها وصفقت بيدي. صفقت وصفقت حتى آلمتني كفاي. وعندنا استدرت حتى أنصرف ، جعلتها إشارة لم أسمعها تنطلق طائرة. طارت الغربان مشكّلة غيمة خافقة حجبت القمر. نظرت إلى تلك الغيمة تنزاح يمينًا ، ثم تنزاح يسارًا ، ثم تشتتت الغيمة فجأة ، تشتتت في كل اتجاه ، وانطلق كل طائر في سبيله.

وفي الصباح التالي ، بدأت الموسيقى قبل الفجر ؛ موسيقى منطلقة من مكبرات الصوت. بدا لي أننا انتصبنا كلنا جالسات في اللحظة نفسها ، ورفرفت أعيننا إلى أن ألفت الظلمة. موسيقى جنائزية... إنهم يضعون موسيقى جنائزية. لم تقل أية سجينة في المهجع رقم 11 أية كلمة. لم تسألن أيٌ منهنّ عمن مات ؟ عرفنا الإجابة من غير سؤال.

غسلنا وجوهنا بالماء البارد من حوض الاستحمام على صوت الموسيقى المتواصل ، ثم ارتدينا أثوابنا. لم نكن نعرف إن كانوا سيستدعوننا. وعندما لم يأت أحد إلينا ، جلسنا على أرفف النوم وانتظرنا صامتات. ذهبت بوينايا إلى الباب ففتحته قليلًا وأخرجت رأسها منه. قالت وهي تهز رأسها: «لا شيء».

توقفت الموسيقى ، وخشخشت مكبرات الصوت. سمعنا صوت وضع الإبرة على الأسطوانة ، ثم بدأ النشيد الوطني.

نظرنا من حولنا غير عارفات إن كان علينا أن نظل جالسات ، أو نقف ، أو ننشد. وقفت بضع نساء ، فحذت بقيتنا حذوهنّ. انتهى النشيد ، وبقينا واقفات. مرت لحظة صمت قبل أن تقرقع مكبرات الصوت من جديد ونسمع الصوت العميق الذي نعرفه ، صوت يوري بوريسوفيتش ميفيتان من راديو موسكو يعلن قائلًا: «لقد توقّف عن الخفقان قلب معاون العبقري لينين الذي واصل عمله ، قلب القائد المعلم للحزب الشيوعي والشعب السوفييتي».

انتهى التسجيل وأدركنا أن علينا أن نبكي فبكينا. بكينا حتى تورمت عيوننا وجفت حلوقنا. لكن دمعة واحدة من دموعنا لم تكن حزنًا عليه.

جرى تخفيض سنواتي الخمس إلى ثلاث بعد فترة وجيزة من سقوط القيصر الأحمر. عدت إلى البيت في الخامس والعشرين من شهر نيسان. لقد حفَّز موت ستالين قادتنا الجدد على إخلاء سبيل مليون ونصف مليون من السجناء. عندما تلقيت الخطاب الذي حدد موعد إطلاق سراحي ، عدت إلى المهجع رقم 11 ونظرت إلى قطعة المرآة المكسورة المعلقة فوق حوض الاستحمام. كان لي ذلك المظهر البرونزي الذي يكون لامرأة أمضت سنين طويلة في الحقول. ظلّ لون عينيّ أزرق طحينيًا ، لكن تجاعيد كثيرة وجيوبًا داكنة صارت تحيط بهما. بقع على أنفي من حروق الشمس. لم يكن مظهر جسدي صورة للموت ، بل للبقاء على قيد الحياة: ترقوتان نافرتان ، وأضلاع بارزة كلّها ، وفخذان نحيلان كأنهما عصاتان ، وشعر أشقر كامد اللون من غير حياة ، وسن أمامية كسرتها حصاة كانت في الحساء.

كيف سيراني بوريا ؟ تذكّرت ذلك الوقت الذي قال لي فيه إنه يخشى رؤية شقيقتيه من جديد بعد سنين من فراقهما ، بعد هجرتهما إلى أكسفورد. قال إنه يكاد يفضّل ألّا يراهما من جديد حتى تظل سليمة في ذهنه صورة الشابتين الجميلتين اللتين كانتاهما. هل سيكون إحساسه تجاهي هكذا ؟ وهل سينظر إليَّ مثلما كان ينظر إلى زوجته... امرأة ما عاد يشاركها الفراش ؟

هل سيقارنني بابنتي التي رآها تكبر وتصير صبية جميلة بينما كنت أشيخ بأكثر من سنيّ عمري الحقيقية ؟ كتب لي مرة على بطاقة بريدية: «صارت إيرا صورة من أمها».

كانت بوينايا لا تزال منتظرة أن يشملها العفو. مشت خلفي كأنها ذاهبة لكي تغسل وجهها ، ثم استدارت ودفعتني في اتجاه المرآة المعلقة فوق حوض الاستحمام. تساقطت شظايا الزجاج على الأرض. تراجعت بخطوات متعثرة ، وسال على جبهتي خيط من الدم. ابتسمت لي فابتسمت لها. كان الدم يقطر في فمي. اكفهرّ وجهها وسارت مبتعدة عني. كانت تلك آخر مرة أراها. لكني سمعت أن من لم يشملهم العفو قد ثاروا آخر الأمر. وسمعت أن حريقًا شب في الحقول ، وكوخ العراب ، والمعسكر كله ، فأتى على كل ما هناك. تخيلت أن بوينايا هي من أشعل تلك النار.

صعدت إلى القطار المتجه إلى موسكو ، يا أناتولي ، امرأة تم إصلاحها. لقد كبرت المدينة كثيرًا خلال ثلاث سنوات غبتها عنها. كانت الروافع العالية تحمل عوارض فولاذية. حلت المصانع محل الحقول. وبين المباني القديمة ذات الطابقين ، المباني المصنوعة من جذوع خشبية ، نهضت كتل من بنايات الشقق السكنية التي لها ألوف من النوافذ وألوف من حبال الغسيل الممدودة على ألوف الشرفات. كانت فيسوتكي(8) ستالين ، الباروكية والقوطية ، أبراجًا تلامس السماء ، وعلى قمة كل منها نجمة حمراء. غيرت هذه الأبراج مظهر المدينة معلنة أمام العالم كله أننا ، نحن أيضًا ، قادرون على تشييد بنايات تناطح السحاب.

كان ذلك في نيسان ؛ وكانت المدينة في أول الربيع. عدت إليها مع عودة أزهار الليلك البنفسجية ، مع عودة التوليب ومساحات من أزهار الثالوث الحمراء والبيضاء ، مع استيقاظها من سباتها الشتوي. تخيلت نفسي سائرة من جديد في جادات موسكو الفسيحة ، مع بوريا.

أغمضت عينيَّ مستمتعة بتلك الصورة. وعندما فتحتهما من جديد ، كان القطار قد وصل. نظرت إلى الأمام قلقة: لقد قال بوريا إنه سيكون في انتظاري.

(8) فيسوتكي (المفرد فيسوتكا): عالية ، أو مرتفعة (بالروسية).

الفصل السادس
ساكن السَّحاب

استيقظ بوريس من نومه. كان أول ما فكر فيه صورة قطار سائر في الريف، ينير دربًا في الليل، متجهًا إلى «المدينة الأم ذات الحجارة البيضاء». مد ساقيه تحت لحافه الرقيق، وتخيل صورة خد أولغا الممتلئ منضغطًا على زجاج النافذة. كم كان يحب النظر إليها في نومها! بل حتى يحب طريقة شخيرها! شخير رقيق كأنه صوت صفّارة مصنع آت من بعيد.

بعد ست ساعات، سوف يتوقّف في المحطة ذلك القطار الآتي بمحبوبته. سوف تكون أم أولغا منتظرة على رصيف المحطة، مع طفليها. سيقفون جميعًا على رؤوس أصابعهم لكي يكونوا أول من يراها تنزل من القطار. بعد خمس ساعات من الآن، سيلتقي بوريس أسرتها في شقتهم في شارع بوتابوف، ثم يذهبون إلى المحطة معًا.

لم يسمع صوتها منذ ثلاث سنين. لم يمسها منذ ثلاث سنين. كانت آخر مرة على مقعد في حديقة عامة بالقرب من مكتب تحرير صحيفة غوسليتيزدات. وبينما كانا يضعان خططًا لقضاء تلك الأمسية، انتبهت أولغا إلى وجود رجل يرتدي معطفًا جلديًا طويلًا بدا لها أنه يتنصت على حديثهما. نظر بوريس إلى الرجل وقرر أنه ليس أكثر من رجل جالس على مقعد في الحديقة. قال لها: «هذا كل ما في الأمر».

«هل أنت متأكد؟».

شدّ على يدها.

سألته: «أليس من الأفضل أن تظل معي بدلًا من الذهاب إلى البيت؟».

«عليّ أن أعمل، يا حبيّ؛ لكني سأراك الليلة في بيريدلكينو. هي باقية يومين في

موسكو...». قال هذا منتبهًا إلى تفادي نطق اسم زوجته في حضور أولغا... «نستطيع أن نكون مرتاحين هناك، وأن نتناول عشاء خفيفًا متأخِّرًا. ثم إنني أريد أيضًا أن أعرف رأيك في الفصل الجديد».

وافقت على الخطة، وقبلت خده بطريقتها المحتشمة عندما يكونان بين الناس. كان يكره أن تقبّله هكذا، ويشعر كأنه عمّها... بل أسوأ من ذلك... كأنه أبوها.

لو عرف أن لقاءهما على مقعد الحديقة سيكون آخر مرة يرى فيها أولغا طيلة ثلاث سنين، لأدار وجهه وقبّلها على شفتيها. لو عرف، لما أسرع عائدًا إلى البيت حتى يكتب. لو عرف، لصدّق ما قالته له عن الرجل ذي المعطف الجلدي الطويل. لو عرف، لما ترك يدها.

في تلك الأمسية، انتظر بوريس وصول أولغا إلى الداتشا، لكن ساعات كثيرة مضت من غير أن تظهر، فأدرك أن هناك أمرًا غير طبيعي. ذهب مباشرة إلى شقة أولغا فرأى أمها جالسة، شبه مشلولة، تعبث أصابعُها بشقّ في وسادة الأريكة. رفعت رأسها ونظرت بعينين خاليتين من أي تعبير عندما دخل إلى الغرفة، ثم أجابت عن أسئلته إجابات متقطعة. قالت: «رجال في بدلات سوداء... اثنان... لا، ثلاثة... رسائلها كلها، وكتبها كلها... سيارة سوداء».

لم يكن بوريس في حاجة إلى التدقيق حتى يدرك هوية أولئك الرجال، وحتى يعرف المكان الذي أخذوا أولغا إليه.

سألها: «أين الطفلان؟».

سحبت ريشة إوزّ بيضاء وسوداء من شق الوسادة، وراحت تدعكها بين أصابعها.

«هل هما هنا؟ هل هما بخير؟».

لم تجبه والدة أولغا، فمضى صوب غرفة الطفلين. ارتاح، وانكسر قلبه، عندما سمع بكاء ميتيا وإيرا المكتوم آتيًا من خلف الباب المغلق.

استدار ففوجئ عندما رأى والدة أولغا واقفة في الممر خلفه. جلدته بسؤالها قبل أن يفلح في طرح أي سؤال آخر عليها، «سوف تذهب وتأتي بها، ألن تفعل هذا؟ ألن تطالبهم بإطلاق سراحها؟ ألن تجعلهم يلغون كل شيء؟». لوّحت بالريشة في وجهه... «ألن تعوّضها عن كل ما فعلته، وعن الخطر الذي وضعتها فيه؟». وعد بوريس والدة أولغا بأن يذهب على الفور إلى لوبيانكا، وأن يفعل كل ما في وسعه لإنقاذ ابنتها. لكنه لم يقل لها إنه لم يكن قادرًا على فعل شيء؛ ولم يقل لها إن من العبث أن يذهب ويطرق أبواب لوبيانكا مطالبًا بإطلاق سراح

أولغا. لم يقل لها إن كونه أكثر الكتّاب الروس الأحياء شهرة لن ينفع في شيء إن كانوا قد اعتزموا أذيّته من خلالها. لم يقل لها إن من الممكن أن يحبسوه، هو أيضًا.

عاد إلى البيت، لا إلى الداتشا التي في بيريدلكينو، بل إلى شقته في موسكو، إلى زوجته. كانت زينايدا جالسة إلى طاولة المطبخ تدخّن وتلعب الورق مع صديقاتها. قالت عند دخوله: «يبدو مظهرك كمظهر من رأى شبحًا».

أجابها: «رأيت أشباحًا كثيرة». عرفت زينايدا معنى ذلك التعبير في وجه زوجها. إنه التعبير نفسه الذي رأته في وجهه مرات كثيرة خلال زمن التطهيرات. زُجّ بآلاف في السجون خلال سنوات «الرعب الكبير»؛ وقضت معسكرات الاعتقال عليهم، كلهم تقريبًا. شعراء، وكتّاب، وفنانون. أصدقاء بوريس، وأصدقاء زينايدا. أساتذة، وفلكيون، وفلاسفة. مرت عشر سنين، ولما تندمل تلك الجروح بعد... ذكريات دامية، حمراء مثل العلم! كانت زينايدا مدركة أن عليها ألا تسأل عما جرى.

عند وصول قطار أولغا، ستكون أربعة أيام قد انقضت منذ بداية سفرتها. ستكون قد سارت على قدميها من بوتما إلى المحطة، ثم صعدت إلى قطار هناك، ثم إلى قطار آخر متجه إلى موسكو. ينهض بوريس من فراشه ويرتدي قميصًا أبيض نظيفًا، وبنطلونًا صوفيًا بني اللون له حمالتان. ينزل السلم محاذرًا إيقاظ زوجته، وينتعل جزمته المطاطية، ثم يخرج من باب الداتشا الجانبي.

يظهر أول قرص الشمس من فوق قمم أشجار البتولا التي بانت براعمها. يسير بوريس في درب في الغابة. يسمع ثرثرة زوج من طيور العقعق، بعيدًا بين الأغصان، فيتوقّف ويرفع رأسه ناظرًا إليهما، لكنه لا يتمكّن من معرفة مكانهما. يمضي الدرب متعرّجًا في الغابة صوب جدول ازدادت مياهه كثيرًا بفعل ذوبان الثلوج. يتوقّف بوريس على الجسر الضيق فوق الجدول، يستنشق نفسًا عميقًا، يحب رائحة الماء البارد المنساب من تحته.

ينظر بوريس إلى الشمس، ويقدّر أن الساعة قد بلغت السادسة. وبدلًا من العودة مرورًا بالمقبرة، ملتفًا من حول المقر الصيفي لإقامة البطريرك، ثم في اتجاه نادي الكتّاب، مثلما يفعل دائمًا، يسلك بوريس طريقًا أقصر متجهة صوب الشارع الرئيسي حتى يختصر مسافة العودة إلى البيت. يريد أن يكتب ساعة أو ساعتين، على الأقل، قبل أن ينطلق إلى رؤية أسرة أولغا في موسكو.

يقترب من البيت فيرى النور مضاء في المطبخ. زينايدا تسخّن الموقد لكي تعد إفطار بوريس المعتاد: بيضتان مقليتان مع الشِّبِثْ المجفّف. وعلى الرغم من لسعة البرودة في الهواء، يخلع بوريس ملابسه ويغتسل في حوض الاستحمام الذي في الخارج. فحتى بعد تزويد الداتشا بحمام داخلي جديد وبالماء الحار حتى تصير بيتًا شتويًا أيضًا، لا يزال بوريس يفضل الاستحمام في الخارج، ولا يزال يستمتع بصدمة الماء البارد على جسده.

وبينما يجفّف بوريس جسده بمنشفة فائحة برائحة الرطوبة، يأتي كلبه العجوز ويحييه بأن يلعق قطرات الماء المنحدرة على ساقيه الطويلتين الهزيلتين. يربّت بوريس على رأس توبيك، ويوبّخ الحيوان الذي صار نصف أعمى لأنه ما عاد يرافقه في نزهاته الصباحية.

يهاجم صوت التلفزيون أذني بوريس عندما يدخل الداتشا. لقد أصرّت زينايدا على وضع جهاز تلفزيون. قاوم بوريس ذلك شهورًا طويلة، لكنه استسلم عندما هددته بأن تكف عن إعداد الطعام له. يكرّر التلفزيون (الذي هو من مظاهر الرفاهية) عرض جنازة ستالين للمرة المئة. يتوقّف بوريس لحظة وينظر بينما كانت الكاميرا تركز الصورة على الوجوه الأكثر حزنًا في حشد الحاضرين. يكشّر، ثم يقفل الجهاز.

يأتيه صوت زينايدا من المطبخ: «ما هذا؟».

يجيبها بوريس: «صباح الخير».

ليس جائعًا، لكنه يجلس على أية حال. تضع الطبق أمامه، وتسكب له فنجان شاي. لا تجلس إلى الطاولة مع زوجها، بل تستدير وتعود لغسل المقلاة وهي تدخن سيجارتها تاركة رمادها يسقط في المغسلة.

يقول لها بوريس: «افتحي النافذة، من فضلك، يا زينا». إنه يكره رائحة السجائر. صحيح أن زينايدا وعدت بأن تخفّف التدخين، لكنها لم تفعل ذلك بعد. تتنهّد زينايدا، وتطفئ السيجارة، ثم تنهي غسل الأطباق. ينظر بوريس إلى زوجته في ضياء الفجر المنسكب فوق المغسلة عبر النافذة. إن الغضون على جبهتها، وطيات الجلد المحيطة برقبتها، غير واضحة في هذه اللحظة. يرى فيها الآن صورة المرأة التي تزوجها قبل عشرين عامًا. يفكّر في أن يقول لها إنها تبدو جميلة، لكن وخزة ذنب تمنعه من ذلك لأنه موشك على لقاء أولغا.

تدقّ الساعة في الممر معلنة تمام السابعة. يصل قطار أولغا بعد أربع ساعات. يرغم بوريس نفسه على إنهاء طعامه. يبتلع آخر لقمة بيض، ويدفع بكرسيه إلى الخلف مبتعدًا عن الطاولة.

تسأله زينايدا: «هل أنت ذاهب لكي تكتب ؟».

مع هذا السؤال ، ينشأ لدى بوريس شك في أن زوجته تعرف خطته. يجيبها ، «أجل! مثل كل مرة. لكني لن أجلس للكتابة إلا ساعة واحدة ، أو نحو ذلك ، لدي عمل آخر في المدينة».

«ألم تكن في المدينة يوم أمس ؟».

«كان ذلك منذ يومين ، يا عزيزتي». يتوقّف لحظة. لقد نسي كيف يكذب على زوجته... «سوف ألتقي بأحد المحررين في ليتيراتورنايا موسكوفا. إنه مهتم ببعض ترجماتي الجديدة».

تقول له: «ربما أرافقك إلى المدينة. أريد الذهاب إلى التسوق».

«في المرة القادمة ، يا زينا. سوف نخصّص يومًا لهذا الأمر. وقد نذهب في نزهة لكي نستمتع برائحة أشجار الليمون التي ظهرت براعمها».

تومئ زينايدا برأسها. تأخذ طبقه عن الطاولة ، ثم تغسله صامتة.

يجلس بوريس إلى طاولة الكتابة. يتناول من السلة التي عند قدميه الأوراق التي كتبها في اليوم السابق. يعبس وجهه ، ويشطب بقلم الحبر جملة فيها ، ثم يشطب فقرة ، ثم يشطب الصفحة كلها. يتناول ورقة بيضاء ويحاول كتابة المشهد من جديد.

لقد كانت طاولة الكتابة هذه ملكًا لتيتسيان تابيدزه ، الشاعر الجيورجي العظيم الذي كان من أعز أصدقائه. في سنة 1937 ، أي في ذروة سنوات التطهير ، أخذوا بيتسيان من بيته في مساء يوم خريفي. جرت نينا ، زوجته ، في الشارع خلف السيارة السوداء ؛ جرت حافية القدمين. وعندما وجهوا إليه تهمة الخيانة لأنه يقوم بنشاطات معادية للاتحاد السوفييتي ، لم يأت تيتسيان على ذكر اسم أي شخص متعاون معه غير بيسيكي ، شاعره المفضل من القرن الثامن عشر!

مرات كثيرة ، كان بوريس يتخيّل ما جرى لتيتسيان بعد أن أخذته تلك السيارة السوداء. كان مقتنعًا بأن تيتسيان سوف يعاني وحيدًا إذا لم يشاركه من خلال تخيّل معاناته. ولا يزال يقول لنفسه ، مرات كثيرة ، إن هناك احتمالًا لأن يكون صديقه باقيًا على قيد الحياة ؛ لكن نينا تخلّت عن هذا الأمل منذ زمن بعيد. قالت نينا لبوريس عندما أعطته طاولة زوجها إن عليه أن يواصل عمل تيتسيان الجيد. قالت له: «اكتب الرواية العظيمة التي تحلم بها». قبل بوريس هدية نينا ، لكنه لم يشعر يومًا أنه مستحق لها.

لم يكن تيتسيان أول من أُخذ من أصدقاء بوريس. كثيرًا ما يتخيلهم بوريس في الليل ،

عندما يجافيه النوم؛ يستعرض مصائرهم واحدًا تلو الآخر. هناك أوسيب المرتجف في معسكر الترحيل عارفًا أن نهايته قد دنت. باولو يصعد درجات مقر اتحاد الكتّاب، ثم يقف لحظةً ساكنًا قبل أن يصوب المسدس إلى رأسه. ومارينا تعقد الأنشوطة، ثم تقذف بالحبل من فوق عارضة السقف الخشبية.

كان أمرًا معروفًا أن ستالين يحب شعر بوريس ويستمتع به. فما معنى أن تكون لرجل مثل ستالين صلة به من خلال كلماته؟ ما الذي وجد القيصر الأحمر نفسه منجذبًا إليه؟ كانت تلك حقيقة قاسية، حقيقة أنه لا يعود مالكًا لكلماته بعد أن تخرج إلى العالم. بعد نشرها، تصير الكلمات متاحة لكل من يريدها، حتى لرجل مجنون. وأما ما كان أكثر صعوبة عليه فهو معرفة أن اسمه قد شُطب من قائمة ستالين عندما قال ذلك المجنون لأتباعه أن يتركوا المجذوب، الساكن بين السحاب، وشأنه.

يسمع بوريس صوت دقات الساعة يأتيه مكتومًا من الطابق السفلي. إنها الثامنة. يصل قطار أولغا بعد ثلاث ساعات، وهو لم يكتب أية كلمة بعد. لقد انساب ذلك المشهد انسيابًا يسيرًا يوم أمس، لكنه يرفض الظهور الآن.

بدأ كتابة «دكتور جيفاكو» قبل نحو عشر سنين. صحيحٌ أنه حقق فيها تقدمًا كبيرًا، لكنه لا يزال يتمنّى أن يستطيع العودة إلى تلك الأيام التي فكّر فيها، أول مرة، بكتابة هذه القصة... عندما كانت لا تزال متدفّقة من بقعة بِكر في داخله. كان إحساسه بذلك التدفّق مثل إحساس من يعثر على حب جديد... الوسواس، الوله، تفكيره العاجز عن الانصراف إلى أي شيء آخر، والشخصيات تتسلّل إلى أحلامه، وقلبه الذي يطير فرحًا مع كل اكتشاف، وكل جملة، وكل مشهد. مرّت أوقات كثيرة كان بوريس يحسّ فيها أن ذلك هو الشيء الوحيد الذي يبقيه حيًا.

قبل وقت قصير من اعتقال أولغا، كانت السلطات قد «عجنت» خمسة وعشرين ألف نسخة من كتاب «أعمال مختارة» لبوريس. وفي مرات كثيرة، عندما يعجز بوريس عن النوم، كان يتخيّل كلماته تذوب في عجينة الورق ذات اللون الحليبي.

كان اشتداد الرقابة، مترافقًا مع اعتقال محبوبته، قد ألهب حماسة بوريس لإنجاز روايته. اعتزل في الريف لكي يكتب، لكنه وجد نفسه عاجزًا عن الكتابة. خلق هذا الانسداد في نفسه حالة قلق كان يحسّها أشبه بإبر تخزه في صدره. ثم صارت الإبر نِصالًا؛ وسرعان ما وجد

نفسه على سرير في المستشفى. أصابته نوبة قلبية. وهناك ، مع الأنابيب التي وضعوها له ، ومع المبولة إلى جواره ، كان بوريس يتساءل عمن سيرث طاولة الكتابة التي أعطته نينا إياها. هل ستؤول طاولة تيتسيان إلى واحد من أبنائه ؟ أم لعلها تذهب إلى كاتب آخر! أو أن أحدهم سيحطمها بفأس فيجعلها حطبًا للموقد حتى تشيع الدفء في أرملته وأطفاله ، ذلك الدفء الذي لم يستطع إشاعته فيهم ؟ يستطيعون أيضًا أن يلقوا في تلك النار بروايته التي لم يكملها.

تعافى بوريس من الأزمة القلبية في الوقت المناسب لكي يرى نهاية تلك الحقبة. لقد مات ستالين ، وسوف تعود أولغا إليه. صار ممكنًا أن يعود كل شيء مثلما كان من قبل.

يذهب بوريس إلى طاولته المنتظرة ، ويظن أن تغيّر الوضع سيوقظ الإلهام في قلمه. لكن هذا لا يحدث. ينظر إلى الخارج ، عبر النافذة. تسقط أشعة الشمس مائلة على الجزء السفلي من حديقته ، ويقدّر أن قطار أولغا سوف يصل بعد ساعتين. عليه أن يخرج قبل أقل من ساعة حتى يكون لديه وقت لرؤية أسرتها. يتابع سربًا من البط يحط في الحديقة ويبدأ نبش التراب المقلوب حديثًا باحثًا فيه عن ديدان يأكلها.

لقد أهمل بوريس الحديقة طيلة السنوات الثلاث التي أمضتها أولغا في بوتما. في الربيع الأول بعد اعتقال أولغا ، رغبت زينايدا في تنظيف الحديقة من الأعشاب من أجل زراعتها. كان بوريس في نزهته الصباحية عندما بدأت زينايدا عملها ؛ وعندما عاد إلى الداتشا ، كانت قد أنجزت نصف مهمة قطع الأعشاب الكثيفة مستخدمة مقص التقليم. صاح بها طالبًا منها أن تتوقّف ، لكنها تظاهرت بأنها لم تسمعه ، فتح البوابة وجرى إلى الحديقة. قال لها ، «لا» ، وانتزع مقص التقليم من يدها.

جثت زينايدا على ركبتيها. صاحت به: «العالم لم يتوقف. إنه هنا. إنه هنا بالضبط!». اقتلعت ملء قبضتها من تلك الأعشاب ، اقتلعتها من الأرض ورمتها عند قدميه.

وبعد ذلك ، لم تحاول زينايدا أبدًا أن تجتثّ أعشاب الحديقة ؛ بل صارت ترفض النظر إليها عندما تمر بها ؛ وسرعان ما صارت الحديقة أجمة نامية ، وصار بوريس نفسه يجد صعوبة في تبين حدودها الأصلية.

استمر هذا إلى أن قرأ بوريس بطاقة أولغا ورأى التاريخ: الخامس والعشرون من نيسان. في عصر ذلك اليوم نفسه ، أمضى بوريس ساعات في قلب التربة التي لم يذب صقيعها إلا من

فترة وجيزة، قلب التربة مستخدمًا رفشًا. وفي اليوم التالي، أحرق الأعشاب والأوراق عند حافة تلك الأرض، وملأ عربة يدوية بحجارة تجمّعت في حديقته خلال تلك السنين. سمّد التربة بأن دفن فيها، على عمق متر، بضعة أسماك ترويت. أصلح السياج الخشبي الذي كان قد تهاوى لقلة العناية به. ثم عاد، بعد ثلاث سنوات، إلى تخطيط حديقته وتقرير النباتات التي سيزرعها في كل ركن منها. اللفت الأحمر والسبانخ أولًا. ثم الفراولة والشِّبِتْ والعنبية والكشمش والخيار. ثم اليقطين والبطاطس والفجل. ثم البصل والكراث. وبعد انتهاء بوريس من وضع الخطط لحديقته، راح يتأمل ما سوف تستتبعه عودة أولغا.

ما كان بوريس قادرًا، قبل ثلاث سنين فقط، على تخيل عالم لا تكون أولغا في مركزه. صحيح أن يومًا لم يمر به من غير أن يفكّر فيها، لكنه كان يحسّ شوقه إليها يخفت مع مرور الزمن. ثم بدأ يقدّر تلك البساطة التي صارت في حياته، اليُسر الذي حلّ فيها. ما عاد يحسّ بالذنب لأنه يكذب على زوجته، وما عاد يحسّ حرجًا إزاء كلام الناس وإزاء حقيقة أن زينايدا تعرف بالأمر لكنها لا تتكلّم فيه. ما عاد يصيبه ذلك التوتر الذي كان يأتيه مع التقلّبات الكثيرة في مزاج أولغا، ومع إحساسه بالعجز لعدم قدرته على إعطائها كل ما تطالبه به.

بعد ذلك اليوم في الحديقة، استعرض بوريس مرات كثيرة الأسباب التي تدفعه إلى البقاء مع أولغا والأسباب التي تدفعه إلى الابتعاد عنها. من غير أولغا، لن يعيش أبدًا تلك الذرى التي كان يعيشها إلى جوارها؛ لكنه سيتجنّب أيضًا تلك الهاويات السحيقة التي كان يسقط فيها. لن يحس تلك الرغبة الحارقة أبدًا، لكنه لن يكون أيضًا عرضة لنوباتها وتهديداتها وأهوائها.

خلال هذا التردد، قرأ بوريس مقطعًا من «رحلة أونيجين» ودوّن كلمات بوشكين على ورقة. ظل أيامًا ينظر إلى تلك الكلمات مفكرًا حائرًا بين رميها وبين إدراجها في روايته.

الآن، صارت ربةُ المنزل مَثَلي،
وصار السِّلمُ رغبتي،
قصعةُ حساء، ونفسيَ الهانئة.

قرّر آخر الأمر أن يضع هذه الكلمات في روايته، وأن ينهي أمره مع أولغا. وقبل أسبوع من ملاقاتها في محطة القطار، طلب بوريس من ابنتها إيرا أن يلقاها في ساحة بوشكينسكايا، الساحة نفسها التي طلب فيها من أولغا - أول مرة - أن يلتقيها... منذ سبع سنين.

وصل بوريس قبلها. جلس على مقعد وراح ينظر إلى كهل يرمي إلى الحمامات بذور عباد

الشمس. عندما انتهى ما لدى الكهل من بذور، مزّق نتفًا من زاوية صحيفة، ثم رماها آملًا ألا تدرك الحمامات أنها ليست طعامًا فتظل قريبة منه مدة إضافية. لكنها نقرت بضع نقرات، ثم رحلت عنه.

انعطفت إيرا عند الزاوية فرأت بوريس جالسًا على المقعد. لوّحت بيدها وابتسمت له ابتسامة كبيرة.

لم تكن ابنة أولغا أكثر من فتاة صغيرة عندما رآها أول مرة. شرائط شعر، وردة وحذاء أبيض. تذكّر أول لقاء له مع إيرا وميتيا، في شقة أولغا. تذكّر كيف كان الحديث بطيئًا أول الأمر، ثم بدأ الطفلان ينفتحان عليه بعد أن نجح في استمالتهما ببضعة أسئلة: هل تحبّان المدرسة؟ هل تحفظان أية أغنيات؟ هل تحبّان القطط؟ هل تفضّلان الريف أم المدينة؟ هل تحبّان الشعر؟ أجابت إيرا عن السؤال الأخير: «أوه، أنا أحب الشعر. وأكتب قصائد أيضًا».

«هل يمكن أن تكوني لطيفة معي وتُسمعيني واحدة من قصائدك؟».

وقفت إيرا وألقت عليه قصيدة عن حصان خشبيّ دبت فيه الحياة وانطلق يجري في موسكو، لكنه سقط في حفرة في النهر المتجمّد. ألقت تلك القصيدة من الذاكرة؛ ألقتها بحيوية وحماسة كانا مفاجأة لبوريس.

والآن صارت إيرا صبية في الخامسة عشرة. وضعت وشاح أمها الحريري على كتفيها. كان بوريس معجبًا بجمالها. أخجله إحساسه بأنها أثارت فيه عاطفة تشبه العاطفة التي أثارتها أولغا في نفسه عندما رآها أول مرة في مكتب صحيفة نوفي مير.

«فلنمشِ»... قالت إيرا هذا وشبكت إيرا ذراعها بذراع بوريس. كثيرًا ما كانت تقول له إنه صار «أباها، تقريبًا»، ملاطفة كانت تسرّه وتملأه بنوع من التوتر. قالت له: «ما أجمل هذا النهار!»، وراحت تسير بخطوات سريعة نشطة وهي تخبره بالتحضيرات الجارية في بيتهم استعدادًا لعودة أمها. قالت له إنهم خطّطوا لإقامة احتفال، وإنها بدأت التحضير للوليمة مع جدّتها. قالت أيضًا إن أحد الجيران قدم لهم زجاجتي كونياك من أجل الاحتفال. «وبالطبع، ستكون أنت ضيف الشرف، إلى جانب ماما. بل إنني أحاول الحصول أيضًا على بعض شوكولا البندق التي أعرف أنك تحبها».

قال لها بوريس: «أخشى أنني لا أستطيع الحضور».

توقّفت عن السير. استدارت إليه وسألته: «ماذا تعني بهذا؟».

«لست واثقًا من قدرتي على صعود السلم». وضع يده على قلبه... «لم أشفَ جيدًا، حتى الآن».

«أنا وميتيا سنساعدك. إننا نساعد جدتي في صعود السلم ونزوله مرتين كل يوم».

«لقد صارت أوقاتي مزدحمة كثيرًا... بالرواية. وأنا الآن أعمل على ترجمة جديدة. لا يكاد يبقى لي وقت لتسريح شعري». ربّت على شعره الفضي محاولًا أن يجعل ذلك نكتة، لكن إيرا لم تضحك. ادلهمّ وجهها، وسألته عما يمكن أن يكون أكثر أهمية من رؤية أمها تعود إلى بيتها بعد كل ما مرّت به.

«لن أترك أمك أبدًا، ولن أتركك، ولن أترك ميتيا. لكن الأمر انتهى الآن».

«هل صار قلبك باردًا بعد بضع سنين فقط؟».

«لا بد لنا من التلاؤم مع هذا الواقع الجديد. وعليك إخبار أمك بأن من الممكن أن نظل صديقين... لكن، صديقين فقط. أدركتُ بعد مرضي أن من الأفضل لي أن أظل مع أسرتي».

«لقد قلتَ لي... لقد قلتَ لميتيا... لقد قلت لجدتنا... لقد قلت لأمي إننا صرنا أسرتك».

«أنتم أسرتي. بالطبع، ولكن...».

«لماذا تقول لي هذا؟ لماذا لا تقوله لأمي بنفسك؟».

«أنا في حاجة إلى مساعدتك لإقناعها بأن هذا أفضل. هذا أفضل لنا جميعًا».

قالت إيرا: «سأترك أمي تقرّر ما تراه أفضل من أجلها».

«أرجوك، افهمي أن...».

«لن أفهم أبدًا...». فكّت ذراعها من ذراعه... «أبدًا».

«لا أريد أن أترك الأمر هكذا».

«إذًا، عليك أن تأتي معنا لاستقبال أمي في محطة القطار. سوف تعانقها. فبعد كل ما مرت به... من أجلك!... هذا أقل ما يمكنك فعله. وبعد ذلك، تستطيع أن تقول لها بنفسك كل ما تريد قوله».

وافق بوريس، ثم افترقا. وقف ينظر إلى إيرا تسير مبتعدة، ويفكّر في أن رأسها يبدو من الخلف شديد الشبه برأس أولغا. ودّ أن ينادي إيرا ويقول لها إنه مخطئ، وإنه لم يكن يعني ما قاله لها. أراد القول إن كل شيء سيعود مثلما كان. كيف يمكن ألا يعود كل شيء مثلما كان؟ بدلًا من ذلك، استدار وعاد إلى مقعده فرأى أن كهلًا جديدًا قد حلّ محلّ الكهل السابق...

رآه يطعم الحمامات. تساءل في نفسه عن عدد السنوات الباقية له قبل أن يأخذ مكان هذا الكهل، وقبل أن يملأ جيوبه بطعام الطيور.

أولغا مستيقظة الآن، على الأرجح. يتساءل كيف سيكون شكلها. ألا تزال جميلة؟ أم إن معسكرات الاعتقال قد غيّرتها؟ كيف ستراه أولغا عندما تنظر إليه من جديد؟ لقد نقص وزنه، وفقد بعض شعره، وبدأ يحسّ عمره الحقيقي... لأول مرة في حياته. تركيبة الأسنان البورسلانية هي التحسّن الوحيد الذي طرأ عليه منذ ذهابها. لكن، حتى مع وجود أسنانه الجديدة الجميلة، صار ينظر الآن في المرآة فيرى رجلًا عجوزًا، متضائلًا، ذا قلب عليل.

يبعد بوريس تلك الأفكار عن ذهنه، ويسير عائدًا إلى عمله. لقد اهتدى أخيرًا إلى الجملة الصحيحة؛ ثم تدفّقت الكلمات من بعدها.

تمتلئ الورقة فيتركها تسقط في السلة، ثم يتناول ورقة أخرى. يعرف أن عليه الانطلاق خلال الدقائق القليلة التالية، حتى لا يصل متأخرًا؛ لكنه يواصل الكتابة.

وأخيرًا، عندما يرفع رأسه عن عمله، تكون الغرفة قد أظلمت، ويشم رائحة الدجاجة التي تطهوها زينايدا في الفرن. يجذب سلسلة المصباح الصغير على مكتبه فينبعث ضوؤه، ويواصل الكتابة.

تبتسم زينايدا لزوجها عندما يهبط السلم آخر الأمر من أجل تناول العشاء. تطفئ سيجارتها، ثم تشعل شمعتين وضعتهما في وسط الطاولة. لا تقول شيئًا عن عدم ذهاب بوريس إلى موسكو؛ فهو لم يذهب! يأكلان معًا صامتين، ثم يشعر بتوتر كتفيه يتلاشى... يزول ذلك التوتر الذي لم يكن منتبهًا له. يقول في نفسه إن عليه أن يمضي بقية أيامه هكذا: يكتب، ويكون شخصًا منتجًا، ويشاطر زوجته وجبة حارة على العشاء. يطلب نبيذًا، فتملأ له زوجته كأسًا.

يقول لنفسه إن عليه ألا يفكر في أولغا، ولا في ما تفعله. أتراها تتناول الطعام الآن في تلك الوليمة مع أسرتها، أم إنها فقدت شهيتها؟ وهل ستغفو الليلة؟ يحاول منع نفسه من تخيل مظهر وجهها عندما ترى أسرتها واقفة على الرصيف في استقبالها... لكنها تدرك أنه غير موجود هناك.

يستيقظ بوريس. لا تزال السماء مظلمة. يرتدي ملابسه، ويخرج من الداتشا من أجل نزهته الصباحية محاذرًا إيقاظ زوجته النائمة. يمر في الحديقة فيرى بضع بقع خضراء زاهية، منبثقة

من التراب. يسير نازلًا التل ، ويمر بالجدول ، ويجتاز المقبرة ، ثم يصير في القرية. يجد نفسه واقفًا في المحطة ، منتظرًا القطار الذاهب إلى موسكو.

لا يتخذ قراره بأن يرى أولغا إلا بعد أن يصير في شارعها. ارتقى الطوابق الخمسة بطيئًا ، ممسكًا بدرابزين السلم أثناء صعوده. وعند كل فسحة استراحة على السلم ، يقول لنفسه إنه سيراها لحظة واحدة ، لحظة واحدة فقط ، وسيقول لها ما قاله لإيرا في الحديقة. يقول لنفسه عندما يبلغ بابها إن من حقها أن تسمع هذا منه. يضغط بيده على صدره حتى يهدّئ قلبه. يستنشق نفسًا عميقًا قبل أن يقرع الباب ؛ لكن الباب ينفتح قبل أن يرفع يده. انقضت سبع سنين منذ أول لقاء بينهما ؛ وانقضت ثلاث سنين منذ رآها آخر مرة. لقد كبُرت ضعفي تلك المدة: يظهر شعرها الأشقر ، المختفي نصفه تحت منديل وضعته على رأسها ، باهتًا كالقش ؛ وقد استقامت تدويرات جسدها ، وبانت غضون حول فمها ، وعلى جبهتها ، وعند زاويتي عينيها. بقع من حروق الشمس على جلدها ، وشامات لم يألف وجودها.

لكنه يخرّ راكعًا على ركبتيه. إنها أكثر جمالًا من ذي قبل.

ما عادت لدى بوريس أسئلة عما يريد فعله. ينهض واقفًا ، ثم يقبّلها... تتركه يقبلها لحظة ، ثم تتراجع خطوة. تتراجع أولغا داخلة شقتها ، لكنها تترك الباب مفتوحًا من خلفها. يتبعها بوريس ، ويهمّ بعناقها. ترفع يديها فتوقفه. تقول له: «لن يتكرّر هذا أبدًا».

يسألها: «ألن يتكرّر أبدًا ؟».

تقول: «هل ستتركني أنتظرك ؟».

يجيبها: «أبدًا ، أبدًا».

الفصل السابع

كم مرة تخيّلت لقاءنا من جديد؟ وكم تخيلت بوريا منتظرًا، قبّعته في يده، ينظر إلى القطار المقترب على السكة؟ كم مرة فكّرت في عناقنا الأول؟ وكم دعكتُ ذراعي وضغطت على كتفي وأنا مستلقية وحدي، على فراشي في القطار، محاوِلةً محاكاة ما سوف أحسّه؟ مرّت الآن ثلاث سنوات ونصف سنة منذ آخر مرة تشاركنا فراشًا؛ فلم نُضِع وقتًا. فاجأتني لمسته. مر زمن طويل جدًا منذ آخر لمسة. أتينا معًا مثل جلاميد صخر منهالة ردّدت موسكو كلها أصداءها.

وبعد ذلك، أرحت رأسي على صدره، وأصغيت إلى ضربات قلبه. قلت له مازحة إن لنبض قلبه إيقاعًا جديدًا بعد نوبتين أصابتاه... «وأسنانك أيضًا»... أسنانه الكبيرة المصفرّة، والثغرة التي في وسطها، صارت الآن بيضاء برّاقة.

سألني: «ألا تعجبك أسناني؟». أغلق فمه، فاستخدمت أصغر أصابعي لفتحه من جديد. أطبق أسنانه على إصبعي متظاهرًا بعضه.

أطبق بأسنانه على إصبعي بشدة أكبر، ولم يفلته بسهولة مثلما كان يفعل من قبل. لم يعد راغبًا في الخروج من شقّتي إلا حتى يكتب، وحتى ينام. خلال فترة غيابي، صار يعيش وقته كلّه في الداتشا في بيريدلكينو؛ في ذلك البيت الذي توسّع خلال سنوات غيابي فصارت فيه ثلاث غرف جديدة، ومياه جارية، وتدفئة بالغاز، وحوض استحمام جديد. خلال عيشي في مهاجع معسكر الاعتقال، كان يعيش في عزلة في الغابات لا يستطيع أكثر الروس أن يحلموا بها.

بعد عودتي من بوتما، صرت أشاركه ماله من غير حرج ومن غير إحساس بالذنب... مال من أجل الملابس والكتب والطعام ومستلزمات المدرسة، ومن أجل سرير جديد.

كانت هناك أشياء أخرى أيضًا.

عهد إليَّ بكل ما كان لديه من أعمال متّصلة بالكتابة: العقود، وترتيب مواعيد إلقاء كلماته وأشعاره، واستلام ما يتلقّاه من مال مقابل الترجمة. إن اتصل محرِّر طالبًا اجتماعًا، فأنا من يذهب إلى ذلك الاجتماع. صرت وكيلة أعماله، المتحدّثة باسمه، وصرت الشخص الذي يقصده الناس إن أرادوا الوصول إليه. صرت أحسّ أخيرًا أنني مفيدة له، مثلما كانت زينايدا.

لكني لم أكن من يطهو وينظّف من أجله، بل من ينقل كلماته إلى العالم. صرت مبعوثته.

وفي كل يوم تقريبًا، كنت آخذ القطار من موسكو إلى بيريدلكينو فنلتقي في المقبرة. كان ممكنًا أن نجلس هناك، وحيدين، ونناقش «دكتور جيڤاكو». وما كان لنا من رفيق هناك غير من يزور المقبرة عَرَضًا... أرمل أو أرملة، مع زهور بلاستيكية؛ أو حارس المقبرة الذي يلزم كوخه عادة، فيقرأ ويدخن سجائره. كنت أحضر معي أحيانًا قطعًا صغيرة من اللحم ملفوفة في منديل قماش من أجل الكلبين الكبيرين اللذين يسرعان إلى لقائي عند البوابة المعدنية.

كان مكاننا على منحدر تل في الجزء غير المستخدم من المقبرة. وعندما يكون الطقس جميلًا، أمد وشاحي على العشب لكي نجلس عليه.

قال لي أكثر من مرة: «أحب أن أدفن هنا، في هذا المكان بالضبط».

«لا تكن كئيبًا هكذا».

«ظننتها فكرة رومانسية».

وذات يوم، كنا جالسَيْن في مكاننا على منحدر التل، فرأى بوريا زينايدا في الطريق صاعدةً صوب الداتشا. بدت كأنها امرأة عجوز: خطوات بطيئة، وشعر غطّاه منديل رأس من النايلون كالذي تضعه العجائز، وفي يديها كيسُ تسوّق. توقّفت لحظة، ووضعت الكيسين على الأرض، وأشعلت سيجارة. انتصبت جالسة حتى أنظر إليها، لكن بوريا دفعني برفق حتى أستلقي من جديد.

في ذلك الصيف، استأجرتُ بيتًا في الناحية الأخرى من بحيرة إزمالكوفو حتى أكون أقرب إليه. صرت على مسيرة ثلاثين دقيقة من الداتشا. لن يسكن معي بوريا ذلك البيت؛ لكنه سيصير مكانًا لنا، مكانًا من أجل بداية جديدة.

احتل ابني وابنتي واحدة من غرف النوم، وحظيت لنفسي بالشرفة ذات النوافذ الزجاجية. ظلّت ماما، معظم الوقت، مقيمة في موسكو. كانت تقول إن الإقامة في الريف ليست جيّدة إلا عندما تكون في «جرعات صغيرة».

كم أحببت ذلك البيت الزجاجي! وما أحلى جذور الحور التي كانت كأنها درجات طبيعية صاعدة إلى بابي! وكم كانت الشرفة نورًا كلها! كنت أرى بوريا قادمًا، مقتربًا في الطريق، وأنا مستلقية في فراشي.

لكن بوريا عبس عندما رأى ذلك الكوخ أول مرة، وقال إن بيتًا واجهته من زجاج لا يوفّر لنا

الخصوصية التي كان تحقيق مزيد منها هدف انتقالي إلى مكان غير بعيد عنه. أخذت القطار في تلك الأمسية، وذهبت إلى المدينة فاشتريت قماشًا ثقيلًا أحمر وأزرق. أمضيت ذلك المساء في خياطة ستائر تجعل من غرفتي المضيئة وِجارًا عميقًا.

كان ذلك الصيف حارًّا. وعلى طول الدرب، انبثقت أجمات من أزهار برية، حمراء ووردية؛ وجادت السماء بعواصف رعدية لم تنقطع يومًا. صارت جدران غرفتي الزجاجية مغشّاة لشدة الحرارة المحبوسة فيها. جعلت النوافذ كلها مفتوحة قليلًا، لكن هذا لم يفد شيئًا. كنا نتعرّق في سريري؛ وكنت أقول له مازحة إنني أستطيع تحويل غرفتي إلى بيت زجاجي نزرع فيه فاكهة استوائية كالمانغو والموز. لكن هذا المزاح لم يكن يعجبه. لقد كره بوريا بيتي الزجاجي.

إلا أن ميتيا أحب البيت الزجاجي مثلما أحببته. لقد ألف حياة الريف سريعًا، وصار يمضي أيامه متجوّلًا في الغابة ثم يعود إلى البيت بجيوب ملأها نباتات وحجارة وضفادع. وضع عشبًا وحصى في دلو معدني جعله بيتًا لضفادعه. وسكب ماءً في غطاء علبة مايونيز لكي تشرب الضفادع. وضع تحت عينيه مسحتين من طين، وصنع لنفسه قوسًا وسهامًا حتى يصير روبن هود.

لكن الأمر كان مختلفًا بالنسبة إلى إيرا. كانت ترفض مشاركة أخيها ألعابه أثناء غيابي لأنها كبرت على ذلك. وكانت تتذمّر من بقائها طيلة اليوم محبوسة في كوخ صغير بعيدًا عن رفيقاتها في موسكو.

كانت تقول: «لا يوجد شيء هنا، حتى إنني لا أستطيع شراء الآيس كريم». وعندما صنعت لها آيس كريم ووضعت فيه نعناعًا من حديقة بوريا، بصقتْه قائلة وهي تدفع الطبق فتبعده عنها: «طعمه كالتراب. قدّميه إلى من يرعاك».

وبَّختُها لأنها قالت هذا عن بوريا، فنهضتْ وخرجت من البيت. وعندما لم تعد في تلك الليلة، ذهبتُ إلى محطة القطار فوجدتها جالسة على مقعد فيها. لم أر أحدًا هناك غير موظّف المحطة. كان يكنس الأرض.

قالت لي: «أردت العودة إلى البيت. لكن، ليس معي نقود».

«بيتك هنا، معي ومع ميتيا».

«ومع بوريس».

«صحيح. بوريس أيضًا».

«حاليًا».

قبل أن أفلح في قول أية كلمة، نهضت إيرا وجرت عائدة في اتجاه كوخنا. جلست على المقعد وحدي ورحت أرقب موظف المحطة يكنس رصيفها.

مع نهاية الصيف، عندما صار على الطفلين أن يعودا إلى موسكو من أجل المدرسة، قلق بوريا من رحيلي معهما. قال متذمرًا، موشكًا على البكاء، «سوف أعود وحيدًا». أعجبني هذا، وأردت أن تنهمر دموعه. وعندما انهمرت، أحسست تحولًا مفاجئًا في القوى. أعجبني هذا الإحساس. لم أقل له إنني قرّرت البقاء إلا بعد أسابيع... سأبقى حتى إن كان ذلك يعني أنني لن أرى ابني وابنتي إلا في عطلات نهاية الأسبوع. عرفت منذ البداية أنني سأبقى هنا، لكنّي أردته أن يتوسل إليّ.

حزمت إيرا حوائجها قبل يومين من الذهاب؛ لكن ميتيا أرجأ ذلك حتى الساعة الأخيرة الباقية على موعد القطار. كان يفرغ حقيبته كلما طويت شيئًا ووضعته فيها.

قلت له: «ميتيا، أرجوك».

سألني: «أين حقيبتكِ؟».

«أنت تعرف أنك عائد إلى البيت في موسكو».

«لكنك قلتِ إن هذا هو بيتنا».

«ليست لدينا مدرسة هنا. ألا تريد أن ترى رفاقك من جديد؟ ألا تريد رؤية جدتك؟».

دمعت عيناه، وسألني من جديد: «أين حقيبتك؟».

قبّلته لكي أهدّئ من روعه، وقلت له إنه يستطيع أن يأخذ معه ضفدعه إيريك (الضفدع الوحيد الذي استطاع النجاة من حرارة الصيف) إلى موسكو إذا وعدني بأن يعتني به جيدًا.

رحل الطفلان، وبقيت في البيت الزجاجي وحدي، حتى آخر الصيف. لم يكن البيت معزولًا للوقاية من برد الشتاء، فتحقّق لبوريا ما أراده. تركت البيت، وانتقلت إلى بيت أصغر منه، لكنه أقرب إلى بيته. صرنا نسميه «البيت الصغير»، ونسمي الداتشا «البيت الكبير». استمتعت كثيرًا بتجهيز البيت الصغير، فعلّقت فيه ستائري، ووضعت سجادات ثقيلة حمراء اللون. كان القسم الأكبر من كتبي مصادَرًا... كان يتعفّن في مستودع رطب في لوبيانكا، فأعاد بوريا تجهيز مكتبتي، بل إنه ثبّت أرفف الكتب بنفسه.

وعندما فرغت من تجهيز البيت، اصطحبت بوريا -سعيدة- في جولة حرصت أثناءها على

الإشارة إلى «سريرنا» و«طاولتنا» و«رفوفنا». أشرت إلى النافذة المطلة على فناء البيت: «عندما يأتي الربيع، ستكون لنا حديقتنا، هناك».

كان كل حيّز نشغله، أنا وبوريا، يصير لنا. أكون كاذبة إن قلت إنني لم أجد صعوبة في إبعاد حياتي القديمة في موسكو عن ذهني - طفلاي، وأمي، ومسؤولياتي. لكني سمعت ميتيا مرة (سمعته مصادفة) يدعو أمي «ماما»، فلم أشعر بالخسارة، بل بشيء أشبه بالارتياح.

كان ذلك الشتاء مختلفًا كثيرًا عن أيامي التي قضيتها في الظلمة. صار الأصدقاء يأتون، واستؤنفت تلك القراءات من «دكتور جيڤاكو». وفي كل يوم أحد، كان ميتيا وإيرا والأصدقاء يأتون بالقطار من موسكو. نتناول طعام العشاء معًا، ثم يقرأ بوريا لنا وأنا جالسة إلى جانبه، من جديد.

قاربت الرواية نهايتها. وكان بوريا يعمل بأقصى اندفاع مثلما كان يعمل في أول أيام حبنا. كان يكتب في بيريدلكينو كل صباح، ثم يسير إلى «البيت الصغير». وكنت أساعده في تنقيح ما كتبه وأطبعه على الآلة الكاتبة في المساء. كانت الرواية حاضرة دائمًا، ثم ازدادت حضورًا مع اقتراب اكتمالها. إذا سألته عن الطقس، أو عما إذا كان العشاء قد أعجبه، أو إن كان يظن أنّ حشرة المنّ كانت سببًا في ذبول عناقيد العنب، فإنه يبحث عن طريقة لكي يعود بالحديث إلى الكتاب. بل إنه حلم مرة بيوري ولارا. قال لي: «أراهما واضحين لي مثل أي شخص حي... كأنهما كانا موجودَيْن حقًا، وصار طيفاهما يكلمانني».

لكن «البيت الكبير» كان دائم الحضور في ذهني مثلما كان يوري ولارا دائمي الحضور في ذهنه. كان يكتب هناك. وكان يأكل هناك. وكان ينام هناك. هي من تطهو له طعامه، وترفو جواربه. إنها هناك، تتابع التلفزيون، وتلعب الورق مع الجيران في ليالي غيابه. وهي من تعتني به عندما يصيبه صداع، أو تضطرب معدته، أو يزعجه قلبه.

كانت تدخل غرفة مكتبه لكي تنظّفها فقط، من غير أن تقاطع عمله. وكانت توفّر له شروطًا مثالية للكتابة. صحيح أنه لم يقل لي هذا أبدًا، لكني أظنّه السبب الذي جعله يبقى هناك. في ذلك الوقت، كنت أقول لنفسي إن استحواذ فكرة إنجاز الرواية عليه هو ما يبقيه هناك.

كنت أتساءل في نفسي عما إذا كانا ينامان معًا. لم أكن أعتقد هذا؛ لكن تلك الفكرة ظلّت مثل بقعة حبر على مفرش أبيض. كيف يكون منظرهما عند التحامهما؟ وسطه الطويل الرشيق منضغطًا على طيات بطنها! كفاه القويتان ترفعان ثدييها إلى حيث كانا منذ زمن بعيد!

أراد جزء مني أن يكون هذا حقيقيًا. فعلى نحو معوَجّ غريب، كان هذا يطمئنني إلى أنه سيظل راغبًا فيّ عندما أشيخ. سألته مرة إن كانا مستمرين في النوم معًا، فأكد لي بوريا إن ذلك توقّف منذ سنين. سألته: «كم سنة؟ وهل كنت تنام معها في سنوات غيابي؟».

«بالطبع لا. لم نعد هكذا... منذ زمن بعيد».

سألته: «وهل نمت مع أية امرأة أخرى؟ إن حدث هذا، فسوف أتفهم الأمر»، أضفت الجملة الأخيرة مع أني لم أكن أعنيها. قال لي إنه ليس لشيء أن يقلقني، وإن مكاني في حياته باقٍ إلى الأبد. قال لي إنه لم يعرف امرأة في غيابي غير لارا، بطلة روايته.

لكني واصلت إلحاحي، واصلت سؤاله: «ألم تعرف أية امرأة؟».

قال بوريا في الهاتف: «لقد مات».

شددت قبضة يدي على السماعة: «من مات؟».

سمعت أنينه، كأنَّ مغصًا أصابه. نطق أخيرًا: «مات يوري».

طفرت الدموع إلى عيني: «هل مات؟».

«انتهى الأمر. تمت روايتي».

اهتممت بتنقيح المخطوط، وإعادة طباعته، وتزويده بغلاف جلدي. ذهبت إلى موسكو لكي أطبع ثلاث نسخ منه؛ ثم حملت الصندوق وعدت بالقطار. كان ثقل كلمات بوريا في حضني كبيرًا.

وجدت بوريا في انتظاري في «البيت الصغير». عندما ناولته الصندوق الذي يضم عمل حياته، أمسك به بين يديه لحظة، ثم وضعه ودار بي في الغرفة كلّها. رقصنا من غير موسيقى. وفي رقصتنا، لمحت صورتي في المرآة البيضوية، فرأيت نفسي سعيدة أيضًا... لكنها كانت أشبه بسعادة أم عقب ولادتها: خائرة، مستنفدة القوى؛ سعيدة ومتألمة؛ هانئة، لكنها مذعورة أيضًا.

قال بوريا: «ربما أتمكّن من نشرها».

تذكّرت أناتولي سرغييفيتش سميونوف جالسًا خلف طاولة مكتبه الكبيرة يسألني عن «دكتور جيڤاكو»، وفكّرت في قلق
الدولة إزاء ما كان يكتبه. لكني لم أقل شيئًا.

وضعت مواعيد مع كل مجلة أدبية، ومع كل محرر ودار نشر، ومع كل من يحتمل أن ينشر

رواية «دكتور جيڤاكو». ذهبت وحدي لكي أتكلّم باسم بوريا. كان يشعر بالعجز عندما يلحّ عليه الناس لكي يصف عمله، أو يضع له تعريفًا، أو حتى لكي يروّج له. كان يقول لي: «كأن كلماتي تضيع في مكان واقعٍ بين تدوينها على الورق ورؤيتها مطبوعة». وهكذا كنت أتكلّم بدلًا منه.

استقبلني المحررون، لكن أحدًا منهم لم يعدني بشيء. قال عدد منهم إن من الممكن أن يكون لديهم اهتمام بنشر القصائد الواردة في آخر الرواية؛ لكني لم أتلق أية إجابة مباشرة في ما يخصّ نشر الكتاب كاملًا.

مرات كثيرة، كان بوريا ينتظرني في محطّة القطار ليلًا مترقّبًا أنباءً عن نتائج اجتماعاتي في موسكو. كنت أحاول أن أضع كل شيء ضمن إطار إيجابي، فأحدثه بحماسة أكبر مما يستدعيه ذلك الاهتمام الذي أبدته نوفي مير بنشر قصائده؛ لكن هذا لم يكن لينطلي على بوريا. كان يسير بي عائدًا إلى «البيت الصغير». نعود صامتيْن، وذراعه تشبك ذراعي بقوة، كأنني أحمله.

وذات مرّة، في طريق العودة بعد رحلة غير مثمرة أخرى، توقّف بوريا في منتصف الطريق وقال إنه لم يعد يعتقد أن «دكتور جيڤاكو» سوف تجد طريقها إلى النشر. «تذكّري كلامي. لن ينشروا هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال».

«عليك أن تكون صبورًا. أنت لا تعرف هذا بعد».

«لن يسمحوا به أبدًا». دعَكَ حاجبه... «أبدًا».

بدأت أقول في نفسي إنه قد يكون محقًّا. وبعد لقاء جديد مع ناشر آخر، لاقاني بوريا في موسكو لكي نذهب إلى حفلة موسيقية نستمع فيها إلى عزف على البيانو. وصلنا مبكرين فجلسنا على مقعد تحت شجرة كستناء.

كان رجل ظننت أنني رأيته في المترو واقفًا عند آخر البركة التي أمامنا. كان ينظر إلى البطات السابحة فيها. كان ذلك الرجل شابًا؛ يرتدي معطفًا طويلًا بني اللون على الرغم من حرارة الطقس.

قلت لبوريا: «أشعر بأن هناك من يراقبنا».

أجابني كمن يقرّر حقيقة: «نعم». ثم أضاف:

«ظننت أنك تعرفين». انتبه الرجل الواقف عند البركة إلى أننا ننظر إليه فسار مبتعدًا في

الطريق واختفى عن أعيننا.

سألني بوريا: «ألا نذهب ؟ لا نريد أن ندخل متأخّرين».

كان بوريا مصرًا على أن المراقبة ليست مزعجة له. بل كان يمزح أحيانًا ويخاطب من يسترق السمع إلينا كما لو أنه يوجه كلامه إلى المصباح أو إلى السقف.

كان يقول موجّهًا سؤاله إلى الفراغ: «مرحبًا! مرحبًا! كيف حالك اليوم ؟».

ثم يجيب نفسه بنفسه: «أنا بخير ، أشكرك».

أو كان يسأل مصباحًا للإنارة: «ألا نضجرك ؟ لعل من الأفضل أن نتحدّث عن شيء أكثر إثارة للاهتمام من هذا الكلام الكثير عما سنتناوله على العشاء الليلة».

أقول له: «كفَّ عن هذا!»... لم تكن هذه النكات تعجبني ؛ وقد قلت له مرات كثيرة: «لقد واجهتهم من قبل ، ولست راغبة في تكرار تلك المواجهة».

يمسك بيدي ويقبّلها ، ثم يقول: «ليس لنا إلا أن نسخر من هذا كله. هذا أقصى ما نستطيع فعله».

غرب

شباط - خريف 1957

الفصل الثامن
ناقلة الرسائل

عندما انعطفت السيارة فدخلت شارع كونيكتيكت، ضغطت بإصبعيّ على رسغي مثلما علمتني ماما أن أفعل عندما كنت طفلة ويصيبني الدوار في السيارات. تزايد ذلك الإحساس عندما بلغنا دوبونت سيركل. فكّرت في النزول من السيارة ومتابعة السير على الأقدام، لكن الخطّة لم تكن هكذا. لا يجوز لي أن أخرج عن الخطة إلا إذا أحسست بأن هناك من يتعقّبني.

لقد قيل لي أن أوقف سيارة تاكسي عند تقاطع شارعَيْ «فلوريدا» و«تي»، عند الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة، ثم أذهب بها إلى فندق ماي فلاور. كان الفندق واقعًا على مسافة قصيرة من هناك، لكنهم قالوا لي إن «المظهر» يكون أفضل عندما أصل الفندق في سيارة تاكسي.

قيل لي أن أتفادى ارتداء أي شيء يمكن أن يميزني عن بقية الناس: حلي لامعة، أو قبعة باذخة، أو زينة وجه مبالغ فيها، أو حذاء غريب... أو أي شيء يلفت الأنظار. فكرت في تلك الفساتين المزيّنة كلها المعلّقة في شقتنا، شقة القبو؛ وفي النساء اللواتي تأتين لتجربتها وشرائها من ماما. لم أكن أريد ارتداء أية قطعة ملابس يمكن اعتبارها متباهية أو ملفتة للانتباه. كانت الأوامر تقول بأن عليَّ أن أرتدي ملابس جيدة، من غير أن تكون جيدة جدًا... أن أبدو جميلة لطيفة المظهر من غير أن أبدو جميلة جدًا. ينبغي أن يكون مظهري على غرار مظهر النساء اللواتي اعتدن الذهاب إلى البار وإلى «تاون آند كاونتري لاونج» في فندق ماي فلاور. لكن الجانب الأكثر صعوبة في الأمر هو أنني كنت واحدة من تلك النساء اللواتي لم يسمعن أصلًا عن فندق ماي فلاور ناهيك عن «تاون آند كاونتري لاونج».

في تلك الليلة، لم يعد اسمي إيرينا؛ صار اسمي نانسي.

توقفت السيارة في منتصف دوبونت سيركل، فتفقّدت شعري في مرآتي الصغيرة لأنني كنت لا أزال غير واثقة تمامًا من أن لي المظهر الصحيح. لقد استخدمت فراء ماما القديم بعد رشه بعطر جين ناتيه في محاولة لإخفاء رائحة النفتالين. وارتديت فستاني المنقّط بالأبيض والأزرق، الفستان الذي ارتديته قبل ذلك في كل زفاف دعيت إليه طيلة السنين الخمس

الماضية. شعري مردود إلى الخلف على الطريقة الفرنسية ، ومثبت بالمشط الفضي الذي استعرته من ماما أيضًا. أعدت وضع أحمر الشفاه المائل إلى اللون الوردي الذي اشتريته من متجر وول وورث ، ثم نظرت إلى المرآة غير مطمئنّة. لا يزال هناك شيء غير صحيح. لكني لم أعرف ذلك الشيء إلى أن توقّفت سيارة التاكسي وفتح واحد من عمال الفندق بابها فنظرت إلى الأسفل وأدركت أن حذائي هو المشكلة: حذاء بسيط أسود باهت اللون... نعم ، حذاء بسيط أسود باهت اللون تآكل كعب فردته اليسرى... ثم إنني نسيت تلميعه أيضًا. لا يمكن أن يعثر المرء على امرأة ذاهبة إلى تناول شراب في «تاون آند كاونتري لاونج» في ليلة يوم أربعاء وهي ترتدي أي شيء باهت اللون. ومع دخولي إلى الردهة الكبيرة في فندق ماي فلاور ، تلك الردهة المزينة بأزهار حمراء وبيضاء من أجل عيد الفالنتاين ، الذي يصادف اليوم التالي ، لم أستطع منع نفسي من التفكير في حذائي. لكنهم أعطوني -على الأقل حقيبة يد جميلة: حقيبة شانيل جلدية سوداء مبطنة لها غطاء مزدوج وسلسلة ذهبية... حقيبة كبيرة بحيث تستوعب وضع مغلف فيها.

ذكّرت نفسي بأن عليَّ أن أبدو واثقة ، وأن أصير واحدة ممن تأتين إلى الفندق بأحذية جميلة... ذكّرت نفسي بأن أصير شخصيتي المستعارة ؛ بأن أصير نانسي. سرت ممسكة بحقيبة شانيل كأنها تعويذة فمررت بعمال مصاعد الفندق ذوي القبعات المزينة ، وبأزواج ممن أتوا لقضاء شهر العسل ، وبرجال آتين لعقد اجتماعات خارج أوقات العمل ، وبفاتنة سوداء الشعر تنتظر أن يصطحبها واحد من أولئك الرجال إلى الأعلى ، وبالنخلات الكبيرة المزروعة في أصص على طول الممر المكسوَّة جدرانه بالمرايا. عبرت الردهة ودخلت «تاون آند كاونتري لاونج» مثلما يدخل شخص يعرف عامل البار بالاسم.

وقد كنت أعرف اسم عامل البار. إنه غريغوري.

ها هو غريغوري: شعر بدأ يشيب قبل أوانه ، وقميص أبيض مع ربطة عنق سوداء على شكل فراشة. كان واقفًا خلف البار يسكب كأسًا من ويسكي جيبسون.

كان المكان مزدحمًا ، لكن الكرسي المرتفع الثاني قبل الأخير عند البار كان شاغرًا... تمامًا مثلما قالوا لي.

سألني غريغوري: «ماذا أقدّم لكِ؟». على صدره بطاقة عليها اسمه ، بطاقة تؤكد ما كنت أعرفه من قبل.

أجبته: «جِن مارتيني. ثلاث زيتونات مع واحد من تلك السيوف الحمراء الصغيرة». مع واحد من تلك السيوف الحمراء الصغيرة؟! أنّبت نفسي لأنني خرجت عن النصّ.

كانت أمامي مزهرية زجاجية نحيلة فيها وردة بيضاء وحيدة. تناولت الوردة وأدرتها بيدي في اتجاه عقارب الساعة، ثم شممتها وأعدتها إلى مكانها... بحسب التعليمات. ثم علّقت حقيبة الشانيل من سلسلتها الذهبية على الناحية اليسرى من مسند الكرسي. وانتظرت.

لم يكن الرجل الجالس إلى جانبي قد منحني أكثر من نظرة سريعة في اتجاهي عندما جلست. كان يقرأ صفحة الرياضة في صحيفة بوست، وكان مظهره مثل مظهر أي رجل آخر في المكان... محامٍ أو رجل أعمال آتٍ في رحلة ليوم واحد من نيويورك أو شيكاغو، أو أي مكان يأتي أولئك الناس منه إلى واشنطن. كانت الكلمة التي تصلح لوصفه هي أنه «غير مميَّز في شيء». تساءلت في نفسي إن كان يراني هكذا أيضًا. هذا ما كنت أرجوه.

وضع غريغوري كأسي على منديل أبيض عليه الشعار الذهبي لفندق ماي فلاور. أخذت من الكأس رشفة وقلت له: «أنت تعدّ المارتيني بطريقة ممتازة». إنني أكره المارتيني!

لقد قيل لي إنني لن أحسَّ بشيء - قالوا إن الرجل الجالس إلى جانبي سيضع المغلف في حقيبتي خفية من غير أن أنتبه إليه. إذا وضع المغلف من غير أن أنتبه إليه، فقد أدّى مهمّته جيدًا. طوى الرجل صحيفته، وشرب ما كان باقيًا في كأس الويسكي، ورمى على البار دولارًا، ثم انصرف. انتظرت خمس عشرة دقيقة، ثم أنهيت كأسي وقلت لغريغوري إنني ذاهبة.

عندما مددت يدي إلى حقيبة الشانيل، كنت أتوقّع أن أحسَّ فيها شيئًا مختلفًا، لكن ذلك لم يحدث. فبدأت أسأل نفسي إن كنت قد فعلت شيئًا خاطئًا... لعل ذلك الرجل الذي كان يقرأ صفحة الرياضة لم يكن إلا رجلًا يقرأ صفحة الرياضة! قاومت رغبتي في التحقّق مما في الحقيبة. وخرجت من «تاون آند كاونتري» فمررت بالنخلات في أصصها وبرجل ينتظر المصعد ومعه الفاتنة ذات الشعر الأسود، وبرجل وامرأة متقاعدين يسجِّلان وصولهما إلى الفندق، وبعمال المصاعد ذوي القبّعات المزيّنة.

سرت في شارع كونيكتيكت، وبذلت كل ما أستطيعه للمحافظة على برودة أعصابي ولمنع الإثارة التي أحسست بها من جعلي أجري في الطريق. توقّفت عند شارع «بي»، ونظرت إلى ساعة يدي، ساعة من طراز ليدي أولغين أعطوني إياها مع حقيبة الشانيل. وبعد بضع ثوانٍ فقط، توقّف أمامي الباص رقم خمسة عشر. جلست في المقعد قبل الأخير، أمام رجل وضع

في حجره مظلّة خضراء اللون. ومع مرور الباص بالأسدين الحجريَّين اللذين يحرسان مدخل جسر تافت ، نقر الرجل الذي خلفي على كتفي وسألني عن الوقت. قلت له إن الساعة قد بلغت التاسعة والربع. لم يكن ذلك صحيحًا. شكرني الرجل. وضعت حقيبة الشانيل على الأرض ودفعتها بكعب قدمي إلى الخلف.

نزلت من الباص عند وودلي بارك ، ثم سرت في اتجاه حديقة الحيوانات. وعند إشارة المرور الحمراء ، بسطت كفّي وتركت ندف الثلج التي بدأت تساقطها قبل قليل تحطّ على قفازي ، ثم تذوب راسمة عليه بقعًا صغيرة. تساءلت في نفسي: أهكذا تكون إقامة علاقة غرامية ؟... أن يكون لدى المرء سرٌّ يخفيه ؟ غمرتني الحماسة ، وفهمت ما قاله لي تيدي هيلمز من أن الإنسان يمكن أن يصير مدمنًا على هذا النوع من العمل. صرت مدمنة ، منذ الآن!

لقد تقدّمت بطلبٍ للحصول على وظيفة ضاربة آلة كاتبة ، لكنهم أعطوني وظيفة أخرى. هل رأوا فيّ شيئًا لم أكن أراه ؟ أم إنهم نظروا إلى ماضيّ ، إلى موت أبي ، فعرفوا أنني سأكون مستعدّة لفعل كل ما يطلبون مني فعله. قيل لي ، في وقت لاحق ، إن ذلك الغضب العميق يضمن ولاءً للوكالة لا يضمنه الشعور الوطني أبدًا.

مهما يكن ما رأوه فيّ ، فقد بقيت عاجزة طيلة الشهور الأولى من عملي في الوكالة عن تخليص نفسي من ذلك الإحساس الذي كان يقول لي إنهم أخطأوا في اختياري لهذا العمل.

لكن اختبار فندق مايفلاور غيّر ذلك الشعور. فللمرة الأولى في حياتي كلّها ، صرت أحسّ بأن لدي غاية أعلى ، وأن الأمر ليس مجرّد وظيفة. في تلك الليلة ، انفتح شيء في داخلي... قوة خفية لم أعرف أبدًا أنني أمتلكها. اكتشفت أنني مناسبة تمامًا لمهمة «ناقلة الرسائل».

كنت أطبع ما يُملى عليّ في النهار ، وأختزل الملاحظات ، وألتزم الصمت في الاجتماعات ، وأطبع ، وأطبع ، وأطبع... وأظل طيلة الوقت حريصة على عدم تذكّر شيء من المعلومات التي أطبعها. لقد أمرتني نورما في يوم تدريبي الأول ، الوحيد: «عليك أن تتخيّلي كيف تمر المعلومات عبر أصابعك فتصل إلى المفاتيح ، ثم إلى الورق ، ثم تختفي من دماغك ، إلى الأبد. تعرفين ما يُقال عن الكلام الذي يدخل من أذن ويخرج من الأخرى». كانت ضاربات الآلة الكاتبة كلّهنّ يقلن الكلام نفسه: لا تحتفظي في ذهنك بما تطبعينه ؛ تكون طباعتك أكثر سرعة إذا لم تفكّري في الكلام. هذه معلومات سرّية ؛ وحتى إذا تذكّرت شيئًا منها ، فإن من الأفضل أن تتظاهري بنسيانها.

كان الشعار غير الرسمي لمجموعة الآلة الكاتبة: «الأصابع السريعة تحفظ الأسرار». لكنّي لم أكن واثقة من التزام أي منهنّ بهذا المبدأ. فحتى في أسابيعي الأولى ، أي عندما كنت في أول معرفتي بأولئك الفتيات ، كان واضحًا لي أنهنّ يعرفن كلَّ شيء عن كل شخص.

هل كنّ يعرفن كلَّ شيء عنّي أيضًا ؟ وهل كن يعرفن بأمر عملي الآخر ؟... بأمر الخمسين دولارًا الإضافية مع كل راتب ؟ وهل كانت حقيقة أنني أبطأ منهنّ في الطباعة سببًا يدفعهنّ إلى التساؤل ؟ هل كنّ منتبهات إلى أنني أتناول فنجانين من القهوة زيادة عما تتناولنه ، وإلى الانتفاخ الذي ظهر تحت عيني ؟

لقد لاحظت ماما ذلك ، بكل تأكيد. خمّرت منقوع البابونج ، ثم جمّدته في مكعبات صغيرة لكي أضعها على جفون عيني. ظنّت أنني أرى رجلًا جديدًا ، ورجتني أن آتي به إلى البيت لكي تعرفه قبل أن أُلحق الخزي باسمها في حيّنا.

ولكن... ما الذي كانت تفكر فيه بقية النساء في مجموعة الآلة الكاتبة ؟

أكان هذا هو السبب الذي جعلهنَّ لا يقبلنني بينهن قبولًا تامًّا ؟ لقد كنّ مهذّبات معي دائمًا ، بالطبع ؛ وكن ودودات دائمًا ، يقلن لي مرحبًا في الصباح ويتمنين لي نهاية أسبوع طيبة عند انتهاء العمل أيام الجمعة. لكني لا أستطيع القول إنهن كنّ شديدات الترحاب بي. وددت أن أكون جزءًا من مجموعتهنّ ، لكني لم أكن راغبة في إظهار في أنني أحبّ أن أكون في مجموعتهنّ. قد يظنّ المرء أن هذا السيناريو لا يحدث إلا في المدرسة الثانوية ، أو في الجامعة ؛ لكن «سياسات الصداقة» تظلّ صعبة في كلّ مرحلة من مراحل العمر.

دعتني فتيات مجموعة الآلة الكاتبة إلى الغداء معهنّ عدة مرات ، لكن ذلك كان قبل أن أتلقى راتبي الأول ، أي عندما لم يكن معي مال أكثر مما يكفي لمجيئي وذهابي بالباص. لكن دعوات الغداء كانت قد جفّت وانتهت عندما صار معي مال أستطيع إنفاقه.

كنت راغبة في الاعتقاد بأنّ تحفُّظهنّ ناتج عن أنني احتللت مكان صديقتهن ، تابيثا ؛ لكني لم أستطع منع نفسي من التفكير في أن من الممكن أن يكون الأمر غير ذلك... هذا شيء كان عندي طيلة حياتي: إحساسي الدائم بأنني دخيلة ، وبأنني أجد الوضع أكثر راحة عندما أظل وحيدة. حتى في طفولتي ، كنت أفضّل اللعب وحيدة. كنت أتظاهر بأن خزانة الطعام في مطبخنا الصغير قلعتي. وكنت أبتكر مسرحيات طويلة مستخدمةً دمى مقصوصة من أكياس الورق البنية أثبتها بالصمغ على أعواد المصّاصات. أكون أكثر سعادة عندما ألعب وحدي.

وعندما يأتي أبناء وبنات عمومتي الصغار لكي يلعبوا معي كان الأمر ينتهي دائمًا بأن أوبّخهم لأنهم أتلفوا واحدة من تلك الدمى أو لأنهم لم يؤدّوا أدوارهم في المسرحية مثلما أردتها أن تكون. كانوا يغضبون، ويذهبون، فأقول لنفسي: هذا أحسن! كان سهلًا عليَّ إقناع نفسي بأنني غير راغبة في اللعب معهم.

كان انسجامي في العمل سريعًا على الرغم من إحساسي بغرابة وضعي. صحيح أن طباعتي كانت أبطأ قليلًا من طباعة بقية الفتيات. لكنها كانت مستقرّة دقيقة على الدوام.

وأما تقدّمي في عملي الآخر، بعد ساعات العمل اليوميّة، فقد كان سريعًا جدًّا.

في يومي الأول، عندما سألتهم كيف سيجري تدريبي، أعطوني قصاصة ورق عليها عنوان مكتب مؤقت مطلّ على «بركة التأمّل»، من غير لافتة تدلّ عليه. إنه المكتب الذي سألتقي فيه الضابط تيدي هيلمز كل يوم بعد انتهاء ساعات العمل.

عندما رأيت تيدي أول مرة، فاجأني مظهره الموحي إيحاءً قويًّا بأنه نجم سينمائي يلعب دور الجاسوس. كان أكبر منّي ببضع سنين، طويل القامة، بنّيّ الشعر، أصابعه طويلة رقيقة، وسيمًا مثلما يُتوقّع أن يكون الرجال الذين هم مثله. كانت في مجموعة الآلة الكاتبة فتيات كثيرًا شديدات الميل إلى تيدي؛ لكني لم أنظر إليه أبدًا بتلك الطريقة.

كان يبدو لي من ذلك النوع من الرجال الذين كنت أتخيّلهم في بداية صباي، لكنّي لم أكن أتخيّل فيهم عاشقًا أو صاحبًا، بل أخٌ أكبر... الأخ الأكبر الذي كنت أتمنّاه دائمًا. الشخص الذي يعلمني كيف أنسجم مع ما يحيط بي، وكيف أخفّف من ذلك الإحساس المؤلم بالغرابة... شخص يحميني من أولاد المدرسة الثانوية الذين يرفعون تنّورتي في الممر. شخص يساعد ماما ويخفّف من أعبائنا المالية التي كانت تأتي وتذهب مع كل راتب ننفقه.

كان تيدي أول الأمر هادئًا؛ وكان يقول لي إنني أول امرأة يدرّبها. كانوا يعهدون للنساء بنسف الجسور في أيام «مكتب الخدمات الاستراتيجية»؛ لكن الوكالة، بعد بضع سنين من ذلك، كانت لا تزال في مرحلة اختبار ما نستطيع القيام به.

إلا أن تيدي كان مختلفًا. كان يقول لي: «إذا أردت رأيي، فإن النساء مناسبات جدًّا لمهمّة نقل الرسائل. لا يشتبه أحد أبدًا في أن فتاة جميلة في الباص تنقل أسرارًا».

تعمّقت معرفتنا جيّدًا، أنا وتيدي، خلال تلك الأسابيع القليلة الأولى من سنة 1957. كان من ذلك النوع من الرجال الذين يجعلون المرء يشعر بالراحة معهم منذ البداية. شخص

تجدين نفسك تقولين له في ساعة واحدة أكثر مما قلتيه لشخص عرفتيه طيلة حياتك.

جاء تيدي إلى الوكالة بعد تجنيده على يد أستاذ الآداب الذي كان مشرفًا عليه في جامعة جورجتاون. درس العلوم السياسية واللغات السلافية، وصار يتحدّث الروسية بلهجة متقنة يمكن أن تنطلي على أي واحد من أهل موسكو. وخلال جلساتنا التدريبية، كان تيدي ينتقل بين الإنكليزية والروسية ويقول لي إنه مستمتع بهذه الفرصة لمواصلة تمرّنه على اللغة الروسية. وكان ممتعًا لي أن أتكلّم معه بلغتي التي أتكلّم بها مع أمي. كان يطرح عليَّ أسئلة كثيرة: أسئلة عن عمل أمي في خياطة الفساتين، وأسئلة عن طفولتي في بايكسفيل، وعن أيام دراستي في كلية ترينيتي، وكذلك عن خجلي. لم يسألني أحد قبله أبدًا أسئلة من هذا النوع، فجعلتني جرأته مترددة أول الأمر. لكنّي وجدت نفسي أبوح له بتاريخي الشخصي كلّه قبل أن يمر وقت طويل.

لعلّي كنت مرتاحة معه لأنه كشف لي من غير تردّد عن حقائق كثيرة من حياته. اكتشفت أنه كان لديه شقيق أكبر منه مات منذ بضع سنين. حدّثني كيف عاد جوليان من الحرب بطلًا، لكنه ثمل ذات ليلة واصطدمت سيارته بشجرة فمات. وكم كان تيدي يشعر بأنه لن يرقى إلى سوية الذِّكر الطيّب الذي تركه أخوه خلفه بعد موته! وكم كان أبواه حريصين على تذكّر البطل الذي كانه جوليان من خلال وضع صورته فوق رف الموقد، إلى جانب العلم المطوي الذي قُدِّم إليهما. قال لي تيدي إنه كان أول الأمر راغبًا في السير على خطى أخيه، وفي الالتحاق بالجيش، أو في الانضمام إلى مكتب أبيه للمحاماة، ذلك المكتب الذي يحمل اسم العائلة. لكنه وجد نفسه أكثر مَيلًا إلى دراسة الأدب. وفي آخر المطاف، قاده الأستاذ المشرف عليه في الجامعة في اتجاه مهنة مختلفة.

كان تيدي يسكب لنا الويسكي من زجاجة يحتفظ بها في دُرج مكتبه؛ وكان يصير شاعريًا كلّما تحدّث عن الدور الذي يرى أن الأدب والفن يلعبانه في نشر الديمقراطية، وكيف أن الكتب هي المفتاح إلى تبيان أن الفن العظيم لا يمكن أن يظهر إلا من خلال الحرية الحقيقية. وكان يقول لي إنه انضمَّ إلى الوكالة حتى ينشر تلك الرسالة. كان يقول إن الروس يجلّون الأدب مثلما يُجلّ الأميركيون الحرية: «إن في واشنطن تماثيل للينكولن وجيفرسون، أما موسكو فتحتفي ببوشكين وغوغول». كان تيدي يتمنّى أن يدرك الروس أن حكومتهم تحدّ من قدرتهم على ولادة تولستوي التالي، أو دوستويفسكي التالي... فالأدب غير قادر على

الازدهار إلا في أمّة حرّة ؛ وهذا ما جعل الغرب يصير مِلكًا في ميادين الأدب. كانت فكرته أشبه بغرس سكين بين أضلاع «الوحش الأحمر».

خلال النهار ، كان تيدي يتعامل معي مثل تعامله مع بقية فتيات الآلة الكاتبة عندما يمرّ بقسم روسيا السوفييتية: إيماءة بالرأس في الصباح ، وربما تلويحة باليد عند المساء. وأما بعد ساعات العمل ، فقد كان يمنحني اهتمامه كله عندما يدرّبني على استلام وتسليم الرسائل الداخليّة الخاصّة بالوكالة.

درّبني على وضع مغلّف تحت الطاولة ، أو تحت المقعد أو الكرسي أو كرسي البار أو مقعد الباص أو المرحاض. بدأ بمغلفات الرسائل العاديّة البيضاء ، ثم تطوّر الأمر إلى كتيبات ومغلّفات كبيرة وكتب ورُزَم. وكان يقارن ما نفعله بألعاب الخفّة فيقول لي إن الوكالة درست أساليب مشاهير ألعاب الخفّة من أمثال وولتر إيرلينغ سكوت وداي فيرلون ، واعتمدت طرقهم. جعلني أرى كيف أترك رزمة تنزلق على ساقي فتصطدم بالأرض من غير أن تصدر صوتًا. قال لي: «الأمر كله خدعة». علّمني كيف أعرف إن كان هناك من يلاحقني ، وكيف أنتبه إلى وجود أي شخص مريب ، أو أي شخص يراقبني ؛ وعلى وجه الخصوص ، علّمني كيف أنتبه إلى كبار السن. قال موضحًا ، «إن لدى كبار السن فائضًا كبيرًا من الوقت. وهم يجلسون في الحدائق ساعات طويلة ، ويكونون مستعدين للاتصال بالشرطة من غير تردّد عندما يرون أي شيء غير معتاد».

وعندما أخطئ في أمر ما ، يقول لي إن الأمر ليس في حاجة إلا إلى مزيد من التمرين. وقد كنت أتمرّن كثيرًا. فبعد أن تنام ماما كل ليلة ، أقفل باب غرفتي وأتمرّن على دسّ مغلّفات من أحجام مختلفة في الكتب ، وفي محفظتي ، وفي محفظة ماما ، وفي الحقيبة ، وفي كل جيب من جيوب ملابسي المعلّقة في الخزانة. عندما جعلت تيدي يرى كيف صرت قادرة على جعل لفافة ورق صغيرة تنزلق من قلم أحمر الشفاه الفارغ فتصير في جيب سترته ، قال لي إنني صرت جاهزة لاختبار حقيقي.

«هل أنت واثق من هذا ؟».

«ليست لدينا غير طريقة واحدة للتأكّد».

كان استلامي ذلك المغلّف في فندق ماي فلاور اختباري الأول: ليس مهمة حقيقة ، لكنه اختبار لرؤية إن كنت قد صرت جاهزة. قال لي تيدي إنه سيكون موجودًا هناك ، وإنه

سيراقبني ؛ لكني لن أراه. وقد كان محقاً لأنني لم أره أبدًا في تلك الليلة في فندق ماي فلاور. لكني وصلت إلى العمل صباح اليوم التالي فوجدت وردة بيضاء عند آلتي الكاتبة ومعها سيفٌ بلاستيكي صغير أحمر مغروس في ساقها كأنها شوكة من أشواكها.

سألتني نورما: «أهو معجبٌ سرّيٌّ ؟».

أجبتها: «صديقٌ فحسب».

«صديقٌ ، هه ؟ أليس فالنتاين سرّياً ؟».

«فالنتاين ؟».

«اليوم عيد الفالنتاين ، كما تعلمين».

أجبتها: «أوه!». لقد نسيت. ولحسن الحظ ، استدعيت نورما إلى اجتماع قبل أن تفلح في طرح أسئلة أخرى. لكن سر الوردة البيضاء عاد فصار مدار الحديث بعد الظهر. قالت ليندا وهي تنظر إليّ من فوق الجدار الفاصل بين طاولتينا: «سمعت أنك تواعدين تيدي هيلمز». رفعت رأسي ونظرت إليها فرأيت فتيات المجموعة كلّهن واقفات هناك ، منتظرات إجابتي.

«ماذا ؟ لا. لا مواعيد بيننا». فاجأني هذا ، وخشيت أن أكون قد كشفتُ أمري.

«قالت لوني رينولدز لغيل إنها رأت تيدي يضع الوردة البيضاء هذا الصباح».

قالت غيل: «أعني... لم يحاول تيدي أن يضعها خفية».

«متى بدأت العلاقة بينكما ؟».

ارتبكت كثيرًا ، فتذرّعت بالذهاب إلى الحمّام آملة أن تكون الفتيات قد نسين أمر الوردة عندما أعود. لكنهنّ لم ينسين شيئًا ، بل واصلن إمطاري بالأسئلة التي لم تكن لها إجابات عندي. استمر الأمر إلى أن حان موعد انصرافنا.

سألتني نورما: «هل تحبّين أن تأتي معنا من أجل كأس مارتيني ؟ إنهم يقدّمون المحار بنصف الثمن ، كما أن عامل البار يصب لنا كؤوسًا مضاعفة لأنه ميّال إلى جودي. وبما أنك تقولين إنك غير مرتبطة ، فمن المرجح أن ما من خطط لديك من أجل يوم الفالنتاين ، أليس هذا صحيحًا ؟».

أجبتها: «لا أستطيع ، لديّ خططي لكنها ليست موعدًا مع رجل. ليس شيئًا من هذا القبيل».

قالت نورما: «همم ، همم».

غضبتُ كثيرًا من تيدي لأنه وضعني في مرمى فتيات الآلة الكاتبة. لماذا فعل هذا ؟ وماذا

يريد؟ عقدت العزم على سؤاله فور رؤيته، لكنّي فقدت تصميمي عندما استقبلني بكأس ويسكي ورفعَ نخب حُسن أدائي في فندق ماي فلاور.

قرِع كأسه بكأسي وقال لي: «كان أداؤك جيدًا، يا طفلتي. لدينا بضعة أشياء يجب أن نواصل العمل عليها، لكنك أنجزت المهمّة بطريقة ممتازة. إن آندرسون مسرور منك. نظنّ أنك ستكونين عما قريب جاهزة للعمل الميداني، لتنفيذ مهمة حقيقيّة آتية إليك».

قلت له: «فهمت. أشكرك». كنت أعرف أن عليَّ ألا أسأل عن التفاصيل؛ لكنّي لم أعرف ما الذي ينبغي لي قوله. كان واضحًا لي أن تيدي لم يعرف إن كنت أشكره على هذا المديح أو على الوردة البيضاء. مرّت بيننا لحظة صمت قصير مربِك.

كسر تيدي الصّمت وقال: «وبالمناسبة، أنتِ لم تقولي شيئًا».

سألته: «عن ماذا؟».

«عن الوردة».

«لقد أثارت حماسة كبيرة بين الفتيات».

«ألم تثر حماستك؟».

«أنا لست... أنا لا أحب أن أكون في مركز الاهتمام».

ضحك تيدي وقال لي: «بسبب هذه الموهبة تم اختياركِ. لكني، حقًّا... آسف حقاً لما حدث. يتمسّك الناس هنا بأية شائعة مثلما يتمسّك الكلب بمعطف ساعي البريد».

«الكلب؟».

«ما أريد قوله هو أنني آسف. ظننت أنه سيكون تصرّفًا لطيفًا مني».

«إنه لطيف... لكن المسألة... هل نريد أن يعرف الناس أن هناك شيئًا بيننا؟».

دعك ذقنه، ثم مال صوبي وقال: «قد يكون هذا غطاءً جيدًا. إذا ظنّ الناس أن هناك علاقة بيننا، فلن يشكّوا في وجود أي شيء غير معتاد عندما يروننا معًا. لا شيء جدّيًّا... ولا ضرر من ذلك، أليس هذا صحيحًا؟... إلا إذا كان لك صديق حقيقي يؤدّي هذا إلى إزعاجه».

«ليس لديَّ صديق، لكن...».

قال: «ممتاز. هل نبدأ الآن؟ يمكننا أن نذهب الآن إلى مقهى مارتين لتناول شرابًا. ألا يجتمعن كلّهنّ هناك؟».

«لست أدري».

رفع تيدي كأسه التي صارت فارغة: «فلنُعرّج على ذلك المكان دقيقة».

«أليس هذا من الأشياء غير المستحبّة في أماكن العمل؟».

«إن نصف من يعملون في الوكالة لن يجدوا من يضاجعونهم - اغفري لي استخدام هذه الكلمات - إذا لم يواعد أحدهم الآخر. ثم إننا لسنا في علاقة حقيقية، أليس كذلك؟».

أمسك تيدي بيدي لحظة دخولنا مقهى مارتين. كان البار مزدحمًا بأشخاص من جماعات الضغط في شارع «كي» - كان تيدي يقول إن المرء يستطيع معرفتهم من بدلاتهم الفاخرة وأحذيتهم الجديدة التي لا تزال تزقزق على الأرضية الخشبية الملمَّعة. كانوا يناقشون المصالح العقارية عند البار، في حين كان نظراؤهم من الموظّفين الحكوميين ذوي الملابس الأقلّ جودة يحتلّون الطاولات. كان طلبة القانون محتشدين عند البوفيه يضعون المحار في أطباقهم. لا تزال فتيات الآلة الكاتبة هناك، جالسات في المقصورة التي إلى يسار البار.

أشرت إلى طاولة لشخصين في الناحية الأخرى من الصالة، وسألته: «ما رأيك في أن نجلس هناك؟».

«فلنأخذ شرابنا من البار أولًا».

«أظنّ أن لديهم نادلات هنا».

«هكذا أسرع».

شققنا طريقنا إلى البار، وأشار تيدي إلى عامل البار لكي يأتينا بكأسَي ويسكي. دفع ثمنهما، ثم رفع كأسه. قال: «في صحة الصديقين الجديدين». ولحظة التقاء كأسينا. أحسست نقرة على كتفي.

قالت نورما: «إيرينا، أرى أنك أتيت إلى هذا المكان آخر الأمر. تعالي واجلسي معنا». ثم نظرت إلى تيدي... «وأنت أيضًا، يا تيدي».

قال تيدي: «كان ذلك قرارًا في اللحظة الأخيرة. لدينا حجز للعشاء في مطعم رالف غوتشي. توقّفنا هنا لنتناول كأسًا سريعة».

«رالف غوتشي؟ كيف استطعت تأمين حجز هناك ليلة الفالنتاين؟».

«يعمل هناك صديق مدين لي بخدمة».

«لماذا لا تأتيان وتتناولان كأسيكما معنا. لدينا متّسع على طاولتنا».

عندما نظرت نحو الطاولة، أشاحت الفتيات بوجوههنّ. فقلت لها: «بالتأكيد، لم لا؟».

قادتنا نورما إلى طاولتهنّ ، وقالت: «انظروا ماذا أحضرتْ لكم القطّة!». تزحزحت الفتيات حتى تفسحن مكانًا. جلستُ ، لكن تيدي ظلّ واقفًا. قال: «اعذرنني لحظة ، أيتها الآنسات». رأيناه يذهب إلى آلة الموسيقى ويضع فيها قطعة نقدية.

لكزتني جودي بمرفقها: «قلتِ لي إن ما من شيء بينكما ، هاه ؟».

نظرت نورما إلى جودي نظرة قلتُ لكِ هذا: «وردة بيضاء على المكتب في الصباح! ومطعم رالف غوتشي في الليل!».

قالت كاثي: «رالف غوتشي ؟ شيء فاخر».

عاد تيدي لحظة انطلاق نغمات أغنية جديدة من الآلة. خلع سترته وأعطاها إلى جودي التي قسرت نفسها على الابتسام. هل أحستْ بالغيرة ؟ منّي أنا ؟ سألني تيدي: «ألا تريدين الرقص ؟».

قلت له: «لكني لا أرى أحدًا يرقص».

مد يده إليَّ وأجابني: «سوف يرقصون. تعالي ، هذه أغنية ليتل ريتشارد».

«ليتل ماذا ؟...». لم ينتظر إجابة ، بل أمسك بيدي وقادني إلى حلبة الرقص ، مساحة مربعة من الباركيه خالية من الطاولات. لم أكن أجيد الرقص يومًا ، ولم أتقن حقاًّ تنسيق الحركة بين ذراعيّ وساقيّ ، لكني أحبّ أن أحاول. وأما تيدي ، فيا له من راقص! لم تكن أعين الفتيات وحدها متّجهة إلينا ، بل بدا لي أن كل من في المكان راح يتابع رقصتنا. كان تيدي يديرني كأنه فرِد آستِر ؛ وأحسست بأنني أمثل دورًا في فيلم... أحسست بأنني أمثل جيّدًا. كتمت هذا الإحساس مثلما كتمت إحساسي عند أداء تلك المهمة في فندق ماي فلاور. جذبني تيدي إليه. همس لي: «لقد انطلى الأمر عليهنّ».

خرجنا من البار بعد رقصة أخرى وكأس أخرى. ودّعته عندما صرنا على الرصيف. لكن تيدي أوقفني: «ألا تريدين أن نذهب إلى العشاء ؟».

«ظننت أن ذلك كان شيئًا قلته للفتيات ، ليس أكثر».

«وماذا لو قلت لك إن لديَّ حقًا حجزًا في مطعم رالف غوتشي ؟».

تذكّرت بقية حساء البورشْت التي ستسخّنها ماما من أجلي ، ثم نظرت إلى فستاني ذي اللون الأخضر الباهت الذي ارتديته ذلك اليوم: «لا أرتدي ملابس مناسبة لهكذا مكان».

قال تيدي: «مظهرك جميل...» ، ثم مد يده إليّ... «فلنذهب!».

الفصل التاسع
ضاربات الآلة الكاتبة

صباح يوم جمعة آخر في مقهى رالف. ومن جديد، دونَتس وفنجان قهوة. عندما خرجنا كان الصباح الخريفي البارد قد صار معتدلًا لطيفًا. خلعنا قبعاتنا وأوشحتنا، وفتحنا ستراتنا في طريقنا في شارع «إي».

في أول الصباح، عادة ما يكون قسم روسيا السوفييتية ضاجًّا بحركة الناس الذين يحتلّون أماكنهم خلف طاولاتهم أو يتناولون القهوة في غرفة الاستراحة، أو يسيرون مسرعين إلى واحد من الاجتماعات الصباحية السريعة الكثيرة التي لا يتأخّر بدؤها عن الساعة التاسعة والربع.

يكون رنين الهاتف في مكتب الاستقبال قد بدأ، وتكون الكراسي في غرفة الانتظار قد امتلأت. لكن ذلك اليوم من أوائل شهر تشرين الأول كان مختلفًا. في ذلك اليوم، كان مكتب الاستقبال خاليًا، ومثله غرفة الاستراحة، وكذلك كل طاولة مكتب في صالة الآلة الكاتبة.

سألتْ غيل تيدي هيلمز الذي كان نصف سائر، نصف راكض، صوب المصعد: «ماذا يجري؟».

توقّف لحظة، كاد يتعثّر بالسجادة القديمة.

قال لها: «اجتماع في الأعلى». كان ذلك مصطلحًا رمزيًا يعني في حقيقة الأمر أن الاجتماع معقود في مكتب دولز القائم في الطابق السفلي. تابع تيدي سيره مسرعًا، ومضينا إلى مكاتبنا

فوجدنا إيرينا جالسة خلف آلتها الكاتبة.

سألتها غيل: «هل قال لك تيدي شيئًا؟».

أجابت إيرينا: «لقد خسرنا؟».

سألتها نورما: «خسرنا ماذا؟».

«غير واضح».

قالت كاثي: «ما الذي تتحدّثون عنه؟».

«لا أستطيع شرح هذا الشيء العلمي».

«علمي؟ أي شيء هو؟».

قالت إيرينا: «شيء أطلقوه في الفضاء».

«أطلقوه!! من هم؟».

همست: «هم، هم. فقط، فكّري في هذا». سكتت وأشارت إلى السقف المغلف بالأسبستوس... «إنه هناك، في الأعلى، في هذه اللحظة».

كان في حجم كرة الشاطئ؛ وكان وزنه كوزن رجل أمريكي متوسط الجسم؛ لكن أثره كان أشبه بأثر قنبلة نووية. سرى نبأ إطلاق القمر الصناعي سبوتنيك في قسم روسيا السوفييتية قبل ساعات من إعلان وكالة الأنباء الروسية الحكومية تاس عن أن أول قمر اصطناعي يبلغ الفضاء قد صار الآن على مسافة تسعمئة كيلومتر فوق سطح الأرض، وصار يدور من حول كوكبنا دورة كلَّ تسعٍ وثمانين دقيقة.

كان إنجاز أي قدر من العمل مستحيلًا، حتى بعد ذهاب الرجال جميعًا. جلسنا نطقطق بأصابعنا وننظر في أرجاء الصالة الفارغة. مدت كاثي رأسها من فوق الحاجز الفاصل بين المكاتب وقالت: «وما هذا الاسم الغريب، سبوتنيك؟».

قالت جودي: «يبدو مثل اسم نوع من البطاطس».

قالت إيرينا: «إنه يعني رفيق الطريق. أراه اسمًا شاعريًا حقًا».

قالت نورما: «لا، إنه مخيف».

وقفت غيل، وأغمضت عينيها، وأجرت بإصبعها المتحرّك في الهواء عمليات حسابيّة غير مرئيّة. فتحت عينها وقالت: «أربع عشرة».

سألناها: «ماذا؟».

«إن كان يدور حول الأرض بهذه السرعة ، فهو يمر فوقنا أربع عشرة مرة في اليوم الواحد».

نظرنا إلى الأعلى جميعًا.

بعد الغداء ، تجمعنا حول جهاز الراديو في مكتب آندرسون الخالي. ما من معلومات جديدة. كان المذيع يتحدّث عن تقارير متوتّرة آتية من أنحاء البلاد كلّها تتحدث عن مشاهدات محتملة - من فينيكس وتامبا ، ومن بيتسبورغ ، ومن بورتلاند. كان ذلك كأن الجميع قد شاهدوا القمر الصناعي ، إلا نحن.

قالت غيل: «لكنه لن يكون مرئيًا بالعين المجرّدة. في النهار خاصّة».

دخل آندرسون الصالة ، عندما بدأ الراديو يذيع إعلان آلكا - سيلتزر(9). قال: «إنني في حاجة إلى واحد من هذه الأقراص. الظاهر أن لدينا عملًا كثيرًا هنا».

قالت نورما بصوت منخفض: «بلوب ، بلوب ، فيز ، فيز».

خفّضت كاثي صوت الراديو ، وقالت له: «أردنا أن نعرف ما يجري ؟».

قال أندرسون: «ألا نريد كلنا معرفة ما يجري ؟».

قالت نورما: «ألا تعرفون ؟».

قالت غيل: «هل من أحد يعرف ؟».

صفّق أندرسون بيديه مثلما يفعل مدرب كرة سلّة في مدرسة ثانوية: «لا بأس ، حان وقت العودة إلى العمل».

«وكيف نستطيع العمل في وجود ذلك الشيء الطائر فوق رؤوسنا ؟».

أغلق أندرسون الراديو ، ثم هشّ علينا كأننا حمامات. ومع خروجنا ، طلب أندرسون من إيرينا أن تبقى في الغرفة دقيقة. لم يكن طلبه غريبًا لأن إيرينا لم تكن مجرّد واحدة من فتيات الآلة الكاتبة. فمنذ أن بدأت عملها هنا ، كان لدينا شك في أنها مكلّفة بمهمّات خاصّة في الوكالة... مهمّات خارج جدول الأعمال الرسمي. لكنا لم نعرف شيئًا عن تلك المهمّات. ولم تكن لدينا أية فكرة إن كان أندرسون يريد الحديث معها عن تلك النشاطات ، أو عن شيء متعلّق بسبوتنيك. لكن جهلنا لم يمنعنا من محاولة تخمين السبب.

تراوحت التقارير الإخبارية على امتداد ذلك الأسبوع من تقارير مبالغ فيها «فاز الروس» ، وتقارير سخيفة «أهي نهاية الزمان ؟» ، إلى تقارير عملية «متى سيسقط سبوتنيك» ، إلى تقارير سياسية (كيف سيتصرّف أيزنهاور ؟). ومع حلول صباح يوم الاثنين ، كان صف الانتظار عند

نقطة التفتيش في مقر القيادة هزيلًا لأن قسمًا كبيرًا من الرجال كان قد ذهب إلى اجتماعات في البيت الأبيض والكونغرس لتهدئة المخاوف. وأما الرجال الباقون في المقر، فقد بدا عليهم كأنّهم لم يذهبوا إلى بيوتهم طيلة عطلة نهاية الأسبوع: قمصانهم البيضاء مصفرّة عند ياقاتها، وأعينهم زائغة، وقاماتهم متراخية.

وفي يوم الثلاثاء، أتت غيل إلى العمل حاملة آلة تسجيل من النوع الذي نستخدمه لتسجيل المكالمات الهاتفية. نزعت قبعتها وقفازَيْها، ثم وضعتها أمام الآلة الكاتبة. أشارت إلينا بأن نأتي إلى مكتبها. تجمعنا حول الآلة، فضغطت على مفتاح التشغيل. انحنينا جميعًا فوق الآلة. لا شيء.

سألت كاثي: «ما الذي نستمع إليه؟».

قالت إيرينا: «أنا لا أسمع شيئًا».

نهرتنا غيل: «ششش».

اقتربنا أكثر.

ثم سمعنا الصوت: طنين مستمرٌّ خافت، مثل ضربات قلب فأر مذعور. قالت غيل: «هذا هو». ثم أوقفت الآلة.

«ما هو؟».

«قالوا إنه من الممكن سماعه إذا ضبط المرء الراديو على تردد عشرين ميغا هرتز. وقد حاولت فعل هذا، لكني لم أسمع شيئًا. أدركت أنني في حاجة إلى مزيد من الطاقة. هل تريد إحداكن أن تحزر ما فعلته؟».

قالت جودي: «ليست لدي أية فكرة، لأنني لا أعرف عمَّ تتكلّمين».

«ذهبت إلى نافذة المطبخ، وفتحت الشبكة المعدنية الواقية من البعوض. لا بد أن زميلتي في الغرفة قد ظنّت أنني فقدت عقلي».

قالت نورما: «لعلها كانت محقّة».

«ثم ربطتُ سلكًا بين الراديو والشبكة، وضبطت الراديو على تردّد عشرين ميغا هرتز، وصحّحت وضع المايكروفون، فحصلت على هذا»... خفضت صوتها... «اتصال».

«اتصال مع ماذا؟».

«مع سبوتنيك».

راحت كل منا تنظر إلى الأخرى.

قالت ليندا وهي تتلفّت حولها: «لعل من الأفضل تأجيل هذا الحديث إلى ما بعد العمل».

قالت غيل: «هذا ليس أكثر من لعبة أطفال».

همست جودي: «وما معنى هذا؟».

هزت غيل رأسها: «لست أدري»... أشارت إلى صف المكاتب من خلفها... «عليهم اكتشاف ذلك».

قالت نورما: «لعله رمز سري!».

«أو عد تنازلي».

سألت جودي: «ماذا يحدث عندما يتوقف الطنين؟».

هزت غيل كتفيها.

قال أندرسون من خلفنا: «يعني هذا أن عليكنّ أن تعدن إلى العمل». تفرّقنا جميعًا عدا غيل التي ظلّت واقفة في مكانها. سمعنا أندرسون يقول لها: «وأنت، يا غيل، أريد أن أراك في مكتبي».

«الآن؟».

«الآن».

تابعتها عيوننا وهي سائرة خلف أندرسون إلى مكتبه، ثم رأيناها تخرج بعد عشرين دقيقة وقد غطّت أنفها بمنديلها الأبيض. نهضت نورما واقفة، لكن غيل أشارت لها بأن تتركها وشأنها.

انتهى شهر تشرين الأول. صار لون أوراق الأشجار برتقاليًا، ثم احمرّت، ثم تحوّل لونها إلى البني، وأخيرًا سقطت. أخرجنا معاطفنا الثقيلة من أعماق خزائننا. قضى البرد على البعوض؛ وبدأت البارات تعلن عما تقدّمه من مشروبات حارّة. فاحت المدينة كلّها، حتى مركزها، برائحة أوراق الأشجار المحترقة. أتى أحدهم بمصباح قرعة الهالوين عليه شعار المنجل والمطرقة، ووضعه في مكان مرئي عند مكتب الاستقبال. جال الرجال في أرجاء قسم روسيا السوفييتية مقلّدين جولة الأطفال من أجل السكاكر في الهالوين، وراحوا ينتقلون من مكتب إلى مكتب ويشربون أقداحًا صغيرة من الفودكا.

أتى شهر تشرين الثاني بصفعة جديدة... أو بانفجار جديد! أطلق السوفييت سبوتنيك 2 إلى

الفضاء ؛ لكنه حمل هذه المرة على متنه كلبة اسمها لايكا. علّقت كاثي في غرفة الاستراحة ملصق إعلاني عن كلب مفقود عليه صورة كلب كُتب تحتها «موتنيك(10): شوهد آخر مرة في مدار حول الأرض» ؛ لكن ذلك الملصق أزيل سريعًا.

ازداد التوتر في الوكالة ، وصار مطلوبًا منا أن نبقى حتى وقت متأخر من أجل الاجتماعات التي يعقدها الرجال بعد ساعات العمل. وكانوا يجلبون لنا البيتزا أو السندويتشات إذا اضطررنا إلى البقاء بعد التاسعة ليلًا. لكن أغلب الأيام كان يمر من غير استراحات ومن غير طعام ، فصرنا نحرص على أن نجلب معنا وجبة غداء مضاعفة ، من باب الاحتياط.

وسرعان ما صدر تقرير كيذر فأعلم إيزنهاور بما كان يعلمه أصلًا: نحن متأخرون عن السوفييت أكثر مما ظننا في سباق الفضاء وفي السباق النووي ، وتقريبًا... في كل سباق آخر. ثم اتضح أن لدى الوكالة سلاحًا جديدًا في طريقه إلى الظهور. لديهم أقمار صناعية ، لكن لدينا كتبهم. في ذلك الوقت ، كنا نعتقد بأن الكتب يمكن أن تكون أسلحة ، وأن الأدب يمكن أن يغيّر مجرى التاريخ. كانت الوكالة مدركة أنه لا بد من وقت من أجل تغيير ما في قلوب الناس وعقولهم ، لكنها كانت مستعدة لأن تخوض تلك اللعبة طويلة النفس. فمنذ أن ظهرت الوكالة من «مكتب الخدمات الاستراتيجية» ، كانت تضاعف الجهد المبذول على «الحرب الدعائية الناعمة» ، فتستخدم الفن والموسيقى والأدب من أجل غاياتها. وكان الهدف: التشديد على أن النظام السوفييتي لا يسمح بالتفكير الحرّ ، وتبيين كيف تعرقل الدولة الحمراء عمل أكبر فنانيها وتخضعهم للرقابة والاضطهاد. وأما وسيلة ذلك ، فكانت وضع مواد ثقافية بين أيدي المواطنين السوفييت عن طريق وسائل كثيرة.

بدأنا نضع المنشورات في بالونات ونرسلها إلى ما وراء الحدود لكي تنفجر فتتساقط محتوياتها خلف الستار الحديدي. ثم صرنا نرسل الكتب الممنوعة في الاتحاد السوفييتي إلى ما «خلف خطوط العدو». ظهرت أول الأمر تلك الفكرة اللامعة ، فكرة إرسال الكتب في مغلّفات عادية المظهر ، ثم تمنّي النتائج الطيبة والأمل في أن يمر قسم من هذه الكتب من غير أن يلحظه السوفييت. وفي واحد من الاجتماعات التي تناولت موضوع الكتب ، تميّزت ليندا بطرح فكرة مفادها أن نضع للكتب أغلفة زائفة حتى نوفر لها حماية أفضل. جمع بعضنا كل ما أمكن الحصول عليه من كتب لا تثير الشبهات ، كتب من قبيل شبكة تشارلوت ومؤلفات جين أوستن. أزلنا أغلفة هذه الكتب وألصقناها على الكتب المراد تهريبها ، ثم وضعناها في البريد.

ومن الطبيعي أن الثناء كان من نصيب الرجال.

وفي ذلك الوقت تقريبًا ، قرّرت الوكالة أن علينا أن نغوص أكثر في حرب الكلمات ، فدفعت بعدد من رجالها إلى إقامة شركات نشر خاصّة بهم ، وإلى تأسيس مجلات أدبية. صارت الوكالة أشبه بنادي كتب له «ميزانية سوداء». وكان هذا أكثر جاذبية في نظر الكتاب والشعراء من أمسيات القراءة وتقديم النبيذ المجّاني. انغمسنا كثيرًا في ميدان النشر إلى حدٍّ قد يجعل المرء يظن أننا كنا ننال نصيبًا من عائدات تلك الكتب.

كنا نجلس في اجتماعات الرجال ، ونسجل الملاحظات أثناء حديثهم عن الروايات التي يريدون استغلالها. كانوا يناقشون مزايا جعل رواية «مزرعة الحيوان» لجورج أورويل موضوعًا لمشروعهم التالي ، وذلك بالمقارنة مع كتاب «صورة الفنان في شبابه» لجيمس جويس. كانوا يتحدّثون عن الكتب كما لو أن نقدهم لها سيظهر مطبوعًا في صحيفة تايمز. كانت أحاديثهم جادّة كل الجد ، لكنا كنا نمزح قائلات إنها تجعلنا نحسّ كأننا عدنا إلى دروس الأدب في الجامعة. يطرح أحدهم رأيًا ، فيخالفه شخص آخر ، ثم يتفرّع الحديث إلى مسار آخر. كانت هذه المناقشات تستمر ساعات طويلة ؛ ونكون كاذبات إن قلنا إننا لم نكن نغفو أحيانًا. وذات مرة ، قاطعتْهم نورما وقالت إنها تعتقد جازمة بأن الأفكار التي يطرحها الأميركي سول بيلو تفوق كثيرًا الجمال المحض في جُمَل نابوكوف ، فكان ذلك آخر «اجتماع كتب» تكلّفت بتدوين الملاحظات عنه.

وهكذا ، كانت لدينا البالونات ، والأغلفة المزيّفة ، وشركات النشر ، والمجلات الأدبية ، وتلك الكتب الأخرى التي كنا نهرّبها إلى الاتحاد السوفييتي.

ثم أتت رواية دكتور جيڤاكو.

حملت العملية اسم «آيدي نو سور» ، وكانت العملية التي غيّرت كل شيء.

كانت رواية «دكتور جيڤاكو» -اسمٌ عانى كثير منا صعوبة في نطقه أول الأمر- من تأليف بوريس باسترناك ، أوسع الكتّاب السوفييت الأحياء شهرة ؛ وقد مُنعت في الكتلة الشرقية كلّها لأنها تنتقد ثورة أكتوبر ، ولأنها ذات طبيعة «هدّامة» ، كما قالوا عنها.

للوهلة الأولى ، لم يكن واضحًا كيف يمكن لتلك الملحمة الجارفة التي تتحدّث عن حب مستحيل بين يوري جيڤاكو ولارا أنتيبوفا أن تستخدم سلاحًا. لكن الوكالة كانت على الدوام مبدعة.

وصفتْ مذكرة داخلية أولية الرواية بأنها «أشد الأعمال الأدبية هرطقة من بين ما أنتجه الكتاب السوفييت بعد موت ستالين» ؛ وقالت إن لها «قيمة دعائية» بالنظر إلى ما فيها من «كشف سلبي ، لكنه ثاقب ، لأثر النظام السوفييتي على حياة المواطن المثقّف الحسّاس». بكلمات أخرى ، كانت تلك الرواية «هدفًا ممتازًا».

سرت أنباء تلك المذكرة في أرجاء «قسم روسيا السوفييتية» بأسرع من سريان الشائعات عن الفضائح الغرامية في غرفة الاستراحة في واحدة من حفلات عيد الميلاد التي نشرب فيها كميات كبيرة من المارتيني ، ثم استتبعت عددًا من المذكّرات الأخرى التي كانت كل منها تشدّد على ما قالته سابقتها: هذه الرواية ليست كتابًا فحسب ، بل هي سلاح - سلاح أرادت الوكالة أن تضع يدها عليه لكي تعيد تهريبه إلى ما خلف الستار الحديدي حتى يفجره مواطنوه بأنفسهم.

(9) آلكا - سيلتزر: أقراص دواء فوارة مضادة للحموضة وللألم الذي يرافقها.

(10) موتنيك: مزج بين كلمتين موت (mutt) ومعناها «كلب بيتي ، أو كلب مهجن» ، وكلمة (سبوتنيك)، التي هي اسم القمر الاصطناعي الروسي الذي حملت النسخة الثانية منه الكلبة لايكا إلى الفضاء.

الفصل العاشر
العميلة

استيقظ سيرجيو دانجيلو على صوت ابنه البالغ ثلاث سنوات جانب سريره. كان الصغير يتحدّث عن تنين اسمه ستيفانو - مخلوق ضخم ، أخضر وأصفر ، مصنوع من ورق الزينة رأوه في متجر للألعاب عندما كانوا في روما. نادى سيرجيو زوجته ، «جولييتا!» آملًا أن تشفق عليه وتأخذ الطفل حتى يستطيع أن ينام ساعة أخرى. تجاهلت جولييتا رجاءه.

كان فم سيرجيو جافًا ؛ والألم نابضًا في صدغيه لكثرة أقداح الفودكا التي شربها في الليلة السابقة. كان فيلادلين ، زميله في العمل يقول: «في صحة الإيطاليين» ، ثم يرفع رأسه أمام المستمعين في «احتفال راديو موسكو». كان سيرجيو يضحك ويشرب من غير إشارة إلى أنه ليس أكثر من إيطالي واحد ، وليس «إيطاليين». تقدّم سيرجيو الجميع إلى حلبة الرقص. كان

وسيمًا ؛ وكانت ملابسه كأنها ملابس شخص آت من فيلم إيطالي. هذا ما جعله قادرًا على اختيار من يريدها لمشاركته الرقص. وقد اختارهنّ جميعًا ، واحدة بعد أخرى ، إلى أن نقر فيلادلين على كتفه وقال له إن الموسيقى قد توقفت منذ نصف ساعة ، وإن مدير المقهى قد أوشك على طردهم. دعتهم امرأة قصيرة القامة كان سيرجيو يرقص معها من غير موسيقى إلى الذهاب إلى شقتها لمواصلة احتفالهم ؛ لكن سيرجيو رفض الدعوة فقد كان يعرف أن زوجته تنتظره في البيت ، ويعرف أيضًا أن لديه عملًا لا بد له من إنجازه في اليوم التالي... مع أنه يوم أحد.

كان سيرجيو يترجم نشرات الأخبار لصالح القسم الإيطالي في راديو موسكو ؛ لكنه جاء إلى الاتحاد السوفييتي لغاية أخرى أيضًا: سوف يصير وكيلًا أدبيًا. كان جانجاكومو فيلترينيلي ، رب عمله (وارث ثروة أبيه التي جمعها من تجارة الأخشاب ، ومؤسس شركة نشر جديدة) ، يريد العثور على العمل الأدبي الكلاسيكي الحديث التالي. وكان مقتنعًا بأن هذا العمل سيأتي من «الأرض الأم». لقد قال له فيلترينيلي ، «اعثر لي على رواية لوليتا(11) التالية».

لم يعثر سيرجيو بعد على ذلك العمل الأدبي الضخم. لكن نشرة وردت إلى مكتبه في الأسبوع الماضي فحملت له إشارة واعدة: [لقد بات صدور رواية دكتور جيڤاكو لبوريس باسترناك وشيكًا. تمتد هذه الرواية المكتوبة بصيغة اليوميات على ثلاثة أرباع القرن ، وتنتهي بالحرب العالمية الثانية]. أرسل سيرجيو برقية إلى فيلترينيلي ، فأتته تعليماته بأن ينطلق إلى محاولة تأمين شراء حقوق النشر الدولية. وعندما لم يتمكن سيرجيو من التواصل مع الكاتب هاتفيًا ، اتفق مع فيلادلين على زيارة باسترناك يوم الأحد في بيته في بيريدلكينو.

وفي الصباح ، على الرغم من بقاء طفله متعلّقًا به ، غسل سيرجيو وجهه بماء بارد متمنيًا لو أنه طلب من فيلادلين مشاركته تلك الرحلة في عطلة نهاية الأسبوع القادمة ، لا في هذه العطلة. دخل المطبخ الذي كان في نصف حجم مطبخه في إيطاليا ، فرأى زوجته جالسة إلى الطاولة تشرب فنجان قهوة سريعة التحضير من تلك التي جلباها معهما من روما. كانت فرانشيسكا ذات الأعوام الأربعة جالسة قبالة جولييتا تقلّد حركاتها وترفع فنجانها البلاستيكي إلى شفتيها ثم تعيده إلى الطاولة بكل هدوء.

قال لهما سيرجيو: «صباح الخير أيتها العزيزتان». ثم قبل خدّي كل منهما.

قالت فرانشيسكا: «ماما غاضبة منك ، يا بابا... غاضبة كثيرًا».

«كلام فارغ. لماذا تغضب مني إذا لم يكن هناك شيء يغضبها؟ تعرف أمك أن لديَّ عملًا اليوم. سوف أزور أوسع شعراء الاتحاد السوفييتي شهرة».

لم تقل الصغيرة شيئًا عن سبب غضب أمها. لم تقل شيئًا غير أنها غاضبة منه كثيرًا.

نهضت جولييتا مقطّبة الوجه ووضعت فنجانها في المجلى: «لا يهمني من أنت ذاهب إلى زيارته شريطة ألا تبقى، من جديد، خارج البيت طيلة الليل».

ارتدى سيرجيو أحسن ملابسه - بدلة بلون الرمل مفصَّلة له خصيصًا لدى بريوني كانت هدية له من رب عمله السخيّ. وعند الباب، لمّع حذاءه بفرشاة من شعر الخيل.

طيلة الشتاء الروسي الذي بدا له من غير نهاية، كان سيرجيو ينتعل الجزمة المطاطية نفسها التي ينتعلها بقية الروس. لكن الربيع جاء أخيرًا، فأحس سيرجيو بموجة من الفرح عندما وضع قدميه في حذائه الجلديّ الفاخر. صار الآن مستعدًا للذهاب، فودّع أسرته وأسرع خارجًا من البيت.

وجد فيلادلين في انتظاره على رصيف القطار رقم 7؛ وكان معه كيس ورقي فيه فطائر بيروشكي بالبيض والبصل من أجل رحلتهما القصيرة. تصافح الرجلان. مد فيلادلين يده بالكيس إلى سيرجيو الذي وضع يده على بطنه وقال: «لا أستطيع».

سأله فيلادلين: «أهذا من أثر الشراب. عليك أن تتمرّن إن أردت مجاراة الروس في الشرب».

فتح الكيس وهزّه... «هذه علاج قديم لأثر الشرب. خذ واحدة منها. سوف نلتقي شخصية ملكية روسية، وعليك أن تكون في أحسن أحوالك».

أخذ سيرجيو فطيرة وقال له: «كنت أظنّ أن الروس قتلوا شخصياتهم الملكية كلّها».

«ليس بعد». قال فيلادلين هذا وأخذ يضحك فسقطت من فمه قطعة من البيض المسلوق.

خرج القطار من المحطة. ومع تقارب خطوط السكة حتى صارت خطًا واحدًا، كان سيرجيو ممسكًا بالحافة العلوية للنافذة المفتوحة تاركًا الهواء الدافئ يقبّل أطراف أصابعه. كان رائعًا إحساسه بذلك الطقس الربيعي بعد أن أمضى الشتاء كله متلفّعًا بالملابس من قمة رأسه حتى قدميه، كما أنه كان متحمّسًا لرؤية الريف لأنه لم يخرج من موسكو قبل تلك المرة. سأل رفيقه: «ما تلك المباني هناك؟».

كان فيلادلين يقلّب ديوان باسترناك الأول، «توأم بين الغيوم» الذي جلبه معه آملًا أن يوقّعه له الشاعر. قال له من غير أن يرفع رأسه لكي ينظر: «شقق سكنية».

«لكنك لم تنظر».

«إذًا، هي مصانع».

كان المشهد يتغير من بنايات حديثة الإنشاء، إلى بنايات قيد الإنشاء، إلى منطقة ريفية تناثرت فيها أشجار اكتست خضرتها الربيعية وقرى قليلة تميز كلًا منها كنيستها الأرثوذكسية وبيوتها الريفية الصغيرة التي تحيط بها أسيجة حول قطع أرض صغيرة. لوّح سيرجيو بيده لفتى صغير واقف إلى جانب خط القطار وقد وضع تحت ذراعه دجاجة مرقّطة. لم يجبه الفتى بتلويحة مماثلة. سأل سيرجيو: «كم يستمر الطريق هكذا؟».

«حتى لينينغراد».

نزل الرجلان من القطار في بيريدلكينو. كان المطر قد هطل في الليل؛ ولم يكد الرجلان يعبران خط القطار حتى داس سيرجيو في الوحل. لعن نفسه لأنه انتعل هذا الحذاء الفاخر. جلس على مقعد، وحاول إزالة الوحل عن حذائه بمنديل جيب مزركش، ثم لم يلبث أن كف عن ذلك عندما أدرك أنه صار محط انتباه ثلاثة رجال على قارعة الطريق. كان الرجال يحاولون ربط بغل عجوز إلى مقدمة سيارة فولغا معطلة. كان مظهر سيرجيو وفيلادلين غير مألوف. الروسي الأشقر في بنطلونه ذي المقاس الكبير عليه (بنطلون له ساقان مزمومتان من الأسفل، وسترة ضيّقة عليه جعلته يبدو مثل أي رجل قادم من المدينة. كان أطول من الإيطالي بمقدار الرأس، وأعرض منه مرتين. وأما سيرجيو، فقد كان واضحًا من بدلته الأنيقة أنه أجنبي).

رمى سيرجيو المنديل الذي لا فائدة منه، وسأل فيلادلين إن كان في الجوار مقهى يمكنهما الذهاب إليه لكي ينظف حذاءه جيدًا. أشار فيلادلين إلى بيت خشبي يشبه سقيفة. دخل الرجلان المقهى الواقع في الناحية المقابلة من الشارع.

سأل سيرجيو المرأة الواقفة خلف طاولة البيع إن كان لديهم مرحاض. كان على وجهها التعبير نفسه الذي رآه على وجوه الرجال الذين يربطون البغل إلى السيارة.

قالت له: «في الخارج».

تنهد سيرجيو وطلب منها كأس ماء ومنديلًا. ذهبت المرأة، ثم عادت حاملة جزءًا من صحيفة وقدحًا من الفودكا. «هذا لن يكون...».

قاطعه فيلادلين: «شكرًا»؛ ثم ابتلع قدح الفودكا دفعة واحدة وضرب الطاولة بكفه طالبًا

قدحًا آخر.

قال له سيرجيو: «لدينا عمل مهمٌّ نقوم به».

«ليس لدينا موعد محدّد. ومن المؤكد أن الشاعر يستطيع الانتظار».

أرغم سيرجيو صديقه على النهوض عن الكرسي والخروج من المقهى.

وفي الخارج ، كان الرجال الثلاثة قد نجحوا في ربط السيارة. جلس طفل صغير خلف المقود ، وراح يوجه السيارة التي بدأ الرجال الثلاثة يدفعونها من الخلف. توقفوا ونظروا إلى سيرجيو وفيلادلين قبل أن يتابعوا دفع السيارة في ممر موازٍ لخط القطار.

عندما مرّا بالمقر الصيفي لإقامة البطريرك الروسي -بناء كبير ، أحمر وأبيض ، قائم خلف سور مرتفع- تمنّى سيرجيو لو أنه أحضر الكاميرا معه. اجتازا جدولًا صغيرًا فائضًا بماء المطر وذوبان الثلج ، ثم سارا صاعدين التل في طريق مفروش بالحصى أحاطت به أشجار البتولا والصنوبر.

قال سيرجيو: «مكان مناسب للشعراء».

أجابه فيلادلين: «لقد قدّم ستالين هذه البيوت إلى حفنة مختارة من الكتاب حتى يتحدثوا مع ربات إلهامهم. ثم إن مراقبتهم تصير أكثر سهولة بهذه الطريقة».

كانت الداتشا الخاصة بباسترناك واقعة إلى الجهة اليسرى من الدرب ؛ وقد رأى فيها سيرجيو مزيجًا من حظيرة وشاليه جبلي سويسري. قال فيلادلين ، «هذا هو». كان باسترناك المرتدي ملابس كملابس الفلاحين رجلًا طويل القامة ؛ وكان شعره الأبيض الكثيف متدليًا فوق وجهه مع انحنائه على أرض حديقته حاملًا مجرفته. ومع اقتراب سيرجيو وفيلادلين ، رفع باسترناك رأسه وظلل عينيه من الشمس بكفه لينظر إلى زائريه المقتربين.

صاح سيرجيو: «بون جورنو!»... كان التوتّر محسوسًا في حماسته. بدت الحيرة على باسترناك ؛ ثم لم يلبث أن ابتسم ابتسامة عريضة.

أجابه: «تفضلا».

مع اقتراب سيرجيو وفيلادلين من الشاعر الشهير ، فوجئ كل منهما بجاذبيته ومظهره الشاب. مع أن الرجل الوسيم يحاول دائمًا تقييم أي رجل وسيم يراه ، فقد نظر سيرجيو نظرة إجلال إلى باسترناك الذي كان يفوقه وسامة.

أسند باسترناك مجرفته إلى شجرة تفاح قلّمها مؤخرًا ، واقترب من الرجلين. «نسيت أنكما قادمان...» ، قال هذا وضحك قبل أن يضيف... «أرجو أن تسامحاني لأنني نسيت أيضًا من

أنتما، ونسيت سبب زيارتكما».

«اسمي سيرجيو دانجيلو». مد يده وصافح يد باسترناك... «وهذا أنطون فيلادلين، زميلي في راديو موسكو».

لم يستطع فيلادلين قول شيء غير الغمغمة بصوت كالنخير. كانت عيناه مثبتتين على الأرض عند حذائه بدلًا من النظر إلى شاعره المفضل.

قال باسترناك: «يا له من اسم جميل... دانجيلو. صوته يبعث السرور في النفس. ما معناه؟».

«الملائكي. هذا اسم شائع كثيرًا في إيطاليا».

«يعني اسم عائلتي ‘الجزر الأبيض’؛ وأظن أن هذا اسم مناسب لي لأنني أحب العمل في الأرض». قاد باسترناك الرجلين إلى مقعد على شكل حرف L في آخر الحديقة. جلسوا جميعًا، ومسح باسترناك جبهته بمنديل بلله العرق.

«راديو موسكو؟ هل يعني هذا أنك هنا من أجل إجراء مقابلة معي؟ أخشى ألا يكون لديَّ الآن الكثير مما أساهم به في النقاش العام».

«لست آتيًا بتكليف من راديو موسكو. أتيتك للحديث عن روايتك».

«وهذا أيضًا ليس لديّ الكثير مما أقوله فيه».

«إنني أمثّل مصالح ناشر إيطالي اسمه جانجاكومو فيلترينيلي. لعلك سمعت باسمه!».

«لم أسمع به».

«عائلة فيلترينيلي واحدة من أوسع العائلات ثراء في إيطاليا. وفي الآونة الأخيرة، أصدرت شركة جانجاكومو للنشر السيرة الذاتية لجواهر لال نهرو، أول رئيس حكومة في الهند. لعلك سمعت بهذا الكتاب!».

«سمعت بنهرو، بطبيعة الحال، لكني لا أعرف شيئًا عن كتابه».

«طلب مني فيلترينيلي أن آتيه بأفضل عمل جديد من خلف الستار الحديدي».

«هل أنت جديد في بلادنا؟».

«إنني هنا منذ أقل من سنة واحدة».

«إنهم لا يحبّون هذا المصطلح». نظر باسترناك إلى الأشجار كأنه يخاطب شخصًا يراقبهم... «الستار الحديدي».

قال سيرجيو: «سامحني...». تململ في جلسته على المقعد... «إنني أبحث عن أفضل عمل جديد من الأرض الأم. إن فيلترينيلي مهتم بتقديم رواية دكتور جيڤاكو إلى الجمهور الإيطالي؛ وربما يقدّمها إلى العالم كله بعد ذلك».

طرد بوريس بعوضة حطت على ذراعه محاذرًا أن يقتلها. «ذهبتُ إلى إيطاليا مرة. كنت في الحادية والعشرين من العمر أدرس الموسيقى في جامعة ماربورغ. وفي الصيف، قمت بجولة في فلورنسا، وزرت البندقية، لكني لم أذهب إلى روما. لقد نفدت نقودي. كنت أحب أن أزور ميلانو وأن أذهب إلى مسرح لاسكالا. لقد حلمت بهذا. لا أزال أحلم به. لكني كنت طالبًا؛ كنت فقيرًا كالمتسوّلين».

قال سيرجيو: «لقد ذهبت إلى مسرح لاسكالا مرات كثيرة. عليك أن تزوره في يوم من الأيام. يستطيع فيلترينيلي أن يحجز لك أفضل مقعد في المسرح».

ضحك بوريس ونظر إلى الأرض. قال: «أتمنى أن أسافر؛ لكن تلك الأيام صارت الآن خلفي. حتى إذا أردت السفر، فإنهم يجعلون الأمر شديد الصعوبة علينا»... توقّف لحظة... «في تلك الأيام، كنت أريد أن أصير مؤلفًا موسيقيًا... عندما كنت شابًا؛ كان لدي شيء من الموهبة، لكنها أقل مما أحب أن يكون لدي. ألا يكون الأمر هكذا دائمًا؟ تفوق حماسة المرء موهبته دائمًا... تقريبًا».

قال سيرجيو محاولًا العودة بالحديث إلى دكتور جيڤاكو: «إنني شديد الحماسة للأدب. وقد سمعت أن روايتك تحفة أدبية».

«من قال لك هذا؟».

ترنّح المقعد عندما وضع سيرجيو ساقًا فوق ساق: «يتحدّث الجميع عنها. أليس هذا صحيحًا يا فيلادلين؟».

قال فيلادلين: «يتحدّث الجميع». كانت هاتان الكلمتان أول ما يقوله أمام باسترناك.

«لم أتلق أي رد من دور النشر. لم يسبق لي أبدًا أن كنت في حاجة إلى الانتظار يومًا واحدًا لسماع رأيهم في عملي». نهض باسترناك واقفًا وسار إلى وسط الحديقة. وقف بين الأرض المقلوبة حديثًا إلى يساره، والأرض المبذورة حديثًا إلى يمينه... «أظن أن معنى صمتهم واضح تمامًا...». ظهره في اتجاه الرجلين اللذين لا يزالان جالسين على المقعد... «لن تُنشر روايتي. إنها غير منسجمة مع التوجهات الثقافية».

نهض سيرجيو وفيلادلين وسارا مقتربين منه. قال له فيلادلين: «لكنهم أعلنوا أنهم سينشرون الرواية. لقد ترجم سيرجيو بنفسه هذا الخبر من أجل راديو موسكو».

استدار باسترناك فصار في مواجهتهما. قال: «ليست لديَّ فكرة عما قرأتَه أو سمعتَه ؛ لكني أظن أن نشر الرواية مستحيل».

سأله فيلادلين: «هل تلقيت رفضًا رسميًا ؟».

«لا ، ليس بعد. لكن احتمال نشرها صار مستبعدًا تمامًا. من الأفضل لي أن ألغي هذا الاحتمال من ذهني ، وإلا فسوف يصيبني الجنون». ضحك من جديد فتساءل سيرجيو في نفسه إن كان الرجل قد وصل إلى تلك النقطة حقًا.

لم يكن سيرجيو قد توقّع إمكانية حظر رواية دكتور جيڤاكو في الاتحاد السوفييتي. قال لباسترناك: «هذا أمر مستحيل. من المؤكد أنهم لن يمنعوا عملًا بهذه الأهمية. ثم ، ماذا عن 'إذابة الجليد'(12) التي نسمع إشاعات عنها ؟».

أجابه باسترناك: «يستطيع خروتشوف وغيره إلقاء تلك الكلمات وتقديم الوعود ، لكن 'إذابة الجليد' الوحيدة التي تهمني الآن هي دفء الربيع من أجل مزروعاتي في هذه الحديقة».

سأله سيرجيو: «ما رأيك في أن تعطيني مخطوط الكتاب ؟».

«لأية غاية ؟ إذا لم يسمحوا بإصداره هنا ، فمن غير الممكن إصداره في أي مكان».

«يستطيع فيلترينيلي العمل على إعداد الترجمة الإيطالية للكتاب بحيث تكون جاهزة عند نشره في الاتحاد السوفييتي».

«لن يُنشر».

واصل سيرجيو كلامه: «أظنه سينشر. وعندما ينشر ، سيكون فيلترينيلي جاهزًا لطباعته هناك. إنه عضو بارز في الحزب الشيوعي الإيطالي. ومن المؤكد أنهم لن يجدوا سببًا يدفعهم إلى الاعتراض على نشر الكتاب في الخارج عندما يكون فيلترينيلي هو من يقوم بذلك». كان سيرجيو شديد التفاؤل ؛ وكان مقتنعًا بأن ما من شيء مستحيل... «ستكون رواية دكتور جيڤاكو في كل مكتبة في إيطاليا ، من ميلانو إلى فلورنسا إلى نابولي ، وفي أماكن أخرى. ينبغي أن يقرأ العالم كله روايتك. وسوف يقرأ العالم كله روايتك». لا أهمية أبدًا لكون سيرجيو لم يقرأ دكتور جيڤاكو أو لكونه غير قادر على التعليق على أهميتها الأدبية! ثم إنه كان مدركًا أيضًا حقيقة أنه يبذل وعودًا لا يعرف إن كان قادرًا على الوفاء بها. لكنه مضى في كلامه

لإحساسه بأن لهذا المديح أثرًا إيجابيًا على الكاتب.

قال باسترناك: «لحظة واحدة»، ثم سار في اتجاه الداتشا. خلع جزمته المطاطية قبل الدخول. ظل الرجلان واقفين في الحديقة.

سأله فيلادلين: «ما رأيك؟».

«لست أدري. لكني أظن فعلًا أن الرواية سوف تُنشر».

«أنت لست روسيًا. ولا تفهم كيف تجري الأمور هنا. لا أعرف ما كتبه في تلك الرواية، لكن ما من 'تذويب للجليد' يمكن أن يؤدّي إلى نشرها إن كانت مخالفة للتوجهات الثقافية. وإذا منعتها الدولة هنا، فسوف يكون إقدام باسترناك على نشرها في أي مكان مخالفًا للقانون. ليس الآن فقط، بل إلى الأبد».

«لم يرفضوا نشرها بعد».

«لقد مضت شهور ولم يتلق منهم إجابة. ليسوا في حاجة إلى قول شيء حتى تصير الإجابة واضحة».

«هذا صحيح. لكني أعرف أيضًا أن التاريخ لا يظل واقفًا في مكانه».

كانت هناك حركة في نافذة الغرفة الأمامية في الطابق السفلي. نظرت إليهما امرأة مسنة من خلال فُرجة الستارة، ثم اختفت. قال سيرجيو: «أهي زوجته؟».

«لا بد أنها زوجته، لكني سمعت أيضًا إن له عشيقة أصغر سنًا، أصغر بكثير؛ وهو لا يخفي ذلك. عشيقة علنية تعيش على مقربة من هذا المكان. يقولون إنها تظهر معه دائمًا. يظهران في أنحاء موسكو دائمًا. لم تحاول زوجته أن تضع نهاية لهذا».

انفتح باب الداتشا، وظهر باسترناك حاملًا مغلفًا ورقيًا بنّيًا كبير الحجم. سار في الفناء حافي القدمين، ثم توقف لحظة أمام زائريه قبل أن يتكلّم. «هذه رواية دكتور جيڤاكو». قدَّم المغلف إلى سيرجيو الذي مد يديه حتى يأخذه؛ لكن بوريس لم يفلت المغلف. ظل الرجلان لحظة ممسكين بالرواية، ثم لم يلبث باسترناك أن أسدل ذراعيه... «آمل أن تجد طريقها إلى العالم».

أدار سيرجيو المغلف بين يديه شاعرًا بثقله. «روايتك بين يدين أمينتين، مع السنيور فيلترينيلي. سوف ترى. وسوف أسلمه إياها شخصيًا قبل انقضاء أسبوع من الآن».

أومأ باسترناك برأسه، لكنه بدا غير مقتنع بما سمعه. تبادل الرجال الثلاثة كلمات الوداع.

وعندما انطلق سيرجيو وفيلادلين متجهَيْن صوب المحطة ، صاح باسترناك من خلفهما ،: «لقد صرتَ الآن مدعوًا إلى حضور إعدامي».

ضحك سيرجيو وقال: «يا للشعراء!».

لم يقل فيلادلين شيئًا.

في اليوم التالي ، كانت رواية دكتور جيفاكو في طريقها إلى برلين الغربية حيث سيسلم سيرجيو المخطوط إلى فيلترينيلي نفسه ، وسوف يأخذه فيلترينيلي معه إلى ميلانو.

قطار ، ثم طائرة ، ثم قطار آخر ، ثم ثلاثة كيلومترات سيرًا على الأقدام ، ثم رشوة ، ثم وصل سيرجيو سالمًا إلى فندقه في يواكيمستاهلر شتراسه. كانت جادة كورفورستندام زاهية متألّقة ، ضاجة بمظاهر الرأسمالية... كانت كل شيء لم تكنه موسكو. رجال ونساء متأنقون ، يسيرون متشابكي الأذرع خارجين إلى تناول العشاء ، أو إلى الملاهي الكثيرة التي عادت إلى العمل في المدينة كلها. سيارات فولكسفاغن بيتل ، ودراجات آلية منطلقة في الجادات العريضة يقودها مراهقون منحنون فوقها. إعلانات بأضواء النيون تومض ، واحدًا تلو الآخر: نسكافيه بالأصفر ، وبوش بالأحمر ، وأوتيل آم زو بالأبيض ، وسالاماندر شوز بالأزرق. طاولات على الأرصفة أمام المقاهي والمطاعم الكثيرة المنتشرة في الشوارع. صوت البيانو خارجًا من بار وقفت أمامه امرأة سوداء تشبه جوزفين بيكر(13) ، لكنها أكثر امتلاء ، تدعو المارة إلى الدخول.

وصل إلى غرفته ، ففتح حقيبته وأخرج قميصه الأنيق وبيجامته الحريرية المخطّطة التي غطى بها المخطوط الباقي حتى الآن في مغلّفه الورقي البنّي. لقد تمكن مرتين من تفادي تفتيش حقيبته عند عبوره من برلين الشرقية إلى برلين الغربية ، وذلك عن طريق أحاديث ودية مع الجنود ، من الجانبين ، وبالاستفادة من شكل وجهه الموحي بالثقة لبعض الناس ، وكذلك بالاستفادة من جيبه الذي كان كفيلًا بجعل من يشك فيه يطمئن إليه من جديد. قبّل المخطوط ووضعه في درج الخزانة الأسفل ، ثم غطاه بالبيجاما.

استمتع سيرجيو بدوش ساخن طويل. لم يستمر تدفّق الماء الحار أكثر من أربع دقائق ، لكنها كانت مدة أطول بثلاث دقائق مما كان لديه في شقته في موسكو. وبعدها ، وقف أمام مرآة الحمام فحلق ذقنه سعيدًا لأنه جلب موس الحلاقة معه. ظل الماء يقطر من جسده العاري حتى جف.

على الرغم من توقه إلى نبيذ أوريكييتي آلاغروديولا ، بل إلى أي نبيذ مصنوع من عنب

إيطالي، فقد قنع ببيرة ألمانية وقطعة من الشميتزل في بار الفندق. كان مدركًا أن فيلترينيلي سيصل في اليوم التالي، وأن رب عمله سيعرف بالضبط أين يذهب لكي يحتفلا بالحصول على رواية باسترناك. سيحجز أفضل طاولة في أفضل مطعم، وسيتناولان نبيذ تشيانتي الفاخر... بعد نزول فيلترينيلي من طائرته.

بعد تناول إفطار من الكبد المهروس (الباتيه) والبيض المسلوق والجبن بالأعشاب، فضلًا عن فطيرة بالمرملاد، ذهب سيرجيو إلى موظف الاستقبال في الفندق للتأكد مرة أخرى من أن جناح فيلترينيلي الرئاسي جاهز لوصوله.

«هل أمّنتم الكونياك؟».

«أجل».

«والسجائر؟».

«لقد وجدنا علبة سجائر ألفا من أجل السيد فيلترينيلي».

«والملاءات... هل هي موضوعة على السرير من غير إدخال حوافها تحت حواف الفراش؟ إنه يفضلها هكذا».

«أظن ذلك».

«هل تستطيع أن تسأل خدمة الغرف حتى تتأكد؟».

«أجل. هل هناك شيء آخر نستطيع القيام به من أجله؟».

«سيارة تاكسي».

«بالطبع».

في مطار تمبلهوف، كان سيرجيو واقفًا ينظر إلى طائرة فيلترينيلي تلمس الأرض ثم تتوقّف. اقترب من بابها سلّم متحرّك. خرج فيلترينيلي حاملًا صحيفة مطوية تحت إبطه، ثم توقف لحظة في أعلى السلّم لكي ينظر إلى «أرض الآباء». أتت هبّة ريح ففتحت سترته الداكنة، وطارت ربطة عنقه من فوق كتفه. رأى وكيله واقفًا في انتظاره فنزل السلّم.

كان سلام الناشر على سيرجيو حارًا... قبّل وجنتيه، ثم صافح يده. لم ير سيرجيو جانجاكومو فيلترينيلي إلا مرات قليلة، لكن جاذبيته كانت تفاجئه دائمًا. رجل رشيق القوام له شعر داكن مسرّح إلى الخلف ليكشف عن جبهة عريضة. كان فيلترينيلي من ذلك النوع من الرجال الذين يشعر الرجال والنساء على حد سواء بشدة جاذبيته. حتى أن نظارته

السوداء الفاخرة لم تكن لتخفي حيوية عينيه. لعل ثروته الهائلة هي ما يكسبه تلك الجاذبية كلّها. أو لعلّها الثقة المرافقة لذلك الثراء. أو لعلّها مجموعته الكبيرة من السيارات السريعة والبدلات فاخرة الخياطة ، أو النساء الجميلات اللواتي تتقاطرن إليه.

مهما يكن السبب الحقيقي لجاذبيته ، فقد كانت الأسباب وافرة لديه.

حمل سيرجيو حقيبة فيلترينيلي الجلدية ، فأمسك فيلترينيلي بذراعه كأنهما زميلان في مدرسة. اقترح سيرجيو أن يذهبا إلى مطعم لتناول طعام الغداء. لكن فيلترينيلي هز رأسه رافضًا: «أريد رؤيتها الآن».

كانت خطوات فيلترينيلي تذرع سجادة الفندق البرتقالية عندما أخرج سيرجيو المخطوط من الخزانة. قدم «دكتور جيڤاكو» إلى رب عمله ، فأمسك فيلترينيلي بالمخطوط بين يديه كأنه قادر على الإحساس بأهميته من خلال ثقله. قلّب صفحات الرواية ، ثم ضمها إلى صدره. «لم تكن لديَّ في يوم من الأيام هذه الرغبة في القدرة على القراءة باللغة الروسية».

«من المؤكد أنها ستحقّق نجاحًا كبيرًا».

«أظنّها ستحقق نجاحًا كبيرًا. لقد اتفقت مع أفضل مترجم لكي يلقي نظرة إليها فور عودتي إلى ميلانو. وعدني بأن يعطيني رأيه الصادق».

«هناك شيء لم أقله لك».

انتظر فيلترينيلي تتمة الكلام.

«يعتقد باسترناك أن السوفييت لن يسمحوا بنشر روايته. لم أستطع قول هذا في برقيتي لكنه يظن بأنها غير منسجمة مع... كيف عبَّرَ عن هذا ؟... مع التوجّهات التي لديهم».

قلل فيلترينيلي من أهمية ما قاله: «لقد سمعت الكلام نفسه ، لكن علينا ألّا نفكر في هذا الأمر الآن. ثم إن من الممكن أن يغير السوفييت رأيهم عندما يكتشفوا أن الرواية صارت عندي».

«كان هناك شيء آخر أيضًا. لقد أشار إلى أنه أصدر على نفسه حكمًا بالموت عندما سلمني الرواية. أظنه كان مازحًا عندما قال هذا».

لم يجبه فيلترينيلي بشيء. وضع الكتاب تحت ذراعه: «أنني هنا لمدة يومين فقط. فلنذهب ونحتفل».

«بالطبع! ماذا تحب أن نفعل أولًا ؟».

«أريد أن أشرب بيرة ألمانية جيدة ، وأريد أن أرقص ، وأريد أن أعثر على بضع فتيات. أود أيضًا أن أشتري نظارة من متجر في كوفورستندام سمعت أنه يصنع أفضل نظارات في العالم...». نزع نظارته عن عينيه وأشار إلى أنفه... «يقيسون المسافة من أنفك إلى حافتي عينيك حتى يصنعوا النظارة التي تناسب وجهك تمامًا. ستكون نظارة ممتازة لكي أستخدمها في يختي. لا بد لي من شرائها».

قال سيرجيو: «بالطبع ، بالطبع. إذًا ، أظن أن مهمتي قد انتهت».

«صحيح ، يا صديقي. أما مهمتي فقد بدأت الآن».

(11) لوليتا: رواية الكاتب روسي الأصل فلاديمير نابوكوف الشهيرة.

(12) إذابة الجليد: تعبير استخدمه خروتشوف للإشارة إلى التوجه إلى تخفيف القيود المفروضة على الحريات بعد موت ستالين.

(13) جوزفين بيكر: أول أميركية سوداء تؤدي الدور الأول في فيلم سينمائي كبير.

الفصل الحادي عشر
المبعوثة

توقّف قطاري في المحطة بعد أربعة أيام عقيمة أمضيتها في موسكو ، بعد جولة أخرى من المحاولات الفاشلة الرامية إلى إقناع الناشرين بطباعة رواية دكتور جيڤاكو. رأيت بوريا جالسًا وحده على مقعد في المحطة. كنا في أواخر شهر أيار ؛ وكانت الشمس قد بدأت تختفي خلف ذرى الأشجار. في ضيائها الذهبي ، بدا شعره الأبيض أشقر اللون ، وبدت عيناه لامعتين ، حتى من خلال زجاج نافذة القطار المتّسخ. أحسست ألمًا في صدري. يبدو بوريا شابًا عند النظر إليه من بعيد ، بل حتى أكثر مني شبابًا. نحن معًا منذ قرابة عشر سنين ؛ لكن ذلك الألم

الحاد لا يزال موجودًا. نهض بوريا واقفًا عندما انفتحت أبواب القطار.

قال لي وهو يأخذ الحقيبة من يدي ويعلّقها على كتفه: «حدث هذا الأسبوع شيء غير معتاد أبدًا. استقبلت زائرَين غير متوقعين».

«من هما؟».

أشار بوريا إلى الدرب الذي يسير مع خطوط القطار، الدرب الذي نسلكه عندما نريد الحديث عن أمر مهم. أمسك بيدي وساعدني في العبور. مرَّ بنا قطار ماضٍ في الاتجاه المعاكس فطارت أطراف تنورتي لشدة الهواء الذي أثاره. أدركت من هيئة بوريا، ومن خطواته السريعة أكثر من المعتاد، أنه متحمس وقلق معًا. سألته من جديد: «من زارك؟».

قال: «زارني اثنان، إيطالي وروسي». كانت كلماته سريعة، مثل خطواته... «كان الإيطالي شابًا ساحرًا. رجلًا طويل القامة أسود الشعر شديد الوسامة. لو رأيتِه لأعجبك كثيرًا، يا أولغا. إن له اسمًا رائعًا! سيرجيو دانجيلو. قال إنه اسم عائلة شائع في إيطاليا؛ لكني لم أسمع به أبدًا... لم أسمع به أبدًا قبل الآن. شيء جميل، أليس كذلك؟ دانجيلو تعني ملائكي».

«لماذا جاءا؟».

«لو رأيتِ ذلك الإيطالي لسررتِ كثيرًا. وأما الآخر، الروسي -لا أتذكر اسمه- فهو لم يتكلّم كثيرًا».

أمسكتُ بذراعه وأرغمته على إبطاء سيره وعلى أن يقول لي ما أراد قوله.

«جرى بيننا حديث رائع. أخبرتهما بأنني درست فترة في ماربورغ عندما كنت شابًا، وبسروري الكبير بالسفر إلى فلورنسا، وإلى البندقية. قلت لهما إنني أردت كثيرًا أن أذهب إلى روما، ولكن...».

«لماذا جاء الإيطالي؟».

«لقد أراد دكتور جيفاكو».

«وما الذي يريد فعله بالرواية؟».

حكى لي بوريا القصة... كأنه يدلي باعتراف... حكى لي عن دانجيلو، وعن الروسي، وعن الناشر الذي اسمه فيلترينيلي.

«وماذا قلت له؟».

توقّف عن الكلام عندما مرَّت بنا شابة تجرّ عربة متقلقلة ملأتها صفائح البنزين، ثم واصل

كلامه: «قلت له إن الرواية لن تنشر هنا. قلت له إنها غير منسجمة مع المعايير الثقافية. لكنه كان مصرًّا. قال إنه يظن أن احتمال نشر الكتاب لا يزال قائمًا».

«وكيف يمكنه أن يرى هذا في حين أنه لم يقرأ الرواية أبدًا».

«هذا ما جعلني أعطيه إياها، حتى يقرأها، حتى يكون لديه تقدير صادق للوضع».

«هل أعطيته المخطوط؟».

«أجل».

تغيرت هيئة بوريا، وظهر عليه تقدّمه في السن. كان يعرف أن ما أقدم على فعله ليس أمرًا لا يستطيع العودة عنه فحسب، بل هو أمر خطير أيضًا.

«ماذا فعلت؟». حاولت إبقاء صوتي منخفضًا، لكنه خرج مني مثلما يندفع البخار خارجًا من غلاية الشاي... «هل تعرف هذا الشخص أصلًا؟ هذا الأجنبي؟ وهل لديك فكرة عما سيفعلونه عندما تقع الرواية بين أيديهم؟ أو... لعلهم قد اعترضوها الآن. هل فكرت في هذا؟ وماذا لو كان ذلك الرجل الذي تحدّثني عنه، دانجيلو، ليس إيطاليًّا حقًّا».

كان مظهره مثل مظهر طفل يتلقّى توبيخًا. قال لي: «أنت تبالغين في التفكير في هذا الأمر...». مرر أصابعه في شعره... «سيكون كل شيء على ما يرام. إن فيلترينيلي شيوعي».

«ممتاز!». دمعتْ عيناي. كان ما فعله بوريا مرادفًا للخيانة العظمى. إذا صدرت الرواية في الغرب من غير موافقة من الاتحاد السوفييتي، فسوف يُنزِلون به العقاب... وسينالني منه نصيب أيضًا! في هذه المرة، لن تكون إقامة قصيرة في معسكر الأشغال الشاقة عقوبة كافية.

كنت في حاجة إلى الجلوس، لكن الطين كان في كل مكان. كيف استطاع أن يكون أنانيًا هكذا؟ هل فكّر بي، ولو مرة واحدة؟ استدرت وسرت عائدة.

أسرع بوريا خلفي. قال: «توقّفي». كأن ظلًا قد سقط على عينيه المتألقتين. كان مدركًا بالضبط ما أقدم على فعله... «كتبتُ الرواية حتى تُقرأ، يا أولغا. وقد تكون هذه فرصتها الوحيدة. أنا مستعد لقبول النتائج، مهما تكن. لست خائفًا مما قد يفعلونه بي».

«وماذا عني أنا؟ لعلك غير مبالٍ بما يصيبك، فماذا عني أنا؟ لقد أخذوني مرة... لا أستطيع... لا أريد أن يأخذوني مرة ثانية».

«لن يأخذوك. لن أسمح بهذا أبدًا». طوّق كتفيَّ بذراعه فملت إلى صدره. أحسست كأن فراقًا جديدًا سيصيب قلبينا... «لم أوقّع بعد على أي شيء».

«لقد أعطيتهم إذنًا بنشر الكتاب. كلانا يعرف هذا. هذا إذا كان ما قالاه عن نفسيهما صحيحًا. لن تكون هناك أية نتيجة حسنة. لا أستطيع العودة إلى ذلك المكان...» قلت هذا ومسحت عيني... «لن أعود إليه».

«أفضِّل حرق الرواية على أن يحدث هذا. أفضِّل أن أموت». كان إحساسي بكلماته مثل إحساس من يضع يده في ماء بارد بعد أن تحرقها المدفأة... يهدأ الألم تحت الماء، لكن نبضه يعود عند إغلاق الصنبور. في تلك اللحظة، فقدت إيماني به... للمرة الأولى.

«سوف يقودنا هذا الكتاب إلى هاوية لا عودة منها».

«دعينا نرى. أستطيع دائمًا القول له إنني كنت مخطئًا. أستطيع أن أطلب استرداد الرواية».

قلت: «لا. أنا سأطلب استعادتها».

سافرت إلى موسكو بعد أن أرغمت بوريا على إعطائي عنوان الرجل. قرعت باب دانجيلو، من غير موعد. فتحت الباب امرأة جميلة لها شعر بنّيّ داكن وعينان زرقاوان آسرتان. قالت لي المرأة بلغة روسية مكسرة إنها جولييتا، زوجة دانجيلو.

جاء دانجيلو إلى الباب وقبّل يدي التي مددتها لمصافحته. قال لي مبتسمًا ابتسامة كبيرة: «ما أروع أن أراك، يا أولغا. سمعت تلك الإشاعات عن جمالك، لكنك أكثر جمالًا مما قاله من وصفوك».

اندفعتُ داخلة الشقة بدلًا من شكره على لطفه. قلت له: «أنت ترى أنه لم يكن يعي تمامًا ما يفعله. ينبغي أن نستعيد المخطوط».

قال لي وهو يمسك بيدي ويعود بي إلى غرفة المعيشة: «فلنجلس. ألا تريدين أن تشربي شيئًا؟».

قلت: «لا! أعني، شكرًا... لكن، لا».

التفت إلى زوجته: «عزيزتي، هل تحضرين لي فنجان اسبريسو، وفنجانًا آخر من أجل ضيفتنا».

قبلت جولييتا خد زوجها، ثم ذهبت إلى المطبخ.

وضع دانجيلو يديه على فخذيه: «أخشى أن الوقت قد فات».

«ما معنى هذا؟».

«الرواية». لا يزال مبتسمًا مثلما يفعل الناس في الغرب... يبتسمون أدبًا، لا سرورًا... «لقد

سلمتها إلى فيلترينيلي. أعجبته. وقد قرّر نشرها».

نظرت إليه غير مصدقة ما سمعته: «لكن بوريا لم يعطك الرواية إلا منذ بضعة أيام فقط».

ضحك بصوت مرتفع أكثر مما يعجبني: «أخذتُ أول طائرة إلى برلين الشرقية. حسنًا، قطاران، ثم طائرة، ثم سرت مسافة طويلة صرت مضطرًا بعدها إلى شراء حذاء جديد عندما بلغت برلين الغربية. طار السنيور فيلترينيلي لملاقاتي هناك. لقد أمضى في برلين وقتًا رائعًا».

«عليك أن تعيد المخطوط».

«هذا مستحيل، للأسف. لقد بدأتْ ترجمتُها منذ الآن. قال فيلترينيلي نفسه إن من شأن الامتناع عن نشر الرواية أن يكون جريمة».

«جريمة؟ وماذا تعرف عن الجرائم؟ ماذا تعرف عن العقاب؟ بوريس هو من يرتكب جريمة عندما يجعل روايته تُنشر خارج الاتحاد السوفييتي. يجب أن تدرك ما فعلته».

«لقد أعطاني السيد باسترناك إذنًا بذلك. ولم أكن أعرف أن في الأمر أية خطورة...». نهض واقفًا وتناول حقيبة يد كانت عند الباب. أخرج مفكرة جلدية سوداء... «انظري. لقد دوّنت هذا في مفكرتي يوم زرته في بيريدلكينو. دوّنته لأنني وجدت كلماته شديدة الفصاحة.

نظرت إلى الصفحة التي أمامي. لقد كتب دانجيلو عليها: هذه هي رواية دكتور جيڤاكو. آمل أن تشق طريقها في العالم.

«أرأيتِ؟ هذا إذن بالنشر، وفوق ذلك...». صمت لحظة فأحسست أن ذلك الإيطالي يشعر بشيء من الذنب... «حتى إذا أردت إعادة المخطوط، فقد صار الآن بعيدًا عن متناولي».

لقد صار الكتاب بعيدًا عن متناولي أيضًا. الحقيقة هي أن بوريا أعطى موافقته على نشره، وأنه كذب عليَّ عندما قال إنه لم يفعل ذلك. لقد خرج دكتور جيڤاكو من البلاد، وبدأت الأمور تتحرّك. ما عدت قادرة على فعل شيء غير مواصلة محاولاتي لإقناعهم بطباعة الكتاب في الاتحاد السوفييتي قبل أن ينشره فيلترينيلي في الخارج. إنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها إنقاذه، وإنقاذ نفسي.

وقّع بوريا العقد مع فيلترينيلي بعد شهر من ذلك. لم أكن حاضرة وقت التوقيع. لم تكن زوجته حاضرة. لأول مرة، كانت زينايدا متفقة معي اتفاقًا تامًا. لن يؤدّي نشر الرواية إلا إلى إنزال الألم بنا جميعًا.

قال لي بوريا إنه يتوقّع إقدام مؤسسة نشر سوفييتية على إصدار الكتاب بفعل الضغط

الإضافي من الخارج. لكني لم أصدقه. قلت له: «أنت لم توقّع على عقد. لقد وقعت على حكم بالموت».

بذلت أقصى ما استطعته. توسّلت إلى دانجيلو لكي يضغط على فيلترينيلي لإعادة المخطوط. وذهبت إلى كل محرّر وافق على لقائي لكي أطلب منه نشر دكتور جيڤاكو قبل أن ينشرها فيلترينيلي.

انتشر نبأ حصول الإيطاليين على الرواية، فطالب القسم الثقافي في اللجنة المركزية باستعادتها من فيلترينيلي. وجدت نفسي في وضع جديد: صرت متّفقة مع الدولة. إذا كان لرواية دكتور جيڤاكو أن تُنشر، فإن من الواجب أن تُنشر في وطنها أولًا. لكن فيلترينيلي تجاهل تلك المطالبات، فصرت خائفة مما قد يحدث بعد ذلك. ذهبت إلى لقاء ديمتري ألكسييفتش بوليكاربوف، رئيس القسم الثقافي، لأرى إن كنت أستطيع تليين موقفهم.

كان بوليكاربوف رجلًا جذابًا، رأيته عدة مرات من قبل في مناسبات في المدينة؛ لكني لم أتحدث معه أبدًا. كان يرتدي بدلات غربية التفصيل وبنطلونات ضيقة من الأسفل تحتك أطرافها بحذائه الأسود اللامع. رجلٌ معروف بنفوذه الواسع ضمن الدوائر الأدبية في موسكو. تجمّد قلبي عندما فتحت لي سكرتيرته باب مكتبه. لكني، حتى قبل أن أجلس، استنشقت نفسًا عميقًا وبدأت توسلاتي التي تمرّنت عليها في القطار. قلت له: «الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو نشر الرواية هنا قبل أن ينشرها الإيطاليون. نستطيع تنقيح الرواية وحذف بعض الأجزاء التي تعتبر مناهضة للاتحاد السوفييتي، قبل نشرها». وبطبيعة الحال، لم يكن بوريا يعرف شيئًا عن مفاوضاتي هذه. وكنت أعرف أكثر من أي شخص آخر أنه يفضل عدم نشر الرواية على حذف أي شيء منها.

وضع بوليكاربوف يده في جيب سترته، وأخرج منه علبة معدنية صغيرة. قال: «مستحيل». أخذ من العلبة قرصَي دواء ابتلعهما من غير ماء. واصل كلامه، «يجب استعادة دكتور جيڤاكو مهما يكن الثمن. إصدارها كما هي غير ممكن، لا في إيطاليا، ولا في أي مكان آخر. إذا أصدرنا نسخة، وأصدر الإيطاليون نسخة أخرى، فسوف يسألنا العالم عن السبب الذي يجعلنا ننشرها بعد استبعاد أجزاء منها. سيكون هذا محرجًا للدولة وللأدب الروسي كله. لقد وضعني صديقك في موقف حسّاس جدًا». أعاد علبة الدواء إلى جيبه... «ووضعك أنت أيضًا».

«لكن ، ما الذي يمكن فعله ؟».
«يمكنك مطالبة بوريس ليونيدوفيتش بالتوقيع على برقية سأعطيك إياها الآن».
«ماذا تقول البرقية ؟».
«تقول إن المخطوط الذي في حوزة فيلترينيلي ليس إلا مسوَّدة أولية ، وإن هناك مسودة أخرى ستليها. وبالتالي ، عليه إعادة المخطوط الأصلي فورًا. إذا لم يوقّع هذه البرقية في غضون يومين فسوف يعتقل».
كان هذا تهديدًا معلنًا. لكن التهديد غير المعلن فهو أنهم سيعتقلونني بعد اعتقاله. لكني كنت مدركة أن فيلترينيلي لن يمتنع عن النشر ، حتى إذا تلقى تلك البرقية. لقد اتفق معه بوريا على أن يراسله باللغة الفرنسية فقط. وطلب منه أن يتجاهل أي شيء باللغة الروسية يصله باسمه. وكنت أعرف أيضًا أن توقيع بوريا على وثيقة من هذا النوع سيجعله يحسُّ عارًا كبيرًا.
قلت: «سوف أحاول».
وقد حاولت. طلبت ذلك منه. طالبته بإرسال برقية إلى فيلترينيلي يطلب منه فيها استعادة المخطوط ، تمامًا مثلما كانت أوامر بوليكاربوف. طالبت الرجل الذي أحبّه بالامتناع عن نشر عمل حياته. وعندما طالبته -كان ذلك أثناء تناولنا العشاء في البيت الصغير- لم يفعل شيئًا غير أن استند إلى ظهر كرسيه. ارتفعت يده إلى رقبته كأنه يعاني تشنّجًا عضليًا ، ثم ظل برهة طويلة صامتًا. وبعدها تكلم.
«منذ سنين ، تلقيت مكالمة هاتفية».
وضعت من يدي شوكتي. أدركتُ وجهة كلامه.
«كان هذا بعد فترة وجيزة من اعتقال أوسيب بسبب قصيدته ضد ستالين. لم يدوّن أوسيب تلك القصيدة. حفظها في ذاكرته. وحتى ذلك ، تبيّن أنه غلطة خطيرة. يمكن أن تكون الكلمات التي في رأس الإنسان جريمة تستوجب الاعتقال في تلك الأوقات المظلمة. لم تكوني وقتها إلا طفلة صغيرة ، أصغر كثيرًا من أن تستطيعي التذكر الآن».
أعدت ملء كأس النبيذ التي أمامي: «أعرف سنِّي».
«ذات ليلة ، ألقى القصيدة أمام مجموعة منا ، وكنا واقفين عند زاوية شارع. قلت له إن هذا يشبه الانتحار. لم يكترث لتحذيري. وبالطبع ، سرعان ما اعتقلوه بعد ذلك. وبعدها بفترة

قصيرة ، أتتني مكالمة هاتفية. هل تعرفين من كلمني ؟».

«سمعت قصصًا عن ذلك».

«بالطبع ، سمعت قصصًا. لكنك لم تسمعيها مني».

تحركت لكي أملأ كأسه ، لكنه أشار لي بأن أجلس. «بدأ ستالين كلامه من غير إلقاء التحية. عرفت صوته على الفور. سألني إن كان أوسيب صديقي ؛ وإن كان صديقي ، فلماذا لم ألتمس إطلاق سراحه ؟ لم تكن لدي إجابة على سؤاله ، يا أولغا. لكني رحت أتمحّك الأعذار بدلًا من المطالبة بحرّية أوسيب. قلت لأمين اللجنة المركزية إن التماسي من أجل أوسيب ، إن قدمته ، لن يبلغ مسامعه أبدًا. عند ذلك سألني ستالين إن كنت أعتبر أوسيب مُعلّمًا في الأدب ، فقلت له إن هذا لا علاقة له بالموضوع. هل تعرفين ما فعلته بعد ذلك ؟».

«ماذا فعلت ، يا بوريس ؟ قل لي ماذا فعلت ؟». شربت النبيذ المتبقي في كأسي.

«لقد غيّرت الموضوع. قلت لستالين إنني أتمنّى منذ زمن بعيد أن يجري بيني وبينه حديث جاد عن الحياة والموت. هل تريدين معرفة كيف كانت استجابته ؟».

«كيف ؟».

«أنهى المكالمة».

رحت ألاحق بظهر سكيني حبّة بازلاء في صحني: «لكن ، ما علاقة هذا بما نحن فيه الآن ؟ لقد كان ذلك قبل سنين. مات ستالين».

«ندمت زمنًا طويلًا على فعلتي تلك. أو ، بالأحرى ، ندمت على ما لم أفعله. لقد أتيحت لي فرصة الدفاع عن صديقي ، فرصة إنقاذه ، فلم أستفد منها. لقد كنت جبانًا».

«لا أحد يلومك على...».

ضرب بوريا الطاولة بقبضته فاهتزت الطاولة وأطباق الطعام: «لن أكون جبانًا مرة أخرى».

«إن هذا ليس مثل...».

«لقد طلبوا مني التوقيع على رسائل من قبل».

«هذا أمر مختلف. يعرف فيلترينيلي أن عليه تجاهل أي شيء ترسله له إن كان مكتوبًا بغير اللغة الفرنسية. أنت من اقترح هذا الترتيب. لن تكون هذه كذبة. ليست أكثر من إجراء وقائي».

«لست في حاجة إلى إجراءات وقائية».

ازداد غضبي: «وماذا عني إذًا، يا بوريس؟ من يحميني؟». سكتُّ لحظة قبل أن أُطلق كل شيء... «لقد أرسلوني إلى الغولاغ مرة من قبل. أرسلوني بسببك». كانت تلك أول مرة ألومه فيها لومًا مباشرًا، فبدا عليه الذعر. قلتها من جديد: «أرسلوني إلى ذلك المكان بسببك أنت. أتريد أن تكون مسؤولًا عن إعادتي إليه؟».

صمت بوريس من جديد.

«ماذا؟ هل تريد أن تكون مسؤولًا عن ذلك؟».

وأخيرًا أجابني: «لا بد أنك تستصغرينني كثيرًا. أين هي؟».

ذهبت إلى غرفتي وعدت ببرقية بوليكاربوف. أخذها مني ووضع توقيعه عليها من غير أن يقرأها. أرسلتها إلى ميلانو في صباح اليوم التالي؛ وأرسلت بعدها برقية إلى بوليكاربوف أخبرته فيها بأن الأمر قد تم.

لم يجرِ بيني وبين بوريا أي حديث عن البرقية بعد ذلك. وفي النهاية، لم يكن للأمر أية أهمية. لقد تجاهلها فيلترينيلي... كنا نعرف أنه سيتجاهلها. تقرّر نشر الرواية في إيطاليا في بداية شهر تشرين الثاني.

لقد بذلت أقصى جهدي؛ لكن أقصى جهدي لم يكن كافيًا. صارت رواية دكتور جيڤاكو مثل قطارٍ مندفعليس لأحد أن يستطيع إيقافه.

غرب
خريف 1957 - آب 1958

الفصل الثاني عشر
ناقلة الرسائل

وصلت سالي فورستر يوم الاثنين.

كنت قد ذهبت إلى مقهى رالف مع فتيات الآلة الكاتبة نتيجة توسّلات نورما. أدركت أن نورما غير مهتمة إلا بمعرفة تفاصيل علاقتي بتيدي ؛ لكني قبلت الذهاب عندما عرضت عليَّ أن تشتري لي سندويتش برغر وشراب الشوكولاته ، فقد كنت أتذكّر سندويتش التونة البائت الذي ينتظرني على طاولة مكتبي في البيت. كانت المقصورة التي نجلس فيها عادة مزدحمة بفتيات الآلة الكاتبة. فجلست وأدرت ساقيَّ الطويلتين صوب الممرّ. فور جلوسنا وطلبنا ما نريد تناوله ، بدأت نورما تمطرني بالأسئلة.

«هيا ، يا إيرينا. إنك تواعيدنه منذ متى ؟ منذ سنة ؟ لم تقولي لنا شيئًا! نحن لا نعرف شيئًا».

أجبتها: «منذ ثمانية شهور».

دخلت ليندا على الخط: «صرتُ مخطوبة لديفيد بعد ثلاثة شهور».

ابتسمت لها ابتسامة مهذّبة. كانت الحقيقة هي أننا ، أنا وتيدي ، صرنا على علاقة حقيقة من

غير حتى أن أنتبه إلى ذلك. تحول عشاؤنا الأول في مطعم رالف غوتشي إلى عشاء وفيلم سينمائي في نهاية الأسبوع التي أعقبت ذلك. ثم صار الأمر عشاء ورقصًا ، ثم تحول أيضًا إلى عشاء في بيت والديه الواسع في بوتماك. قدّمني تيدي إلى أهله على أني صديقته فلم أصحّح ما قاله لأنني لم أرد جرح مشاعره... حتى بعد مضي شهور على ذلك. لعل الأمر هو أننا كنا منسجمين تمامًا ، أو لأنه أعجب ماما ولأنه كان على معرفة مدهشة بالأدب الروسي ، فضلًا عن إتقانه اللغة الروسية. كانت تقول له: «أنت تتكلّم الروسية أفضل من أبناء عمومتنا ، مع أنهم مولودون هناك».

وفوق هذا ، وجدت معه راحة كنت توّاقة طيلة حياتي إلى العثور عليها مع صديق. لم أكن في حاجة إلى دراسة كل كلمة وكل حركة عندما أكون معه. كانت تلك صداقة ، لكنّي لم أفقد الأمل في إمكانية تحولها إلى ما هو أكثر من صداقة. كنت أنتظر الشرارة ، تلك الصدمة الكهربائية... اللحظة التي ترتخي فيها الركبتان: كل تعبير من تلك التعابير الشائعة التي قرأت عنها.

كانت هناك أخبار أخرى أيضًا. لقد صار الناس يعتبرون تيدي شخصًا ذا مستقبل واعد في الوكالة ، عضوًا محتملًا في الدائرة الداخلية التي لم تكن آمالي ، بما أنني امرأة ، تتجاوز رؤية أطرافها الخارجية. لقد أخذني إلى حفلات عشاء يوم الأحد في جورجتاون ، وإلى حفلات الكوكتيل الفاخرة في فندق هاي آدمز. لم يكن يجعلني أذهب للحديث مع زوجات الآخرين وصديقاتهم ، بل يشدني من حديث إلى حديث مع رجال آخرين ، ويضغط على يدي كلما قلت شيئًا يجعله يشعر بالاعتزاز.

كان تيدي كاثوليكيًا ؛ ولم يضغط عليَّ أبدًا لفعل أي شيء لست مستعدّة له. ليس معنى هذا أنه كان ضد ممارسة الجنس قبل الزواج ؛ فقد مارسه أول مرة مع معلّمة بديلة عندما كان في سنته الأخيرة في مدرسته الثانوية ، ثم صارت له بعدها ثلاث صديقات في الجامعة... إلا أنه كان يحترم الحدود التي وضعتها لنفسي. وأنا أيضًا لم أكن ضد ممارسة الجنس قبل الزواج ، على الرغم من أنني جعلته يظنّني متعففة أكثر مما كنت في واقع الأمر. لم أكن عذراء ، لكن تيدي لم يعرف هذا. لقد فقدت عذريتي -أو بالأحرى تخليت عنها- مع صديق لي في السنة الأولى في الجامعة. كنت أعتبرها أمرًا لا بد من الانتهاء منه وتجاوزه ، فدعوته إلى مهجعي في غياب زميلاتي. دخل من الباب ، فسألته إن كان يريد ممارسة الجنس معي. فوجئ الفتى

المسكين مفاجأة كبيرة ، وحاول أول الأمر أن يقنعني بالعدول عن ذلك. لكنه رضخ عندما خلعت بلوزتي.

وقد كنت أتعامل مع الجنس دائمًا مثلما يتعامل معه دارس الأحياء. فبدلًا من النظر إلى نفسي ، كان أكثر اهتمامي منصبًّا على ملاحظة الرجل وردود أفعاله. لقد أحببت استجابة تيد عندما يلمسني... أحببتها أكثر من محبتي للشعور الذي كانت تثيره تلك اللمسات في نفسي. جعلتني رغبته المكبوتة أشعر بالقوة ، فكان هذا اكتشافًا. كان تيدي كل ما أريد أن أجعله أملًا لي... ولكن.

توقّفت أسئلة نورما عندما دخلت سالي المقهى. نبّهتْ ليندا المجموعة بأن اتسعت عيناها وقالت: «من هذه ؟».

نظرتُ إليها في اللحظة نفسها التي نظرت إليها بقية الفتيات.

«لماذا لا تكون لافتة للنظر ؟».

كان مقهى رالف مكانًا يؤمه روّادٌ منتظمون: مجموعة فتيات الآلة الكاتبة يتبادلن النمائم في المقصورة الخلفية ، وزبائن قدامى يغمسون التوست في البيض المقلي على الطاولة الكبيرة ، وطلبة جامعيون يدرسون على الطاولات المستديرة الصغيرة ويكتفون بطلب القهوة أو شراب الشوكولاته ، ومحامٍ أتى بعملائه إلى هذا المكان لأنهم لا يريدون لفت الأنظار إليهم. كان كل قادم جديد إلى مقهى رالف يجتذب انتباه فتياتنا... لكن هذه المرأة كانت لافتة حقًّا.

تظاهرت جودي بأنها تُخرِج شيئًا من حقيبة يدها: «يبدو شكلها مألوفًا جدًّا».

كان ماركوس قد خرج من خلف طاولته وبدأ يشير للمرأة إلى كل نوع من أنواع المعجّنات الموجودة في واجهة العرض. وكانت أثينا منحنية فوق صندوق المحاسبة ؛ عيناها على زوجها ، وعينا زوجها على المرأة. كانت تلك المرأة متوسطة الطول ، لكن حذاءها ذا الكعبين المرتفعين جعلها أكثر طولًا ببضع بوصات. بدت صغيرة السن بعض الشيء ، لكنها أكثر أناقة من امرأة في العشرينات: معطفها الأزرق الزاهي الذي يبلغ ركبتيها ، له بطانية حريرية حمراء وياقة من فرو الثعلب. كان شعرها داكن الحمرة ، رائع التموّجات... ذلك النوع من الشعر الذي يجعل المرء راغبًا في وصف لونه بصوت مسموع. كان لون شعري شبيهًا بلون فطائر الشوفان التي لم يسعفها الحظ بالبقاء في الفرن فترة كافية حتى تنضج.

قالت نورما: «أتكون زوجة واحد من السياسيين ؟».

ثم أضافت ليندا: «في قلب المدينة في هذه الساعة؟». وبمنديل الطاولة، مسحت بقعة كاتشب عن زاوية فمها.

أدلت كاثي بدلوها: «انظروا إلى هذا الحذاء! بالتأكيد، ليس حذاء زوجة سياسي».

كان إصبع بطاطس مقلية متدليًا بين إصبعي جودي كأنه سيجارة، وكان تعليقها: «هذا أقل ما يقال».

سألتُهنّ: «أهي امرأة مشهورة؟». من حيث كنت جالسة، لم يكن جمال تلك المرأة يعادل جمال ريتا هيوارث، لكنها استدارت فتمكّنت من رؤية وجهها جيدًا. أدركت أنها ليست مثل ريتا هيوارث على الإطلاق: إن لها ذلك الجمال الخاص بها.

قالت ليندا مستحّسنة: «هممم. هل كانت في ذلك الفيلم؟ الفيلم الذي منعوا عرضه؟ بيبي دول».

قلت: «أنت تفكرين في كارول بيكر. إن شعرها أشقر، لكني أظن أن هناك احتمالًا لأن تكون قد صبغته».

«أكبر سنًا منها». قالت كاثي هذا في الوقت نفسه الذي كانت جودي تقول: «وأكثر امتلاء منها».

لعقت نورما بقعة خردل كانت على إصبعها: «ليست كارول بيكر. ألم تظهر في إعلان متجر غارفينكل؟ ذلك الإعلان التي كانت فيه...». خفضت صوتها... «حشيات سحرية؟».

قلت: «لا يبدو لي أنها في حاجة إلى أية حشيات سحرية»، ثم وضعت يدي على فمي عندما انفجرت الفتيات كلهن ضاحكات.

أشارت المرأة إلى الفطائر بالكرز، فوضع ماركوس اثنتين في علبة. دفعت ثمنهما لأثينا، وغمزت لماركوس بعينها. استدارت لكي تذهب، لكن ليس قبل أن تومئ برأسها إيماءة سريعة في اتجاه طاولتنا. أدرنا وجوهنا جميعًا متظاهرات بأننا لم نكن ننظر إليها.

كانت تلك أول مرة أرى فيها سالي فورستر قبل أن أعرف اسمها.

رأيتها مرة ثانية في مقر الوكالة. كنا عائدات من مقهى رالف، فرأيناها واقفة عند مكتب الاستقبال تتحدّث مع أندرسون. عادة ما يستقبلنا أندرسون بإشارة مفادها أن علينا أن نجدّ في العمل حتى ننفق الحُريرات التي استهلكناها وقت الغداء، لكنه لم يلتفت إلينا لحظة واحدة عند مرورنا به ذاهبات إلى مكاتبنا.

سألت جودي: «لماذا هي هنا؟».

قالت نورما: «لعلها شخصية مهمة!».

سألت ليندا مبتسمة: «أهي واحدة من فتيات دولز؟». لم تكن العلاقات العابرة لمدير الجواسيس سرًا إذ فاق عددها العشرات. وكانت الشائعات تقول أيضًا إن من بينها علاقات مع فتيات من مجموعة الآلة الكاتبة. لكن، حتى إن كان هذا صحيحًا، فإن أي واحدة منا لم تقربه.

قالت غيل: «إن كان الأمر هكذا، فلن تبقى في قسم روسيا السوفييتية، مع أندرسون». كان أندرسون قد أكل واحدة من فطيرتَي الكرز اللتين أتت بهما المرأة. وظل أثر الفطيرة ظاهرًا عبر نقطة جيلي على سترته الصوفية ذات الزرقة الخفيفة. كان متّكئًا إلى طاولة مكتب الاستقبال محاولًا أن يبدو شخصًا مهمًا (أو ربما عفويًا) - محاولة بائسة للفت انتباهها. لكن المرأة لم تكن تفتح عينيها واسعتين مثلما نفعل. اكتفت بأن ابتسمت، ثم ضحكت ومسّت ذراعه. خلعت معطفها الأزرق وناولته لأندرسون الذي حمله على ذراعه مثلما يفعل نادل. تحت ذلك المعطف، كانت ترتدي فستانًا من الصوف ذا لون بنفسجي زاهٍ مع حزام مضفور ذهبي اللون.

نظرتُ إلى ثوبي الأزرق الداكن فلاحظت في وسط صدره بقعة باقية من معجون الأسنان ظننت أنني تمكنت من إزالتها هذا الصباح. فتحت درج مكتبي السفلي وأخرجت منه الكنزة الصوفية التي كنت أستخدمها عندما لا تكون تدفئة المكان كافية. ارتديت الكنزة مذعورة، وطويت أكمامها.

قالت غيل: «هل هي ضاربة آلة كاتبة جديدة؟».

قالت كاثي: «لا. عددنا الآن مكتمل بعد مجيء الروسية».

صحّحت قولها: «الأميركية الروسية».

قذفتني جودي بممحاة تالفة: «اذهبي واكتشفي الأمر، يا آنا كارينينا».

لكن أندرسون وذات الشعر الأحمر كانا آتيين في اتجاهنا. سار أمامها مشيرًا لها إلى المعالم المألوفة في مكتبنا. قال لها إن آلة تصوير الأوراق «حديثة جدًا ولن تطرح في السوق قبل سنة من الآن»، وإن مبّردة الماء تعطي ماءً «باردًا وحارًا». بلغا مكتبي.

«سالي فورستر»؛ مدّت لي المرأة يدها وهي تقول اسمها.

صافحت يدها الممدودة وقلت: «سالي».

«أنت سالي أيضًا؟».

قال أندرسون بدلًا مني: «هذه إيرينا».

ابتسمت سالي من جديد: «يسرني لقاؤك».

أومأت برأسي إيماءة خرقاء؛ وقبل أن أفلح في القول لها إنني سررت بلقائها أيضًا، كانا قد تحركا عبر صف المكاتب... صافحت سالي كل فتاة من فتيات المجموعة.

قال أندرسون للجميع: «ستكون الآنسة فورستر موظّفة الاستقبال الجديدة لدينا، بوقت عمل جزئي. وسوف تكون في المكتب أحيانًا لكي تساعدنا بقدر الحاجة».

رحنا نستعرض حصيلة المعلومات في حمّام السيدات.

«هذه الملابس!».

«ذلك الشعر!».

«وتلك المصافحة!».

كانت مصافحة سالي قوية. ليست مثل مصافحة الرجال الذين يشدّون على أصابعنا فيسحقونها، لكنها قوية إلى الحد الذي يجعل المرء ينتبه إليها. قالت نورما: «قوّيّة، لكنها ليست أقوى مما ينبغي. هذه طريقة السياسيين في المصافحة».

«لكن، لماذا هي هنا؟».

«من يدري!».

قالت نورما: «حسنًا، ما أعرفه هو أنهم لا يضعون امرأة كهذه خلف مكتب استقبال. وإن وضعوها هناك، فلا بد من وجود سبب لذلك».

بعد انتهاء العمل، عدت إلى البيت متّخذة مسارًا طويلًا حتى أمرّ بمتجر هاتشت. كانت واجهات العرض المتقنة لديهم الواجهات المفضلة عندي في المدينة: يُلبسون المانيكانات ملابس التزلج في الشتاء، ويضعونها فوق تل ثلجي صغير مصنوع من القطن؛ ويجعلونها تبحث عن بَيض الفصح مرتدية فساتين جميلة زاهية الألوان في الربيع؛ أو مستلقية بالبكيني في الصيف إلى جوار بركة سباحة مصنوعة من السيلوفان الأزرق.

مررت بتلك الواجهات، فرأيت رجلًا وضع شريط قياس معدنيًّا في جيبه الخلفي وهو يرتّب ثلاث مانيكانات في ملابس الساحرات من حول قدْر بلاستيكي أسود. قلت في نفسي إنني سأنظر إلى الواجهة ثم أتابع سيري. وعندما دخلت المتجر قلت لنفسي إنني سأكتفي بالنظر

إلى ما لديهم. وعندما بدأت النظر إلى ما لديهم قلت لنفسي إنني سأنظر إن كنت أستطيع شراء شيء أرتديه بحيث لا يبدو عليه أنه منزليّ الصنع... شيء يبدو مثل شيء يمكن أن ترتديه سالي فورستر.

رحت أمر بيدي على الرفوف فأتلمّس القطن والكتان والحرير بين أصابعي، وأتتبّع خطوط الخياطة المتقنة في التنانير. لو كانت أمي معي لكانت أرتني كيف أنجزت الآلات، بطريقتها الرخيصة، هذه الملابس المتماثلة؛ وكيف أن درزات الخياطة تتفتّق مع مرور الزمن، وتتساقط الأزرار... وفي آخر المطاف، يأتي إليها المشترون الجاهلون الذين حصلوا على هذه التّنورة بسعرٍ مبالغٍ فيه حتى تصلحها لهم. لو كانت هنا، لرفعت أمامي إصبعها، الذي تقرَّن جلده من الخياطة، وقالت لي إن ما من بديل عن الجد في العمل.

وعندما وضعت على صدري بلوزة حمراء معها وشاح للرقبة، أبيض وأحمر، من تحت ياقتها البيضاء الواسعة، سألتني واحدة من البائعات إن كنت في حاجة إلى مساعدة.

قلت لها: «إنني أنظر فحسب». تخيفني البائعات دائمًا. هذا هو السبب الأول الذي يجعل دخولي المتاجر الكبيرة قليلًا جدًا... إضافة إلى أنه لم يكن لديَّ، أبدًا، مال أستطيع إنفاقه.

تابعت البائعة كلامها: «بلوزة جميلة». كانت ترتدي تنورة واسعة سوداء ومن فوقها بلوزة بيضاء؛ وخصلات شعرها ترسم قوسًا من فوق جبهتها.

«ستكون رائعة عليك. ألا تحبين تجربتها؟».

أخذت التعليقة مني قبل أن أفلح في إجابتها بشيء، فسِرت خلفها في اتجاه غرفة تجربة الملابس. علّقت البلوزة على المشجب وقالت: «أخبريني إن كنت في حاجة إلى مقاس مختلف».

نظرت إلى بطاقة السعر قبل أن أخلع فستاني. سعر أعلى مما أقدر عليه. لكني بقيت في الغرفة بضع دقائق حتى أجعلها تظن أنني جربت البلوزة، على الأقل. سأقول لها إن لونها الأحمر لم يعجبني. لكني فتحت باب الغرفة فوجدت نفسي أقول لها: «سوف أشتريها».

أغرقتني ماما بأسئلتها عندما دخلت باب البيت. «أين كنت؟ هل كنت في موعد مع تيدي؟ هل طلب يدك، أم لم يفعل بعد؟».

أَنْزعج كلما أتت ماما على ذكر تيدي.

«تنزّهت قليلًا».

«هل قطع تيدي علاقته بك ؟ كنت أعرف أن هذا سيحدث».

«ماما ، قلت لك إنني سرت قليلًا فحسب».

«يا لها من نزهة طويلة! صرت تكثرين من هذه النزهات الطويلة. الربّ وحده يعرف ما تفعلين».

«لكنك غير مؤمنة بالرب».

«بصرف النظر عن هذا ، لا ينبغي أن تمشي كثيرًا. أنت نحيلة جدًا. ثم ، من لديه وقت للمشي أصلًا؟ كنت في حاجة إلى مساعدتك لإنهاء فستان حفل التخرج للآنسة هالبرن. هذه فرصة كبيرة لي حتى أدخل سوق المراهقات الأميركيات. أخيط فستانًا للآنسة هالبرن ، وتراها صديقاتها كلّهنّ مرتدية ذلك الفستان ، فتريد كل واحدة منهن فستانًا مثله. لن تلبث الفساتين التي أصنعها أن تظهر في برنامج أميريكان باندستاند إلى جوار ذلك الرجل الوسيم ، ريتشارد كلارك».

«ديك كلارك!» (14).

«من ؟».

جلست إلى جوارها ، عند طاولة المطبخ ؛ وحرصت على وضع حقيبة يدي عند قدميّ حتى لا ترى قطعة الورق البارزة من سحابها. قلت لها: «انتظري. عرفت ذلك الفستان. فستان الشيفون الأصفر ، صحيح ؟».

«ليس لونًا مناسبًا لتلك الفتاة الشاحبة. لكن ، من أكون أنا حتى أقول لها هذا ؟».

«لكن ذلك الفستان ليس عليه خرز كثير... القليل من الخرز فقط عند سِواري الكمّين. أنت تستطيعين إنجاز ذلك في ساعة واحدة». لم تُجبني ماما. نهضت من على كرسيّها.

سألتها: «هل أنت على ما يرام ؟».

نهضت واستدارت إليَّ. تغضّن حاجباها وقالت: «إنني متعبة فقط».

ارتديت بلوزتي الحمراء الجديدة عند ذهابي إلى العمل صباح اليوم التالي ، لكني خبّأتها قبل خروجي تحت كنزة بيج مقاسها كبير علي. لم تر ماما البلوزة ، لكنها علّقت على الكنزة. سألتني: «لماذا تلبسين هذا الشيء القديم البشع ؟». تظاهرت بأنها تنظر إلى الخارج عبر واحدة من النوافذ النّصفية في شقتنا التي في القبو: «هل يهطل الثلج في الخارج ؟ أنت لست ذاهبة إلى التزلج ، أليس كذلك ؟».

«أرى أنك عدت إلى طبيعتك الأصلية».

«وما الطبيعة الأخرى التي عندي؟».

قبّلتها على خدها، وخرجت مسرعة.

تصبّبت عرقًا، لكني انتظرت حتى بلغت موقف الباص قبل أن أخلع الكنزة. أمسكت معطفي بين فخذي، وسحبتها من فوق رأسي. مرت امرأة مع طفلين مرتديين ملابس المدرسة الكاثوليكية. فنظرت إليَّ نظرة غريبة. لم أدرك إلا بعد أن جلست في الباص أنني أخطأت في تزرير بلوزتي، وأن جزءًا من حمالة الثديين كان ظاهرًا منها.

توقّف المصعد، وخرجت إلى ردهة الاستقبال حاملة معطفي مطويًا على ذراعي. كتفاي مشدودتان إلى الخلف، أنظر أمامي مباشرة، لا إلى قدميّ، في محاولة لإظهار أنني منطلقة واثقة مثل تلك المرأة في ذلك الإعلان عن مزيل الرائحة «بان رول أون». ألقيت نظرة سريعة في اتجاه مكتب الاستقبال مستعدة لإلقاء التحية على سالي، لكن أملي خاب عندما رأيت موظفة الاستقبال المعتادة جالسة هناك.

قالت لي: «بلوزة جميلة. الأحمر يناسبك كثيرًا».

أجبتها: «شكرًا. اشتريتها في التنزيلات». كنت أفعل هذا دائمًا: إذا أبدى أحد إعجابه بتسريحة شعري، أجيبه بأنني لست واثقة من أن طوله مناسب لي. وإذا أبدى أحدهم إعجابه بفكرة أو بنكتة قلتها، فإنني أنسبها إلى شخص آخر.

لم تأت سالي في اليوم التالي؛ ولم تأت في اليوم الذي بعده. أستعد لرؤيتها كلما خرجتُ من المصعد، لكنها لم تأت. لم أكن الوحيدة التي لاحظت ذلك. اعتبرت الفتيات غيابها برهانًا على أن لها عملًا آخر في الوكالة. قالت نورما: «موظفة استقبال بوقت عمل جزئي... قولوا هذا لمؤخرتي». ضحكتُ مع بقية الفتيات، لكني لم أستطع الامتناع عن التساؤل في نفسي عما كنّ تقلنه عني خلف ظهري.

انقضى أسبوع، لكني اكتشفت أنني لا أزال أفكر فيها. ظلّ في ذهني شيء متعلّق بسالي فورستر.

انقضى أسبوع آخر، فظننت أنني لن أراها بعد ذلك. لكن باب المصعد انفتح أمامي، فرأيتها جالسة إلى مكتب الاستقبال. كانت تكتب شيئًا على ورق الاختزال الأصفر. لوّحت لي بيدها فتظاهرت بأن نوبة سعال أصابتني حتى أموّه احمرار وجهي.

جلست إلى طاولة مكتبي وانكببت على العمل قائلة لنفسي إن عليَّ ألا أنظر صوبها. لكن حضورها في ذلك الصباح كان محسوسًا، حتى من غير النظر إليها. وعندما نهضت لكي أذهب إلى الحمام، كنت شديدة الانتباه إلى حركة جسدي، وكيف ينبغي أن أرفع رأسي، وكيف ينبغي أن يكون مظهري وأنا سائرة في الصالة. كان ذلك كأنني أرى نفسي من خلال نظرة شخص آخر. ثم حدث ذلك: كلّمتني. ظننتها تكلّم شخصًا آخر، لكني سمعتها تقول اسمي.

بدلًا من إلقاء التحية عليها، قلت: «أوه، لم أعرف أنك تتكلّمين معي».

«ألدينا كثيرات باسم إيرينا في قسم روسيا السوفييتية؟».

«لا أظن هذا. ربما كنت الوحيدة».

«إنني أمازحك. على أية حال، وبما أنني الفتاة الجديدة هنا، فما رأيك في أن نذهب معًا لتناول طعام الغداء؟ يمكنك أن تطلعيني على معالم المنطقة».

قلت لها: «جلبتُ غدائي معي من البيت؛ سندويتش تونة». كفّي عن هذا... هكذا قلت لنفسي... كفّي عن هذا.

التقطتْ زغابة عن بلوزتها التي كان لونها بين الأخضر والأصفر: «كلي السندويتش غدًا. أريني ما يستحق الرؤية هنا».

سرنا في اتجاه البيت الأبيض. كانت سالي تتقدّمني بخطوة على الرغم من كونها هي من طلب مني أن أريها المكان. قالت: «أعرف متجرًا رائعًا للمأكولات في مكان قريب. متجر نادر في واشنطن؛ صدّقيني. يقطّعون اللحم إلى شرائح رقيقة كالورق، ويكومون تلك الشرائح حتى يصير ارتفاعها ست بوصات. لا يعرفه إلا الناس الذين هم من هنا؛ وليس لدينا أحد من هنا فعلًا. هل تدركين ما أعنيه؟ هل أنت مضطرّة إلى العودة سريعًا؟ لا تزال أمامنا مسافة».

«لدينا ساعة واحدة لاستراحة الغداء. هذا يعني أنه بقيت لدينا خمس وأربعون دقيقة، بل ربما أربعون دقيقة فقط».

«أتظنّين أن الرجال في 'شركتنا' ينظرون إلى ساعاتهم خلال استراحة الغداء التي يمضونها في تناول الشراب؟».

«لا، لكن...». صمتُ لحظة طويلة بعض الشيء فاستدارت سالي على عقبيها كأنها عائدة إلى المكتب. قلت لها: «لا، فلنذهب».

شبكت ذراعها بذراعي: «هذه هي الروح العالية». كنت أحسّ بنظرات الرجال الحارّة إلينا عند مرورنا. بل إن بضع نساء نظرن إلينا أيضًا. لقد كنت معها ، أعجبني أن أكون معها. صار كل ما حولي غائمًا كأننا لم نعد في المدينة... أبواق السيارات التي لا تنتهي ، وهدير الباصات والآلات التي تحفر الإسمنت. كنا في ساعة الظهيرة يوم الخميس ، لكن حركة العالم من حولي تباطأت.

مررنا بباص سياحي عند إشارة المرور ، فسمعت صوت الدليل في المايكروفون يلفت انتباه الركاب إلى «البيت الثُّماني» الشهير. فاجأتني سالي عندما لوحت بيدها للسياح الذين لوحوا لها متحمسين. التقط أحدهم صورة لها. وضعت يدها خلف رأسها متخذة وضعية التصوير.

قالت لي: «لا أزال غير قادرة على اعتياد وجودي في هذه المدينة. يتقاطر الجميع إلى مركز السلطة».

«هل تعيشين هنا منذ زمن بعيد؟».

«آتي وأذهب».

انعطفنا في زقاق متفرع عن شارعِ بي ؛ زقاق لم ألاحظه قبل الآن. كانت على الجانبين بيوت صغيرة من الحجر البني ، ومداخن يكسوها اللبلاب. لقد اقترب الهالوين. زيّن السكان بيوتهم بشباك عنكبوت مصنوعة من القطن نشروها تحت الأفاريز ، وبقطط وهياكل عظمية ذات مفاصل متحرّكة صنعوها من ورق أسود وعلّقوها على النوافذ. وضعوا عند عتبات بيوتهم اليقطينات التي لم يحفروها بعد. كان ذلك المتجر عند زاوية الشارع. وفوق بابه ، عُلّقت لافتة خضراء وبيضاء: فيرانتيز.

رُن جرس معلّق عندما فتحنا باب المتجر. كان المالك رجلًا طويلًا نحيلًا مثل حبال المقانق المعلّقة من السقف. ضرب بيده على كيس من الدقيق الخشن فانبعثت من الكيس غيمة صغيرة. قال: «أين كنتما طيلة العمر الذي عشته؟».

قالت سالي: «كنا في مكان ما ننتظر سماع جملة أفضل من هذه». طبع الرجل على خدَّي سالي قبلتين رطبتين.

«هذا باولو».

سألها باولو: «من هذه المخلوقة الفاتنة؟» مرت لحظة قبل أن أدرك أنه يسألها عني.

بحركة لعوب ، صفعت سالي يدي التي مددتها للسلام عليه: «ماذا تعطيني إذا أخبرتك؟».

رفع باولو إصبعه ، ثم اختفى في الغرفة الخلفية. عاد حاملًا كرسيين خشبيين وضعهما في الحيّز الصغير بين الواجهة والرفوف الممتلئة بعلب الطماطم وقطرميزات الزيتون الأخضر الزاهي وأكداس من عبوات النودلز.

سألته سالي: «أين الطاولة ؟».

«صبرًا». ذهب ، ثم عاد حاملًا طاولة مدورة صغيرة لا تصلح لأكثر من شخصين. وكمن يقوم بخدعة سحرية ، مد يده خلف ظهره وأعادها حاملة مفرش طاولة صغير عليه خطوط متقاطعة ، حمراء وبيضاء. مد المفرش على الطاولة ، وأشار لنا بالجلوس.

«ماذا ؟ من غير شمعة ؟».

رفع باولو يديه: «وماذا أيضًا ؟ هل تريدين مناديل طعام ؟ وشوكات للسلطة ؟»... أشار إلى السقف... «لعله ينبغي عليَّ أيضًا أن أشتري ثريا!».

«ستكون هذه بداية حسنة ؛ لكن علينا الآن أن نأخذ طعامنا ونذهب. ستكون خطيئة أن يظل المرء في الداخل في هذا اليوم الخريفي الرائع».

تظاهر بمسح دمعة عن عينه بزاوية مريلته. «يا للخيبة. لكني أتفهّم هذا ، بالطبع». أزاح قالب جبن كبيرًا مغلفًا بالشمع حتى ينظر من النافذة... «لو استطعت لخرجت أنا أيضًا. الحقيقة أنني قد أغلق المتجر في وقت مبكر اليوم حتى أخرج وأتناول سندويتشًا معكما. بركة التأمّل ؟ حوض المدّ ؟»(15).

«آسفة ، إنه غداء عمل».

«هكذا هي الحياة».

طلبنا سندويتشينا: شرائح الديك الرومي والجبن السويسري مع خبز الشوفان والشبت المخلل الذي أخرجه من البرميل من أجلي ، والزيتون المهروس مع نوع من اللحم لم أسمع به من قبل على قطعة خبز فرنسي من أجل سالي. وضع باولو السندويتشين في كيس بنّي من الورق. ودّعنا عند خروجنا ، لكنّي التفت وقلت له: «أنا إيرينا».

«إيرينا! لقد أخلفت سالي وعدها لي ، أليس كذلك ؟ ما أجمل هذا الاسم! هل أراك مرة أخرى مع سالي عما قريب ؟».

«بالتأكيد».

سرنا خمس عشرة دقيقة إضافية من غير تفكير في الوقت الباقي من استراحة الغداء. توقّفت

سالي عند بناية ضخمة في الشارع السادس عشر، بناية لم أنتبه إليها من قبل. بدت لي كأنها شيء من مصر القديمة. تمثالان كبيران لأبي الهول على جانبي السلم الرخامي الصاعد إلى بابٍ بنّي ضخمٍ. سألتها: «هل هذا متحف؟».

«بيت المعبد. شيء من تلك الأشياء الخاصة بجمعية الماسونيين السرّية. أنا واثقة من أنهم يضعون هنا قبعات غريبة وينشدون ويشعلون الشموع. ما عليك إلا أن تسألي بعض الرجال الذين نعمل معهم. وأما في نظري، فهذه الدرجات مكان ممتاز لكي نجلس ونتناول طعامنا وننظر إلى العالم يمر من أمامنا».

جلسنا، وأحسست بأنني أصير أكثر ارتياحًا على الرغم من استمرار تأثري الواضح بوجودها معي. أنهت سالي سندويتشها ومسحت فمها. إنها تأكل أسرع مني مرتين. «هل تعجبك مجموعة فتيات الطباعة؟».

«تعجبني! أظن هذا».

فتحت محفظتها وأخرجت منها مرآة صغيرة وقلم أحمر الشفاه. زمّت شفتيها: «هل ترين شيئًا على أسناني؟».

«أوه، لا. عمل متقن».

«إذًا، هل يعجبك؟».

«الأحمر لون جميل جدًا عليك».

«عنيت العمل في مجموعة الطباعة».

«إنها وظيفة جيّدة».

«أيهما يعجبك أكثر، عمل الطباعة، أم العمل الآخر؟».

أحسست بموجةٍ حارّةٍ تسري من حلقي إلى بطني. نظرتُ إلى سالي نظرة أظنّها قاتمة. لكن، لا بد أن التوتر كان ظاهرًا علي.

وضعت سالي يدها على يدي، وقالت: «لا تقلقي». كانت يداها شديدة النعومة، وأظافرها مطليّة بلون شفتيها الأحمر نفسه... «أنا وأنت في وضع واحد. حسنًا... تقريبًا».

«ماذا تعنين؟».

«أخبرني أندرسون عنك عندما عدتُ إلى العمل هنا. لكنه لم يكن مضطرًا إلى إخباري في حقيقة الأمر لأنني أدركت، لحظة رأيتك أول مرة، أنك مختلفة».

نظرت يمينًا ويسارًا ، ثم نظرت خلفي: «هل تنقلين الرسائل أيضًا ؟».

«يمكن القول إنني أرسلها»... شدّت على يدي... «علينا ، نحن الفتيات ، أن نبقى معًا. نحن لسنا كثيرات. أليس هذا صحيحًا ؟».

«صحيح».

في اليوم الذي أعقب ذلك الغداء على درجات المعبد ، أبلغني أندرسون بأن لقاءاتي سوف تصير مع سالي بدلًا من تيدي ، وسوف يستمرّ تدريبي معها. سألني: «هل فاجأك هذا ؟».

أجبته: «أجل». وعضضت على شفتي حتى أخفي ابتسامتي.

وفي اليوم التالي ، رأيت سالي أمام بوابة الوكالة الحديدية السوداء تضع أحمر الشفاه مستعينة بالمرآة الجانبية لسيارة ستوديبيكر ذات لون أصفر باهت. بدت رائعة الجمال في قبّعتها المصنوعة من صوف خشن وقفازيها الجلديين الطويلين. رأتني في المرآة مقتربة فالتفتت صوبي. كانت قد طلت شفة واحدة فقط. قالت لي: «يبدو أن ما من أحد الآن غيرنا نحن الاثنتين...». ضغطت شفتيها معًا... «فلنذهب في نزهة».

سرنا في جورجتاون ، فراحت سالي تشير إلى البيوت الفخمة التي يسكنها بعض كبار الموظّفين في الوكالة. قالت مشيرة إلى بيت من القرميد الأحمر مختفٍ خلف جدار من أشجار القيقب: «دولز يعيش هنا. وذلك البيت الكبير الأبيض ذو النوافذ السوداء إلى الجهة الأخرى من الشارع ، هل تعرفين بيت من هو ؟ إنه البيت القديم لوايلد بيل دونوفان الذي اشتراه آل غراهام. يعيش فرانك في الناحية الأخرى من شارع ويسكنسن. بيوتهم جميعًا متقاربة جدًّا».

«وأنتِ ، أين تعيشين ؟».

«إلى الأمام قليلًا ، في هذا الشارع».

«حتى تراقبي الرجال دائمًا ؟».

ضحكت: «فتاة ذكية».

انعطفنا يسارًا في شارع دومبارتون أوكس ، ثم سرنا في درب متعرّج بين الحدائق. عند نزولنا الدرجات الحجرية ، جذبت سالي غصن كرمة كان متدلّيًا من تعريشة خشبية. قالت: «يفوح هذا المكان كله برائحة لذيذة جدًا في الربيع. أفتحُ نوافذي وأتمنى أن يهبَّ النسيم لكي تأتيني تلك الرائحة».

مشينا إلى أن بلغنا بركة السباحة التي كانوا قد أفرغوها من الماء استعدادًا لقدوم الشتاء.

جلسنا على مقعد قبالة رجل مسن منهمك في حل الكلمات المتقاطعة وهو جالس على كرسيٍّ متحرّك ، وإلى جانبه مرافقته شديدة البياض. أمامنا شابتان مرتديتان فستانين طويلين شبه متطابقين ، أحمرين مع حزام على الوسط. كانتا تتحدّثان في آخر البركة ، في حين كان طفلاهما ، ولد وبنت ، يرميان الحصى في البركة ويزعقان فرحًا كلما بلغت حصاة بقعة الماء الصغيرة الباقية في الوسط. شاب عليه مظهر التأمّل جالس على مقعد حديدي أسود قريب من النافورة التي عند رأس بركة السباحة. إنه يقرأ نسخة من صحيفة «البلطة».

سألتني سالي من غير أن تنظر إليه: «أترين ذلك الرجل هناك ؟».

أومأت برأسي.

«ما قصته ، برأيك ؟».

«طالب جامعة».

«ماذا أيضًا ؟».

«طالب جامعة ذو ربطة عنق معلّقة(16)».

«ملاحظة دقيقة. في رأيك ، ماذا يعني استخدام ربطة العنق الجاهزة ؟».

«لا يعرف كيف يعقد ربطة العنق».

«وما معنى هذا ؟».

«لم يعلّمه أحد كيف يعقدها».

«وماذا أيضًا ؟».

«لعله من غير أب. أو لعله من بيت فقير. ومن المؤكد أنه من غير صديقة أو أم قريبة منه حتى تقول له إن ربطات العنق الجاهزة سخيفة المظهر. قد يكون من خارج المدينة... قد يكون قادمًا في منحة دراسية».

«أين يدرس ؟».

«بالنظر إلى موقعنا الآن... جامعة جورجتاون. لكن الصحيفة التي يقرأها... سأقول إنه من جامعة جورج واشنطن»(17).

«وما طبيعة دراسته ؟»

نظرت إلى الرجل مليًا. ربطة عنق جاهزة. وخصلة شعر متدلّية من جبينه ، وكنزة كستنائية اللون بأزرار من الأمام ، وحذاء جلدي ذو لون بنّي باهت ، وسجائر بول مول... يضع ساقًا

فوق ساق ، ويهز قدمه اليمنى راسمًا دوائر بها... «يمكن أن تكون دراسته أي شيء».

قالت: «يدرس الفلسفة».

«كيف عرفت هذا؟».

أشارت سالي إلى حقيبته الظهرية الجلدية المفتوحة ، إلى كتاب ظاهر منها: كيركغارد.

«كيف لم أنتبه إلى الكتاب؟».

«أكثر الأشياء ظهورًا أصعبها ملاحظة». رفعت سالي ذراعيها فوق رأسها لكي تخلع قبعتها ، فانفرجت الفتحة بين زرين من بلوزتها كاشفة عن حمالة ثديين سوداء اللون.

«هل أنت راغبة في تجربة أخرى؟».

حوّلت نظري: «بالتأكيد».

قلت إن الأمَّين الشابتين صديقتان منذ الطفولة ، لكنهما افترقتا بعد الزواج والإنجاب. قلت لسالي: «أرى هذا في طريقة ابتسام كل منهما للأخرى ، كأنهما تستحضران صلة سابقة». وأما الرجل المسنّ فهو أرمل ، ومن الواضح أنه يحب الفتاة التي تعتني به ، لكنها لا تشاطره مشاعره. وعندما أتى بستانيّ وراح يلتقط بكل عناية أوراق الأشجار الواقعة في حوض النافورة ، قلت إنه باقٍ هنا منذ تلك الأيام التي كانت الحديقة فيها ملكًا لعائلة بليس ؛ ولعله المستخدم الوحيد عندهم الذي تم الإبقاء عليه. أنهيت كلامي عنه بالقول: «هذا يفسّر شدّة حرصه وعنايته». أومأت سالي برأسها متّفقة معي.

هل كان هذا جزءًا من تدريبي؟ إن كان الأمر هكذا فما الذي تدرّبني سالي على فعله؟ ما هو على وجه التحديد؟ لم تكن هناك طريقة للتأكد من صحة القصص التي رويتها عن أولئك الغرباء. فما أهمية الأمر؟ سألتها بعد أن انتهينا من الأشخاص الموجودين من حولنا: «كيف نعرف أن كنا مصيبتين في ما قلناه عنهم؟».

«لا أهمية لأن نكون مصيبتين. إنها مسألة المعرفة الكافية للتمكّن من إجراء تقييم سريع لطبيعة الشخص الذي نراه. يفصح الناس عما هو أكثر مما يظنون أنهم يفصحون عنه. الأمر أبعد من ملبسك ومظهرك. تستطيع أي فتاة أن ترتدي فستانًا جميلًا منقطًا بالأبيض والأزرق ، وأن تحمل حقيبة يد شانيل ، لكن هذا لا يعني أنها صارت شخصًا مختلفًا». احمرّ وجهي عندما ذكرت فستاني الذي اشتريته من متجر ماي فلاور... «يأتي التغيير من الداخل وينعكس على كل حركة وإيماءة ، وعلى كل تعبير من تعابير الوجه. ينبغي أن يكون لديك فهم لطبيعة

الشخص حتى تتمكّني من تقدير كيفيّة تصرّفه في ظروف مختلفة». نظرت إليَّ نظرة مباشرة... «وينبغي أن تعرفي كيف يمكن أن تتصرّفي إذا كان عليك حقًّا أن تصيري شخصًا جديدًا. سوف يتغير كل شيء... كيف تمسكين بسيجارتك، وكيف تضحكين، وكيف يمكن أن يحمرَّ وجهك عند ذلك، وحقيبة شانيل التي معك...». لكزتني في كتفي... «هل تفهمين ما أقوله لك؟».

أجبتها: «يبدأ كل شيء من الداخل».

«بالضبط».

استمرّت تدريباتنا. كنا نلتقي كل يوم، بعد العمل. وفي نزهاتنا الطويلة في أرجاء المدينة، كانت سالي تعلمني كل ما تعرفه. كانت مدركة ما يجعلها بارزة، متميزة عن غيرها، فعلمتني كيف أتجنب ذلك. جعلتني أعرف الملابس التي تستلفت أقل قدر من الانتباه. لا يجوز أن تكون قديمة جدًّا، ولا جديدة جدًّا، ولا باهتة جدًا، ولا لامعة جدًا. دلتني على ألوان الشعر التي لا تستقطب نظرات الرجال: «لا تظنّي أن الشقراوات هن من يحظين بأكبر قدر من الانتباه... إنهن ذوات الشعر الأحمر. وأكثر من ذلك، عندما يكون شعرك بلاتيني اللون». وأما عن الوقوف: «لا تكوني منتصبة القامة كثيرًا، ولا تتراخي كثيرًا». والأكل: «شرائح اللحم العادية. متوسطة النضج». والشراب: «ويسكي توم كولينز، مع ليمون زيادة وثلج زيادة. لا يترك بقعًا إذا سقط منه شيء على ثيابك ولا يجعلك تثملين كثيرًا». وبين الدروس، كانت تحكي لي عن أيامها في «مكتب الخدمات الاستراتيجية» - كيف انسجمت أول الأمر مع «نادي الشباب القدامى»، وكيف أفلحت في البقاء. أخبرتني عن الشخص الذي كانته- طفلة فقيرة من بيتسبرغ- وعن الشخصيات التي صارتها بعد ذلك: معاونة مدير حديقة حيوانات، وابنة العم غير المباشرة لدوقة أوستا، وخبيرة في تقييم خزفيات عائلة كانغ الصينية، ووارثة إمبراطورية ريغلي للمطاط، وموظفة استقبال. قالت: «يغدو جماعتنا أقل إبداعًا مع مرور الزمن».

سألتها: «من يريدون أن أصير؟».

«لست أنا من يقرر هذا يا عزيزتي».

ذهبت سالي في رحلة. لم تخبرني عن وجهتها. وعندما سألتها لم تقل إلا: «في الخارج».

سألتها: «نعم، لكن أين في الخارج؟».

«في الخارج يعني في الخارج».

لم تكن قادرة على إخباري بالمكان الذي ستذهب إليه ، لكنها وعدتني بأن تتصل بي عندما تعود من سفرها. مرّ ذلك الأسبوع بطيئًا. وعندما اتصلتْ آخر الأمر ، كانت ماما هي التي ردت على الهاتف. أخذتُ السماعة منها لحظة سمعتها تقول: «سالي ؟ لا أعرف أية فتاة اسمها سالي».

تخطت سالي المجاملات التقليدية ، ودعتني فورًا إلى حفلة هالوين. حتى تلك اللحظة ، كانت علاقتنا مقتصرة على العمل ، ففاجأتني تلك الدعوة. ثم إن الهالوين قد مضى! قلت لها: «كان الهالوين في الأسبوع الماضي».

«الحقيقة أنها حفلة ما بعد الهالوين».

وعندما قلت لها إنه ليس لدي زي مناسب لتلك الحفلة ، قالت إنها ستهتم بكل شيء. اتفقنا على اللقاء في متجر للكتب المستعملة في شارع دوكون. ومن هناك ، نذهب إلى الحفلة.

كان متجر الكتب ضيقًا فيه رفوف طويلة صُفت فيها الكتب بحسب مواضيعها ، لا بحسب أنواعها أو مؤلفيها: الروحانيات والغوامض ، الحيوانات والنباتات ، قصص البحار ، مشكلات كبار السن ، الميثولوجيا والفولكلور ، فرويد ، القطارات والخطوط الحديدية ، التصوير في الجنوب الغربي. وصلت قبلها فسرت في الممرات باحثة عن قسم الروايات. سألتُ رجلًا بوهيمي المظهر كان جالسًا خلف طاولة البيع: «عذرًا ، أين أجد الروايات ؟». أشار الرجل إلى آخر المتجر من غير أن يرفع رأسه عن كتابه.

«هل لديك وقت ؟».

نظر إليّ كأنني طلبت منه أن يشرح لي مفهوم «تراكتاتوس» عند فتغنشتاين. أجابني إجابة غريبة: «ليست معي ساعة».

لكني أردت أن أغيظه فطلبت منه أن يفتح لي خزانة الكتب النادرة. تنهّد الرجل. أغلق الكتاب ، وأطفأ سيجارته ، وأزاح كرسيه إلى الخلف. وقبل أن يخرج المفاتيح من جيبه ، سألني إن كنت أريد حقًّا أن أشتري شيئًا.

«كيف أعرف هذا قبل أن أرى ؟».

«ماذا تريدين أن تري ؟».

ألقيت نظرة سريعة على رف في تلك الخزانة وقلت اسم أول كتاب رأيته: «نور مصر»

«الأول أم الثاني ؟».

«ماذا ؟».

«أي جزء ، الأول أم الثاني ؟».

«الثاني ، بالطبع».

«بالطبع». كنت مقتنعة بأن سالي لن تأتي ، فرحت أثرثر عن ولعي بعلم الآثار والأهرام واللغة الهيروغليفية بينما كان الرجل يضع نظارته البيضاء لكي يُخرِج الكتاب. وأخيرًا ، أتت سالي حاملة كيسَي تسوق. ضرب الرجل ساقه بقفازه الأبيض وقال لها: «سالي! أين كنت ، يا عزيزتي ؟».

أعطته خدها لكي يقبّلها ، ثم أعطته الخد الآخر. قالت وعيناها مصوَّبتان باتجاهي: «هنا وهناك. أرى أنك قابلت صديقتي قبل وصولي».

قال بصوت فيه لمسة أكثر دفئًا: «بالطبع ، إنها صاحبة ذوق رفيع».

«وهل أصاحِب من ليس لديهم ذوق رفيع... ؟». رفعت كيسي التسوّق بيدها... «هل نستطيع استخدام غرفة الفتيات الصغيرات ؟».

انحنى ضامًا يديه أمام صدره. بذلت جهدًا كبيرًا حتى لا أظهر دهشتي.

قالت له: «شكرًا ، يا عزيزي». لحقت بها إلى غرفة في آخر المتجر... «لافيتي شخص غريب جدًا». قالت هذا فور إغلاقها الباب من خلفنا. كان بابًا يفتح في الاتجاهين. «لافيتي ؟».

«هذا ليس اسمه الحقيقي. إنه من كليفلاند ، لكنه يجعل الناس يظنون أنه من باريس. إنه من ذلك النوع من الناس الذين يذهبون في عطلة ويعودون وقد تغيرت لهجتهم. هل فهمت ؟».

أومأت برأسي كأنني فهمت شيئًا.

«لكني أحب هذا المكان ، على الرغم من ذلك...». واصلت سالي كلامها وهي تناولني واحدًا من الكيسين... «إنه واحد من الأماكن المفضّلة عندي في هذه المدينة المعطوبة من الناحية الفنية. أتريدين أن أقول لك سرًا ؟».

«قولي».

«أحلم بافتتاح متجر كتب لي في يوم من الأيام».

كان صعبًا عليَّ أن أتخيّل سالي جالسة خلف طاولة بيع ، دافنة رأسها في كتاب. وأردت

معرفة المزيد عنها، عن هذه الشخصية التي لا يمكن أن تبدو نشازًا إن سارت على سجادة هوليوود الحمراء، لكنها تحلم بإدارة متجر لبيع الكتب. كنت راغبة في التنقيب في المسافة الفاصلة بين هذين النقيضين.

وضعتْ كيس التسوق الخاص بها فوق الطاولة الصغيرة، ثم استدارت وقالت: «هل تساعدينني؟».

أزاحت شعرها الأحمر جانبًا فكشفت رقبتها. أمسكت بالسحاب محاولة إنزاله برفق. لكنه لم يتحرّك من مكانه. استنشقت سالي نفسًا عميقًا. «حاولي الآن». نزل السحاب، فخلعت فستانها بحركة واحدة من غير أن تمسّه بحذائها. كانت في سروال داخلي أسود؛ وكان جسدها نسخة مبالغًا فيها عن جسدي. لكني لم أشعر بالغيرة منها مثلما كانت الفتيات في الصالة الرياضية في مدرستي الثانوية القديمة تجعلنني أشعر بالغيرة منهن. كانت أجسادهن قابلة للمقارنة مع جسدي - نخلع ملابسنا، ونحسب بسرعة من لها أكبر ثديين، ومن لها ساقان معوجّتان، ومن يترجرج بطنها عند سيرها. لكن رؤية سالي لم تكن هكذا: كانت شيئًا مختلفًا كل الاختلاف. وددت أن أنظر إليها مرة أخرى، لكنّي ركزت على خلع ملابسي. ناولتني سالي كيس التسوق.

وجدت فيه حزمة من قماش ذي بريق معدني: «ما هذا؟».

«سوف ترين». كان ذلك أوفرولًا. لبستُه، ثم أغلقت سحابه. ناولتني عصابة رأس عليها مثلثان بنّيان معوجّان ملصقان إلى أعلاها. نظرتْ إلى المرآة، ثم انفجرت ضاحكة.

قالت لي: «انتظري!...». مدت يدها إلى حقيبتها... «ها هي اللمسة النهائية». أخرجت بطاقة كتب عليها «CCCP»(18) وثبتّها على صدري.

أردت أن أستخدم وعاء كرويًا للأسماك حتى يكون خوذة لك ، لكني لم أهتد إلى طريقة أفتح ثقوبًا بها حتى لا تختنقي».

«هل صنعت هذا وحدك ؟».

«إن لدي يدًا ماهرة». وقفت إلى جانبي أمام المرآة ، وأخرجت من حقيبتها علبة الزينة الصغيرة فلوّنت قمة أنفها...

«يمكنك أن تكوني لايكا إذا أعجبك ذلك ، وسأكون واحدة من تلك الكلاب التي ماتت بين النجوم ، لكننا لا نعرف أسماءها».

كان صوت الموسيقى مسموعًا خارج بيت فكتوريّ الطراز من أربعة طوابق قريب من ساحة لوغان. كان واحدًا من تلك البيوت الكبيرة في واشنطن التي مررت بها آلاف المرات ، لكني لم أدخل أيًا منها: درجات لها درابزين من الحديد ، ونافذة منخفضة في واجهة البيت ، وأبراج من قرميد أحمر وأخضر داكن لها هيئة قبعات الساحرات. كانت النوافذ مفتوحة ، لكن الستائر مسدلة. ميزت أخيلة الناس الراقصين في الداخل: أشخاص لا يعرفونني ولا أعرفهم... أشخاص قد يرونني مضجرة ، وقد لا يلاحظون وجودي على الإطلاق. أحسست تنميلًا في راحتَي يدي. لا بد أن سالي انتبهت إلى توتري. قوّمت أذنيَّ المعوجتين وقالت لي إن وصولي سيزيد الحفلة مرحًا.

أحسست بنفحة ثقة جعلتني أكثر قوة عندما مدت سالي يدها إلى جرس الباب فضغطت عليه ثلاث مرات ، ثم انتظرت لحظة ثم ضغطت عليه مرة أخرى. فتح الباب رجل طويل القامة على وجهه قناع يغطي نصفه. لكنه لم يفتحه إلا قليلًا. قالت سالي: «خدعة أم حلوى»(19).

«أيهما تفضلين ؟».

«لا هذا ولا ذاك. أفضل البروكولي».

«ألا يفضله الجميع ؟». فتح الرجل الباب وتركنا ندخل ، ثم أغلقه من خلفنا قبل أن يختفي في زحام الناس.

سألتها: «هل كانت هذه كلمة سر ؟ هل هي حفلة عمل ؟».

«على العكس تمامًا».

بدلًا من المصابيح المصنوعة من يقطينات مجوفة والتفاحات العائمة في الماء، كما يكون في الهالوين، كان المكان مزينًا بطريقة تشبه حفلة تنكرية. حوامل شموع عتيقة عليها شموع سوداء مشتعلة موزعة على كل سطح متوفر في المكان. وستائر مخملية سوداء تغطي خزائن الكتب الجدارية. وعلى طاولة الطعام، مجموعة متنوعة من الأقنعة الغريبة المزينة بالخرز والحبيبات اللامعة حتى يأخذ منها من يشاء. وقط سيامي ضخم عليه ياقة مصنوعة من ريش النعام بلون الخزامى يشق طريقه بين أرجل الضيوف. كان الطابق الأول مزدحمًا بالراقصين والمدخنين، وبمن يتناولون المقبلات ويغمسون قطع الخبز المحمَّص في أوعية من الجبن الذائب.

سألتها: «ما تلك المادة الخضراء؟».

«غواكاموله».

«ما معنى هذا؟».

ضحكت وقالت: «ليونارد يبالغ كثيرًا، أليس كذلك؟».

«هل هو الرجل الذي فتح لنا الباب؟».

أشارت إلى امرأة ترتدي فستانًا طويلًا له رقبة مخرمة وحزام أحمر كأنه شيء مما ترتديه فتاة من الولايات الجنوبية في أول ظهور لها أمام الناس. «إنه سكارليت أوهارا، هناك». رأى ليونارد، أو سكارليت، سالي فلوّح لها بيده.

قالت سالي وهي تقبل يد ليونارد: «رائع كعادتك دائمًا. لقد تفوّقت على نفسك حقًا».

قال ليونارد: «إنني أحاول...». نظر إلى ملابس سالي... «ثعلب من الفضاء الخارجي».

«نحن موتنيك، شكرًا جزيلًا لك».

«شيء رائع».

«أنت تعرفني...» شدتني حتى أقترب منها... «وهذه إيرينا».

قال: «تشرّفنا...» ثم قبّل يدي... «أهلًا بكما. يجب أن أنظر في أمر هذه الموسيقى الفظيعة». ذهب إلى الغرامافون ورفع الإبرة عن الأسطوانة. صدر عن الحشد أنين استياء... «صبرًا، يا أطفالي!». أخرج أسطوانة جديدة من كمه، وبعد لحظة بدأت أغنية «ش - بوم». أَنّ الحشد مستاء من جديد. لم يؤثر هذا في ليونارد الذي جذب إلى وسط حلبة الرقص رجلًا مرتديًا ملابس وحش فرانكشتاين وعلى رقبته، من الجانبين، بكرتا خيوط فارغتان مطليتان

بلون أسود. انضم إليهما عدة أزواج آخرين. وسرعان ما امتلأت حلبة الرقص من جديد.

شقّت سالي طريقها بين الناس متّجهة إلى المطبخ. أمسكت بيدها امرأة في ملابس آني أوكلي وجعلتها تدور حول نفسها. عادت سالي ، وقد انحرفت أذنا الكلب على رأسها ، حاملة كأسين من البنش الأحمر الذي كانت على سطحه طبقة من عصير الليمون المكثّف. سألتني وهي تناولني كأسًا: «ما رأيك في الخروج لكي نستنشق الهواء».

كنا وحدنا ، أنا وسالي ، في الفناء الخلفي الواسع ، باستثناء امرأتين جالستين على أرجوحة الشرفة. سرنا في العشب فبلل الندى أطراف بنطلونينا. كانت الحديقة مزّينة بمصابيح صغيرة بيضاء موزعة بين أغصان أشجار البلوط الكبيرة التي تدلّت من أغصانها مصابيح ورقية حمراء كأنها فاكهة. كان لون السماء برتقاليًا ، والقمر بلون فضي لوزيّ ؛ ومن مكان ما ، أتت رائحة أوراق الأشجار المحترقة.

سألتني سالي: «ما رأيك في هذا كله ؟».

«لم أكن أعرف أن في واشنطن حدائق بيوت كهذه».

قالت سالي مشيرة باتجاه البيت: «أعني ذلك كله. هذه ليست مثل الحفلات الراقصة التي تعرفينها».

قلت: «أعجبتني كثيرًا» ، لكني أردت أن أقول أكثر من هذا ، أكثر من هذا كثيرًا. كنت أعرف أن هذا العالم موجود. لكني لم أكن أعرفه. ولم يكن ما سمعته قابلًا لأية مقارنة بما رأيته هنا. كان هذا أشبه بالدخول إلى الخزانة والخروج إلى مارنيا(20) للمرة الأولى... «أعني... أحب الهالوين».

«وأنا أيضًا. حتى مع أن أسبوعًا مر على الهالوين».

«يمكنك هنا أن تكوني من تشائين».

«صحيح تمامًا. يسعدني أن ليونارد تمكّن أخيرًا من إقامة هذه الحفلة. لقد صارت إقامتها أشبه بتقليد بالنسبة إليه. ليس ممن يضيّعون فرصة استخدام زي تنكّري جيّد. من المؤسف أن الحفلة في يوم الهالوين الحقيقي قد ألغيت».

«لماذا ألغيت ؟».

«قدّم أحدهم شكوى إلى الشرطة».

كانت لدي أسئلة كثيرة. الحديقة السرّية ، والعالم السرّي - أردت أن أعرف كل شيء ، لكنّي

قرّرت الانتظار. بقينا صامتتين. وقفنا نصغي إلى أصوات الشارع آتية من خلف جدار الحديقة، وإلى أبواق السيارات وعويل صفارة قادم من بعيد. عادت لوسي وريكي إلى الداخل وقد طوّقت كل منهما وسط رفيقتها بذراعها. نظرت سالي إليهما، مثلما نظرت. سألتني: «إذًا... ماذا عن تيدي هيلمز؟».

«صحيح». قلتها مع لذعة حزن لم أحسّها قبل ذلك.

«منذ متى؟».

«تسعة شهور. لا، ثمانية. لا، ثمانية تقريبًا».

«هل تحبّينه؟».

باستثناء ماما، لم يسألني أحد سؤالًا مباشرًا مثل هذا: «لست أدري».

«عزيزتي، إذا كنت لا تعرفين حتى الآن...».

«إنه يعجبني. أعني، إنه يعجبني كثيرًا. مرح. شديد الذكاء. وهو لطيف أيضًا».

«أسمع هذا فأحس كأنك تقرأين مقطعًا من نعي شخص مات».

قلت: «لا. لا أقصد أن...».

لكزتني بين أضلاعي: «هذا مزاح».

«ماذا عن صديقه؟ هنري رينيت؟ كيف هو؟».

«لا أعرفه معرفة جيّدة». لم أقل لها إنه يبدو لي شخصًا تافهًا وإنني لا أفهم السبب الذي يجعل تيدي يعتبره صديقًا له.

سألتها: «هل أنت مهتمّة به؟». تخيلتُ موعدًا مزدوجًا -أنا وتيدي، سالي وهنري- فجعلت تلك الفكرة معدتي تتقلّص.

«عزيزتي، لا». أمسكت بيدي وشدّت عليها. ظلت ممسكة بيدي فتفتّح شيء في داخلي، في موضع يصعب تحديده.

(14) ديك كلارك: مقدّم برنامج شهير اسمه أميركان باندستاند، لكن الأم تظنّ مخطئة أن اسمه ريتشارد كلارك.

(15) حوض المد (Tidal Basin): خزان مائي على هيئة بحيرة واقع بين نهر بوتوماك وقناة واشنطن.

(16) ربطة عنق معلقة: هي ربطة العنق التي تظل معقودة دائمًا (لمن لا يحسنون عقدها) ولها خطاف من الخلف من أجل تثبيتها على القميص.
(17) صحيفة «البلطة» التي يقرأها الطالب هي الصحيفة الطالبية في جامعة جورج واشنطن.
(18) الأحرف الأولى، بالروسية، من «اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية».
(19) «Trick or Treat»: العبارة التي يستخدمها الأطفال يوم الهالوين عندما يقرعون الأبواب للحصول على الحلوى والسكاكر.
(20) مارنيا: أرض العجائب. عالم خيالي تدور فيه أحداث سلسلة روايات للكاتب س. لويس، حمل سلسلة روايات عنوان «يوميات مارنيا».

الفصل الثالث عشر
السنونو

ليست جاسوسة مندسّة - كنت واثقة من هذا. قبل بضعة أشهر، طلب مني فرانك دراسة وضع إيرينا والتأكد من أن سذاجتها ليست قناعًا تختبئ خلفه. قلت له إنها ليست كذلك. أجابني: «جيد. نريدها في مشروع الكتاب. درّبيها، يا سالي. أنت تعرفين تفاصيل التدريب».

لعل مصادقتي لإيرينا كانت تمهيدًا؛ ولعل تدريبها كان جزءًا من العمل؛ لكن ذلك تحوّل إلى شيء آخر - تحوّل إلى شيء أستطيع تحديده، لكنني لم أشأ تحديده بعد.

في يوم الثلاثاء الذي أعقب حفلة ليونارد (كانت تلك الحفلة، نوعًا ما، اختبارًا خاصًّا بي)، توقّفتُ عند مكتبها وسألتها إن كانت راغبة في رؤية فيلم «جوارب حريرية» في تلك الليلة.

كنت قد اعتزمت يوم الأحد، منذ بضعة أيام فقط، أن أقترح عليها الذهاب إلى العرض الصباحي للفيلم، لكني فقدت شجاعتي بعد أن بدأت الاتصال بها، فأغلقت الهاتف من جديد.

سرنا بعد العمل إلى سينما جورجتاون، وتوقفنا في متجر ماغرودر لشراء حلوى نأكلها في السينما. كانت هذه فكرة إيرينا. نادرًا ما آكل أشياء حلوة، غير الشوكولاته، لكنني لا أعرف ما جعلني أقرر شراء علبة من البلح الصيني المجفّف. أخذت إيرينا علبتين من الفول السوداني الملبّس بالسكر، ثم وقفنا في صف شراء البطاقات. قالت لي: «احتفظي لي بمكاني لحظة».

عادت بعد دقيقة من ذلك حاملة حزمة شمندر كبيرة.

«هل تريدين أكل الشمندر في السينما ؟».

«إنها من أجل أمي. تطهو ماما قدر بورشْت مرة في الشهر ، وتطلب مني أن أجلب لها الشمندر من السوق الشرقي ، وذلك لقناعتها بأن الشمندر الذي يبيعه ذلك الروسي الكهل أفضل كثيرًا من الشمندر الذي يباع في المتاجر العادية».

رفعت إصبعها وقالت: «تستحق الجودة دفع خمسة سنتات إضافية». قالت هذا بلكنة روسية. ضحكتُ ، وسألتها: «وهل تستطيع حقًّا أن تميز الفرق ؟».

«لا! أجلبه لها دائمًا من متجر سيفواي ، لكنّي أتخلص من الكيس قبل أن أدخل البيت».

دفعنا ثمن التذكرتين ، ووضعت إيرينا الشمندر في حقيبة يدها فظلت نهاياته الخضراء بارزة منها. وبعد أن اشترينا التذكرتين ، دخلنا السينما.

كانت رؤية الأفلام واحدة من أكبر متعي... كانت شيئًا أكاد أفضِّل دائمًا أن أفعله وحدي. لو كان معي مزيد من المال ، لذهبت إلى السينما مرة أو مرتين كل أسبوع. كنت أحيانًا أرى الفيلم نفسه مرتين ، أو ثلاث مرات ، فأجلس في الصف الأمامي من الشرفة حيث أستطيع أن أميل على الدرابزين المذهّب وأسند ذقني إلى يدي.

كنت أحب كل شيء هناك: لافتة جورجتاون بأضواء النيون المتوهّجة الحمراء ، والوقوف في صف الانتظار إلى أن يناولني بطاقتي الشخص الجالس في الغرفة الزجاجية الصغيرة ، ورائحة البوشار ، والأرضيات الدبقة ، وعمال السينما الذين يشيرون للناس إلى مقاعدهم بمصابيحهم الكشّافة الصغيرة. بل اعتدت أيضًا أن أغني «فلنذهب إلى الصالة» عندما أكون تحت الدوش.

لكن الجزء المفضل عندي كان تلك اللحظة الفاصلة بين انطفاء الأضواء وبداية ظهور الفيلم على الشاشة - تلك اللحظة القصيرة عندما يبدو العالم كله كأنّه واقف على شفير شيء لم يتّضح بعد.

كنت راغبة في أن أشارك إيرينا هذا كلّه. كنت راغبة في اكتشاف إن كانت ، هي أيضًا ، تشعر بالوقوف على شفير شيء ما. خفتت الإنارة ، وعندما نظرت إليّ بعينين متسعتين بعد زئير أسد «مترو غولدن ماير» ، عرفت أن إحساسها مثل إحساسي.

لست أتذكّر الكثير عن الفيلم نفسه. لكني أتذكّر أن إيرينا فتحت حقيبتها ، بعد مضي نحو ربع زمن الفيلم ، وراحت تبحث فيها ، تحت الشمندر ، عن الفول السوداني المغطّس

بالسكر. أحدث ذلك أصواتًا جعلت رجلًا يدخّن سيجارًا يلتفت إلينا محتجًا إلى ذلك الضجيج. وجدتُ الأمر ساحرًا.

وعندما داس فريد آستير على قبعته المرتفعة في آخر رقصة «ريتز رول آند روك» ، شهقت إيرينا ومست يدها يدي.

أبعدتْ يدها على الفور ، لكن إحساسي بها ظل باقيًا إلى أن أنيرت الأضواء من جديد.

كان المطر يهطل عندما خرجنا من السينما. وقفنا تحت المظلة عند البوابة ننظر إلى الماء المنسكب من السماء غزيرًا.

سألتها: «هل ننتظر انتهاء المطر ؟ يمكننا أن نعبر الشارع جريًا ونتناول شرابًا ساخنًا».

ربتت بيدها على حقيبة يدها: «من الأفضل لي أن أخاطر. ماما تنتظر هذا الشمندر».

ضحكتُ ، لكني أحسست وخزة حزن: «إذًا ، سوف تتحدّين المطر!»

«صحيح».

جرت إيرينا إلى عربة الترام الملوّنة بالأبيض والتركوازي التي كانت موشكة على التوقف عند الزاوية. صعدت إلى العربة ، فبقيت أنظر إليها حتى انعطفت عند زاوية الشارع واختفت عن ناظري. شقّ البرق السماء. استندت إلى جدار عليه ملصق لفيلم «صخرة السجن» ، وانهمر المطر مدرارًا.

في الأسابيع التي أعقبت ذلك الفيلم ، أخذتُ إيرينا إلى المكتبات المفضّلة عندي ، وحدّثتها عن مزايا كل مكتبة ، وعن مساوئها ، وكذلك عما يمكن أن أقوم به على نحو مختلف لو كنت صاحبتها. رأينا الإصدار الأول من «قصة الجانب الغربي» في مكتبة «ناشيونال» ، وغنينا بأعلى صوتنا «أشعر أنني جميلة» طيلة طريق عودتنا إلى البيت. ذهبنا إلى حديقة الحيوان ، لكننا خرجنا بعد أن رأت إيرينا أسدًا ظل يذرع قفصه جيئة وذهابًا إلى أن رسمت خطواته دربًا ضيقًا على الأرض من أول القفص إلى آخره. قالت إيرينا: «هذه جريمة».

خلال هذا الوقت كله ، لم يحدث بيننا شيء أكثر من ترك عناقنا يطول أكثر من المعتاد ثانية واحدة ؛ لكن ذلك لم تكن له أهمية. لقد مضى زمن طويل جعلني لا أدرك الأمر ، في البداية. لم يحدث (منذ أن كنت في كاندي ، في سريلانكا) أن تركت أحدًا يصير قريبًا مني بهذه السرعة. بنيت من حولي جدارًا بعد أن كسرتْ جين قلبي - ممرضة في وحدات البحرية لها شعر شيرلي تِمبل وأسنان بيضاء كالصابون.

لقد كان ذلك أكثر من انكسار القلب. عندما قالت لي جين إن «الصداقة الخاصة» التي بيننا ستنتهي فور عودتنا إلى أميركا، فاختزلتْ ذلك كلّه إلى واحد من «تلك الأشياء التي تحدث أثناء الحرب»، أحسست كأن صدري ينطبق على قلبي، وأحسست ألمًا في ساقيّ وذراعيّ، وقمة رأسي، بل حتى في أسناني. أقسمت على أنني لن أضع نفسي بعد ذلك أبدًا في أي شيء يمكن أن يؤلمني هذا الألم كلّه. وقد حقّقت نجاحًا نسبيًا. وفوق هذا، أدركت أن ما من درب لا يصل إلى نهاية مسدودة. كان لي أصدقاء وصديقات اعتقلوا خلال نزهاتهم آخر الليل في ساحة لافاييت، ثم زُجَّ بهم في السجن وظهرت أسماؤهم في الصحف. وكان لي أصدقاء وصديقات طردوا من وظائفهم الحكومية، ولُطخت سمعتهم، وتبرأت منهم عائلاتهم. وكان لي أصدقاء وصديقات أقنعوا أنفسهم بأن ما من سبيل أمامهم غير وضع الأنشوطة حول أعناقهم والقفز عن الكرسي. لقد تضاءل «الرعب الأحمر»، لكن رعبًا جديدًا حلّ محله.

لكني واصلت الأمر. ظللت أقترح عليها أن نذهب لشراء طعام الغداء من فيرانتيز، أو أن نذهب لرؤية معرض الفن الكوري في «ناشيونال غاليري»، أو أن نجرّب القبعات المعروضة لدى متجر «ريزيك». ظللت أحاول معرفة المدى الذي أستطيع بلوغه قبل أن يصير عليّ أن أتراجع.

وعندما طلب فرانك مني المساعدة في أمر آخر، قلت في نفسي إن العمل سيوفر لي انشغالًا مناسبًا، بل انشغالٌ ضروريٌّ.

في الليلة التي سبقت رحيلي من أجل مهمتي التالية، شغّلت تسجيلًا لفاتس دومينو(21)، وبدأت أحس بدفقات من السعادة تأتيني كلما وضعت شيئًا في حقيبة السفر الخضراء الفاخرة. بعد سنين من الأسفار التي تتقرّر في اللحظة الأخيرة، تعلّمت فن حزم المتاع السريع: تنوّرة واحدة رصاصية اللون، وبلوزة بيضاء واحدة، ومجموعة واحدة من سروال تحتي وحمالة ثديين خفيفة، ووشاح من صوف الكشمير من أجل الطائرة، وجورب حريري أسود، وعلبة سجائري من صنع تيفاني، وفرشاة الأسنان، ومعجون الأسنان، وقطعة صابون كامي برائحة الورد، وكريم الوجه ماركة «كريم سيمون»، ومزيل الرائحة، وشفرة الحلاقة، وزجاجة عطر «تاباك بلوند»، ودفتر ملاحظات، وقلم، ووشاح رقبتي المفضل ماركة «هيرمز»، وأحمر الشفاه «ريفلون» باللون المفضل عندي «أوريجينال ريد». سأجد الفستان الذي سأرتديه في حفلة الكتاب في انتظاري عند وصولي. بعد انقطاع طال سنين كثيرة، كنت

مسرورة بالعودة إلى اللعبة... بأن أعرف الأسرار، وبأن أكون مفيدة.

وصلت صباح اليوم التالي إلى فندق «غراند هوتيل كونتيننتال ميلانو»، قبل ساعات فقط من بداية الحفلة. وبعد دقائق من دخولي جناحي في الفندق، سمعت نقرًا على الباب. إنه عامل فندق يحمل فستاني. أشرت له إلى السرير فوضع الفستان عليه برفق شديد كأنه يضجع عشيقة. ناولته بقشيشًا سخيًا مثلما أفعل دائمًا عندما يكون غيري مسؤولًا عن تسديد الفاتورة، ثم صرفته. لقد طلبت فستان «بوتشي» طويلًا، أحمر وأسود، لحظة سمعت تلك الكلمتين، «ميلانو» و«حفلة». مررت على حرير الفستان بيدي، وشعرت بالسرور لأنني استطعت تأمين موازنة من الوكالة لشراء الملابس. بعد الاستحمام، وضعت قطرات من عطر «تاباك بلوند» على جانبي رقبتي، ثم على رسغيّ يديَّ، وتحت ثدييّ، ثم ارتديت الفستان المفصّل على مقاسي تمامًا.

ذلك هو الجزء الأفضل: لحظة تصير شخصًا آخر. اسم جديد، ومهنة جديدة، وتعليم جديد، وأقارب وعشاق جدد، ودين جديد. كان فعل هذا سهلًا. لم أكن أترك أي خلل يشوب تنكري، وصولًا إلى أدقّ التفاصيل: إن كانت من صرتها تتناول التوست أو البيض على الإفطار، وإن كانت تشرب قهوتها مع الحليب أو من غير حليب، وإن كانت امرأة من النوع الذي يتوقّف في الشارع لكي يستمتع بمشهد حمامة مارة أو لكي يطرد حمامة ويبعدها عنه متقزِّزًا، إن كانت تنام عارية أو مرتدية قميص نوم. كان ذلك موهبة وسبيل نجاة، في وقت واحد. كنت أجد صعوبة متزايدة في العودة إلى حياتي الحقيقية بعد كل مرة أضع فيها قناعًا.

كنت أتخيّل كيف يكون الأمر إن اختفى المرء تمامًا في إهاب شخص جديد. حتى تصير شخصًا آخر، لا بد لك من أن تكون راغبًا في فقدان نفسك!

ضبطتُ توقيت دخولي بحيث يكون بعد خمس وعشرين دقيقة من بداية الحفلة. قدم لي نادلٌ كأسًا طويلة من شراب فوار لحظة دخولي الصالة اللامعة؛ وسرعان ما رأيت ضيف الشرف: ليس هو مؤلف الرواية التي يحتفلون بصدورها - فالمؤلف غير قادر على الحضور - بل هو ناشر الرواية. كان جانجاكومو فيلترينيلي واقفًا وسط مجموعة من مثقفي ميلانو المتأنّقين... محررون وصحافيون وكتاب، وانتهازيون ومتسلّقون. نظّارة سوداء ثقيلة، وصلعة مرتفعة، وجسد أكثر نحولًا مما يناسب طوله. لكن النساء جميعًا (وبضعة رجال أيضًا) كنّ غير قادرات على إبعاد نظراتهن عنه. كان لقب فيلترينيلي «الفهد»؛ والحقيقة أنه

كان يتحرّك برشاقة الفهد وثقته. كان أكثر المدعوين إلى الحفل في ربطات عنق سوداء. لكن فيلترينيلي ارتدى بنطلونًا أسود وكنزة زرقاء، وكان طرف قميصه المخطّط ظاهرًا أسفل كنزته. ليس عليك أن تبحث عمن يرتدي أكثر البدلات أناقة في الصالة حتى تعثر على صاحب أكبر حساب مصرفي، بل عن الرجل الذي لا يكلّف نفسه عناء ترك أثر في نفوس الآخرين. أخرج فيلترينيلي سيجارة، فأسرع أحد الواقفين من حوله لكي يشعلها له.

هناك نوعان من الرجال الطموحين: من يُربّون بحيث يكونون طموحين (يقال لهم منذ سن مبكرة جدًا إن العالم لهم، وما عليهم إلا أن يمدّوا أيديهم لكي يأخذوه)، وأولئك الذين يصنّعون إرثهم بأنفسهم. كان فيلترينيلي من الخامَتَين معًا. ففي حين يحمل أكثر من يولدون لأسر شديدة الثراء عبء المحافظة على ثرواتهم الموروثة؛ لم يقدِم فيلترينيلي على إنشاء شركة النشر لتكون ركنًا جديدًا فحسب من أركان إمبراطوريته المالية، بل لأنه كان مؤمنًا حقًّا بأن الأدب قادر على تغيير العالم.

في آخر الغرفة، كانت هناك طاولة كبيرة عليها كتب مصفوفة على شكل هرم. لقد فعلها الإيطاليون: أصدروا رواية «دكتور جيڤاكو». وفي غضون أسبوع واحد، ستظهر الرواية في واجهة كل مكتبة في إيطاليا، وسيظهر اسمها في الصفحة الأولى من كل صحيفة. كان عليَّ أن آخذ واحدًا من هذه الكتب وأسلمه إلى الوكالة حتى يترجموه ويقرروا إن كان حقًّا ذلك السلاح الذي تظنّ الوكالة أنه ما يلزمها. وأيضًا، كلفني فرانك ويزنر بأن أتقرّب من فيلترينيلي لأرى ما يمكننا اكتشافه في ما يخصّ نشر الكتاب وتوزيعه، وفي ما يخصّ علاقة الناشر بباسترناك.

حملت نسخة من «إل دوتّور جيڤاكو»، ومرّرت بأصابعي على غلافها البراق: كتابات بيضاء وزرقاء ووردية تحوم فوق مزلجة صغيرة متّجهة إلى كوخ يكسوه الثلج.

«أميركية تقرأ الإيطالية!»... قال هذه الكلمات رجل واقف إلى الناحية الأخرى من هرم الكتب... «ما أروع هذا!». كان يرتدي بدلة عاجية اللون لها جيب مربع أسود، وكانت نظّارته العظمية المصنوعة من عظم السلحفاة صغيرة بالنسبة إلى وجهه العريض.

«لا». الحقيقة أنني كنت قادرة على القراءة بالإيطالية، وكنت أتكلمها بطلاقة. ففي صغري، قبل أن أغيّر اسمي من فوريلي إلى فورستر، كانت جدتي لا تزال تعيش مع أسرتي، وكانت من الجيل الأول من الأميركيين الإيطاليين، ولم تستطع نطق أكثر من كلمات قليلة باللغة

الإنكليزية -نعم ، لا ، كفى ، دعني وشأني- وقد تعلّمت منها الكلام الإيطالي ونحن نلعب لعبة الورق الإيطالية «سكوبا بريسكولا».

«فلماذا تأخذين كتابًا لا تستطيعين قراءته».

كان تحديد لكنة ذلك الرجل صعبًا. له لكنة إيطالية ، لكنه تعلّمها تعلّمًا. فإما ألّا يكون إيطاليًا ، أو أنه يحاول تقليد لهجة فلورنسا حتى يظهر أكثر رقيًا.

قلت له: «أحب الطبعات الأولى. وأحب حضور حفلة جيّدة».

«حسنًا ، إذا كنتِ في حاجة إلى مساعدة لقراءتها...». خفّض رأسه مومئًا إلى الأسفل فلاحظت علامة حمراء صغيرة على أنفه.

«قد أطالبكَ بالوفاء بهذا الوعد».

أشار الرجل إلى نادل ، ثم ناولني كأسًا من البروسيسّو من غير أن يأخذ كأسًا لنفسه.

«ألا تشرب شيئًا حتى نرفع نخبًا ؟».

قال وهو يمسّ ذراعي: «يؤسفني أن عليَّ أن أذهب الآن. عندما تعودين إلى واشنطن ، ابحثي عني إذا كانت على هذا الفستان الجميل بقعة تريدين إزالتها. لديّ شركة لتنظيف الملابس ؛ ونحن قادرون على إزالة أية بقعة. أؤكّد لك هذا ، حبر ، نبيذ ، دم ، أي شيء». استدار الرجل وانصرف ، حاملًا تحت ذراعه نسخة من «إل دوتّور جيڤاكو».

أهو من الاستخبارات السوفييتية ؟ أهو من الاستخبارات الأميركية ؟ أهو واحد من عندنا ؟ نظرت من حولي لأرى إن كان هناك من انتبه إلى ذلك الحديث الغريب الذي دار بيننا ، لكن فيلترينيلي بدأ يدقّ بملعقة على كأسه. وقف الناشر فوق صندوق مقلوب كأنه موشك على إلقاء خطاب انتخابي. هل هو من جلب هذا الصندوق لكي يترك هذا الانطباع ؟ أم إن الفندق وضعه هنا ؟ بصرف النظر عن ذلك... كان هذا مظهرًا مناسبًا له تمامًا.

أخرج من جيبه ورقة راح يقرأ منها: «أود أن آخذ لحظة واحدة لكي أشكر الجميع على قدومهم الليلة لحضور هذه المناسبة بالغة الأهمية. فمنذ أكثر من سنة ، هبّت ريح القدر فألقت بين يديّ هذا العمل الأدبي الرائع لبوريس باسترناك. أتمنّى لو أن تلك الريح نفسها جاءت به الليلة لكي يشاركنا الاحتفال ؛ لكنه غير قادر على الحضور ، للأسف الشديد». ابتسم فضحك عدد من الحاضرين... «لم أكن قادرًا على قراءة كلمة واحدة عندما حملت هذه الرواية بين يديّ أول مرة. فأنا لا أعرف من اللغة الروسية غير كلمة واحدة ، ستوليتشنايا(22)»...

مزيد من الضحك... «لكن صديقي العزيز بيترو أنتونيو زفيتيريويك...». أشار إلى رجل في سترة صوف كان واقفًا بالقرب من آخر الحشد ينفث دخان غليون... «قال لي إن الإحجام عن نشر الرواية سيكون جريمة في حق الأدب. لكني أدركت ذلك بنفسي حتى قبل أن أقرأها. عرفت عندما حملتها بين يدي أن لها قيمة خاصة...». ترك الورقة التي كان يقرأ منها تسقط متهادية حتى بلغت الأرض... «وهكذا قرّرت المضي في هذه المغامرة. ثم استغرق الأمر شهورًا قبل أن يفرغ بيترو من الترجمة، فأصير آخر الأمر قادرًا على قراءة هذه الكلمات... «. رفع الكتاب بيده... «وقد قرأتها، حفرتْ كلمات هذا المبدع الروسي أثرًا في قلبي. حفرت في قلبي أثرًا باقيًا إلى الأبد؛ وأنا واثق من أنها ستحفر هذا الأثر في قلوبكم أيضًا».

صاح واحد من الحاضرين: «فلنسمع، فلنسمع!».

... «لم تتجه نيتي أبدًا إلى أن أكون الشخص الأول الذي يقدّم هذا العمل إلى القرّاء. كنت أريد الحصول على حقوق النشر باللغات الأجنبية بعد صدور الرواية في موطنها. لكننا نعرف أن الحياة لا تسير دائمًا بحسب خططنا».

رفعت امرأة واقفة عند قدميّ فيلترينيلي كأسها وقالت: «تشِن تشِن».

«لقد قيل لي إن نشر هذه الرواية سيكون جريمة. وقيل لي إن نشرها سيكون نهايتي...». نظر في أرجاء الصالة... «لكني كنت أحمل في قلبي تلك الحقيقة التي قالها بيترو عندما قرأ الرواية، حقيقة أن الإحجام عن نشرها يمكن أن يكون جريمة أكبر من ذلك. وبطبيعة الحال، فقد طلب مني بوريس باسترناك نفسه تأجيل إصدارها. قلت له إن ما من وقت لدينا نضيعه. وقلت له أيضًا إن عليَّ أن أجعل كلماته تبلغ العالم على الفور. وقد فعلت هذا...».

انفجر الحشد مهللًا... «من فضلكم ارفعوا كؤوسكم لنشرب نخب بوريس باسترناك، الرجل الذي لم أره بعد لكنّي أحس أن القدر قد جمع بيننا. إنه الرجل الذي ابتدع عملًا فنيًا انطلاقًا من التجربة السوفييتية، ابتدع عملًا يغير الحياة، لا -بل يؤكد على الحياة- إنه العمل الذي سيصمد أمام اختبار الزمن وسيضع هذا الرجل، بكل قوة، إلى جانب تولستوي ودوستويفسكي. فلنشرب نخب رجل أكثر مني شجاعة. سالوت!».

رفع الناس كؤوسهم وشربوا ما فيها. نزل فيلترينيلي عن الصندوق وضاع بين من احتشدوا من حوله متمنّين له أطيب الأماني. وبعد لحظات من ذلك اعتذر منهم وذهب إلى الحمام. وقفت عند جهاز الهاتف في الردهة حتى يمر بي عند عودته.

مرّ بي، فوضعت سماعة الهاتف عندما لاحظني. قال لي: «آمل أنك تمضين وقتًا ممتعًا».

أجبته: «وقت رائع. يا لها من ليلة جميلة».

«ليلة جميلة إلى حد يصعب احتماله...». تراجع خطوة إلى الخلف كأنه ينظر معجَبًا إلى عمل فنّي أمامه... «ألم نلتق من قبل؟».

«أظن أن الكون لم يشأ أن نلتقي».

«حقًّا. لا بأس. يسعدني أن الكون قد صحّح غلطته الكبيرة». أمسك بيدي وقبّلها.

«هل أنتَ السبب الذي جعل هذا الكتاب يجد طريقه إلى الصدور؟».

وضع يده على قلبه وقال: «أتحمّل المسؤولية الكاملة وحدي».

«ألم يشاركك الكاتب هذا القرار؟».

«لا، ليس تمامًا. لم يكن هذا ممكنًا بالنسبة إليه».

قبل أن أفلح في سؤاله إن كان باسترناك في خطر، أتت زوجة فيلترينيلي - امرأة جميلة سوداء الشعر في فستان مخملي أسود من غير كمّين، وعلى رقبتها طوق من المجوهرات. أمسكت ذراع زوجها بحزم، ثم سارت معه إلى الصالة. التفتت في سيرها مرةً، ونظرت إليَّ... حتى أفهم الرسالة.

مع اقتراب الحفلة من نهايتها، بدأ العاملون ذوي السترات الحمراء رفع أكوام المحار المحشو التي بقيت على الطاولات، ومعها كارباتشيو لحم البقر وكروستيني الروبيان وعدد كبير من زجاجات نبيذ بروسيسو المنتشرة في أنحاء الصالة كلّها. كانت السيدة فيلترينيلي قد انصرفت قبل ذلك بسيارة ليموزين ضخمة؛ ودعا فيلترينيلي المجموعة التي تضاءل عددها إلى الذهاب معه إلى بار باسّو. لحظة خروجه، ومن خلفه ثلة ممن بقوا، التفت إليَّ التفاتة سريعة وسألني: «ألن تذهبي معنا؟». لم يتوقّف لكي يسمع إجابتي لأنه عرف ما ستكونه.

كانت في انتظارنا عند مدخل الفندق سيارة ستروين فضية اللون، وأسطول من سيارات الفيات السوداء. صعد فيلترينيلي إلى سيارة ألفا روميو ومعه شابة شقراء وصلت بعد دقائق فقط من انصراف زوجته. وأما نحن، فقد تكوّمنا في سيارات الفيات. انطلق فيلترينيلي بسيارته مسرعًا في حين بقينا عالقين من خلف رجلين يقود كل منهما دراجة فيسبا ومن خلفه فتاة - لا بد أنهما سائحان، لأنهما قادا الدراجتين ببطء وفي خط مستقيم بدلًا من المضي في مسار متعرّج بين السيارات مثلما يفعل أهل هذه البلاد.

نزلت مجموعتنا من السيارات وشقت طريقها إلى داخل بار باسّو؛ وراح الناس يطلبون كؤوس الشراب من عمال البار ذوي السترات البيضاء. وجدت لنفسي مكانًا عند الجدار ذي المرايا، ورحت أنظر في أرجاء المكان باحثة عن فيلترينيلي. لم أجد له أثرًا. مرَّ بي رجل قصير ربطة عنقه محلولة، وعلى شفتيه بقع حمراء من أثر النبيذ. كانت في يد الرجل كأس كوكتيل ذات حجم كبير. تذكّرت أنه واحد من المصوّرين الذين كانوا في الحفلة. قدم الكأس إليَّ قائلًا: «ألا تريدين شرابًا؟ خذي كأسي».

لم أرفع يدي لآخذ الكأس منه: «أين ضيف الشرف؟».

«أظنه صار الآن في الفراش».

«ظننته آتيًا معنا إلى هنا».

«كيف تقولون هذه العبارة، أنتم الأميركيون؟... توضع الخطط لكي يُعاد ترتيبها؟».

«لكي تتغيّر».

«صحيح؛ هذه هي! أظنّه قرر إقامة حفلة أكثر خصوصية». وضع المصوّر ذراعه حول خصري، وانحدرت أصابعه أسفل ظهري. ارتعدت، وأبعدت يده عني، ثم خرجت من البار.

لقد نجحتُ في الحصول على نسخة من الكتاب. وضعتها في الخزنة الصغيرة في غرفة الفندق قبل أن أخرج من جديد. لكني فشلت في الحصول على معلومات من فيلترينيلي. بدا لي أنه يحمي باسترناك. لكن، لماذا؟ هل كان الخطر الواقع على الكاتب أشد مما نظن؟ كانت الشقراء التي أخذها فيلترينيلي معه أصغر مني سنًا بخمس عشرة سنة على أقل تقدير؛ فلم أستطع الامتناع عن التفكير في أنني، لو كنت في مثّل سنها، لكنت المرأة التي يأخذها معه بسيارته الرياضية ويقول لها أسراره.

كانت سيارات التاكسي تمرّ أمامي في الشارع، لكنّي قرّرت أن أمشي. أردت الاستمتاع بالهواء النقي. كنت جائعة أيضًا. كانت محطتي الأولى عند عربة جيلاتو يجرّها بغل عجوز. قال لي المراهق الذي كان في العربة إن اسم البغل «فيسنتي العظيم». ضحكتُ، فقال الصبي إن ضحكتي جميلة كمثل جمال فستاني الأحمر وشعري الأحمر. شكرته فناولني جيلاتو الليمون الذي طلبته. قال لي: «أوفّيرتو دالّا كازا!»(23).

ساعدني الجيلاتو المجاني في تخفيف عذابِ ذاتي التي أصابها جرح. لكنه لم يحُل بيني وبين التساؤل عما إذا كنت قد صرت في سن أكبر مما يناسب هذا العمل. اعتدت أن يكون هذا أمرًا

في غاية السهولة. لكن جلدي لم يعد الآن لامعًا إلا نتيجة استخدام الكريمات باهظة الثمن التي تَعِدُ بأكثر مما تستطيع تحقيقه ؛ وصار ألق شعري ناتجًا عن استخدام زيوت غريبة في زجاجة غالية الثمن اشتريتها من باريس. وعندما أستلقي في الفراش ليلًا من غير حمّالة الثديين ، يتثاقل ثدياي صوب إبطيّ.

عندما بلغت الثالثة عشرة ، صرت أثير انتباه الصبيان والرجال على حد سواء ، فقد تغير جسدي عديم الملامح الذي كان قبل البلوغ ، ولم يستغرق تغيره أكثر من صيف واحد. كانت أمي أول من لاحظ هذا. فبعد أن رأتني مرة أنظر إلى صورتي المنعكسة في زجاج واجهة أحد المتاجر ، توقّفت وقالت لي إن جمال المرأة في حاجة إلى شيء يسنده عندما يبدأ تراجعه ، وإلا فسوف تظل من غير شيء. قالت لي: «وسوف يبدأ تراجعه في يوم من الأيام». أسأل نفسي الآن: ألن يكون لدي ما أستند إليه ؟ وكم سيطول الأمر قبل أن أجد نفسي مرغمة على اكتشاف ذلك ؟

بعكس حالة فيلترينيلي ، لم يكن طموحًا نابعًا من محفظتي. لقد كان منشأه وهمًا مفاده أنني شخصية خاصّة ، وأن العالم مدين لي بشيء ما... ربما لأنني نشأت من غير شيء. أو لعلنا جميعًا يكون لدينا ذلك الوهم في لحظة من اللحظات ، لكن أكثرنا يتخلّى عنه بعد المراهقة... إلا أنني لم أترك ذلك الوهم أبدًا. كان يمنحني إيمانًا راسخًا بأنني قادرة على فعل شيء ، فترة من الزمن ، على الأقل. مشكلة هذا النوع من الطموح كامنة في حاجته الدائمة إلى تأكيد من جانب الآخرين. لكنّك تضطرب وتهتزّ عندما لا يأتي هذا التأكيد. وعندما تضطرب وتهتز ، يتّجه طموحك إلى الثمار الأدنى قطوفًا... إلى شخص يجعلك تشعر بأنك قوي وبأنك مرغوب فيك. لكن هذا النوع من التأكيد ليس إلا مثل النشوة قصيرة العمر التي يأتي بها الكحول: تكون في حاجة إليها حتى تواصل الرقص ، لكنها تجعلك تشعر بالغثيان في اليوم التالي.

كان لجيلاتو الليمون طعم الصيف ، فأمرتُ نفسي بأن تكفّ عن كره نفسي. عدَلت عن فكرة العودة سريعًا إلى الفندق. وتوقّف في ساحة «بياتسا ديلا سكالا» لكي أرى تمثال ليوناردو دافنتشي.

كانت الساحة متألّقة ، وفيها فريق صغير من الرجال يعلّق مصابيح عيد الميلاد البيضاء على الأشجار المحيطة بالتّمثال في وسط الساحة. كان ممسكًا بالسلّم بيد واحدة رجل في أوفرول

بني اللون ، وفي يده الأخرى سيجارة. وكان الرجل الواقف على السلم يحاول فك عقدة في الأسلاك. وأما الرجل الواقف إلى جوارهما فكان يجادل الرجلين في الطريقة المثلى لفك تلك العقدة.

رأيت رجلًا وامرأة في أواسط العمر جالسَين على مقعد إسمنتي قريب من قاعدة التمثال. كان وجهاهما متقاربين ، متوتّرين. لم أعرف إن كانا موشكين على تبادل قبلة ، أو على الانفصال.

فكرت في إيرينا. فكرت في أننا لا يمكن أبدًا أن نكون هذين الشخصين... نتبادل قبلة ، أو نتشاجر ، هناك ، في مكان مفتوح يمكن أن يرانا فيه الجميع. أتتني هذه الفكرة مثلما يأتي خبر وفاة شخص أعرفه ، فأدركت أن عليَّ أن أضع نهاية لهذا الذي بيننا ، مهما يكن هذا الذي بيننا ، وأن أكتفي بالأسى على ما كان يمكن أن يكون بيننا.

سرت حتى آخر الساحة ثم استوقفت سيارة تاكسي. سألني سائق التاكسي عندما وصلنا إلى الفندق:

«Signora, si sente bene?» (24). كنت نائمة في السيارة. فوجئت بانهمار دموعي عندما كلّمني السائق بتلك الرقّة كلّها. بدا عليه قلق شديد. مد يده وساعدني في النزول من السيارة.

«Starai bene» (25) قال لي: «Starai bene,».

فكّرت في أن أطلب منه الصعود معي إلى غرفتي... هذا الشاب الذي بدأ يفقد شعره قبل الأوان. فاحت منه رائحة نعناع طازج. لم أرد أن أنام معه ، لكني سأفعلها إن قال لي إنني سأكون بخير ،

«Starai bene,» ، وسوف أكون بخير. سيقولها مرة بعد مرة إلى أن أغفو. لكني صعدت إلى غرفتي وحدي ، واستلقيت على السرير. استلقيت بفستاني المجعّد ، فوق الأغطية.

وفي الصباح ، بعد خدمة الغرف وكأسين من ألكا - سيلتزر ، أخرجت نسخة الرواية من الخزنة. فتحت الكتاب قبل أن أضعه في حقيبتي. رحت أقلّب صفحاته ، فسقطت منه بطاقة من غير اسم ، ومن غير رقم هاتف... بطاقة ليس عليها إلا عنوان: (SARA'S DRY CLEANERS, 2010 P ST. NW, WASHINGTON, D.C). أعرف ذلك المكان: بناية صفراء منخفضة عليها لافتة زرقاء مكتوبة باليد ، على مرمى حجر من بين

دولز في واشنطن. طويت البطاقة نصفين ووضعتها في علبة سجائري الفضية.
(21) فاتس دومينو: عازف بيانو أميركي شهير.
(22) ستوليتشنايا: علامة تجارية شهيرة لنوع من الفودكا.
(23) بالإيطالية ، تقدمة من المحل.
(24) سيدتي ، هل أنت بخير ؟ (بالإيطالية).
(25) ستكونين بخير ، ستكونين بخير(بالإيطالية).

الفصل الرابع عشر
رجل المؤسّسة

ذهب إلى لندن لرؤية صديق في شأن كتاب. جلست في الطائرة التي ستأخذني في رحلة تطول إحدى عشرة ساعة ، ثم أشرت إلى المضيفة لكي تعلّق سترتي وتجلب لي كأس ويسكي... طلبت الويسكي مع الثلج لأننا لا نزال في فترة ما قبل الظهر. كان اسم المضيفة كيت ؛ مضيفة في زي شركة بان أميرِكان الأزرق والأبيض مع قبعة صغيرة وقفازين بيضاوين... إنها من ذلك النوع من النساء الذي يأتي في المرتبة الثانية أو الثالثة في مسابقة ملكات جمال الغرب الأوسط. «تفضّل ، يا سيد فريدكس». قالت هذا وغمزت لي بعينها.

استخدمتُ أسماء كثيرة في ما مضى: أسماء أعطيت لي ، وأسماء أعطيتها لنفسي. أسماني أبي وأمي ثيودور هيلمز الثالث. وفي الصف الأول في المدرسة ، صار اسمي تيدي. وفي الصف الأول في المدرسة الثانوية ، صار اسمي تِد. لكنه لم يلبث أن عاد إلى تيدي عندما صرت في الجامعة.

وأما بالنسبة إلى كيت ، أو إلى أي شخص يسأل عني خلال اليومين القادمين ، فسوف يكون اسمي هارسون فريدريكس ؛ وسيخاطبني الأصدقاء باسم هاري. هارسون فريدريكس رجل في السابعة والعشرين من العمر ، من فالي ستريم في نيويورك ، يعمل محلّلًا لدى شركة غرومان للطائرات لكنه يكره السفر بالطائرة. يحرص دائمًا على إبقاء الستارة مسدلة ، ولا يحب أن يجلس أحد إلى جانبه. وإذا نظرت مصادفة إلى ما في جيوبه ، فسوف تجد إيصالًا من محطة وقود لشركة تكساكو تبعد عن بيته خمسة أميال ، ونصف كيس من السكاكر ، ومنديل طُرِّز

عليه الأحرف الأولى من اسمه.

وضعت حقيبتي على المقعد الفارغ إلى جواري. لقد فصّل أبي هذه الحقيبة في فلورنسا. جلد فاخر ذو لون بني كستنائي، وقفل نحاسي واحد. قدّمها إليَّ عندما تخرجت في جامعة جورجتاون، وكان ذلك بعد عشرين سنة، بالضبط، من تخرجه في تلك الجامعة. أعطاني الحقيبة، من غير غلاف، بعد عشاء هادئ مع أمي في النادي وقال إنه يتخيّلني، حاملًا هذه الحقيبة، داخلًا في يوم ما إلى مجلس الشيوخ، أو المحكمة العليا، أو المكتب القانوني الذي يحمل اسم عائلتنا. لكن ما كان أبي يجهله آنذاك هو أنني تحوّلت من دراسة القانون إلى دراسة اللغات السلافية منذ كنت في السنة الجامعية الأولى.

أدركت في الصيف الذي أعقب السنة التحضيرية في الجامعة أنني غير راغب في الانضمام إلى مكتب العائلة. لكني لم أكن أعرف ما أريده بدلًا من ذلك. ذلك الإحساس بالضياع، بالترافق مع موت أخي الأكبر، جعلني أقع ضحية حالة اكتئاب أتتني مثلما يسقط ظل غيمة على شخص يتشمّس عند شاطئ البحر. لم أعد أخرج من البيت؛ وصار أكلي قليلًا. وبعد أن انخفض وزني إلى ما كانه في المدرسة الثانوية، وتحوّل جلدي إلى لون أشبه بلون أرصفة المدينة، لم يكن أبي وأمي، ولا الطبيب الذي أرغماني على «الحديث معه فقط» من أخرجني من تلك الحالة: أخرجتني منها رواية «الإخوة كارامازوف»، وبعدها «الجريمة والعقاب»، وبعدها «الأبله، وبعدها كل ما كتبه ذلك الرجل. رمى لي دوستويفسكي حبْلًا في الضباب فتعلّقت به. عندما قرأت كلماته، «إنّ سر الوجود البشري ليس كامنًا في البقاء على قيد الحياة فحسب، بل في العثور على شيء يحيا المرء من أجله»، قلت في نفسي: صحيح! هذا هو الأمر! وكنت مقتنعًا، مثلما لا يستطيع الاقتناع إلا من يكون شابًا في مقتبل العمر، بأن لي روحًا روسية في أعماقي.

انكببت على دراسة الكتّاب العظماء. وبعد دوستويفسكي، جاء تولستوي وغوغول وبوشكين وتشيخوف. وبعد أن فرغت من العباقرة القدامى، بدأت أفتش «تحت الأرض» عمن رفضهم الوحش الأحمر الكبير: أوسيب ماندلستام، ومارينا كسفيتايفا، وميخائيل بولغاكوف. عدت إلى الجامعة في الخريف، وكان الضباب قد بدأ ينقشع عني. في ذلك الفصل، تركت دراسة القانون التحضيرية، والتحقت بقسم اللغة الروسية.

بعد ست سنين، لم تكن في الحقيبة وثائق أو مذكرات قانونية، بل شيء هو المصدر الأول

لتوتّري وقلقي الدائمين: روايتي التي لم أنجز كتابتها.

أخذت رشفة من كأس الويسكي ، ومددت يدي إلى الحقيبة. لم أخرج منها روايتي عندما كانت الطائرة تقلع تاركة الأرض ، بل أخرجت شيئًا آخر: كتاب «على الطريق» لجاك كرواك. يقال إنه كتبه في ثلاثة أسابيع ، في اندفاعة ناتجة عن تناول جرعة بنزدرين ، كتبه على بكرة متصلة من الورق. لعلّ هذا ما أخطأت فيه! ولعلّي في حاجة إلى مخدرات ، وإلى بكرة من ورق. فتحت الكتاب وقرأت الجمل الأولى ، ثم أغلقته. أنهيت كأسي ، وغفوت.

كنا فوق المحيط الأطلسي عندما استيقظت. رأيت نفسي راغبًا في إلقاء نظرة على مسوَّدة كتابي. بدأت العمل على حبكة جديدة للكتاب في الليلة الماضية بعد عشاء مبكر مع إيرينا ؛ وجمعت أوراق الملاحظات التي علّقتها على جدران غرفة نومي لأرى إن كنت أستطيع أن أفهم منها شيئًا. استطعت الفهم ، تقريبًا! وخُيّل لي أنني قد أكون على المسار المؤدّي إلى أن أصير كاتبًا حقيقيًا... أو لا أصير كاتبًا.

لم أقل لأحد شيئًا عن روايتي. ولم أقل لأحد إنني طامح إلى أن أصير كاتبًا. لم أقل لأبي وأمي ، ولا لإيرينا ، ولا حتى لهنري رينيت الذي هو أقرب أصدقائي منذ أن كنا في مدرسة غروتون. يرى بعض الناس هنري شخصًا دنيئًا ؛ ويراه غيرهم تافهًا ، لا أكثر. قد يكونون محقّين. لكنه كان إلى جانبي عندما مات أخي. في ذلك الوقت... عندما بدا لي كأن الأشهر التي أعقبت موت جوليان تمتد متطاولة رمادية مثل مشهد روسي... كان هنري يأتي ويجلس في شقّتي ويشرب الويسكي معي ، ونتحدّث ساعات طويلة.

في البداية ، كانت خطتي أن أنشر روايتي الأولى بعد سنة واحدة من إنهاء الجامعة فأفاجئ بها الجميع. لم يقل أبي وأمي كلامًا كثيرًا ، لكني كنت أحس مدى خيبة أملهما لأنني لم أنضمّ إلى عمل العائلة. من شأن الرواية أن تكون شيئًا يستطيعان المباهاة به أمام الأصدقاء في النادي... نعم ، من شأنها أن تكون إنجازًا يستطيعان الاعتزاز به.

لكن هذا لم يحدث. بدأتُ كتابة مئة رواية في الصيف الذي أعقب تخرجي ، لكني لم أتجاوز أول عشرين صفحة من أي منها. إلا أنني استطعت أن أجد لنفسي هذا العمل من خلال محبّة الكتب... حسنًا ، وأيضًا لأنني أتكلم الروسية جيدًا. وهناك علاقاتي أيضًا. جنّدني الأستاذ همفريز عندما كنت في جامعة جورجتاون. لقد كان من زملاء فرانك ويزنر في «مكتب الخدمات الاستراتيجية» القديم ، ثم عاد بعد الحرب إلى عمله السابق ، عاد أستاذًا للغات

السلافية، وصار واحدًا من أهم راصدي المواهب لدى الوكالة. لم أكن أول من جنّده همفريز؛ ولم أكن الأخير. كان كبار المسؤولين في الوكالة يطلقون علينا اسم «فتيان همفريز»... لقب يجعل المرء يظنّنا فرقة غنائية، لا مجموعة جواسيس.

كانت الوكالة راغبة في تعزيز صفوفها بالمثقّفين - بأولئك المؤمنين باللعبة الطويلة، لعبة تغيير تفكير الناس مع مرور الزمن. كانوا مقتنعين بأن الكتب قادرة على فعل هذا. وقد كنت مقتنعًا بأن الكتب قادرة حقًا على فعل هذا. هكذا كان عملي: تحديد الكتب التي نريد الاستفادة منها، والمساهمة في توزيعها بطرق سرّية. وكانت مهمتي تأمين كتب تجعل السوفييت يظهرون بمظهر سيئ: كتب منعوها، وكتب تنتقد نظامهم، وكتب تجعل الولايات المتحدة منارة مضيئة. أردت أن ينظر أولئك الناس مليًّا إلى نظامهم الذي يسمح للدولة بقتل أي كاتب أو مثقف -بل أي عالم فلك- يخالفها الرأي. صحيح أن ستالين مات، وصار جسده محنّطًا ضمن صندوق زجاجي مغلق، لكن ذكرى التطهيرات لا تزال باقية.

ومثلما يفعل كل ناشر أو محرّر، كنت أفكّر دائمًا في ما ستكونه الرواية الكبيرة التالية، وفي كيفية جعلها تصل إلى أكبر عدد من الأيدي، في أسرع وقت ممكن. كان الاختلاف الوحيد عن الناشر أو المحرر، هو أن عليَّ فعل هذا من غير ترك أية بصمات.

لم تكن رحلتي إلى لندن من أجل كتاب فحسب: كانت من أجل «ذلك الكتاب». أمضينا شهورًا في محاولة الحصول على «دكتور جيڤاكو». استطعنا تأمين الطبعة الإيطالية الأولى، فرأينا أنها رواية تستحق كل ما قيل عنها. واعتبرنا أن من الضروري جدًا أن نحصل على المخطوط في نسخته الروسية الأصلية «خشية أن تكون الترجمة قد أفقدت الرواية شيئًا من قوتها». لم أكن أعرف إن كان هذا الاهتمام نابعًا من الحرص على تحقيق أكبر أثر على المواطنين السوفييت، أو من الحرص على المحافظة على نقاء كلمات الكاتب الأصلية. كنت أفضّل الاحتمال الثاني، أو على الأقل، شيئًا من هذا وشيئًا من ذاك. وكانت مهمتي إقناع أصدقائنا البريطانيين بإعطائنا نسختهم من المخطوط الروسي، أو إعارتنا إياه حينًا من الزمن. لقد تم التوصّل إلى اتفاق معهم؛ لكنه كان اتفاقًا غير نهائي. وقد كانت حركتهم شديدة البطء. لعلهم يريدون كسب الوقت حتى يقرروا إن كانوا يستطيعون أن يفعلوا بها شيئًا قبلنا!

وهكذا، تم إرسالي إلى لندن حتى أضع الأمور في نصابها.

لم يكن لي أي اعتراض على هذا. والواقع أنني كنت في حاجة إلى الخروج من المستنقع

واستعادة صفاء رأسي. كانت إيرينا بعيدة عني، في حين ظننت أننا في طريقنا إلى الزواج. بل إنني طلبت من أمي خاتم جدّتي، واعتزمت مفاتحة إيرينا بالأمر بعد عيد الميلاد. لكني لم أعد واثقًا من صحة تلك الخطوة بعد إلغاء عدد من المواعيد، وبعد ذلك الإحساس بأن هناك شيئًا في غير مكانه الصحيح. عندما سألت إيرينا عن الأمر، بدا لي أن سؤالي قد زاد الوضع سوءًا. لم أعرف فتاة مثلها من قبل. فحتى ذلك الوقت، ما كانت لدى كل فتاة أُواعدها من طموح غير أن تضع خاتم جدتي في إصبعها. لكن إيرينا تريد ما أريده نفسه: أن ترتقي في الوكالة، وأن يعاملها الآخرون باحترام، وأن تنجز عملها جيّدًا، وأن تتلقّى الثناء على ذلك. كانت نَدًّا لي؛ وكانت شخصًا يتحدّاني. كنت أعرف أنني لو تزوجت فتاة من اللواتي كنت أواعدهن في الكليّة، لأصابني الضجر قبل ولادة طفلنا الأول. لا أريد أن أتحوّل إلى رجل الوكالة المألوف الذي لديه امرأة أو امرأتان إلى جانب زوجته.

وقد كانت روسية! كم أحببت كونها روسية على الرغم من زعمها أنها أميركية أكثر مني. كنت آكل البلميني(26) بيتي التحضير في شقّتهم الصغيرة في القبو. وكانت ماما (أصرّت منذ اليوم الأول على أن أخاطبها بكلمة ماما) تسخر من لكنتي الأرستقراطية الروسيّة كلما سنحت لها فرصة للسخرية مني. لقد أحببت هذا كله.

يخجلني القول إنني راقبت بيتها مرة، أو مرتين، عندما ابتعدت عني -أردت أن أرى إن كانت تواعد أحدًا غيري- لم تكن تواعد غيري، ولكن...

لهذا كله، كان ابتعادي أمرًا حسنًا. وكنت مسرورًا لأنني ذاهب إلى لندن. أحب هذه المدينة: نويل تاورد في «كافيه دو باريس»، والسترات الواقية من المطر، والقبّعات الواقية من المطر، والأحذية المطرية، والشبان والشابات المتأنقون على الطراز القديم. وبالطبع، أحببت الأدب أيضًا. تمنّيت أن أكون قادرًا على البقاء في لندن أسبوعًا حتى أزور البيت الذي مات فيه هـ. ج. ويلز، أو المقهى الذي كان س. س. لويس يشرب البيرة فيه مع تولكين. لكن عليَّ، إن سار كل شيء بحسب الخطّة، أن أنجز عملي في ليلة واحدة ثم أعود بالطائرة إلى الولايات المتحدة صباح اليوم التالي.

ما كان الصديق الذي كنت ذاهبًا لرؤيته -اسمه الرمزي «تشوسر»- صديقًا لي في حقيقة الأمر. صحيح أنني كنت أعرفه، لكنها معرفة ناتجة عن تقاطع حياتينا عدة مرات في ما يتصل بالكتب. كان رجلًا متوسط الطول، معتدل البنية، غير متميّز في شيء... مثلما نحاول

جاهدين، نحن الجواسيس، أن نكون. كانت أسنانه استثناءً وحيدًا من ذلك: أسنان شديدة البياض، تامة الاستقامة، إلى حد يمكن معه أن يظنّه المرء شخصًا ترعرع في بلدة سكارسديل الثرية قرب نيويورك، لا في ليفربول. كان قادرًا على تغيير لهجته بما يلائم من يكون معهم: راقٍ مع أبناء الأوساط الراقية، وابن طبقة عاملة مع أبناء الطبقة العاملة، وإيرلندي عند حديثه مع «حمر الرؤوس». كان الناس يعتبرونه شخصًا ساحرًا، لكني ما كنت أطيق البقاء معه أكثر من ساعة، أو نحو ذلك.

وصل تشوسر إلى «جورج إنّ» متأخِّرًا عشرين دقيقة. كنت واثقًا من أن تعمّده جعلي أنتظر هذه المدة ليس إلا واحدًا من الأساليب النفسية التافهة التي تستخدمها الاستخبارات البريطانية. ما كنت لأشعر بأية دهشة لو عرفت أنه وصل قبل الموعد ووقف على مسافة قريبة لكي يراقبني عند دخولي المقهى، وأنه نظر إلى ساعة الجيب -بالتأكيد، ساعة جيب- لكي يتحقّق من أنه انتظر عشرين دقيقة كاملة قبل دخوله. كانوا يستخدمون دائمًا ألاعيب صغيرة من هذا النوع، ويحرصون على تذكيرنا من غير أيّ تأخر، وفي كل مناسبة، (تذكيرنا، نحن الأميركيين المتخلّفين)، بأنهم أسبق منا بمئات السنين من حيث إتقان «الصنعة». وقد كان تشوسر يقول لي إنه «في هذه اللعبة» منذ أن كنت رضيعًا في الحفاضات.

وصلتنا شائعات تقول إن الاستخبارات البريطانية قد نجحت في الحصول على رواية «دكتور جيفاكو» في نسختها الروسية الأصلية عندما أُنزلت في مطار مالطا، بعد إنذار كاذب، طائرة كان فلترينيلي على متنها. وقيل إن ضباط استخبارات زعموا أنهم من موظفي أمن المطار قد رافقوا فلترينيلي فأنزلوه من الطائرة، في حين قام ضباط آخرون بتصوير المخطوط. لست أدري إن كان هذا صحيحًا، لكنها قصة مثيرة حقًا.

كنت جالسًا عند البار تحت رأس غزال ذي عينين زجاجتيين معلّق على الجدار، وكنت أشرب أقداح الويسكي الإيرلندي (أظن ذلك كان الأسلوب «النفسي» الوحيد عندي). وضع عامل البار أمامي طبقًا فيه سمك وبطاطس مقلية وبازلاء مهروسة لحظة دخول تشوسر آتيًا من تحت المطر. كانت ياقة معطفه الأسود مرفوعة حتى أذنيه. خلع قبعته ونفضها فبلل سائحَين فرنسيَّين جالسَين في مكان قريب من الباب. انحنى لهما معتذرًا، ثم جاء إلى طاولتي. لاحظت أن وزنه قد ازداد قليلًا منذ آخر مرة رأيته.

انتبه إلى نظرتي إليه فقال: «تبدو رشيقًا».

«أشكرك».

رفع كفه اليسرى أمامي وقال: «أنا متزوج الآن».

«هذا ما يفسر الأمر».

جلس وقال: «يا لتلك الدعابات الأميركية الجافّة! كيف لم أنتبه إلى هذا؟... سمعت أنك خطبت».

«ليس تمامًا، لكني سأشرب نخب هذا، على أية حال». رفعت كأسي وشربت الويسكي الباقي فيها.

«ألا تريد كأسًا أخرى من هذه الروعة الإيرلندية؟». نهض قبل أن أجيبه بشيء وذهب إلى البار. عاد حاملًا كأسين ناولني واحدة منهما. قال لي: «ما عادوا يحملون كؤوس البوشمِل إلى الطاولات. هل تعرف أن ديكنز كان يأتي إلى هذا المقهى؟...». أخذ من طبقي إصبع بطاطس مقلية مرتخية وأشار بها إلى الناحية الأخرى من المكان... «كان يجلس هناك. بل إنه كتب عن هذا أيضًا. البيت الكئيب».

«أظنني قرأت هذا في مكان ما».

«بالطبع قرأته! ما الشعار الذي لديكم، أنتم... في أميركا؟ كن مستعدًّا!».

«هذا شعار الكشافة. ثم إن رواية ديكنز التي أشرت إليها هي دوريت الصغيرة».

«صحيح...». قال هذا واستند إلى ظهر كرسيه...»فتى ذكي! لقد نسيت حضور بديهتك...». تنهّد ثم واصل كلامه...»لكن، انظر إلى هذا المكان الآن. صار للسياح فقط! رغوة كثيرة في الكؤوس، وبطاطس مقلية رخوة...». تناول قطعة بطاطس أخرى من طبقي... «بمناسبة الحديث عن الأعمال الأدبية العظيمة، ما أخبار كتابك؟».

لم تفاجئني معرفته بفشل تطلّعاتي. ثم إنني كنت، بدوري، أعرف عنه أشياء كثيرة من بينها أنه تزوج حقًّا منذ زمن غير بعيد، لكنه يواصل النوم مع فيوليت، الموظّفة لديه منذ فترة طويلة، وذلك من غير توقّف باستثناء أسبوعَي شهر العسل الاثنين اللذين أمضاهما مع عروسه في جزيرة بالي. الشيء الوحيد الذي أزعجني هو ذكره نقطة ضعفي الكبرى، روايتي.

أجبته: «على ما يرام، أشكرك».

قال: «رائع جدًّا. لا أطيق الصبر إلى أن تنتهي وأقرأها».

«سأحرص على توقيع نسخة من أجلك».

وضع يده على قلبه: «إنني أثمّن هذا بكل تأكيد».

قلت ، لأنني أردت الدخول في الموضوع: «بمناسبة الحديث عن الكتب ، هل قرأت أي كتاب جيد في الآونة الأخيرة ؟».

«قرأت رواية الماس يعيش إلى الأبد. هل قرأت هذا الكتاب ؟ إنه عمل لامع جدًّا ؟».

أجبته: «لا ، ليس من الكتب التي أميل إليها».

«أظنك ميّالًا إلى كتابات فيتزجيرالد».

«هل تقارنه بفِلمينغ ؟».

«تلك الزهرة! تلك الفتاة! أنا واقع في حبها حقًا».

«أظن أن الرجال واقعون في حب غاتسبي أكثر مما يحبون الإقرار به».

«هذا ليس حبًّا. لكننا نودّ أن نكون مثله. الرجال كلّهم ، والنساء كلّهنّ ، الجميع تواقون سرًّا إلى شيء من التراجيديا العظيمة. إنها تصقل التجارب التي يعيشها المرء. وهي تجعل الناس أكثر إثارة للاهتمام. ألا ترى هذا معي ؟».

«وحدهم الرجال المتميّزون من يضفي صفة رومانسية على التراجيديا».

صفع فخذه الممتلئ بكف يده: «كنت أعرف أن بيننا شيئًا مشتركًا».

صار السمك في طبقي باردًا ، وصار ما حوله مشبعًا بالزيت الذي انساب منه ، لكني اقتطعت لقمة وابتلعتها. «مع هذا ، أبحث عن شيء أريد أن آخذه معي عند عودتي. هل تعرف مكتبات جيّدة في المنطقة ؟».

نهض واقفًا وشرب بقية كأسه ، ثم مسح شاربه بكمه: «ما رأيك في أن نلعب قليلًا ؟».

سار إلى الجزء الخلفي من المقهى. لست ماهرًا على الإطلاق في لعبة رمي السهام لكني هزمته بسهولة ، فاعتبرت أن هذه هي طريقته في القول إنه مستعد للتعاون معي.

قال بعد أن هزمته من جديد: «حسنًا إذًا ، الظاهر أنني قد صدئت قليلًا». أخرج ساعته من جيبه فلم أستطع منع نفسي من الابتسام عندما رأيت ما كنت أتوقّعه... «عليّ الذهاب الآن. سآخذ الآنسة الصغيرة لمشاهدة الخال فانيا في مسرح غاريك».

قلت: «أحب المسرحيات الروسية الجيدة».

«ومن لا يحبها ؟».

«هل قرأت مراجعات جيّدة تتحدّث عن هذه المسرحية ؟».

«سوف ينتهي عرضها في لندن عما قريب ، لكنها ستعرض في الولايات المتحدة السنة القادمة. تعرف كيف تحدث هذه الأمور. نحن البريطانيين نحب اختبار الأشياء هنا قبل تركها تذهب إليكم».

أخيرًا... ها قد بدأنا نتّجه إلى ما أردته: «متى يبدأ عرضها ؟».

«أوائل شهر كانون الثاني...». ارتدى معطفه ووضع قبعته على رأسه... «لكنهم لم يعلنوا بعد تاريخًا محدّدًا».

«سيكون عرضها في كانون الأول أمرًا مثاليًا. أحب أن أحظى بعرض جيد قبل عطلة عيد الميلاد».

قال: «لست من يضع البرنامج الزمني».

«لا بأس. سوف أنتظر الأنباء».

«أعرف أنك ستنتظرها».

انصرف ، وسار مسرعًا تحت المطر متّجهًا إلى سيارة واقفة أمام المقهى. عدت وطلبت كأس ويسكي بوشمِل جديدة ، ودفعت الحساب - لقد تركه لي تشوسر ، بالطبع.

انهمر المطر غزيرًا لحظة خروجي. وصلت إلى الفندق مبتلًا كليًا ، وأبلغت مكتب الاستقبال بأنني لا أريد تلقي أية مكالمات هاتفية. «قولوا لهم إنني في حاجة إلى النوم حتى أستريح من التعب الناتج عن فرق التوقيت». كانت هذه رسالة رمزية تعرف الوكالة معناها: سوف نحصل من البريطانيين على النسخة الروسية من رواية «دكتور جيڤاكو».

(26) بلميني: طبق روسي شبيه بالطبق المعروف في بلاد الشام ب.«آذان الشايب» أو «شِيشبرك» ، لكن من غير طبخه مع اللبن الرائب.

الفصل الخامس عشر

جاء شهر كانون الأول، واكتست واشنطن طبقة رقيقة من الثلج. لقد تركتُ «دكتور جيڤاكو» في حجرة اعتراف متّفق عليها في كنيسة سان باتريكس يوم عودتي من ميلانو، وذهبت في اليوم التالي إلى أحد مكاتب الوكالة المؤقتة لكي أقدّم تقريرًا عن رحلتي. أخبرت فرانك بكل شيء: مَنْ كان حاضرًا، وما قالته الصحافة، ونتف الأحاديث التي سمعتها، وأهم من هذا كلّه ما قاله فيلترينيلي في كلمته. لم أهمل أي تفصيل، باستثناء مقابلتي ذلك الرجل الذي أفلح في دس بطاقته في نسخة الكتاب التي أخذتها. عقب عودتي إلى واشنطن، أخرجت البطاقة من علبة السجائر ووضعتها تحت بلاطة سائبة في حمّام شقتي. الأسرارُ ضمانة في واشنطن؛ ولا بد أن تكون لأية فتاة بضعة أسرار تخفيها في جيبها الخلفي.

اتفقنا، أنا وإيرينا، على اللقاء عند «بركة التأمّل»، لكي نتزلج على الجليد ثم نعود إلى شقّتي لتناول العشاء. استأجرنا زلاجات من رجل يؤجّر الزلاجات هناك، وسرنا بصعوبة في الثلج متّجهتين إلى حلبة التزلج. لكننا لم نبلغها. عندما جلسنا على درجات نصب لنكولن التذكاري لكي نخلع أحذيتنا، قالت إيرينا فجأة: «لقد طلب تيدي الزواج مني». لم تقل لي إنها وافقت؛ لكنها لم تكن في حاجة إلى قول هذا. كانت تكلّمني وعيناها مثبتتين إلى تمثال واشنطن. لم تلتفت صوبي، ولم تنظر إليَّ أبدًا.

كنت أعرف أن هذا احتمال قائم. وكنت أعرف أيضًا فتيات خطبن وتزوجن وأنجبن أطفالًا بهدف التغطية على ميولهن الحقيقية، وبهدف تجنّب السجن وعيش حياة «طبيعية». بل إنني، أنا أيضًا، فكرت في فعل ذلك، مرة أو مرتين. حاولت عشرات المرات، بعد عودتي من إيطاليا، وضع نهاية للأمر، لكني لم أفلح إلا في جعل علاقتي بها تزداد عمقًا. كنت أعرف أن هذا يمكن أن يحدث، لكني سمعت الكلمات من فمها، فوجدت نفسي غير مستعدة لسماعها. كان ذلك كأن أحدًا انتزع حجرًا من الأساس الذي أقف عليه فصار قابلًا لأن ينهار فأسقط في أية لحظة. لكني لم أفقد صوابي، بل حافظت على رباطة جأشي مثلما دُرّبت على فعله في أية ظروف تواجهني. هنأتها، وقلت لها إنني سأقيم حفلة خطوبة للخطيبين السعيدين. فوجئَتْ. فقالت بصوت شديد الانخفاض إن ذلك ليس ضروريًا. وعندما قلت لإيرينا لم أعد راغبة في التزلج، وإن صداعًا أصابني، وإن من الأفضل أن أعود إلى البيت

وأرتاح قليلًا. نهضت وتركتني جالسة على الدرجات الباردة. مضت مبتعدة، وبقيت أنظر إلى قبعتها الحمراء تصير نقطة صغيرة في المشهد المجلّل بالثلج.

أتت إيرينا إلى شقتي في ذلك المساء. كانت لا تزال ترتدي ملابس التزلج. بدا عليها كأنها كانت تمشي طيلة الوقت منذ أن تركتني جالسة هناك. أنفها أحمر، وجسدها مرتجف بردًا. دخلت شقتي، وخلعت حذاءها الشتوي، وقبعتها، ووشاحها، ومعطفها. عندما قلت لها إنني كنت نائمة، وإن من المحتمل أن أكون قد التقطت زكامًا... وإن من الأفضل ألا تقترب مني كثيرًا حتى لا أعديها، رفعت يديها الباردتين ووضعتهما على وجنتي. قالت: «استمعي إليّ». استمعت، لكنها لم تقل شيئًا. قبلتني... اقتربت شفتاها من شفتيّ إلى أن عثرتا عليهما. جعلتني القبلة راغبة في البكاء. داهمني إحساس بالضياع لحظة أبعدت فمها عني. قالت من جديد: «استمعي إليَّ». جعلتني هاتان الكلمتان أود أن أشيح بوجهي، لكنها لم تتركني أفعل ذلك. ازدادت مني اقترابًا، وصارت أصابع قدميها المجوربتين فوق أصابع قدمي. حتى من غير حذاء كانت أطول مني بمقدار الجبهة. ظلت أنظارها متعلّقة بوجهي كأنها تتفحصني.

قبلتني من جديد، ثم انزلقت يداها الباردتان داخل ثوبي. فاجأتني ثقتها. لقد كانت تتظاهر بأنها شخص آخر، أو... هل صارت حقاً شخصًا آخر، شخصًا جديدًا، لكني لم أنتبه إلى ذلك؟

سرت رعدة في ساقيّ فسقطت على ركبتيّ فوق السجادة الوردية. لحقت بي. صار ثوبي الآن مفتوحًا. راحت تقبل بطني، فأفلت من بين شفتي صوت، صوت محرج. ضحكت فجعلتني أضحك معها. سألتها: «من أنت؟».

لم تجبني، وظل تركيزها منصبًّا على بطني. لعل الأمر عكس ما تخيّلت. ولعلي ما كنت قادرة على التعرف على نفسي. كنت دائمًا صاحبة اليد العليا في الجنس. وكنت أقدّر حركات شريكتي وردود أفعالها، فأتوقّف لحظة، أو أئن، بحسب ردود أفعالها. لكن هذا كان مختلفًا. لم تكن تنتظر مني شيئًا. وكنت من غير قدرة على فعل شيء.

ظللت أقول في نفسي إن علينا أن نتوقف - ستعود إلى رشدها وأعود إلى رشدي. سوف تتراجع. وعندما قلت لها هذا، قالت إن الوقت قد فات... «ما من عودة».

كانت محقّة. وكان ما يحدث أشبه بمتابعة فيلم ملون أول مرة: كان العالم يبدو في صورة بعينها، ثم تغيّر كل شيء.

نمنا على السجادة، وكان ثوبي غطاءنا، وصدري وسادتها. استيقظت على أصوات المخبز

الذي بدأ عمله في الطابق السفلي، وعلى روائحه. ذهبت إلى الحمام لأغسل وجهي وأمشط شعري. بدا لي ضوء النهار الداخل عبر نافذة الحمام الصغيرة خشنًا، وبدت لي صورتي في المرآة غريبة. فكرت في إيرينا وتيدي - كيف سيكون زفافهما، وكيف سيكون مظهرها وهي تتقدّم في ممر الكنيسة. عاد عالمي الملوّن الجديد إلى اللونين الأبيض والأسود.

خرجت من الحمام فوجدت إيرينا في المطبخ. كانت تبحث في البراد. أخرجت علبة البيض وسألتني كيف أحبه.

أجبتها: «كيف يحبه تيدي؟».

لم تقل شيئًا. وعندما سألتها من جديد، أمسكت بيدي وقالت لي إننا سنفكّر في شيء ما. وبعد ذلك، عندما قالت إنها تحبني، لم أجبها بالحقيقة -لم أقل لها إنني أحبها أيضًا- بل ابتعدت عنها وقلت إنني لست جائعة، وإن من الأفضل أن تذهب.

ذهبت إيرينا.

مطر متجمّد في آخر يوم من أيام السنة. كنت واقفة في مطبخي. فتحت لفافة من الورق المعدني على هيئة إوزة، وسخّنت بقايا الفيليه مينيون. فتحت النافذة المطلة على سلم الحريق، وقرّبت مني زجاجة الشمبانيا (دوم بيرميون 49). أعطاني إياها فرانك بعد مهمتي التي أنجزت القسم الأكبر منها في ميلانو.

أكلت طعامي أمام الفرن المفتوح حتى أدفئ ظهري. كانت الشمبانيا لذيذة بالفعل، مثلما قال لي فرانك. في وقت سابق من ذلك الصباح، ذهبت وحدي إلى العرض الصباحي لفيلم «جسر على نهر كواي». لكني وجدت صعوبة في التركيز، فخرجت قبل انتهاء الفيلم. كانت السماء داكنة؛ وبدأ هطول المطر. ومع وصولي إلى البيت، كان عيد الميلاد الأبيض قد صار مطرًا متجمِّدًا بنّي اللون. تحوّل رجل الثلج الذي أقامه بعض الأطفال في الحديقة الواقعة إلى الناحية الأخرى من الشارع إلى تمثال من جليد صلب، وحلت سيجارة محل الجزرة التي كانت أنفه، واختفى الوشاح الذي كان على رقبته. أكره ليلة رأس السنة.

وحتى يصير الأمر أكثر سوءًا، وجدت شقّتي شديدة البرودة. أنفاسي مرئية في الهواء المتجمِّد، لمست مشعّ التدفئة فوجدته باردًا. شتمت صاحب الشقة، ذلك الرجل الذي يمتلك نصف المباني في هذه الكتلة السكنية، لكنه أكثر بخلًا من أن يستأجر مشرفًا على الشقق.

ملأت حوض الاستحمام ماء حارًا، وغطست فيه محاذرة أن يبتل شعري. وعندما عاد الماء فاترًا، فتحت الصنبور من جديد بأصابع قدمي. كررت تلك العملية مرتين قبل أن أخرج من الحمام. داهمني الهواء البارد، فلففت نفسي بثوب الحمام الذي كان كبيرًا علي. لم أكن راغبة إلا في أن أندس في الفراش وأغفو وأنا أستمع إلى أغاني غاي لومباردو من سنة 1958 منبعثة من الراديو. لكني لم أكن قادرة على فعل ذلك. لا بد لي من ارتداء ملابسي، وتزيين وجهي، وتناول شيء من الطعام قبل أن تصل السيارة السوداء التي ستأخذني إلى الحفلة بعد ساعة من الآن. عليَّ أن أعمل.

بعد عودتي من ميلانو، عندما كنت أخبر فرانك بمجريات الرحلة، بدا مسرورًا، لكنه غير منتبه تمامًا إلى ما أقوله وكأنه عرف تلك المعلومات قبل وصولي... لعله عرفها! لم يُبدِ أي انزعاج لأنني لم أستطع التقرب أكثر من فيلترينيلي. ظننت أول الأمر أنه صار يرى، مثلي، أنه كان عليّ أن أظل في حالة «التقاعد من هذا العمل»، وأنني لم أعد متمتّعة بما يستلزمه؛ لكنه لم يجعلني أذهب في سبيلي بطريقته المهذبة المعتادة، بل قال لي إن هناك شيئًا آخر يمكن أن أساعده فيه: «هل أستطيع أن أطلب منك خدمة أخرى؟».

«طبعًا، أي شيء!».

توقّف المطر لحظة وصول السيارة السوداء. لففت نفسي بمعطف الموهير الطويل. وتركت معطف الفرو في الخزانة. إنني أتركه في الخزانة منذ أن قالت لي إيرينا إن الفراء يخيفها. قالت وهي تمر بيدها على كم معطفي: «الأرانب المسكينة».

كان السائق واقفًا إلى جانب السيارة حاملًا قبعته الجلدية بإحدى يديه. فتح لي باب السيارة بيده الأخرى وقال: «كيف لا يكون لفتاة مثلك من تذهب معه إلى ليلة رأس السنة؟».

جلست في المعقد الخلفي.

راحت المدينة تمر أمام نافذة السيارة؛ وكان قمر صغير يطل عبر الفراغات بين البنايات. تساءلت في نفسي إن كانت إيرينا تستطيع رؤية القمر حيث هي الآن. إنها تمضي آخر ليلة من السنة مع تيدي وأسرته الثرية في الشاليه الجبلي الذي يمتلكونه في غرين ماونتنز. لا تستطيع إيرينا التزلج على الثلج. تمنّيت أن تكون السماء غائمة هناك، وأن يكون المطر المتجمّد قد وصل إلى فيرمونت.

كانت حفلة رأس السنة مقامة في مطعم «كولوني» الفرنسي في وسط المدينة: مطعم

يعتبرونه من أفخر مطاعم واشنطن ؛ لكن هذا لا يعني الكثير. كان مضيف الحفلة دبلوماسيًا من بناما ؛ لكن الحفلة نفسها كانت ، من حيث الأساس ، حفلة مكتب من غير مكتب. كانت لقاءً لأفراد الحلقة الداخلية في الوكالة ، حفلة مقتصرة على المدعوّين. ستكون العصبة كلها هناك: فرانك ، وموري ، وماير والشقيقان دولز ، والشقيقان غراهامز ، وواحد من الشقيقين آلسوب... مجموعة جورجتاون كلها. لكني لم أكن ذاهبة إلى الحفلة لكي أتحدّث معهم. لدي هناك عمل أقوم به.

قبعات احتفالية على رؤوس تماثيل بارزة لوحوش أسطورية ممتدة على جدار صالة الطعام ، وأفاريز فضيّة ، وحبال زينة ملونة في الردهة. شبكة عليها بالونات بيضاء جاهزة لأن تسقط فوق حلبة الرقص المزدحمة عندما تدق الساعة الثانية عشرة. لافتة كبيرة على امتداد البار الرئيسي كتب عليها في انتظار سنة 1958! ومغنية في فستان من الساتان مع فرقة موسيقية تعزف أمام ساعة عملاقة تشير عقاربها إلى العاشرة. عندما ناولتُ الفتاة الواقفة عند الباب معطفي ، اقتربت مني نادلة في ملابس راقصة إيقاع وقبعة صغيرة مائلة على رأسها. كانت معها صينية فضّية فيها قبعات وصفّارات ورقية. انتقيت صفارة لها شرّابة أرجوانية ذات بريق معدني ، لكني لم آخذ قبعة.

سألني أندرسون من خلفي: «أين الروح الاحتفالية ، يا فتاة ؟». كانت على رأسه قبعتان مدببتان كأنهما قرنا الشيطان. وكان مطاطهما منغرسًا في طيات ذقنه. لقد خلع سترة بدلته ، وكان ظهر قميصه غارقًا بالعرق.

«هل سيظهر طفل هذه السنة الجديدة أيضًا ؟». كان سؤالي يشير إلى تلك المرة التي خلع فيها ملابسه كلّها فلم يترك منها غير قطعة قماش بيضاء ملفوفة على وسطه ، كأنها حفاض طفل رضيع. كانت في فمه «لهاية» أطفال عملاقة ، وفي يده زجاجة روم. كانت تلك ليلة احتفالنا برأس السنة في كاندي.

«لا تزال الليلة في أولها».

«بمناسبة الكلام عن الروح الاحتفالية ، أين تستطيع فتاةٌ أن تجد لنفسها كأس شراب ؟».

كنت أشعر بالحرارة في داخلي بعد كؤوس الشمبانيا الثلاث التي شربتها في البيت ، لكن أردت المحافظة على ذلك الإحساس بالدفء ؛ أردت إبقاء إيرينا بعيدة عن أفكاري ، مؤقتًا على الأقل.

ناولني أندرسون كأسه نصف الممتلئة. قال: «السيدات أولًا».

شربت الكأس، ونفخت صفارتي في وجهه، ثم أشرت إلى النادلة التي جاءت بصينية جديدة من كؤوس الشراب. سألني أندرسون إن كنت راغبة في الرقص فقلت له إنه يمكننا الرقص في وقت لاحق. شاهدت الرجل الذي أراد مني فرانك أن «أعرفه معرفة أفضل». كان واقفًا في الناحية الأخرى من حلبة الرقص.

تابعت أندرسون العائد إلى طاولته المزدحمة بأشخاص هللوا لعودته، ثم تحوّل انتباهي إلى «رجلي» من جديد. كان هنري رينيت واقفًا في الزاوية المقابلة ينظر إلى ملصق فيلم «ستانا بيبي» لإيرثا بيت. مررت بطاولة أندرسون، ودرت من حول الراقصين فاخترت نقطة عند حافة حلبة الرقص، قبالة هنري. ثم انتظرت. أنهت الفرقة أغنيتها، وسارت المغنية إلى الساعة بحركات مبالغ فيها، ثم أدارت عقاربها فوضعتها على العاشرة والنصف. هلل الجمهور لها، وضحك هنري ضحكة ساخرة مكتومة، لكنه رفع كأسه تحية للساعة ونصف الساعة الباقية من سنة 1957. ثم نظر في اتّجاهي.

هذا ما كنت أعرفه عن هنري رينيت: خريج جامعة ييل. نشأ في لونغ آيلاند، لكنه يقول «في المدينة» عندما يسأله أحد عن مكان نشأته. لم يمض على وجوده في الوكالة إلا خمس سنين وثلاثة أشهر، لكن صعوده الصاروخي في قسم روسيا السوفييتية أثار شكوكًا. يعيش وحده في شقة فيها غرفة نوم واحدة في بناية من غير مصعد واقعة قبالة الجسر في حي آرلينغتون... شقة تدفع شريكاته إيجارها. رجل متخصّص في اللغات - يتقن الروسية والألمانية والفرنسية. أمضى السنة الفاصلة بين الجامعة والوكالة «متجولًا» في أوروبا. كان المعنى الحقيقي لهذا هو أنه كان ينتقل من فندق ذي خمسة نجوم إلى آخر على حساب شريكاته. شعر برتقالي، ونمش، ورقبة ثخينة؛ لكن نجاحه مع النساء أكبر مما قد يتوقعه المرء. أقام في ما مضى علاقة مع اثنتين من فتيات مجموعة الآلة الكاتبة -علاقات غير محدّدة المعالم- ولم تكن أي منهما منتبهة إلى أن الأخرى تخرج معه أيضًا. تيدي هيلمز أقرب أصدقائه، وذلك لأسباب لا تفهمها إيرينا. لكني أفهم هذه الأسباب. إن فتيان جامعات رابطة اللبلاب يحرصون دائمًا على التكتل معًا.

وأما الأمر الآخر في ما يخص هنري رينيت، السبب الذي أنا موجودة من أجله في هذه الحفلة، فهو أن فرانك يشتبه في أن هنري يمكن أن يكون جاسوسًا مدسوسًا في الوكالة.

أخبرني فرانك عن شكوكه منذ شهور، بعد وقت قصير من ضمي إلى «مشروع الكتاب»، فقدّمت إليه بضعة اقتراحات. وعند عودتي من إيطاليا، طلب مني أن «أتقرب من هنري حتى أعرفه معرفة أفضل».

إن لدى رجال الوكالة كلّهم ذوات متضخّمة، لكنهم لا يظهرونها عادة إلا ضمن دوائرهم القريبة. وكان لهنري ذلك النوع من الذات الذي يمكن أن يوقع صاحبه في المتاعب. كانوا يعتبرونه شخصًا متبجّحًا. تبجّحه ومشكلة الشرب لديه كانا أمرين كافيين لأن تنشأ إشارات استفهام من حوله.

لم أتحدّث في الأمر، بل تمنّيت أن تكون الإشاعات غير صحيحة. لكني سمعت كلامًا مفاده أن قدرات فرانك العقلية قد صارت موضع تساؤل في الآونة الأخيرة. قال بعضهم إنه لم يعد مثلما كان بعد فشل المهمة في هنغاريا؛ في حين كان بعضهم الآخر يعزو هوسه بالبحث عن جاسوس سوفييتي واجتثاثه إلى تراجع قدراته.

بعد قدر من الأحاديث الخفيفة إلى جانب حلبة الرقص، وبعد بضع دورات من الرقص فيها، وبعد كأسين من البنتش، اقترح هنري أن ننسحب إلى مكان هادئ نتحدّث فيه. كانت المغنية قد نقلت عقربي الساعة إلى الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة، وبدأ الناس يستعدون بصفاراتهم وزماراتهم ويعيدون ملء كؤوسهم لكي يشربوا نخب السنة الجديدة.

انسللنا مبتعدين؛ وأثناء سيرنا تناول هنري زجاجة شمبانيا من دلو معدني فضّي. رفع الزجاجة كأنه يرفع كأسًا وقال: «حتى نرفع نخبنا نحن أيضًا».

«إلى أين نحن ذاهبان؟».

لم يجبني هنري، بل سار يتقدّمني بخطوتين. عادة ما أتقدّم من أكون معه. أسرعت في سيري فتعثّرت بثنية سجادة وسقطت. استدار هنري لكي يساعدني في النهوض. اندفع الدم إلى رأسي عندما وقفت.

«لا تقولي لي إنك فتاة غير قادرة على تحمّل الشراب!».

«بل قادرة على تحمّله. أشكرك».

رفع الزجاجة من جديد وقال: «جيّد...». نظر إلى ساعته... «سبع دقائق حتى منتصف الليل». وضع ذراعه حول خصري -تسلل إبهامه أسفل ظهري- وسار بنا صوب باب الخروج.

قلت له: «لم أجلب معطفي».

«لا تقلقي ، لسنا خارجَيْن من هنا».

مررنا بالبواب المسترخي على كرسيه. بدا كأنه قد سمح لنفسه بأن يغفو قليلًا. أمسك هنري بيدي وسرنا بخطوات خفيفة صوب الزاوية. كانت رائحة أنفاسه كرائحة أرض البار ، فأدركت أنه قد يكون ثملًا إلى الحد الكافي لجعله غير قادر على ضبط لسانه. صححتُ وضع ربطة عنقه المائلة -ربطة عنق ضيقة ، وقبيحة- ونظرت في اتجاه البواب الذي كان يتظاهر بأنه لا ينظر إلينا... قلت: «ظننت أننا ذاهبان إلى مكان هادئ لكي نتحدّث».

مد يده من خلفي وفتح بابًا لم يكن ظاهرًا في الجدار. قال لي وهو يدخلني إلى غرفة لاستلام المعاطف غير مستخدمة: «حسنًا ، ما أدراك ؟».

كانت الغرفة الصغيرة فارغة إلا من بضع بدلات عمل بيضاء على علّاقات سلكية ، وكرسي مكسور ، ومكنسة كهربائية عتيقة.

«ليست بالمكان اللطيف الدافئ الذي توقّعته».

أشار بزجاجة الشمبانيا في اتجاه الكرسي المكسور: «أعرف أنك فتاة اعتادت قدرًا أكبر من الراحة ، وكل تلك الأشياء. لكن المكان هادئٌ هنا ، أليس كذلك ؟». أدار سدادة الزجاجة فطارت وسقطت في رف القبعات الفارغ. أخذ منها جرعة... «مكان فيه خصوصية». قدّم إليَّ الزجاجة ، لكني لم أشرب فقد أحسست بأن كأسًا أخرى ستجعلني أفقد السيطرة على الموقف. قلت له: «قد آخذ جرعة عندما تدق الساعة منتصف الليل».

نظر إلى ساعته من جديد ونقر على وجهها: «بعد ثلاث دقائق».

سألته: «هل من قرارات جديدة في رأس السنة ؟».

«هذا فقط». وضع يده المتعرّقة على خدي ومال صوبي لكي يقبّلني. تراجعت إلى الخلف خطوة ، فمسّت قمة رأسي قضيب تعليق الملابس في الخزانة التي خلفي.

قلت له: «قل لي شيئًا قبل ذلك».

«أنت جميلة». تحرّك صوبي من جديد.

دفعته بإصبعي: «عليك أن تبذل جهدًا أكثر من هذا».

ضحك ضحكة مخنوقة... ضحكة منفّرة: «يعجبني هذا. أحب التحدّي».

«قل لي شيئًا لافتًا». نظرت في عينيه ؛ طريقتي المعتادة لجعل الناس يتكلّمون.

«أنا ؟ أنا كتاب مفتوح...». نظر إلى السقف وتنهّد... «أظنك أنت من تخفين أسرارًا».

«لكل امرأة أسرارها».

«هذا صحيح، لكني أعرف أسرارك».

أحسست جفافًا في فمي، وصار لساني ثقيلًا: «ما هي؟».

«هل تريدين أن أقولها لك؟».

«قلها».

قال: «ألا تظنين أنني أعرف السبب الذي جعلك تتحدّثين معي؟ ما الذي جعلك فجأة مهتمة برجل... ماذا أقول؟... مهتمة برجل يصغرك بعشر سنين؟ أتظنّين أنني لا أعرف حقيقتك؟ أعرف أنك كنت تطرحين أسئلة عني... عن ولائي».

نظرت إلى الباب.

«لكن ما لا تعرفينه هو أن لديَّ هنا أصدقاء أكثر مما لديك».

لقد جلبت هذا لنفسي... لكني كنت ثملة مشتتة الذهن فلم ألاحظ ذلك. تحرّكت لكي أخرج من الغرفة، لكنه اعترض سبيلي. قلت: «سأصرخ».

«جيّد. سيجعلهم صراخك يظنّون أنك تنفّذين مهمتك جيّدًا».

دفعته لكي يبتعد، لكنه دفعني. اصطدم رأسي بالقضيب المعدني الذي في الخزانة صدمة فاجأتني قوتها. وقبل أن أستطيع التحرك، التصق جسده بجسدي وضغط بفمه على شفتي بقوة شديدة فأحسست بطعم الدم عندما ترك فمي. حاولت دفعه عني، لكنه فعلها من جديد وأقحم لسانه في فمي. حاولت ضربه بين ساقيه بركبتي، لكنه أطاح بساقيَّ الاثنتين من تحتي. سقطت إلى الأرض، سقط فوقي.

حاولت النهوض، لكنه رفع يديَّ إلى ما فوق رأسي وثبتهما بيد واحدة. صرخت، لكن صرختي غرقت في ضجيج الناس في الخارج عندما راحوا يعدّون الثواني قبل منتصف الليل. ثلاثون! سمعت صوت تمزّق فستاني. «هذه هي مهمتكِ، أليس كذلك؟ هكذا يستخدمونك». ثلاثٌ وعشرون! بصقت عليه فمسح البصقة عن وجهه معتصرًا ابتسامة تمنّيت معها لو أن في يدي حجرًا أضربه به. ضغط بجبهته على جبهتي. أربع عشرة!... «إذًا، الإشاعات الأخرى صحيحة أيضًا...». كانت أنفاسه حارّة، حامضة الرائحة... «أنت مثليّة. تخيّلي إن عرف الناس هذا». ثلاث ثوان! ثانيتان! ثانية واحدة!

هتف الناس المحتشدون في المطعم: «سنة جديدة سعيدة!». وبدأت الفرقة تعزف أغنية

«أولد لانغ ساين». أغمضت عينيَّ وتذكّرت «قرص الانتحار» الذي كان من ضمن «مجموعة مستلزمات الطوارئ» أثناء خدمتي في كاندي - قرص أبيض بيضوي الشكل ضمن غلاف زجاجي مغطى بطبقة مطاطية بنية اللون. عند الضرورة، يكون علينا أن نعض على القرص فيتحطم الزجاج وينتشر السم. وعند انتشار السم، يتوقف القلب بعد دقائق معدودة: موت سريع يفترض أنه غير مؤلم. في تلك الأيام، لم أفكّر أبدًا في أن من الممكن أن أقع أسيرة في مكان بعيد عن ميدان المعركة هذا البعد كلّه.

تركني في تلك الخزانة. لم أفكر في النهوض. لم أفكر في الزحف خارج الغرفة. لم أفكّر في طلب المعونة. لم أرغب في التفكير في أي شيء. أردت أن أنام.

عاد حاملًا معطفي، وساعدني في الوقوف على قدميَّ. كان أندرسون وزوجته موشكَين على الانصراف عندما مررنا بغرفة المعاطف، خارجَين إلى الشارع. هنري في المقدّمة، وأنا من خلفه سائرة بخطوات مترنّحة. لكن أندرسون لم يقترب مني، ولم يتمنَ لي سنة جديدة سعيدة، ولم يقل أي شيء. نظر إلى زينة وجهي المضطربة، وإلى فستاني الممزق، ولم ينطق بكلمة واحدة. لقد كان هنري محقاً. لم أكن شيئًا في نظرهم. حتى أندرسون لم يستطع النظر إليَّ. لم أكن زميلتهم، ولم أكن ندًّا لهم. وبالتأكيد، لم أكن صديقة لهم. كانوا يستخدمونني، كلّهم. كانوا يستخدمونني طيلة الوقت. فرانك، وأندرسون، وهنري، والجميع. وكنت واثقة من «أنهم سيواصلون استخدامي إلى أن ينتهي العسل».

وضعني هنري في سيارة، وقبّل خدي مثلما يفعل أي رجل مهذّب. وقال للسائق أن يقود السيارة بانتباه.

رافقني السائق حتى الباب. صعدت السلم إلى شقّتي متمسّكة بالدرابزين. كنت لا أزال أحسّه، وأشم رائحته.

وكانت الشقة لا تزال باردة. نصف زجاجة الشمبانيا لا يزال على الطاولة الزجاجية الصغيرة، وإلى جانبه الورق المعدني الفارغ الذي كان على شكل بجعة. الحذاء الذي جرّبته مع فستاني لكني لم أستخدمه، كان باقيًا على الأرض أسفل المرآة الطويلة. وكانت بطاقة عيد الميلاد التي وصلتني من إيرينا لا تزال على الرف، وحيدة.

خلعت حذائي، مسحت الزينة عن وجهي. خلعت فستاني. وقفت في حوض الاستحمام.

وتركت الماء الحار ينسكب على جسدي. ثم استلقيت في الفراش ونمت - نمت طيلة ذلك اليوم، وطيلة الليل الذي تلاه.

وعندما استيقظت، ذهبت إلى الحمام وجثوت إلى الأرض الباردة، ست بلاطات ابتداء من الجدار. أدخلت ظفري تحت البلاطة السائبة. انكسر الظفر الأحمر. قضمت بأسناني الجزء الذي انكسر من ظفري، وانتزعت البلاطة من مكانها. استخرجت البطاقة. عليها العنوان.

قلّبت البطاقة وفكرت في إيرينا. وددت أن أتذكّر كل شيء. وددت أن أصنف كل شيء، ثم أحتفظ بذكرياتي عنها حتى أستطيع العودة إليها في المستقبل، حتى أحميها من تأثير الآخرين، حتى أحميها من تشوّهات الزمن البشعة، حتى أحميها من الشخص الذي عرفت أن عليَّ أن أكونه.

لن تكون لي فرصة للتراجع بعد أن أجري تلك المكالمة. الشخصية المزدوجة تسمية خاطئة: لا تستطيع المرأة الواحدة أن تصير امرأتين. الصحيح هو أنها توجد في عالمين اثنين، لكنها لا تكون موجودة كلّها في أي عالم منهما.

تذكّرت رؤية إيرينا في مقهى رالف: كيف كانت جالسة عند حافة المقصورة، نصف ساقيها في الممر، عندما أدارت رأسها في اتجاهي أول مرة. تذكّرت العلكة الوردية المزدوجة التي اشترتها في محطة الوقود في ليسبرغ عندما كنا ذاهبتين إلى معصرة نبيذ فوجدناها مغلقة. تذكّرت كيف ذهبنا لنركب المزلجة ليلة أول هطول للثلج في فورت رينو، أعلى نقطة في المقاطعة. تذكّرت كيف تردّدت عندما التقيتها في تينليتاون وكانت معها صينيتان خضراوان أخذتهما من كافتيريا الوكالة حتى نجلس عليهما ونتزلق على الثلج. أشرت إلى حذائي، وقلت لها إنني لا أستطيع. تذكرت كيف تمنّعت عندما قالت لي أن أجرّب الأمر، مرة واحدة. وتذكّرت إحساسي بالريح في وجهي عندما اندفعنا نازلتين منزلقتين على سفح التل المتجمد.

تذكّرت عندما جرينا إلى متجر «سيفواي» قبل عشر دقائق من إغلاق أبوابه؛ جرينا باحثتين عن كيك عيد ميلاد. لم يكن ذلك يوم ميلادي، ولا يوم ميلادها. لكن إيرينا أصرت على شراء الكيك؛ بل إنها طلبت من الخباز الذي كان قد خلع مئزره قبل انصرافه، أن يكتب اسمي على الكيك بالكريما الزرقاء، وأن يضع بعده إشارة تعجب.

تذكّرت عندما كنا في «كريفلي بوينت» نراقب الطائرات في مطار ناشيونال... كيف اختبأنا معًا تحت بطانية عندما انبثق شعاع ضوء في البعيد... كيف كان صوت محرّكات الطائرات

يعلو ويعلو إلى أن تظهر فوق رؤوسنا... وكيف كانت تبدو قريبة إلى حد يجعلنا نظن أننا يمكن أن نلمس بطونها إذا رفعنا أيدينا.

وددت أيضًا تذكّر ذلك الصباح في شقتي بعد أن مارسنا الحب... عندما انفكّ كل شيء مثلما ينفكّ خيط من كنزة صوف. ثم ذهبَتْ. وبعد ذهابها، مضيت إلى خزانتي التي خبأت فيها هدية اشتريتها لها: صورة عتيقة لبرج إيفل. بعد أن شاهدنا فيلم «فَنْي فيس» قالت لي إن علينا أن نذهب معًا إلى باريس في يوم من الأيام. كان البرج الصغير في الصورة في حجم راحة يدي، وكانت خطوطه الدقيقة مرسومة برأس إبرة مغموس بالحبر. وضعت لها إطارًا وغلّفتها بورق مقوّى، ثم ربطتها بشريطة حمراء. لقد اعتزمت تقديمها لها هدية في عيد الميلاد، لكنها ظلّت في أعماق خزانتي.

أمسكت البطاقة بيدي. حفظت العنوان، ثم أشعلت عود ثقاب ورحت أنظر إلى لهبها.

الفصل السادس عشر
ناقلة الرسائل

كانت «حديقة الأسقف» خالية؛ وبوابتها الجانبية غير مقفلة. ألقت الأشجار العارية ظلالًا سوداء على الكاتدرائية الوطنية المُنارة. كانت النافورة التي عليها تماثيل الملائكة مقفلة استعدادًا للشتاء، مع بقاء قطرات متواصلة لوقاية الأنابيب من التجمّد. صارت أجمات الورد الشهيرة في هذه الحديقة كتلة أشواك.

كانت ثلاثة مصابيح من المصابيح المنشورة على امتداد الممر المحاذي للجدار محترقة، «قالوا إنها محترقة»، لكن القمر كان بدرًا، وكانت أنوار الكاتدرائية قريبة من الحديقة، فلم أجد صعوبة في السير في ذلك الممر واجتياز القوس الحجري لأصل إلى المقعد الخشبي تحت أطول شجرة صنوبر هناك.

أزحت الطبقة الرقيقة من الثلج وأوراق الصنوبر الإبَريّة اليابسة، ثم جلست. حركة مفاجئة خلفي جعلت الشعر أسفل رقبتي من الخلف ينتصب متأهبًا. لا شيء. هل تبعني أحد؟ نظرت من جديد: قنديلان أصفران معلّقان في موضع مرتفع من الشجرة الطويلة. بومة جاثمة على غصن بدا أصغر كثيرًا من أن يستطيع حملها. أمالت البومة رأسها باحثة في الحديقة عن فأر أو سنجاب عاثر الحظ. كانت مخلوقًا ملكيًا؛ وكانت جالسة هناك، على عرشها، مستعدّة

لإصدار الحكم وتنفيذه بنفسها. لم تعرني أي اهتمام (مجرّد إنسان عادي) أثناء انتظارها الصبور إلى أن تظهر لها وجبة عشائها. العمل وفق الغريزة وحدها نعمةٌ حظيت بها الحيوانات ؛ فكم تكون الحياة أكثر بساطة لو أن البشر يفعلون الشيء نفسه. طقطق الغصن عندما نقلت البومة ثقل جسدها من ساق إلى أخرى. وبرفّة من جناحيها ، ارتفعت طائرة من فوق جدار الحديقة. لم أدرك أنني كنت حابسة أنفاسي إلا بعد أن اختفت.

أنزلت قفازي الأحمر قليلًا ونظرت إلى ساعتي: السابعة وست وخمسون دقيقة. ينبغي أن يصل تشوسر بعد أربع دقائق. إذا تأخّر ، فعليّ أن أغادر المكان على الفور وأستقلّ الباص رقم عشرة إلى ديبورت سيركل. وأما إذا جاء في وقته ، فسوف أستلم منه رزمة صغيرة فيها لفافتا مايكروفيلم عليهما رواية «دكتور جيڤاكو» في نسختها الروسية الأصلية. وبعد ذلك أذهب بالباص رقم عشرين لكي أوصل الرزمة إلى بيت آمن في شارع آلبيمارلي.

بدأ تساقط الثلج. رحت أنظر إلى ندفاته المتراقصة تحت الأنوار الكاشفة المسلّطة على الكاتدرائية. بدأت أشعر تنميلًا في فخذي مثلما يحدث كلّما بردت ، فشددت حزام معطفي الطويل المصنوع من وبر الجمل ، إنه المعطف التي أصرّت سالي على شرائه من أجلي عندما لاحظت حرق سيجارة على سترتي الشتوية القديمة - هدية صغيرة من رجل اصطدم بي في الباص! خلعت قفازي الجلدي الأحمر ، ونفخت هواء ساخنًا في قبضتي يدي المكوّرتين. وعندما فتحت أصابعي ، انزلق خاتم الخطبة وسقط على الرصيف الحجري. كان كبيرًا على إصبعي ، ولم أذهب لكي أضبط مقاسه. لكنه كان خاتمًا جميلًا. تلقّى تيدي هذا الخاتم من جدته عندما كان صبيًا. قالت له إن المرأة التي سيحبّها بقية حياته ستضعه في إصبعها ذات يوم. يتذكّر كيف قال لها إنه لن يتزوج أبدًا - سيكون شديد الانشغال بمقاتلة النازيين ، مثل كابتن أميركا(27). ربّتت جدته على رأسه وقالت: «انتظر فقط».

روى تيدي هذه القصة قبل أن يركع على ركبتيه في بيت أبويه بعد يوم من عيد ميلادي الخامس والعشرين... تمامًا قبل تقديم قالب حلوى توت العلّيق. بدلًا من النظر إلى تيدي ، نظرتُ إلى أمي فرأيتها تشعّ اعتزازًا لم أره قبل ذلك أبدًا. ثم نظرت إلى والديه الجالسين إلى الناحية الأخرى من الطاولة مبتسمين كأن طفلهما الصغير قد بدأ يخطو خطواته الأولى. ثم نظرت إلى تيدي وأومأت برأسي موافقة.

كان خاتمًا جميلًا ، لكني كرهت وضعه. كان وضع ذلك الخاتم يجعلني أشعر كأنني متنكّرة.

كنت أعرف أن ما أريده حقًّا شيئًا مستحيلًا. لكني أردته. أردت الإثارة، والبيت، والمغامرة، وما هو متوقّع، وما هو غير متوقّع. أردت التناقضات كلّها، والمتضادّات كلّها. أردتها كلّها معًا.

ولم أكن قادرة على انتظار أن يلحق واقعي برغباتي. كانت تلك الحاجة هاجسي الدائم، وكانت التيار العصبي الخفي الذي يجعلني أبالغ في تحليل كل حديث وأضع كل قرار موضع تساؤل - كانت منبع أحاديث لا تنتهي في رأسي تتركني ساهرة في الليل أستمع إلى شخير أمي الخفيف من خلف الجدار الرقيق الفاصل بين غرفتينا.

وكنت أعرف الأسماء التي يطلقها الناس على ذلك: شيء بغيض، شذوذ، قلة أخلاق، فساد، خطيئة. لكني لم أكن أعرف ما أسمّيه... ماءسمّينا ؟

لقد جعلتني سالي أرى عالمًا كنت أعرف أنه موجود خلف أبواب مغلقة. لكنّي لم أحسّه عالمي، لم أحسّه واقعي. كل ما كنت أعرفه هو أنني لم أر سالي منذ الليلة التي أمضيتها في شقتها قبل أسبوعين وثلاثة أيام. وكنت أعرف أنني لم أمض ساعة يقظة واحدة من غير تفكير فيها طيلة أسبوعين وثلاثة أيام.

التقطت الخاتم عن الأرض، وأعدته إلى إصبعي في اللحظة التي قرعت فيها أجراس الكاتدرائية ثماني مرات. ظهر تشوسر بعد الجرس الأخير، تمامًا مثلما كان مخططًا. لم أسمع صوتًا، لا صوت فتح البوابة، ولا صوت الخطوات. وصل صامتًا كالثلج، مرتديًا معطفًا أسود طويلًا وقبعة لها لسانان يغطيان أذنيه. ذكّرني تعبير وجهه الغريب وقبعته المضحكة بكلاب الباسيت. قال لي: «مرحبًا، يا إيليوت».

«مرحبًا، يا تشوسر».

«ليلة جميلة من أجل نزهة». كان وضوح اللفظ المميز لأبناء الطبقة العليا اللندنية يقطر من لكنته.

«صحيح».

ظلّ واقفًا، ومرّت لحظة صمت بيننا. لم يأت بأية حركة لمناولتي الرزمة، بل التفت ونظر إلى الكاتدرائية. قال: «بناء جميل. أنتم الأميركيون تحبّون جعل المباني الجديدة تبدو قديمة المظهر».

«أظنّ هذا».

«تأخذون هذا وتأخذون ذاك من البلد القديم وتجمعوهما معًا، ثم تضعون عليهما خاتمًا

أميركيًا ، أليس هذا صحيحًا ؟».

لم أكن راغبة في مجادلته ، ولم أفهم السبب الذي جعله راغبًا في مجادلتي. لعل هذا ما يفعله الرجال عندما يلتقون على هذا النحو. لكني لا أملك وقتًا من أجل الإكثار من هذه الثرثرة الذكية. لديَّ عمل ينبغي إنجازه.

بدا مجروحًا لأنني لم أجبه. فمد يده في جيب معطفه ، وناولني رزمة صغيرة ملفوفة بصحيفة. وضعت الرزمة في حقيبة يدي الشانيل.

«فلنفعل هذا مرة أخرى في وقت ما». رفع يده إلى قبعته وظل واقفًا هناك حتى انصرفت.

لم يخفت وقع الإثارة أبدًا - مثل لحظة بلوغ عربة الملاهي المنزلقة أعلى مسارها وتوقّفها لحظة وجيزة قبل أن تترك الجاذبية الأرضية تشدها إلى أسفل. سرت حتى زاوية شارعي ويسكنسن وماساشوستس. لكني لم أصعد إلى الباص رقم عشرين مثلما كان مفترضًا أن أفعل. بل سرت مسافة عشرين دقيقة إلى ذلك البيت الكبير ذي الطراز التيودوري ، رقم 3812 في شارع آلبيمارلي. إذا كنت غير قادرة على نيل كل ما يتمنّاه قلبي ، فإن لدي تلك اللحظة ، على الأقل ، وذلك الإحساس. أحببت أن أستمتع به أطول فترة ممكنة.

بعد إسقاط الرزمة في صندوق بريد البيت الآمن ، واصلت سيري نازلة إلى جادة كونكتيكت حيث أخذت الباص إلى تشاينا تاون.

استقبلني جدار من هواء دافئ ورائحة أرز مقلي عندما دخلت مطعم «جولي لاك نودل». أشار المضيف إلى طاولة في الخلف كانت سالي جالسة إليها تسكب لنفسها فنجان شاي حار من غلاية معدنية صغيرة تحتها مصباح الشاي المتراقص الذي يحافظ على حرارتها. لم تلاحظ دخولي ؛ وعندما التقت أعيننا ، أحسست بتلك الآهة الداخلية التي أعرفها جيدًا.

أسبوعان وثلاثة أيام منذ آخر مرة رأيتها - منذ اليوم الذي أخبرتها فيه بخطبتنا ، أنا وتيدي ، منذ الليلة التي مارسنا فيها الحب. في تلك الليلة كان إحساسي أنني تغيّرت ، من الداخل إلى الخارج ، فصرت فتاة واثقة في كل شيء تفعله ، فتاة لا تضع موضع التساؤل كل فكرة تأتيها وكل حركة تقوم بها. لكن رؤيتي لها جالسة هناك جعلتني راغبة في الانسحاب إلى الحمام ريثما تهدأ أعصابي. استرخيت لحظة عندما ابتسمت لي سالي ابتسامتها المعهودة وأنا أخلع معطفي وأعلّقه على الكرسي. بدت جميلة كعادتها ، باستثناء طبقة الكريم الكثيفة التي وضعتها لتغطي الجيوب التي تحت عينيها. كانت على رأسها عمامة حريرية خضراء مزركشة ، لكن

أطراف خصلات شعرها الأحمر المتسلّلة عبرها بدت لي مشعّثة ، غير مغسولة. وعندما تناولت فنجان الشاي ، لاحظت ارتعاش يدها.

سألتني مستخدمة لغتنا المرمَّزة الخاصة بنا: «متعبة ؟ أم جائعة ؟».

أجبتها: «جائعة. وأريد شرابًا».

لم نكن نتحدّث أبدًا في تفاصيل مهماتنا ، لكن كلمة «متعبة» كانت تعني أن الأمر لم يجر على نحو حسن ؛ وكان معنى «جائعة» هو أن كل شيء قد تم على ما يرام. وأما «أريد شرابًا» فلم تكن تعني إلا أنني أريد شرابًا.

أشارت إلى النادل لكي يحضر لنا كأسَي ماي كاي. قالت: «استبقت وصولك وطلبت لنا دجاجًا بالكاجو وأرزًا مقليًا مع الأناناس».

«ممتاز».

خلعت القفازين ووضعتهما على الطاولة. اتّجهت عينا سالي صوب يدي اليسرى قبل أن تبعد نظرها. تركتِ الصمت يطول قليلًا - حيلة قديمة أظنها نسيت أنها أخبرتني عنها... شيء تعلّمته سالي أثناء الحرب حتى تجعل الناس يبدأون الكلام. لقد قالت لي وقتها: «يفعل الناس أي شيء لملء فترة صمت غير مريحة». أخذت رشفة من كأس الماي كاي ، وتذكّرت أن سالي قدّمت لدعوتي لهذا العشاء المتأخر بالقول إن علينا أن نتكلّم. لم يشغل ذلك بالي وقتها ، لكني صرت الآن غير قادرة على التفكير في أي شيء غيره.

«هل أردتِ أن تقولي لي شيئًا ؟». أخرجت المظلة الزرقاء الصغيرة من كأسي ووضعت في فمي حبة الكرز التي كان مغروسًا فيها سيفٌ صغير.

«لا شيء مهمًا». قالت هذا وأخذت رشفة من كأسها منتبهة إلى عدم إفساد أحمر الشفاه... «أردت أن أعرف كيف أمضيت ليلة رأس السنة ؟».

«انزلقت مرتين على منحدر التزلج المخصّص للمبتدئين ، ثم اكتفيت من ذلك. أمضيت الشطر الأكبر من الليلة في الفندق الجبلي أشرب الكاكاو الحار وحدي».

«أظن أن تيدي متزلّج ماهر. إنه من أولئك الناس الرياضيين بطبعهم». نادرًا ما تذكر سالي تيدي. وبالتأكيد ، لا تمتدحه أبدًا.

«أظن هذا».

«لا بأس ، كانت سهرتي في رأس السنة جميلة كما تكون دائمًا...». أخذت رشفة طويلة

أخرى، وأضافت... «ذهبت إلى حفلة. رقصت طيلة الليل. أكثرت من الشرب قليلًا... تعرفين كيف يجري الأمر».

بدت كأنها تعاقبني. قلت: «يبدو هذا رائعًا».

أتى النادل بالدجاج الذي طلبته سالي. ومن جديد، كنت شاكرة لأن مجيء الطعام أتاح فرصة للسكوت. أكلت سالي بعودَيّ الطعام الصينيين مثلما يأكل المحترفون. تناولت الشوكة وغرستها في قطعة أناناس.

بعد أن رفع النادل طبقينا، أخذت سالي نفسًا عميقًا ثم قالت لي بسرعة كبيرة إننا لم نعد قادرتين على اللقاء، وإنها تشكرني على الوقت الذي أمضيناه معًا وعلى صداقتي، لكن من الأفضل لكلتينا أن تمضي كل منا في سبيلها. قالت إنها ستكون منشغلة كثيرًا بعملها ولن يتاح لها أصلًا وقت للعلاقات الاجتماعية.

كانت كلماتها مثل ركلات تصيب بطني... تضربه مرة بعد مرة... ولم تنته من كلامها إلا وقت صرت شبه عاجزة عن التنفس. لسعتني كلمة «صداقة» أكثر من أي شيء آخر. أنهت كلامها بالقول: «وبالطبع، سنحافظ على علاقتنا المهنية في العمل». أحسست بأنها أرادت قول المزيد، لكنّها لم تضف شيئًا بعد ذلك.

كررت من خلفها: «مهنية».

«يسرني أنك موافقة». كانت لا مبالاتها قاسية. أردت القول لها إنني غير موافقة. لا، لست موافقة... أردت أن أصرخ بهذا. أصابتني بالغثيان فكرة أنني لن أمضي وقتًا معها بعد الآن، وأن عليَّ أن أتعامل معها تعاملًا مهنيًا، وأن أتظاهر بأن ما من شيء كان بيننا. وددت أن أقول لها إنني أفضّل السير حافية القدمين فوق أسلاك شائكة على أن أثرثر معها بكلمات مهذَّبة إن التقينا في المصعد. وددت أن أسألها كيف استطاعت... كيف كان سهلًا عليها هذه السهولة كلّها أن تنهي الأمر كأنها تضغط على مفتاح.

لكني لم أقل لها شيئًا. لم أدرك إلا بعد أن نهضتُ واقفة، بعد أن اصطدمت ركبتاي بحافة الطاولة فانسكب الماي كاي الوردي على مفرشها، بعد أن استدرت لكي أذهب، بعد أن سمعتها تقول للنادل إنني لست في حالة جيدة، بعد أن اندفعت خارجة من المطعم، بعد أن انقلب سيري جريًا... لم أدرك إلا بعد ذلك كلّه أن صمتي كان موافقة أيضًا.

(27) كابتن أميركا: شخصية قصصية خيالية ظهرت خلال الحرب العالمية الثانية.

الفصل السابع عشر
ضاربات الآلة الكاتبة

كانت لدينا تخمينات كثيرة حول إيرينا عندما بدأت عملها في الوكالة ، ثم تأكدت شكوكنا بعد فترة قصيرة من إطلاق القمر الصناعي سبوتنيك لأن غيل رأت اسمها في مذكرة متعلّقة بمهمة «دكتور جيڤاكو». لم نسمعها تنطق كلمة واحدة عن عملها بعد ساعات العمل الرسمية ؛ ولم نسألها أبدًا. فمثلما يفعل أي «ناقل رسائل» يتقن عمله ، لم تقل إيرينا شيئًا عن الأسرار التي كانت تنقلها. مع هذا كله ، لم يطل بنا الأمر قبل أن نكتشف التتمة.

ما جعل إيرينا متميّزة ضمن مجموعة الطباعة هو ، بالضبط ، أنها لم تكن متميّزة في مجموعة الطباعة. فعلى الرغم من المكوّنات المتفوقة التي تؤلّف مظهرها الجسدي ، كانت لديها قدرة على ألا تلفت الانتباه إليها. ظلّت قادرة على «الطيران تحت راداراتنا» حتى بعد سنة من انضمامها إلى الوكالة. نقف في حمام السيدات ونضع أحمر الشفاه فنجفل عندما تأتي من خلفنا وتقول لنا إن ذلك اللون الوردي لطيف جدًا في الربيع. أو نكون جالسات في مقهى مارتين ونرفع نخبًا فتقرع كأسها بكؤوسنا بعد أن تظنّ كل منا أنها قرعت كأسها بكؤوس الجميع. وفي الكافتيريا ، وقت الغداء ، تنهض وتقول إن عليها أن تعود إلى العمل فتفاجئنا لأن أيًا منا لا تتذكّر جلوسها معنا أصلًا.

لكن موهبتها في ألا يلاحظها أحد لم تبقَ من غير ألا يلاحظها أحد. وقد كانت حقيقة موت والدها على يدي الوحش الأحمر رصيدًا كبيرًا لها. بعد قدر من التدريب ، صعدت مذكرة داخلية عبر مستويات المديرين ، فتقرّر إطلاق إيرينا إلى الميدان. وقد كانت ماهرة في عملها.

اقتصرت مهمات إيرينا الأولى على نقل رسائل داخلية ضمن المدينة ؛ لكنها أثبتت جدارتها فراحوا يكلّفونها بمهمات متزايدة الأهمية. كانت تلك الليلة الباردة من ليالي شهر كانون الثاني في حديقة الكاتدرائية بداية عملها في مشروع «دكتور جيڤاكو».

بعد خروجها من مقرّ القيادة ذلك المساء ، استقلّت الباص رقم خمسة عشر حتى زاوية شارعي ماساشوستس وويسكنسن ، ثم سارت في شارع آلبانيز سكول حتى بلغت المدخل

الخلفي لحديقة الكاتدرائية. ومن هناك ، دخلت الحديقة عبر بوابة حديدية جانبية.

من المرجح أن إيرينا كانت مرتدية معطفها الجديد المصنوع من وبر الجمل ، ذلك المعطف الذي له ياقة بنية ؛ ومعه قفازاها الجلديان الأحمران اللذان كانا هدية من تيدي. أرتنا إيرينا القفازين بعد أن تلقتهما بيوم واحد. سألتنا وهي تحرّك أصابعها فيهما أثناء وقوفنا في الصف من أجل تفتيش قبعاتنا ومعاطفنا وحقائبنا عند دخولنا إلى المقر: «أليسا جميلين ؟ صغيران قليلًا ، لكنهما سيتسعان». أكدنا لها جميعًا أنهما «شيك» وأن تيدي صاحب ذوق رفيع. قلنا هذا كلّنا عدا سالي فورستر التي ألقت نظرة واحدة وقالت إنهما مقلّدان.

خاتم إيرينا الماسي الجديد مختف تحت قفازها. الخاتم الذي قدّمه تيدي لها بعد يوم واحد من عيد ميلادها الخامس والعشرين. كان قطعة فاخرة من صنع «آرت ديكو» عليه ماسة فاجأنا حجمها. كنا نعرف أن تيدي من عائلة ثرية ، لكننا لم نعرف أبدًا أنها عائلة ثرية إلى هذا الحد. إلا أن الخاتم المدهش كان كبيرًا على إصبعها ، وكان لا بد لها من تصغيره. كانت تضعه ، خلال ساعات العمل ، في درج طاولتها حتى لا يسقط من يدها في آخر النهار. لو كان هذا الخاتم لواحدة منا ، لضبطت مقاسه منذ اليوم الأول. لكن إيرينا لم تكن من النوع الذي يحب المباهاة.

كان زواج أية فتاة من مجموعة الطباعة يثير دائمًا مناقشات كثيرة بيننا ؛ لكن إيرينا لم تبدِ أي اهتمام بمناقشة زواجها.

سألتها غيل: «هل ستعودين إلى العمل بعد الزفاف ؟».

«لماذا لا أعود ؟».

سألت كاثي: «ما هي أفكارك عن فستان الحفلة ؟».

أجابت إيرينا: «أظنه سيكون فستانًا جميلًا».

عرفنا أن والدة إيرينا كانت تخطّط لليلة الكبيرة ، وأنها تريد الاستفادة منها لكي تمحو آخر آثار أصلها الروسي من خلال إقامة عرس أميركي إلى أقصى حد. قالت إيرينا لنا: «تريد أن تضع على كل طاولة مزهرية فيها ورود حمراء وبيضاء وزرقاء(28). وسوف تتولّى بنفسها تلوين الورود بالأزرق.

جمعنا من كل فتاة دولارًا حتى نشتري لها هدية الخطبة التي كانت قميص نوم أسود من متجر هاتشت. غلّفنا قميص النوم بورق فضي اللون ووضعناه على طاولة مكتبها قبل وصولها.

وعندما جلست ، أمسكت الحزمة ونظرت من حولها ، لكننا تظاهرنا بأننا منهمكات في عملنا. مزّقت الغلاف قليلًا عند الزاوية فانبثق من الثقب شريط حريري. حاولت إيرينا إعادة الشريط إلى مكانه ، لكن محاولتها أدت إلى زيادة تمزق الغلاف. بدأت تبكي. تجمّدنا جميعًا ، ولم نعرف ما ينبغي لنا فعله. كانت من القواعد الذهبية لدى ضاربات الآلة الكاتبة ألا تدع أيّ منا أحدًا يراها باكية. كنا نبكي ، بالطبع ، كلّنا... لكننا نبكي في عزلة عن الآخرين ، في حمام السيدات ، أو على السلم. نبكي خلف طاولاتنا! لكن ، أمام الناس!! مستحيل!

لا نعرف أن كانت إيرينا قد فكّرت في قميص النوم الأسود وهي جالسة في انتظار وصول تشوسر في تلك الليلة في حديقة الكاتدرائية. ولا نعرف إن كانت تلك الليلة بداية تزعزع ثقتها. أو... لعلّ إعادة النظر كانت قد بدأت قبل ذلك... قبل وقت طويل من قميص النوم ، وقبل أن يطلب تيدي يدها ، وقبل أن يقول لها إنه يحبها عندما كانا في نزهة من حول «حوض المد» بين أشجار الكرز المتمسّكة بآخر أزهارها الوردية الباقية من فصل الربيع.

يصعب القول. لا نستطيع معرفة كل شيء.

لكننا نعرف أن تشوسر وصل في موعده. وأن إيرينا أخذت لفافتي المايكروفيلم اللتين كانت فيهما رواية «دكتور جيڤاكو». ونعرف أيضًا أنها صعدت إلى الباص رقم عشرين متجهة إلى تينليتاون حيث أوصلت الرزمة إلى البيت الآمن في شارع آلبيمارلي.

اكتملت المرحلة الأولى من المهمة ؛ وكان لإيرينا جزء من الفضل في ذلك. هنأ الرجال أنفسهم على عثورهم على هذه الثروة غير المتوقّعة. لكن من طوّر مواهب إيرينا لم يكن رجلًا: سالي فورستر هي من فعلت ذلك.

من الناحية الرسمية ، كانت سالي موظفة استقبال تعمل بدوام جزئي ؛ لكن اكتشاف أن دورها أكبر من ذلك كثيرًا لم يكن في حاجة إلى عبقرية. فبعد وقت قصير من ظهورها في المقر مع أندرسون ، اكتشفنا أن من المعروف على نطاق واسع بين «من يعرفون» أن سالي كانت «سنونو» ؛ وأنها كانت تطير هنا وهناك منذ أيام عملها في «مكتب الخدمات الاستراتيجية». خلال الأوقات التي لا تكون فيها جالسة خلف مكتب الاستقبال (أي خلال معظم الأوقات) ، كانت سالي ترتحل في العالم مستخدمة «مواهبها» للحصول على معلومات. وعلى العكس من إيرينا ، لم تكن سالي قادرة أبدًا على ألا تلفت الأنظار إليها. كان كل شيء فيها يصيح «انظروا إليَّ! انظروا إليَّ! أنا من ينبغي أن ينظر العالم إليها!». كانت تقص شعرها

على الطريقة الإيطالية -خصل حمراء متموجة ناعمة من حول وجه على شكل قلب- وكان قوام جسدها كأنه موشك على تمزيق تنانيرها وفساتينها الصوفية الضيقة. ثم إنها كانت دائمة المبالغة في ملبسها: فساتين فاخرة هفهافة صارخة الألوان، وأوشحة من الساتان الأبيض. ومعطف من جلد الأرانب قالت الشائعات إنه كان هدية من دولز نفسه.

لقد علّم أحد الرجال إيرينا كيف تستلم رزمة من عابر سبيل في شارع «كي» خلال ساعة الزحام، وكيف تتابع سيرها من غير التفات خلفها؛ وكيف تترك كتابًا مفرغًا من الداخل تحت مقعد في حديقة ميريديان هيل وتنصرف من غير أن يقفز أحد صائحًا، أنت، يا آنسة، لقد نسيت كتابك. وكيف تدسّ ورقة في جيب رجل جالس إلى جوارها في لونغ تشامبس. كانت سالي هي من أتمت تدريبها. لا نعرف محتوى ذلك التدريب، لكنا رأينا تغيرًا في إيرينا. صارت تبدو أكثر قوة، كأنها تحولت إلى امرأة يمكن الاعتماد عليها حقًا. باختصار، صارت أشبه بسالي.

مهما يكن الأمر، فقد جعلت إيرينا مدرّبتها تفخر بها. وسرعان ما صارتا أكثر من زميلتين... صارتا صديقتين. بدأتا تجلسان إلى طاولة منفصلة في الكافيتريا وقت الغداء. وصارتا تذهبان إلى «أوف ذا ريكورد» بدلًا من مقهى مارتين. وصارتا تأتيان إلى العمل أيام الاثنين وتتبادلان عبارات مستمدّة من أفلام من قبيل «جوارب حريرية» أو «وجه غريب» أو «ذكرى علاقة غرامية». تعود سالي من واحد من أسفارها، فتضع على مكتب إيرينا أشياء صغيرة جلبتها لها: قناع نوم من طائرة بان أميريكان، أو كولونيا برائحة الخزامى من فندق ريتز، أو قطعة معدنية صغيرة من واحدة من تلك الآلات في الشارع في أتلانتيك ستي، أو قُبة الثلج من إيطاليا.

قبة زجاجية (أو بلاستيكية شفافة). ويكون فيها مجسَّمات لبيوت أو أشجار، إلخ. وتكون مملوءة ماءً فيه شيء يشبه ندفات الثلج. إذا هززتها، يصير لديك منظر ثلج يهطل فوق البيوت أو الأشجار. طبعًا، نعرفها جيدًا، كلنا. لكن، ما اسمها؟ لا أدري! إن كان لديك حل فأنا موافق سلفًا.

ثم جاء عيد ميلاد إيرينا الخامس والعشرين، فأقامت لها سالي حفل عشاء. لم نذهب إلى شقة سالي قبل ذلك الوقت -شقة من غير مصعد فوق مخبز فرنسي في جورجتاون فيها غرفة نوم واحدة- فاغتنمنا الفرصة عندما وضعت سالي على مكاتبنا بطاقات الدعوة ذات اللون الأزرق البحري. نأمل حضوركم إلى الاحتفال المقام بمناسبة عيد ميلاد صديقتنا العزيزة

إيرينا... هذا ما كان مكتوبًا باليد، بخط زخرفي فضّي اللون، على تلك البطاقات.

سألنا سالي إن كنا نستطيع المجيء مع أصدقائنا، فقالت إنها حفلة لنا فقط، للفتيات. قالت ضاحكة: «بهذه الطريقة، ستكون أكثر تمدّنًا».

ارتدينا أفضل ملابس السهرة التي لدينا، وذهبت كثيرات منا إلى متجر غارفينكل من أجل هذه المناسبة. قالت جودي: «إنها حفلة العشاء التي تقيمها سالي فورستر. لا تذهب الفتاة إليها مرتدية نسخة مقلّدة من واحد من فساتين ديور من السنة الماضية. ثم إننا نستطيع ارتداء هذه الفساتين مرة ثانية في احتفال رأس السنة».

ذهبنا بسيارات تاكسي بدلًا من الذهاب بالباص أو بالترام، وذلك حتى نصل نضرات الوجوه، وحتى يظل أحمر الشفاه والماسكارا سليمين على الرغم من كثافة تساقط الثلج. صعدنا إلى الطابق الثاني فسمعنا في الأعلى صوت أغنية منبعثًا من خلف الباب.

سألت غيل: «أهي أغنية لسام كوك؟».

وقبل أن ندق الباب، فتحته سالي فبدت رائعة في فستان ذهبي من الساتان يلفّ جسدها وعلى وسطها حزام له شرّابات. «حسنًا، لا تقفن هكذا!». دخلنا الشقة خلف سالي، خلف شبشبها البيتي الأسود المنزلق على السجادة الوردية السميكة.

بدت إيرينا جميلة جدًّا في تنورتها الخضراء الزمردية وسترتها القصيرة المفتوحة. تمنينا لها عيدًا سعيدًا وقدّمنا لها هدايانا الصغيرة. اختفت سالي في المطبخ، وأشارت لنا إيرينا بأن نجلس على الأريكة الجلدية البيضاء. حتى نكسر الصمت، رحنا نطرح أسئلة عن ديكور الشقة. كانت سالي منشغلة في المطبخ. فأجابت إيرينا عن أسئلتنا.

سألت نورما: «كيف عثرتْ على هذا المكان؟ شقة يموت المرء من أجلها».

«رأت إعلانًا في صحيفة البوست».

سألت ليندا: «وهذه الشمعدانات، من أين حصلت عليها؟».

«لقد ورثتها، من جدّتها على ما أظنّ».

سألت جودي: «لوحة بيكاسو هذه، هل هي أصلية؟».

«ليست إلا نسخة مطبوعة من المعرض الوطني».

قالت غيل: «ماذا أهداك تيدي في عيد ميلادك؟».

«قال لي أن أختار شيئًا يعجبني من متجر ريزيك...». شدّت عليها سترتها... «ذهبت إليه

اليوم، مع سالي».

خرجت سالي من المطبخ حاملة وعاء البنتش الكريستالي المليء بالسائل الفوار الوردي كلون السجادة... «ألا تبدو رائعة الجمال؟».

أومأنا برؤوسنا.

انتقلنا إلى ركن الطعام بعد كأسين من البنتش. طاولة كبيرة جاهزة، توزّعت عليها بطاقات مزخرفة تحمل أسماءنا، وزهرات سوسن بيضاء، ومناديل طعام من قماش مطوية على هيئة مروحة.

همست نورما: «يا له من إخراج!».

وبعد العشاء، جاء دور كيك الشوكولاته، وتقديم الهدايا، وبضع كؤوس من البنتش، ثم خرجنا من شقة سالي قائلات في أنفسنا إن هذه الأمسية كانت أكثر قليلًا من حفلة عيد ميلاد. لكننا كنا مُقِرّات بأنها تعرف كيف تقيم حفلة جميلة.

قد يقول بعضنا الآن غير هذا، لكنا لم نلاحظ أبدًا أي شيء غريب في ما يتعلق بسالي. من المؤكّد أن شدّة انتباه الجنس الآخر إليها كانت تستدعي بعض العبارات الناطقة بالغيرة منها؛ لكنا كنا نحترمها، كلنا. لم تكن سالي فتاة تقول «آسفة»، أو «من فضلك»، أو «ظننت أن...»، بل كانت تتكلّم مثلما يتكلّم الرجال. وكان الرجال يصغون إلى ما تقول. ليس هذا فحسب، بل إن عددًا منهم كانوا يخشون جانبها. لعل تلك القوة التي يفترضونها فيها كانت آتية من ضيق تنانيرها، لكن نقطة قوتها الحقيقية هي أنها لم تقبل أبدًا الأدوار التي يضعها الرجال فيها. لعلهم أرادوا منها أن تكون جميلة، وأن تطبق فمها. لكن خططها كانت غير ذلك.

في ما بعد، عندما أزيل اسم سالي من كل مذكرة، ومن كل قائمة اتصالات، ومن كل تقرير، حاولنا تذكّر إن كانت هناك أية إشارات منبئة بحقيقتها. لكننا لم نستطع تجميع أجزاء الصورة معًا إلا بعد مضي وقت طويل.

(28) ألوان العلم الأميركي الثلاثة.

الفصل الثامن عشر
حاملة الرسائل

انقضى أسبوع. ثم مر شهر ، ثم شهران. كانت خطط حفل الزفاف ماضية في طريقها. سنتزوج ، أنا وتيدي ، في شهر تشرين الأول في كنيسة سان ستيفن ، وسيعقب ذلك حفل استقبال صغير في «تشيفي تشيز كاونتري كْلَب». وسوف يصير «قناعي» حياتي.

سيغطي والدا تيدي نفقات ذلك كلّه ؛ لكن ماما أصرت على أن تكون الزهور وكعكة الزفاف وفستانه من حصتها. فمنذ ما قبل الخطوبة ، اشترت ماما المواد اللازمة للفستان - ساتان ودانتيلا بلون العاج.

وبعد أن طلب تيدي يدي بيوم واحد ، أخذت ماما مقاساتي عندما كنت أعد طعام الإفطار على الموقد. صار الفستان نصف جاهز في شهر شباط - قالت إنه سيكون أعظم أعمالها. لكنها توقفت عن العمل عليه في شهر آذار قائلة إن عليها أن تبدأ العمل من جديد إلا إذا استعدتُ خمسة عشر باوندًا فقدتُها منذ كانون الثاني. قلت لها إن هذا جنون ، وإن وزني لم ينقص خمسة عشر باوندًا... ربما خمسة باوندات ، على أكثر تقدير. ولم يحدث هذا إلا نتيجة الأنفلونزا التي أصابتني. لقد تذرّعت بأن أنفلونزا أصابتني لكي أبرّر ملازمتي السرير أسبوعًا كاملًا بعد ليلة عشائي مع سالي.

لكني لم أكن قادرة على إخفاء شيء عنها. فعلى الرغم من ارتدائي عدة كنزات ، وعلى الرغم من بنطلوناتي الصوف السميكة ، استطاعت ماما رؤية أن جسدي كان ينكمش. صار لا بد لي من تثبيت تنانيري بدبوس حتى لا تسقط عن ردفي. وصرت أرتدي كنزات سميكة مرتفعة الياقة حتى أخفي بروز عظمتي الترقوة.

استجابت ماما لهذا بأن صارت تضيف الدسم إلى كل شيء: إلى البورشت والبلميني وشرائح

لحم البقر وحساء الملفوف الروسي ؛ وكذلك إلى فطائر الدلين ، وإلى البيض المقلي. بل إنني رأيتها مرة تسكب دهنًا من المقلاة على وجبة الشوفان التي أتناولها في الصباح. كانت تصر على أن أسكب طبقًا ثانيًا من كل وجبة ، وتراقبني حتى تتأكّد من أني أنهيت ما في طبقي ، مثلما كانت تفعل في طفولتي.

وصارت تعدّ أنواعًا مختلفة من الكيك في عطلة نهاية الأسبوع قائلة إنها تجري اختبارات لكي تقرّر ما ستعدّه من أجل حفلة الزفاف... كيك بالعسل ، وبالكرز المنقوع في الفودكا ، وكيك نابوليتان ، وكيك بالشوكولاته البيضاء ، بل حتى تورتة فاتسلافسكي من طبقتين. كانت ترغمني على تناول عدة قطع من كل تجربة من هذه التجارب ، وكثيرًا ما تضيف إليها الآيس الكريم بالفانيليا.

لم تكن ماما الشخص الوحيد الذي لاحظ تضاؤل جسدي. سألني تيدي مرات كثيرة إن كان كل شيء على ما يرام. فقلت له إن ما من شيء سيكون على ما يرام إذا واصل طرح هذه الأسئلة. قال إنه لن يسألني بعد ذلك ، لكنه عبّر أيضًا عن أمله في ألا يكون نحولي ناتجًا عن أنني أجرب واحدة من أنظمة الحمية الغذائية المجنونة الجديدة. قال إنني كنت رائعة ، مثلما أنا ، فملأني صدقُ اهتمامه غضبًا لم أستطع تفسيره.

وبدورها ، لاحظت مجموعة الطباعة نحولي. سألتني جودي عن السر في ذلك ، وقالت إن وسطي صار نحيلًا مثل وسط فيرا إيلين في فيلم «عيد الميلاد الأبيض». وأما بقية فتيات المجموعة فقد فعلن مثلما فعلت ماما ، وصرن يتركن لي على مكتبي دونَتس من عند رالف.

لم تكن المشكلة أنني امتنعت عن الأكل بإرادتي... لكني فقدت شهيتي إلى الطعام ، وإلى أي شيء. صار صعبًا عليَّ أن أظلَّ جالسة في السينما إلى أن ينتهي الفيلم. وصار وجودي بين الناس عبئًا عليّ. بدأت أذهب إلى العمل سيرًا على الأقدام بدلًا من استخدام الباص... لشدة رغبتي في أن أكون وحدي. وفي الحفلات ، كففت حتى عن محاولة الدخول في أحاديث مهذّبة مع الآخرين. وحتى في لقاءات «المؤسّسة» أيام الآحاد ، حيث كنت أستمتع عادة بالسجالات والمناقشات التي تجري ، وبإحساسي أنني أسمع معلومات داخلية ، فقد صرت أفضّل البقاء مع الزوجات بدلًا من تيدي: معهنّ ، ليس عليَّ أن أتكلّم كثيرًا... يكفي أن أعبّر عن إعجابي بهذا النوع من الحلوى ، أو ذاك.

كان تيدي يحاول إخراجي من تلك الحالة التي وقعت فيها ، الحالة التي لم يفهمها أبدًا.

حاول، وحاول، وكدت أحبه لشدة ما بذل من جهد في تلك المحاولات. حاولت أن أحبه، حاولت حقًّا. كان يحبّني أكثر مما أحبّني أي شخص في حياتي. فلماذا لا يكون هذا كافيًا لي؟

رأيت سالي مرتين خلال تلك الفترة. هل كانت تتعمّد أن تتفاداني؟ هل كانت تفكّر فيّ، ولو دقيقة واحدة؟ في المرة الأولى، كنت خارجة من المكتب فرأيتها واقفة في الردهة عندما انفتح باب المصعد. خرجت من المصعد فكدت أصطدم بها.

توقّفت في مكاني ثم تحركت لكي أذهب. انحرفتُ يمينًا، فانحرفتْ في الاتجاه نفسه، ثم غيرت كل منا اتجاهها بطريقة مرتبكة خرقاء. ألقت عليَّ التحيّة وابتسمت، لكني رأيتها تنظر من الأعلى إلى الأسفل، فعرفت من تعبير وجهها أنني أبدو في حالة فظيعة.

لم ترني سالي في المرة الثانية. رأيتها جالسة في مقصورة عند النافذة في مقهى رالف. كانت جالسة مع هنري رينيت... هناك، في المقصورة الأمامية، عند الواجهة، حيث يستطيع العالم كله رؤيتهما، وقت الظهر، يوم ثلاثاء. وقد رآهما العالم. عدت إلى المكتب، فوجدت فتيات مجموعة الطباعة كلهنّ يتكلّمن عنهما.

سألت كاثي: «هل تظنين أن هناك علاقة بينهما؟».

قالت لوني إنها تظنّهما يتواعدان منذ ليلة رأس السنة. لقد رأتهما معًا في حفلة من الحفلات. ينبغي أن ينبّهها أحد إلى أنه وغد.

قالت نورما: «سأتطوّع لهذه المهمة».

سألتني ليندا: «هل هذا صحيح، يا إيرينا؟».

أجبتها: «لست أدري».

قالت غيل: «حسنًا، تقول فلورانس التي في قسم السجلات إنهما رأتهما يتهامسان عند السلم».

«متى كان ذلك؟».

«لست أدري، ربما كان منذ بضعة أسابيع».

إذًا، هكذا هو الأمر! لقد كانت مهتمّة طيلة الوقت بهنري. وأنا لم أكن سوى نزوة عابرة، في أحسن الأحوال. خيّبتني تلك الفكرة. كنت قادرة على احتمال ألّا أكون معها؛ لكني أدركت أنني لن أحتمل رؤيتهما معًا.

من غير علم من تيدي أو ماما، أو أي شخص آخر، تحدّثت في ذلك اليوم مع أندرسون

وطرحت إمكانية إرسالي في مهمة خارج البلاد. نظر أندرسون إلى الخاتم في إصبعي وسألني: «ألن تتزوجي قريبًا ؟».

«هذا سؤال افتراضي».

«يفترض أن هذا الأمر ليس من شأني. لكنني واثق من أننا نستطيع العثور على مهمة من أجلك».

«هل يبقى هذا الكلام بيننا ؟».

تظاهر بأنه يطبق شفتيه إطباقًا شديدًا.

وفي أول ذلك المساء، عندما غمرت الشمس شارع «إي» بضياء آخر النهار البرتقالي، كنت أقول في نفسي إنني قد أكون، في مثل هذا الوقت من السنة القادمة سائرة في شوارع بونس آيرس، أو أمستردام، أو القاهرة. كنت مستمتعة بالتفكير في أنني سألقي عن نفسي ما كنته، بأنني سألقي عن نفسي كل شيء، بفكرة أن أصير شخصًا جديدًا. كان إحساسًا لذيذًا ؛ وللمرة الأولى منذ زمن طويل، وجدت نفسي أبتسم.

لم تستقبلني رائحة الدهون عندما عدت إلى البيت وفتحت الباب. وجدت ماما جالسة إلى آلة الخياطة ؛ لكنها لا تخيط. رأيت فنجان الشاي مليئًا أمامها، وقد صار ماؤه أسود اللون لأنها لم ترفع كيس الشاي منه... «ما الأمر، يا ماما ؟».

«لا أستطيع لف الخيط على البكرة».

«أهذا كل شيء ؟».

«إنني أحاول منذ ساعات».

«هل تعطلتْ من جديد ؟».

«لا. تعطلتْ عيناي».

«ماذا تعنين ؟».

«لا أستطيع الرؤية بالعين اليسرى».

ذهبت إليها، ونظرت في عينيها، فلم أجد شيئًا غير طبيعي: «ماذا ؟ ماذا حدث ؟».

«استيقظت فوجدت نفسي هكذا».

«لماذا لم تقولي لي شيئًا ؟».

«ظننت أنني قادرة على حل المشكلة ؟».

«بماذا تحلّين المشكلة؟».

«بالثوم».

«سآخذك إلى الطبيب صباح الغد». أمسكت بيدها فأحسست بارتعاشها. قلت لها محاولة أن أصدّق كلماتي: «أنا واثقة من أنها مشكلة بسيطة».

وفي اليوم التالي، أخذت ماما إلى طبيب العيون، لكنها اشتكت من أنه ليس طبيبًا روسيًا، وبالتالي سوف يكون متحاملًا عليها. سألتها: «كيف يكون متحاملًا عليك؟ د. ميرفي إيرلندي الأصل».

«سوف ترين».

قرأت الممرضة اسمها فنهضتُ لكي أدخل معها مثلما أفعل عادة... فقد تكون في حاجة إلى مساعدتي لكي أترجم لها. لكنها طلبت مني عدم مرافقتها. أرادت أن تدخل وحدها. قبلتُ، وجلست في مكاني، ورحت أقلّب صفحات مجلة تايم ساعة كاملة.

خرجت ماما وهي تدعك ذراعها في المكان الذي أخذ منه الطبيب دمًا من أجل تحليله. وعندما سألتها عما قاله الطبيب لها، قالت إنه لا يعرف شيئًا. «لقد قلت لك. إنه متحامل على الروس؟».

«ألم يقل لك شيئًا؟».

«أخذوا دمًا، وصوروني بالأشعة. قال إنه سيتصل عندما يعرفون».

«يعرفون ماذا؟».

«لا أعرف».

وبعد يومين من ذلك، لم يتكرّر الأمر، ولم نذهب على عجل إلى المستشفى، ولم تسقط ماما، ولم نطلب سيارة الإسعاف، ولم يحدث أي شيء طارئ... لم يكن هناك شيء غير اتصال هاتفي من د. ميرفي يقول إن ماما لديها ما اتجهت إليه ظنونه منذ البداية عندما سلط شعاع مصباحه الصغير على عينها. لديها كتلة في العين، بحسب تعبير الطبيب. وعندما أخذتُ السماعة منها لكي أحصل منه على مزيد من التوضيح، قال لي إن عليها إجراء مزيد من الفحوص في أسرع وقت ممكن، لكي نناقش مسارات المعالجة المحتملة».

سألتني ماما عندما وضعت السماعة: «مسارات؟ أية مسارات؟».

«مسارات المعالجة، يا ماما».

«لست في حاجة إلى أية معالجة. عليَّ أن أعود إلى العمل».

تابعتْ يومها كأن شيئًا لم يتغيّر. وعندما قلت لها إن علينا أن نحدّد موعدًا مع الطبيب. قالت إنها ستكون بخير، وإن علي ألّا أقلق... لكني لم أستطع فعل شيء غير القلق عليها.

هبَّ تيدي إلى مساعدتي في الأسابيع القليلة التي تلت ذلك، وانكب على مهمة شفاء ماما مثلما ينكبّ على أي مشروع في العمل: هدوء، ومواظبة، وأسلوب منهجي. حدّد مواعيد لها مع أفضل أطباء العيون في واشنطن، ثم في بلتيمور، ثم في نيويورك.

لكن ماما قالت لي، بعد الذهاب من طبيب إلى طبيب، ومن اختصاصي إلى اختصاصي (بل حتى إلى اختصاصي أعشاب صيني نظر إلى لسان ماما وأعطى العلاج نفسه الذي أعطاه بقية الأطباء)، إنها تريد إيقاف أي شكل من أشكال المعالجة. وفي إحدى الليالي، بينما كنت أضع أمامها طبقًا من التونة أتت به إحدى الجارات، قالت لي ماما: «لن يكون إلا ما سوف يكون».

وضعت الطعام أمامها على الرغم من معرفتي بأنها لن تتناول أكثر من بضع لقمات. سألتها: «ماذا تعنين بهذا؟ لن يكون إلا ما سوف يكون؟».

«يعني هذا ما يعنيه. لقد انتهى أمري».

«انتهى أمرك!».

«انتهى أمري».

وضعتُ طبق الزجاج من يدي بقوة جعلته يتحطّم.

مدّت ماما يدها إلى يدي، لكني رفضت واندفعت خارجة من البيت.

عندما عدت في وقت لاحق من ذلك المساء، كان تيدي قد ذهب، وكانت ماما جالسة إلى طاولة المطبخ. دخلت غرفتي من غير أن أقول لها كلمة واحدة. كنت غاضبة منها كثيرًا، غاضبة من العالم، غاضبة من كل شيء. عندما أعود إلى ذلك اليوم، أتمنّى -أكثر من أي شيء آخر- لو أنني أمسكت بيدها في تلك الليلة، في المطبخ، وقلت لها إنني آسفة. ظننت أنه سيكون لي وقت لفعل ذلك. ظننت أنه سيكون لي وقت لإصلاح ما بيننا، وقت لكي أجعلها تعرف أنني سأوافق على أي قرار تتخذه، وسأدعمه، وقت لكي أقول لها كم أحبها... وقت لكي أعانقها مثلما لم أعانقها منذ أن كنت فتاة صغيرة. لكن، لم يكن هناك وقت. أبدًا، لا يكون الوقت متسعًا.

امتلأت كنيسة يوحنا المعمداني بأصدقاء ماما ومعارفها الذين لم أكن أعرف بوجودهم. كانوا يتقدّمون واحدًا تلو الآخر ويعزّونني ويقولون لي أشياء عن أمي تمنّيت لو أني عرفتها في حياتها.

لا نكشف النقاب إلا عن تلك المواضع من أنفسنا التي نريد أن يعرفها الآخرون... حتى أمام من هم أقرب الناس إلينا. إن لنا أسرارنا، كلّنا. وكان سر ماما أنها مسرفة إسرافًا شديدًا في كرمها. اكتشفتُ أنها خاطت ملابس لأكثر أهل حيّنا: أعادت خياطة بدلة مستعملة من أجل شخص فقد عمله بعد عودته من الحرب وكان يريد أن يرتديها عند ذهابه إلى مقابلة العمل حتى يصير محاسبًا في واحدة من صيدليات «بيبلز دْرَغ»؛ وأصلحت فستان زفاف مستعملًا من أجل امرأة لم تكفها نقودها لأكثر من شراء فستان له بكلة مكسورة وبقعة نبيذ على صدره من «جيش الخلاص»؛ ورقّعت أوفرول عامل في مصنع لتعبئة الزجاجات؛ وأصلحت جوارب كثيرة لأرمل مسنّ يريد من يؤنس وحدته فحسب.

وأيضًا... فستان حفلة التخرج الأصفر الذي ساعدتُ ماما في إعادة وضع الخرز عليه قبل سنة من الآن! لقد كان هدية منها، لا عملًا تلقّت عنه أجرًا. ارتدته ابنة السيدة هالبرن المراهقة عندما أتت إلى الجنازة. جعلتني رؤيتها تدور لكي يرى الناس فستانها أكاد أصاب بالدوار لشدة تقديري للشخص الذي كانته أمي.

وأما ماما نفسها، فكانت الآن في فستان أسود عليه رسم متقن بالخرز على طول كمّيه. كان هذا الفستان سرًّا آخر من أسرارها. لا أعلم متى بدأت العمل عليه. لكني موقنة من أنها صنعته لكي تلبسه في جنازتها لأنني لم أره إلا ذلك الصباح الذي لم تنهض فيه من نومها: كان مكويًّا، موضوعًا على الكرسي الهزاز في غرفتها... حتى أجده.

وفي الكنيسة، كان القس الأرثوذكسي يدور من حول نعشها ويؤرجح مبخرته فيسبح دخان البخور من حول ثوبه الكهنوتي، ثم يرتفع ويتبدّد في الأعلى، فوق رأسه.

التفتُّ لحظة فرأيتها: لقد أتت سالي. كانت واقفة بالقرب من آخر الصالة وقد وضعت على وجهها حجابًا أسود قصيرًا مخرّمًا. عدت فنظرت في اتجاه القس المستمر في أرجحة مبخرته... كانت أفكاري مع سالي، لا مع أمي. تمنّيت أن تسير في الممر مقتربة وتقف إلى جانبي، أن تأخذ مكان تيدي، وأن تأخذ بيدي. لكنها ظلّت في الخلف، وظل تيدي إلى جانبي.

انتهى قداس الجنازة، وسرت خلف نعش ماما فخرجت من الكنيسة. مررت بسالي، فمست

ذراعي. كان حجابها منحرفًا قليلًا عن وجهها فرأيت دموعًا في عينها. تابعت سيري. سار الموكب إلى مقبرة أوك هيل حيث كان تيدي قد رتّب الأمر بحيث تدفن ماما في بقعة جميلة مطلّة على منتزه روك كريك. وقفت إلى جانب قبر ماما ، وبحثت عيناي عن سالي بين الناس المجتمعين ، لكنها لم تكن بينهم.

وفي ما بعد ، حاول تيدي مواساتي ، لكن عبثًا. مرّت أيام ، ثم أسابيع. ثم أتت ليلة لم أستطع النوم فيها ، فقررت أن أتصل بسالي. كانت يدي ترتجف وأنا أطلب رقمها ، لكن الهاتف رن كثيرًا ، ولم تجبني.

شرق

أيار — 1958

الفصل التاسع عشر

استيقظت من نوم لا أحلام فيه فوجدت ميتيا واقفًا فوقي. همس لي: «هناك أحد في الخارج».

«هل هو بوريا ؟ هل أضاع مفاتيحه مرة أخرى ؟».

«لا».

نهضت من السرير وسرت على أطراف أصابعي إلى أن وجدت شبشبي.

قلت له: «عد إلى غرفتك». بحثت عن ثوبي لأرتديه. لم يتحرّك ميتيا.

«ميتيا ، قلت لك أن تعود إلى فراشك. انتبه لكي لا توقظ أختك».

«لقد سمعتْ إيرا الصوت قبلي».

سمعت صوت شيء يسقط في الخارج قبل أن أتمكّن من سؤاله عما سمعاه. قلت له: «هذا ليس إلا غصن شجرة». كان صوتي منخفضًا ، هادئًا إلى أقصى حد استطعته... «إن شجرة الحور ميتة منذ الشتاء الماضي. قلت لبوريا إن علينا أن نقطعها...».

أسكتني صوت آخر في الخارج. كان صوتًا أكثر انخفاضًا ؛ كان صوتًا مكتومًا. ليس صوت سقوط غصن.

جعلَنا صوت فتح باب البيت نجري في اتجاه ردهة المدخل. كانت إيرا هناك ، واقفة في العتبة ، حافية. ثوب نومها الأبيض يبدو مزرقًا في ضوء القمر. فاجأني منظرها. كانت ملاكًا شبحيًا. صارت الآن امرأة. قلت لها بصوت هادئ: «إيرا ، أغلقي الباب».

تجاهلتني إيرا ، وخطت إلى الخارج. صاحت بنا: «اخرجا».

دفعني ميتيا ، ثم تجاوزني ذاهبًا إلى أخته. أمسكت بطرف قميصه ، لكنه جذبه وأفلت مني. صاح بصوت متكسر: «أظهروا أنفسكم!». لكن حركة خلف كدس الحطب إلى جانب البيت جعلت ابني وابنتي يستديران سريعًا ويكادان يتعثران ويسقطان عندما اندفعا لدخول البيت من جديد. أغلقت الباب بعد دخولهما ، وتأكدت من إقفاله جيدًا.

قالت إيرا: «إنهم هم ، أعرف هذا». وقفت ملتصقة بالحائط ، محتضنة نفسها. لم تعد تبدو ملاكًا جميلًا... رأيت فيها طفلتي الصغيرة من جديد.

سألتها: «من هم ؟».

«رأيت يوم أمس رجلًا يسير خلفي من محطة القطار إلى البيت».

«هل أنت متأكّدة من هذا؟ كيف كان شكله؟».

«كان مثل أشكالهم جميعًا. مثل الرجال الذين أخذوك بعيدًا عنا».

قال ميتيا: «وأنا رأيتهم أيضًا. كانوا يراقبونني من خلف سور المدرسة. اثنان منهم، وأحيانًا ثلاثة. لكني لست خائفًا منهم».

أجبته: «لا تكن سخيفًا»؛ لكن كلماتي لم تقنعني. كان ميتيا ميالًا إلى المبالغات، وكانت «مخيلته الغنية كثيرًا»، بحسب تعبير بوريا، لا تكف عن اختراع القصص. وجد في الغابة قطعة من القمر الصناعي سبوتنيك. أنقذ فتاة صغيرة في صفه من ذئب دخل باحة المدرسة. أكل نبتة سحرية منحته قدرة عجيبة على القفز أعلى من عربة الترولي.

لكني لم أشك في قصته هذه المرة.

لقد نُشرت «دكتور جيڤاكو» في إيطاليا منذ ستة أشهر. ومع كل بلد جديد ينشرها -فرنسا، السويد، النرويج، إسبانيا، ألمانيا الغربية- كنت أحس مزيدًا من العيون التي تراقبنا. مع كل إصدار أجنبي، كانت تُطرح أسئلة عن سبب عدم نشر الرواية عندنا. حتى الآن، لم تنطق الدولة كلمة علنية واحدة عن الرواية. ظلت قبضة يدها ساكنة، لكنها تزداد تأهبًا. وكنت أعرف أن الوقت لن يطول قبل أن يتحرّكوا.

لم أخبر الطفلين أبدًا عن الرجال الجالسين في سياراتهم السوداء عند آخر الممر، ولا عن الرجال الذين يتبعونني كلما ذهبت إلى موسكو. بدلًا من ذلك، اكتفيت بانتظار ما أحسسته مقررًا... انتظرت قدومهم حتى يأخذوني.

قلت لهما: «تعالا. انظرا». مد طفلاي رأسيهما ونظرا من فوق كتفي. ثعلبان أحمران في الخارج، واقفان فوق قطعة خشبية أسقطاها من كدس الحطب. التقت عيونهما الذهبية عينيّ قبل أن يفرا إلى الغابة هاربين.

ضحكنا حتى طفرت الدموع من عيوننا. ضحكنا إلى أن آلمتنا بطوننا. ضحكنا إلى أن لم يعد الأمر مضحكًا.

سألني ميتيا: «هل أنت واثقة من أن لا وجود لشيء آخر في الخارج؟».

أغلقت الستارة وقلت له: «أجل...». قبّلت وجنتَي كل منهما مثلما كنت أفعل عندما كانا صغارًا... «والآن، عودا إلى النوم».

أغلق الطفلان باب غرفتهما ، لكني كنت أعلم أنني لن أستطيع النوم. ذهبت إلى المطبخ ووضعت الركوة على النار. لم أشعل الضوء لأنني لم أرد إيقاظ الطفلين. أشعلت شمعة ، وتناولت صحيفة.

لم تشتمل المقالة على صورة ، لكني لم أجد صعوبة في تخيل اصطدام الفراء الأبيض والأسمر ، ووقع الحوافر ، وتكسر القرون ، وتطاير الزغب المحترقة. البرق يقتل مئتي وعل في هضبة بوتورانا. قرّبت الصحيفة من الشمعة حتى أتأكد من أنني لم أخطئ قراءة الرقم. لم أخطئ. سقط مئتا وعل في لحظة واحدة. انشقت السماء و...

تحوّل أزيز الماء في الركوة إلى هدير ، فرفعتها عن الموقد. عدت إلى المقالة. كانت الوعول مجتمعة معًا ، لحماية أنفسها. هذا ما يفسر كثرة عدد الضحايا. كان راعٍ من نوريلسك أول من رأى الوعول القتيلة. قال إنها بدت كأنها قُذفت إلى الأعلى ، ثم سقطت متناثرة على القمة الثلجية. يمكن للراعي أيضًا أن يكون شاعرًا!

كم سنة ستمرّ قبل أن تتحلّل أجسادها وتصير عظامها عارية ؟ وهل سيجمع القرويون قرونها ويعلّقونها على جدران بيوتهم ؟ لماذا لم يتفرّق القطيع ويتجه صوب أرض منخفضة ؟ أو ، لعل الوعول فعلت ما كانت تفعله منذ آلاف السنين ، لكن الأمر لم ينجح هذه المرة! لا سبيل إلى معرفة متى تنشقّ السماء.

لو وجدت رجالًا أمام بابنا ، فهل كنت أغلق الباب لكي يحمينا ؟ أم إنني سأتركه مفتوحًا وأقدّم نفسي إليهم. هل سأصيح باسم بوريا عارفة أنه لا يستطيع سماعي ؟

سألني ميتيا من خلفي: «هل لدينا شيء للأكل ؟».

«هل أيقظتك ؟».

«لا أستطيع النوم». ذهب إلى الخزانة. في السنة الأخيرة ، صار ميتيا يبدو لي كأنه يأكل من غير توقّف. ازداد طوله نحو خمسة سنتيمترات خلال ستة أشهر. وصار المقعد الصغير الذي كان يقف عليه حتى يصل إلى الرف العلوي حاملًا لنبتة في أصيص. جلب كيسًا من السوشكي(29) البائت ، فصببت له كأس شاي. جلس يغمس قطعة السوشكي في الكأس ، ثم يأكلها بقضمتين.

سألته بصوت رقيق: «هل رأيت حقًّا رجالًا ينظرون إليَّ من خلف سور المدرسة ؟».

أجابني: «أظن أنه ينبغي أن يكون لدينا مسدس».

«لن يفيدنا المسدس شيئًا».

قالت إيرا وهي تدخل المطبخ وتجلس إلى الطاولة: «فليكن لدينا مسدسان». أخذت جرعة من كأس ميتيا.

«مسدسان. عشرة مسدسات. لن تفيدنا المسدسات شيئًا».

قال ميتيا: «سأتعلّم كيف أستخدمه». جعل يده على شكل مسدس وصوبها في اتجاه أخته.

وضعت يدي فوق يده وخفضت إصبعه: «لا».

«لم لا؟ من يحمينا؟ يجب أن أفعل شيئًا. أنا رجل الأسرة».

ضحكت إيرا، لكن قلبي انقبض. يا ولدي!

سألته آملة أن أتمكّن من تغيير موضوع الحديث: «هل أنت متحمس للذهاب إلى المخيم، يا ميتيا؟».

كان موشكًا على الذهاب إلى معسكر الطلائع الصيفي في الأسبوع التالي، خلال أربعة أصياف مضت، استمتع ميتيا كثيرًا بالوقت الذي أمضاه في الغابات. لم يرد الذهاب إلى الغابة في الصيف الذي عدت فيه من بوتما بسبب خشيته من ألا يجدني عندما يعود. بكى عندما ألبسته قميصه الأبيض ووشاح العنق الأحمر، وأخذته إلى الباص. وقفت مع بقية الأهالي ننظر إلى الباص يبتعد عنا. لم يودّعني ميتيا بتلويحة من يده. لكنه عاد إلى البيت حاملًا قصصًا كثيرة عن أصدقائه الجدد، وعن لعبة البجعات والإوزات، وعن رفع العلم الأحمر... عن الرياضة الصباحية والمسائية، وعن رحلات المسير - لم تعجبه رحلات المسير أبدًا. ظل أسابيع كثيرة ينشد أناشيد الطلائع ويكرّر معلومات حفظها عن «حصص الذُّرّة» المقررة وفق برنامج التقنين.

رفع ميتيا رأسه: «أظن هذا».

«ألا تريد الذهاب هذه السنة؟».

قال: «مللت تلك الأغاني والأناشيد. أتمنّى لو أنك سجّلت اسمي من أجل واحد من معسكرات التقنيين الشباب. أفضل صنع الأشياء على الذهاب في رحلات المسير».

«لم أكن أعرف أنك تريد...».

«إن تكلفتها أكبر».

«أنا متأكدة من أننا نستطيع تدبّر الأمر».

مد ميتيا يده وتناول قطعة أخرى من السوشكي: «هل كنت ستطلبين منه مالًا؟».

«كنت سأفكّر في شيء ما».

«لماذا لا يتزوجك؟».

صفعت إيرا ذراعه: «ميتيا...».

قالت ميتيا: «لقد طرحتِ السؤال نفسه، يا إيرا. طرحتِه بنفسك، لكن ليس أمام ماما. تعرفين أن الناس في المدرسة يقولون بعض الأشياء».

سألته: «ماذا يقولون؟».

لم يجبني ميتيا بشيء.

قلت لهما: «تزوجتُ مرتين من قبل؛ ولا أريد أن أتزوج من جديد». كنت أعرف أنهما قادران على رؤية ما أخفيه، مثلما صارا الآن قادرين على رؤية أشياء كثيرة.

قالت ميتيا: «لكنك تحبّين بوريا، أليس هذا صحيحًا؟».

قلت: «أحيانًا، لا يكون الحبّ كافيًا».

سألتني إيرا: «وماذا غير الحب؟».

«لست أدري».

نظر كل من ميتيا وإيرا إلى الآخر. إقرارهما الصامت كسر قلبي.

هدأ البيت من جديد. نظرت إلى الطفلين بعد أن ناما. ارتديت معطفي المطري، وخرجت. لا أستطيع الذهاب إليه؛ سيكون نائمًا. سرت على امتداد السياج الأخضر في الشارع الرئيسي. ومع سيري، كنت أتذكّر ميتيا الصغير رافضًا أن يترك يدي قبل أن يصعد إلى الباص الذاهب إلى المعسكر. فكّرت فيه الآن وهو يقول لي إن علينا أن نقتني مسدسًا. يقول إنه رجل البيت.

فكّرت في إيرا، وكم كبرت منذ ذلك اليوم الذي أخذوني فيه. فكّرت في أن طفليّ صارا يعرفان، في هذه السن المبكرة، أن الحب غير كافٍ بعض الأحيان. ظهرت في البعيد أنوار سيارة شاحنة. فكّرت في ما سيحدث إذا انحرفت الشاحنة عن الطريق، إذا لم أستطع الفرار من وجهها. انشقّت السماء و...

(29) سوشكي: نوع من المعجنات معروف في أوروبا الشرقية، يكون على شكل حلقات صغيرة.

غرب

آب - أيلول 1958

الفصل العشرون

ضاربات الآلة الكاتبة

تحرّكت الوكالة سريعًا. لم يعد لدينا وقت نضيّعه بعد مهمة إيرينا الليلية الناجحة في حديقة الكاتدرائية ، وبعد أن صار المخطوط الروسي بين أيدينا. فخلال الزمن الذي استغرقه رحيل الشتاء ، وتفتّح الأزهار ثم سقوطها ، وهبوط رطوبة الصيف على واشنطن ، كانت النسخ الأولى من «دكتور جيڤاكو» باللغة الروسية قد أُعدت في نيويورك ، وطُبعت في هولندا ، ونُقلت إلى مكان آمن في القسم الخلفي من عربة قطار مغلّفة بألواح خشبية. طُبع ثلاثمئة وخمس وستون نسخة من الرواية ووُضعت لها أغلفة من الورق المقوّى القوي مع وجه قماشي أزرق... تمامًا في الوقت المناسب مع بداية «المعرض العالمي» عندما سنوزع نسخ الكتاب الممنوع على الزوار السوفييت.

لكن هذا كله لم يحدث إلا بعد عدد من العثرات.

قضت الخطة الأصلية بأن تتعاقد الوكالة مع السيد فيلكس مورو -ناشر في نيويورك له

صلات قوية مع الوكالة- لكي يتولّى أمر إخراج الكتاب وتصميمه، مع ما يلزم من إزالة أية آثار يمكن تعقّبها وصولًا إلى اكتشاف أية صلة للحكومة الأميركية بهذا الأمر. وبعد ذلك، يُشحن المخطوط الجاهز للطباعة إلى ناشر أوروبي يجري تحديده لاحقًا حتى يطبع الكتاب فيكون ذلك تدبيرًا احتياطيًا إضافيًا لإزالة آثار بصمات الوكالة عن المشروع كلّه. وقد تضمّنت إحدى المذكرات الداخلية إشارة إلى ضرورة الامتناع عن استخدام أي حبر أو ورق من صنع أميركي.

ذهب تيدي هيلمز وهنري رينيت إلى نيويورك بطائرة تابعة لشركة أميركان إيرلاينز، ثم سافرا بالقطار إلى غريت نِك حتى يسلما المخطوط باليد للسيد مورو، مع زجاجة من الويسكي الفاخر وعلبة من الشوكولاته التي يفضلها، وذلك من أجل إتمام الاتفاق.

لكن فيلكس مورو خلق مشكلة. كان شيوعيًا سابقًا، تحول إلى تروتسكي، ثم صار الآن أميركيًا كفطيرة التفاح، مثلما عبّر عن الأمر؛ وكان هذا المثقّف النيويوركي يحبّ الكلام... وقد تكلّم فعلًا. حتى قبل أن يجفّ حبر الاتفاق معه، راح يخبر الجميع بأن لديه كتابًا عظيمًا. بل إن نورما سمعت أيضًا من خلال أشخاص تعرفهم في الوسط الأدبي في نيويورك أن مورو قد تعاقد مع عدد من الأساتذة الروس لكتابة مراجعات للرواية. وسرعان ما بدأ الجميع يتحدّث عن طبعة روسية يجري إعدادها في أميركا. لم تتأخّر نورما عن إبلاغ أندرسون بما سمعته، فقال لها إنه سيهتم بالأمر. قالت لنا: «من غير مكافأة، وحتى من غير كلمة شكرًا».

وأسوأ من هذا أن مورو اتّصل بصديق له يعمل في منشورات جامعة ميتشيغان فسأله عن إمكانية طباعة الرواية في الولايات المتحدة، وذلك على الرغم من أن حقوق النشر العالمية كانت ملكًا حصريًا للناشر الإيطالي جانجاكومو فيلترينيلي. لقد أراد مورو الحصول على المال. قال لتيدي عندما واجهه بالأمر: «أستطيع نشر الرواية أينما شئت».

أُرسل تيدي وهنري إلى غريت نِك مرة أخرى من أجل تهدئة مورو بزجاجة ويسكي فاخرة أكثر من الزجاجة السابقة، وبصندوق شوكولاته أكبر من الصندوق السابق، وذلك لجعله يوقف اتفاقه مع ميتشيغان. اعترض مورو على هذا، لكنه قبل آخر الأمر أن يصير خارج العملية، لا بسبب الويسكي والشوكولاته، بل لأنه تلقّى وعدًا بالحصول على تعويض أكبر مما عُرض عليه في البداية.

بعد الانتهاء من مشكلة مورو، انتقل تيدي وهنري إلى آن آربور لكي لا تسير جامعة ميتشيغان في الأمر. توسّلا إلى رئيس الجامعة لكي يوقف خطط النشر. قالا له إنه ينبغي ظهور

الطبعة الروسية الأولى في أوروبا حتى يكون لها أثر أكبر على القارئ السوفييتي ، وحتى لا يعتبرها ذلك القارئ دعاية أميركية. شددا أيضًا على أن كاتب الرواية ، بوريس باسترناك ، يمكن أن يتعرّض للخطر إذا كان لتوزيع الكتاب أية صلة بالولايات المتحدة الأميركية. بعد قدر من الأخذ والرد ، وافقت جامعة ميتشيغان على تأجيل نشر الكتاب ريثما تظهر طبعة الوكالة في أوروبا. ثم عملت الوكالة مع الاستخبارات الهولندية من أجل إنجاز المهمة. عُقد اتفاق مع مؤسسة بوتون للنشر التي كانت قد تعاقدت مع فيلترينيلي على نشر الكتاب باللغة الهولندية. كان عليها أن تطبع كمية صغيرة باللغة الروسية ، من أجل الوكالة.

بعد هذا كلّه صارت «دكتور جيڤاكو» في طريقها إلى المعرض العالمي في بروكسل. إذا سار كل شيء بحسب الخطة ، فسوف تكون الرواية بين أيدي المواطنين السوفييت بحلول الهالووين.

عاد تيدي وهنري إلى واشنطن للاحتفال بما أنجزاه ، وذلك عندما كانت عازفة البيانو شيرلي هورن تقدّم مجموعتها الثانية في «جَنغل إن». جلسا في مقصورة حمراء من الفينيل في أبعد نقطة عن المنصة.

كان تيدي يشرب الويسكي مع الثلج ، وهنري يرشف كأسًا من المارتيني بالجن ، وهما يتابعان شيرلي. كانا مستغرقين تمامًا فلم يلاحظا كاثي ونورما الجالستين في المقصورة المجاورة لهما. أو ، لعلهما لاحظا وجود المرأتين ، لكنهما لم يتعرّفا على شكليهما من غير آلة كاتبة ورزمة من الورق!

صاح هنري رافعًا صوته أعلى من ضجيج النادي: «إنها جيّدة ، أليس كذلك ؟ ماذا قلت لك ؟ إنها جيدة حقًا».

«جيّدة جدًا». قال تيدي هذا وهو يلوّح بيده لكي يستدعي النادلة.

«جيّدة جدًّا. بالتأكيد. ألست مسرورًا لأننا خرجنا الليلة ؟».

قالت تيدي: «ما مشكلة هذه النادلة ؟...». أرخى ربطة عنقه... «كان علينا أن نعرج على البيت لكي نغيّر ملابسنا. نبدو كأننا اثنان من رجال الشرطة الفيدرالية».

قال هنري وهو ينفض شيئًا غير مرئيٍّ عن سترته الزرقاء البحريّة: «تكلّم عن نفسك. ثم إنك تعرف تمام المعرفة أنك كنت ستبقى في البيت لو ذهبنا إلى البيت أولًا. ما حكايتك في الآونة الأخيرة ، يا صغيري تيدي ؟».

بدلًا من الإجابة ، نهض تيدي لكي يجلب الشراب بنفسه ، ثم عاد حاملًا كأسين من المارتيني. كانت في كأسه حبة زيتون إضافية.

سأله هنري: «هل نرفع نخبًا ؟».

«نخب ماذا ؟».

«الكتاب ، بالطبع. فلنأمل أن يجعل سلاح الدمار الشامل الأدبي ذلك الوحش يصرخ ألمًا».

رفع تيدي كأسه قليلًا ، وقال بالروسية: «في صحتك».

رفعت كاثي ونورما -لا تزالان غير ملحوظتين- كأسيهما وشربتا نخب النصر.

كان الرجلان ينظران إلى شيرلي التي خفضت رأسها فوق لوحة المفاتيح ، ثم نظرت إلى السقف ثم التفت إلى رجل جالس إلى طاولة صغيرة مدورة وعلى رأسه قبعة سوداء فيها ريشة طاووس.

سأل هنري مومئًا برأسه إلى الرجل الجالس إلى الطاولة: «ما الحكاية هناك ؟».

«لست في مزاج مناسب لهذه الأشياء».

«هيا! كرمى للزمان الماضي».

أجابه تيدي: «زوجها. إنه يجلس ويتابعها في كلّ عرض. أو لعلّه... أيكون عشيقها ؟».

قال هنري: «لا. إنه زوجها السابق. الجلوس هنا ، ومتابعة عرضها ، أكثر ما تسمح له بالاقتراب منها».

«هذا جيّد. جيّد حقًّا».

«هل لديه فرصة لمصالحتها ؟».

«لا».

ظل الصديقان صامتين بضع دقائق.

«هل أنت واثق من أنك على ما يرام ، يا تيدي ؟».

أفرغ تيدي ما في كأسه بجرعتين اثنتين.

«كيف حال إيرينا ؟».

«إنها بخير».

«إن البرودة أمر عادي. قدماي باردتان الآن ، لكني لا أواعد أحدًا».

«الأمر ليس هكذا. إنها ، فقط... لقد صارت شديدة الميل إلى الصمت».

«لكلّ منا لحظاته الصامتة».

«لا ، هذا مختلف. تغضب كثيرًا عندما أسألها عن سبب صمتها». التفت تيدي يمينًا ويسارًا... «أين هي تلك النادلة اللعينة ؟».

«هكذا... فلنغيّر موضوع الحديث...».

«أشكرك».

سأله هنري: «أتحبّ أن تسمع إشاعة ؟».

مالت كاثي ونورما لكي تسمعا جيّدًا.

«هل أكون في هذا العمل لو أنني لا أحب سماع الإشاعات ؟».

«هل سمعت قصة ذات الشعر الأحمر ؟».

«هل تعني سالي فورستر ؟».

تبادلت نورما وكاثي نظرة سريعة.

قال هنري: «بالضبط».

«ماذا ؟».

«سوف يطردونها. وسيلحق العار بها. أعجبتني رؤيتها آتية ، لكن ليس بقدر ما يعجبني أن أراها ذاهبة».

«لماذا ؟».

قال هنري: «أحب دائمًا أن أرى مؤخرة جميلة».

اتسعت عينا نورما دهشة.

«لا... لماذا يطردونها ؟».

«هذا هو الجزء الأفضل للقصّة. لن تستطيع أبدًا أن تحزر السبب».

«قلّ لي».

استند هنري إلى ظهر مقعده: «لأنها مث.ليّ.ة».

«ماذا ؟». قالت نورما هذا لأنها لم تستطع ضبط نفسها. لكن الرجلين لم ينتبها إليها. غطست نورما وكاثي في مقعديهما بضع بوصات.

سأله تيدي: «ماذا قلت ؟».

«حسنًا ، يا تيدي. يعني هذا أنها تفضّل رفقة امرأة أخرى».

«عنيت القول... متى حدث هذا؟ كنت أظنّ أن بينك وبينها شيئًا ما».

أخذ هنري رشفة من كأسه: «لعل رجلًا رماها فلم تعد تلتفت خلفها».

«يا إلهي...». خفض تيدي صوته... «أعني، كيف عرفت بهذا؟».

«أنت أكثر ذكاء من أن تسألني عن مصادري».

قال تيدي: «إنها أقرب صديقة لإيرينا. أعني، صحيح أنهما لم تعودا تمضيان وقتًا كثيرًا معًا، ولكن...».

«لعل هذا هو السبب. لعل إيرينا اكتشفت سر سالي الصغير».

«لم تذكر أمامي أي شيء عن هذا الأمر».

«العلاقات كلّها قائمة على إغفال ذكر بعض الأشياء».

انتهت شيرلي من عزف «إذا فقدتك ذات يوم»، ثم خاطبت الجمهور: «ستظلّون في أماكنكم الآن. اطلبوا كأس شراب أخرى تدفئون بها أرواحكم، وسوف أعود بعد دقيقة واحدة».

نهضتْ من خلف البيانو وجلست إلى جانب الرجل صاحب القبعة السوداء. قبّلها فدفعته عنها لكنها ظلت ممسكة بيده، قلبت يده وقبلتها.

قال تيدي: «عشيقها بالتأكيد».

ضربتْ واشنطن عاصفة رعدية شديدة في أواخر شهر آب فغرق نصف المدينة في الظلام. وفي الصباح، صار الذهاب إلى العمل مشكلة، وكانت الباصات وعربات الترام تصل متأخرة، أو لا تصل أبدًا. عادة ما تذهب إيرينا بالباص، إلى عملها، لكن ليس في ذلك اليوم، ولا بد أن تيدي قد أتى بها معه لأننا كنا نتناول قهوتنا الصباحية في غرفة الاستراحة عندما رأيناهما جالسين في سيارته الدودج لانسر البيضاء. حاولنا ألا ننظر إليهما، لكن ذلك كان صعبًا علينا. لأن نافذة غرفة الاستراحة مطلّة على موقف السيارات الشرقي.

بلغت الساعة التاسعة والنصف ولم يظهر عليهما أي شيء يشير إلى أنهما يستعجلان الدخول. ظلا جالسين في السيارة؛ وأما نحن فكانت وجوهنا ملتصقة بالزجاج الذي أصابته غشاوة بفعل أنفاسنا. فتحنا النافذة قليلًا عند التاسعة وخمس وأربعين دقيقة آملين أن نتمكّن من سماع شيء، لكننا اضطررنا إلى إغلاقها عندما صفعت وجوهنا رشقة مطر.

كنا نرى تيدي مائلًا فوق عجلة القيادة كأنه مصاب بطلق ناري، في حين كانت إيرينا تنظر إلى الجهة الأخرى، عبر نافذتها. وقرابة العاشرة، خرجت إيرينا من السيارة وأسرعت في اتجاه

المكتب. كان حذاؤها ينزلق على الرصيف الرطب.

تحركت سيارة تيدي بعد بضع دقائق، فسارت إلى الخلف حتى خرجت إلى شارع «إي». عدنا إلى مكاتبنا.

دخلت إيرينا، وخلعت معطفها المطري، ثم جلست في مكانها. دعكت عينيها المحمرّتين وعبرت عن انزعاجها من العاصفة.

سألتها كاثي: «هل أنت على ما يرام؟».

أجابت إيرينا: «بالطبع».

قالت لها غيل: «يبدو عليك شيء من الانزعاج».

لعقت إيرينا رأس إصبعها بلسانها وبدأت تقلب الأوراق الباقية من اليوم الماضي: «إنني مرهقة قليلًا هذا الصباح. الطقس، وغير الطقس».

قالت غيل: «لا تقلقي. قلنا لأندرسون إنك في الحمام».

«هل سأل أندرسون عني؟ هل قال شيئًا عما يريده مني؟».

«لا».

«جيّد». فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها علبة سجائرها المعدنية الصغيرة التي تحمل الأحرف الأولى من اسمها. كانت العلبة هدية لها من سالي في عيد ميلادها. أخرجت سيجارة وضعتها بين شفتيها، ثم أشعلتها. لا تزال يداها محمرّتين، مرتعشتين. لم نر إيرينا تدخن قبل ذلك اليوم؛ لكن ذلك لم يكن ما أثار انتباهنا... كان أول ما لاحظناه اختفاء خاتم الخطوبة من يدها. قالت إيرينا: «لا بأس، أعني... لا أحبّ أن أصل متأخّرة. شكرًا لتغطيتكن تأخّري».

أردنا أن نسألها عن تيدي، وعن جلوسهما في السيارة، أردنا أن نسألها عن سبب عدم وجود الخاتم في يدها. أردنا أن نسألها إن كانت قد سمعت بالإشاعة التي تتحدّث عن سالي. لكننا لم نسألها شيئًا. أدركنا أن علينا أن نمنحها بعض الوقت، وسوف نسألها عن التفاصيل غدًا.

لكن إيرينا استدعيت إلى مكتب أندرسون في صباح اليوم التالي.

عرفنا أن إيرينا استدعيت إلى مكتبه، وعرفنا أنها خرجت من مكتبه، ثم أسرعت إلى حمام السيدات وبقيت فيه زمنًا طويلًا. عرفنا أيضًا أنها خرجت من الحمام وعادت إلى بيتها في وقت مبكر متذرّعة بألم في بطنها.

لكن هيلين أوبرين ، سكرتيرة أندرسون ، أخبرتنا بالبقية.

«قال لها إن الوكالة حريصة على المحافظة على سمعة رفيعة ، فأجابته: نعم. بالطبع. قال شيئًا عن الاحتشام في المكتب ، وفي البيت. فقالت له شيئًا من قبيل: نعم ، أتفق مع هذا. مضى يقول إن هناك إشاعات تتحدّث عن خلل سلوكي شخصي. ثم حلّت فترة صمت طويلة. سألته إن كان ما يتحدّث عنه متعلّقًا بها ، وقالت إنها -على قدر معرفتها- تحرص على أن يكون سلوكها متفقًا مع أعلى المعايير في الوكالة. قال لها ، انظري... يقول الناس إنك قد تكونين غريبة السلوك بعض الشيء ، هل تفهمين... أعني ، من تلك الناحية. إذا كان هذا صحيحًا ، فهو غير مقبول لدينا. أنكرتِ الأمر جملة وتفصيلًا. وأظنّها بدأت تبكي عند ذلك. لكني لست واثقة لأنني كنت أسمع ذلك من خلف باب مغلق. قال لها إنه مسرور لسماع إجابتها ، وإنه يأمل ألا تستمر تلك الإشاعات في الوصول إليه مثلما حدث بالنسبة إلى امرأة أخرى وجد نفسه مضطرًا إلى طردها منذ أيام. سألته عن تلك المرأة ، فانتظر بضع ثوانٍ ثم قال اسمها: سالي».

لم تأت إيرينا إلى المكتب طيلة الأيام الباقية من الأسبوع ؛ ولم تسنح لنا أبدًا فرصة لسؤالها عما كان يحدث. ففي يوم السبت التالي ، صعدت إلى طائرة متّجهة إلى بروكسل ، إلى المعرض الدولي.

وفي يوم الاثنين الذي أعقب ذلك ، لم يأت تيدي إلى المكتب ، ثم استمر تغيبه بقية الأسبوع كلّه.

التقينا من أجل «الساعة الحلوة» في مقهى مارتين وناقشنا ما جرى. قالت كاثي: «لعله ذهب إلى بروكسل لكي يستعيد إيرينا!».

أمسكت نورما بمحارة أكبر مرتين من بقية المحارات. نظرت إليها نظرة ، ثم أعادتها. قالت: «إنكن رومانسيات كثيرًا. سمعت أنه حبس نفسه في شقته ، وأنه يرفض ارتداء ملابسه أو فتح الباب لأي طارق».

سألت جودي: «من أين سمعت هذا؟».

«مصادر موثوقة».

قالت ليندا وهي تغرس شوكة المحار في زيتونة في كأس المارتيني الذي كانت تشربه: «أنا واثقة تمامًا من أنه ذهب في مهمة».

قالت نورما: «أنتن غير مسلّيات أبدًا». لوّحت بيدها للنادلة وطلبت منها كأس مارتيني آخر. قالت للنادلة مشيرة إلى ليندا: «وهي أيضًا في حاجة إلى كأس أخرى».

لم تعترض ليندا على ذلك. قالت: «أو لعلّه انشقّ. ولعل ما كسرته إيرينا لم يكن قلبه فقط».

قالت لها نورما: «نعم... هذه هي الروح المعنوية».

تابعت ليندا كلامها: «أو لعله مع سالي».

«لكن، ماذا عن أن سالي...». خفّضت كاثي صوتها... «أنتن تدركن ما أعنيه».

«لكن التوقيت يشير إلى شيء ما. في البداية، سالي تذهب... ثم تذهب إيرينا». أتت النادلة ووضعت كأسَي المارتيني أمامنا... «وربما... بدلًا من سالي وهنري، ربما كانت هناك علاقة طيلة الوقت بين سالي وتيدي، وعندما اكتشفت إيرينا الأمر...». أبعدت نورما الكأس الجديدة من أمام ليندا. قالت لها: «أظنّك الآن قد شربت أكثر مما ينبغي».

لم نعرف أبدًا ما كان تيدي يفعله في الأسبوع الذي لم يأت خلاله إلى المكتب. لكننا نعرف أنه اقترب من هنري رينيت يوم عودته إلى المكتب، أتاه من الخلف عندما كان هنري واقفًا في صف الغداء ينتظر أن يضعوا في طبقه شرائح الدجاج المقلية والبطاطس المهروسة. نقر تيدي على كتفه، فاستدار هنري. ومن غير قول أية كلمة، لكم تيدي وجه صديقه. ترنّح هنري لحظة، ثم سقط. كانت صينيته البلاستيكية الخضراء هي ما سقط على الأرض أولًا، فتناثرت الذرة الصفراء التي كانت عليها. لحق جسده بالصينية فاصطدم وجهه أولًا بحبات الذرة وبالأرض المبلطة ببلاطات بيضاء وسوداء.

خطا تيدي من فوق هنري، وركل الصينية فقذف بها عبر أرضية الكافتيريا، ثم سار إلى آلة مكعّبات الجليد فأخذ منها ملء يده وخرج من الصالة.

كانت دودي في تلك اللحظة خارجة من صف المنتظرين حاملة بيدها فنجانًا من حساء الدجاج فسمعت صوت اصطدام وجه هنري بالأرض... كان مثل ارتطام قطعة لحم نيئة بسطح طاولة رخامي. انقضت لحظة قبل أن تدرك أن قطعتَي التشكلتس البيضاوين اللتين انزلقتا على الأرض وتوقفتا على مسافات إنشات من حذائها الجلدي الفاخر لم تكونا إلا سنَّيّ هنري الأماميتين. زعقت امرأة واقفة إلى جوارها، لكن دودي انحنت والتقطت السنّين ووضعتهما في جيب معطفها القصير. قالت عندما روت لنا القصّة: «ربما كانوا يستطيعون إعادتهما إلى مكانهما».

وأما أولئك الذين لم يروا ولم يسمعوا اصطدام قبضة تيدي بفم هنري ، فقد حسبوا أن هنري قد أغمي عليه. صاح أحد الواقفين: «أحضروا طبيبًا!». جلس هنري مذهولًا في حين ظهر الدكتور تيرنر (ليس طبيبًا في حقيقة الأمر ، بل مسؤول الكافتيريا الكهل الذي تتدلّى من فمه دائمًا سيجارة لم يدخن إلا نصفها). جاء من المطبخ حاملًا شريحة لحم مجمّدة. قال وهو يناول هنري تلك الشريحة: «خذ هذه ، يا صاحبي».

كان دم أحمر يسيل من فم هنري على قميصه الأبيض. وضع شريحة اللحم المجمدة على إحدى عينيه ، ثم غطى عينيه الاثنتين وأنفه. لم يدرك أن اثنتين من أسنانه الأمامية قد سقطتا إلا بعد إحساسه بطعم معدني في فمه. تحسس لسانه الفراغ الجديد في فكّه.

ساعد الدكتور تيرنر في النهوض على قدميه: «لا بد أنك فعلت شيئًا خاطئًا ، هاه ؟».

قال هنري وهو ينظر إلى الأشخاص الواقفين في نصف دائرة من حوله: «من كان هذا ؟».

قال الدكتور: «أنا لم أر إلا نتائج ما حدث».

قالت جودي: «تيدي هيلمز. لقد كان تيدي».

أزال هنري عن فمه كتلة من حبوب الذرة المخضّبة بالدم ، ثم سار مجتازًا الناس المجتمعين ، وخرج من المكان.

قالت نورما إنها رأت هنري خارجًا من المقر عند عودتها من موعد مع الطبيب: «كانت طبعة خاتم جامعة جورجتاون الذي يحمله تيدي واضحة على وجه هنري ، تحت عينه اليمنى مباشرة...». ضحكت... «لو كنت مكانه لما فعلت أحسن من ذلك».

وفي اليوم التالي ، وصلنا إلى العمل مبكرات خمس دقائق لنرى ما ستكونه عواقب ما جرى في استراحة الغداء. سألت كاثي: «هل سيطردونه ؟».

قالت ليندا: «لا... هكذا يسوّي الفتيان الأمور في ما بينهم. ولن تصيبني الدهشة أيضًا إن كان دولز يشجع على ذلك. ستعود العلاقة بينهما إلى سابق عهدها بعد وقت قصير جدًا».

عدنا إلى العمل محاوِلات استنتاج ما أغضب تيدي إلى الحدِّ الذي جعله يرسل صديقه الأقرب إلى طبيب الأسنان. اقترحت نورما علينا عندما كنا جالسات في مقهى رالف في صباح أحد الأيام: «فلنعد إلى الخلف ، تيدي لَكَم هنري ، وإيرينا تركت تيدي ، وسالي تركت العمل».

سألتها ليندا: «ما العلاقة بين هذه الأمور الثلاثة ؟».

أجابت نورما: «لا أفهم شيئًا».

ظهر تيدي في المقر صبيحة اليوم التالي - على مفاصل أصابع يده شريط طبي لاصق ، لكن هنري لم يعد أبدًا. إلا أن نورما عثرت على بعض المعلومات المتعلّقة بمكان وجوده. كيف ؟...

كنا نعرف أن علينا ألا نسألها ، لكنها أخبرت عددًا منا بمكان وجوده ظانة أن هذه المعلومة يمكن أن تصير مفيدة في وقت لاحق.

انقضى أسبوعان ، ثم تفاجأت جودي نفسها عندما وضعت يدها في جيب معطفها القصير فوجدت سنَّي هنري بدلًا من المنديل الذي كانت تبحث عنه في ذلك الجيب.

ثم انقضت ثلاثة أسابيع فأعدنا هدايا الزفاف التي اشتريناها من أجل تيدي وإيرينا. كنا مسرورات لأننا احتفظنا بإيصالات الشراء. وبعد شهر من ذلك ، دخل أندرسون مع ضاربة آلة كاتبة جديدة. فأدركنا أن إيرينا لن تعود.

الفصل الحادي والعشرون
الراهبة

تحت ستارة من شعر مبتل ، كنت أنظر إلى الماء الأسود يتدفّق في بالوعة المغسلة. جعلتني المواد الكيميائية أشعر بدوار. وعندما رفعت رأسي الذي لا يزال يقطر ماء ، فتحت النافذة المرأة التي أتت لكي تحوّلني إلى امرأة جديدة.

لفّت رأسي بمنشفة بيضاء. ثم أمرتني بالجلوس على الصندوق القديم الذي كان مستخدمًا أيضًا طاولة صغيرة في تلك الشقة. فتحتْ حقيبة التجميل ذات اللون الوردي اللامع ، وأخرجت منها مقصًا كان طرفه بارزًا من غلافه البنفسجي ، ثم أخرجت تشكيلة من الأصبغة ، وشريطي قياس ، وحشيات من مادة رغوية ، وعددًا من فَراشي التجميل ، وعيّنات من قماش أبيض وأسود ، وقفازين مطاطيين أصفرين.

انهمكت المرأة في فكفكة عُقد شعري ومشطته إلى أن صار صقيلًا كله ، ثم ردّته إلى الخلف. وبعد أن أعملت فيه مقصها ، ناولتني ضفيرتي الذبيحة. أمسكت بتلك الضفيرة في حين

تناولت المرأة زجاجة الصباغ الأسود التي استخدمتها لصبغ شعري ، وبدأت تصبغ حاجبيَّ بحركات دقيقة مستخدمة فرشاة صغيرة. كان إحساسي بحرق الصباغ أكثر من الوخز الخفيف الذي وعدتني به.

بعد الفراغ من الصباغ ، قالت لي المرأة أن أقف وأتعرّى. ترددتُ. قالت لي: «لا تقلقي ، يا عزيزتي. لقد رأيت هذه الأشياء كلّها». كنت قد نجحت في استعادة بعض الوزن الذي فقدته بعد أن وضعت سالي نهاية لما كان بيننا. لكني لم أفلح في استعادة الكثير. وضعت المرأة الحشية الرغوية على صدري ، ثم على مؤخرتي. قالت: «سوف نضع لك بعض الإضافات».

كانت ماضية في الكلام وهي تأخذ مقاساتي. قالت لي إنها عملت في ستوديوات شركة وارنر براذرز. كانت في قسم الملابس ؛ وكانت تضع رموشًا مستعارة لجافن كراوفورد ذات المزاج المتقلب ، وتضيف حشيات داخلية إلى حذاء هامفري بوغارت حتى يزداد طولًا ، وتدور على كل صالون تجميل في هوليوود لكي تعثر على لون الصباغ الأشقر المناسب لدوريس داي. ثم راحت تحدّثني عن تلك المرة التي دخلت فيها غرفة الملابس فرأت رأس فرانك سيناترا بين فخذي ممثلة لا تريد أن تقول اسمها (قبعته على تزال على رأسه!). قالت: «تصوّري أنه لم يرفع رأسه ، اكتفى بأن غمغم قائلًا لي من بين فخذيها أن أعود بعد عشرين دقيقة. لم يكن صاحب العينين الزرقاوين ذاك شخصًا كريمًا أبدًا». بقيت صامتة في حين كانت المرأة تقصّ عليَّ قصصها. في الأحوال العادية ، كان يمكن أن أجد كلامها مسلّيًا كثيرًا ، لكنّي لم أكن في المزاج المناسب لذلك. ثم إنها كانت من ذلك النوع من النساء القادرات على مواصلة الكلام خمسًا وأربعين دقيقة من غير انتباه إلى أن من تحدّثه قد نام.

كنت مرهقة لأنني وصلت بالطائرة قبل ثماني ساعات فقط. كانت تلك سفرتي الأولى بالطائرة. وعندما نزلت منها وسرت على الإسفلت ، صرت أكثر من ناقلة رسائل - حتى قبل أن يتغيّر شكلي! لقد صرت شخصًا جديدًا.

أنا التي طالبت بهذا ؛ وها هو قد تحقّق. كانت لدي أكثر من مهمة ؛ وكانت بطاقة سفري في اتجاه واحد. سنحت لي فرصة التحوّل إلى شخص آخر ، فرصة فتح صفحة جديدة. وهكذا ، اغتنمت الفرصة. من الممكن أن يحرّر انكسار القلب صاحبته... يزول الثقل الضاغط ، ولا يبقى أحد يمكن أن يسبّب لي ألمًا ، أو أسبّب له ألمًا. على الأقل ، هذا ما كنت أقوله لنفسي.

جمعت المرأة مقصّاتها وأصبِغتها وقفازاتها ، وأعادتها إلى الحقيبة. كنّست شعري عن الأرض

ووضعته في كيس نايلون صغير ، ثم وضعت الكيس في حقيبتها. وقبل خروجها ، قالت لي إن بائع أزهار سيأتيني بثوب الراهبة في علبة من تلك المستخدمة من أجل الورود ذات السُوْق الطويلة. فتحتِ الباب ، ثم التفتت في اتجاهي وقالت: «لقد سرّني لقاؤك ، يا عزيزتي». أجبتها: «سرّني لقاؤك أيضًا» ؛ هذا على الرغم من أنني لم أقل لها اسمي ، ولم تقل لي اسمها.

أغلقت الباب من خلفها ، وذهبت إلى المرآة المتشقّقة المعلّقة فوق مغسلة الحمام لأرى المرأة الغريبة التي صرتها. مررت أصابعي عبر البوصات القليلة الباقية من شعري. بللت طرف إصبعي بلساني ودعكت بقعة صباغ سوداء باقية على صدغي ، ثم قلت في نفسي إنني صرت الآن قادرة على أن أكون أي شخص.

لكن شدّة الإثارة تراجعت عندما ارتديت ملابسي. ما الذي يمكن أن تقوله سالي عن تحوّلاتي ؟ وكيف يمكن أن تراها ماما ؟ وضعت يدي على رقبتي من الخلف. أنا واثقة من أن ماما لن يعجبها هذا. ستقول سالي إنه شيء جديد. وأما تيدي ، فسيقول إنه يعجبه... على الرغم من أنه لا يعجبه.

لم أكن راغبة في البقاء وحدي بعد جنازة ماما ، فأقام تيدي معي في الشّقّة ، على الأريكة. كان تيدي يقرأ لي -في الليالي التي لا أستطيع النوم فيها- مقالات لجوزيف ميتشل وإ. ب. وايت في ذا نيويوركر ، وقصصًا قصيرة لرجال نسيت أسماءهم. وذات مرة ، في الليلة التي قلت له فيها إنني لا أستطيع الزواج منه ، قرأ لي من حزمة أوراق أخرجها من حقيبته. لم يقل لي شيئًا عمن كتب ما كان يقرأه إلى أن انتهى ، فقال إن ذلك كان الفصل الأول من رواية يعمل عليها منذ سنين. قلت له إنه أعجبني وإن عليه أن يكمل الرواية. قال لي: «هل تظنين هذا حقًّا ؟». قلت له إنني لا يمكن أن أكذب عليه ، فسألني إن كانت هذه حقيقة.

وجدت صعوبة في النظر في عينيه ، لكنني قسرت نفسي على النظر: «لا أستطيع الزواج منك».

يمكننا أن ننتظر. سننتظر طيلة الوقت اللازم لك. أنت لا تزالين حزينة على أمك».

«لا. ليس هذا هو الأمر».

«فما هو الأمر إذًا ؟».

«لست أدري».

أحسست أنه يمسك لسانه عن الكلام ؛ ولا يريد قول الكلمات المعلّقة بيننا. قال: «أظنك

تعرفين».

«لا أعرف».

«هل هي سالي؟».

«ماذا؟ لا... إنني أجد صعوبة في إقامة الصداقات... أعني، صداقات حقيقية. لقد كانت سالي صديقة جيدة».

«لا ضرورة لأن يتغير أي شيء. أعرف أن...».

«لا أظنك تعرفني مثلما تظنّ أنك تعرفني».

«هذا هو الأمر. أنا أعرفك».

سألته: «ما الذي تقوله؟».

«أقول إنني أريد أن أكون معك... مهما يكن معنى هذا بالنسبة إليك».

لكني لم أفهم. لم أكن أريد أن أفهم. «مهما يكن معنى هذا بالنسبة إليكِ!... ما الذي تريده أنتَ؟».

قال: «أريد زوجة. أريد صديقة...». نشق بأنفه مبتلعًا دموعًا... «أريدُك أنتِ».

«وماذا تظنني؟».

أطرق برأسه: «كوني صادقة معي».

قلت له إنني صادقة معه، فطلب مني أن نؤجّل الأمر إلى الصباح، أن نمنح نفسينا وقتًا قبل الإقدام على اتخاذ أية قرارات. وافقتُه حتى أتخلّص من رؤيته على تلك الحال؛ ثم افترقنا: نام على الأريكة، وذهبت لأنام على سريري حيث أمضيت الليل كلّه أصغي إلى صوت تقلّبه في الغرفة الأخرى.

وفي اليوم التالي، هبت تلك العاصفة التي أدّت إلى انقطاع الكهرباء عن نصف المدينة. قاد تيدي السيارة في اتجاه المكتب. لم نكن نتحدّث، ولم نشغل الراديو. كان الصوت الوحيد صوت ماسحات الزجاج تعارك المطر المنهمر. وعندما توقّفنا في ساحة وقوف السيارات، نزعت خاتم جدّته من إصبعي ووضعته على لوحة العدادات أمامه. مال إلى الأمام مستندًا إلى مقود السيارة، فتركته في تلك الوضعية. لم يكن لدي شيء آخر أقوله له؛ وقد خشيت أن يؤدّي أي كلام آخر بيننا إلى جرحه أو إلى بقائي جالسة في السيارة. أنا التي وضعت نهاية للأمر، لكني أحسست كأن هذا قد كسر قلبي... لا مثلما كسرته سالي، بل بطريقة زادت

إحساسي بأنني صرت أشبه بزورق تتقاذفه الأمواج، كأنني أقطع آخر حبل يربطني إلى اليابسة.

لم يأت تيدي إلى المكتب في ذلك اليوم؛ ولم أره قبل سفري. ذهب إلى الشقة فأخذ حقيبته قبل عودتي من العمل. وفي اليوم التالي، استدعاني أندرسون إلى مكتبه وسألني عن علاقتي بسالي. قيل لي إنها طُردت، وإن علاقتي بها كانت موضع شك. أنكرت ذلك بطريقة مقنعة إلى حد جعل أندرسون يصدّق كلامي. هم من علّموني كيف أصير شخصًا آخر، كيف أكذب وأخفي حقيقتي. أعجبني إحساسي أنني أستخدم هذه القدرة في مواجهتهم.

كان التفكير في هذا كلّه أكثر مما أطيق. إلا أنني لا أزال غير قادرة هنا، في بروكسل، وأنا أنظر إلى نفسي في مرآة في النصف الآخر من العالم، لا أزال غير قادرة على إخراج ذلك كله من رأسي. لكن عليَّ أن أخرجه! لا عودة إلى الخلف. لقد بدأت المهمة.

غطيت شعري بوشاح، ثم انطلقت إلى نقطة اللقاء. كانت بروكسل ضاجّة بالحركة، وكان القمر نصف قرص في سماء المدينة. شوارع مزدحمة بالأجانب من أنحاء العالم كلّه. كنت أمرّ بالمقاهي المزدحمة فأسمع الناس يتكلّمون بالفرنسية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية والهولندية. وعندما عبرت الساحة، لا غراند بلاس، كانت مجموعة من رجال ونساء صينيين واقفة في وسط الساحة. كانوا ينظرون إلى «أوتيل دو فيل» ويتناولون قطع الشوكولاته من علبة تنتقل من واحدٍ إلى آخر. مرَّ بي رجالٌ روسٌ؛ مرّوا على مقربة شديدة مني إلى حدٍّ جعل أحدهم يحتكّ بكتفي. هل طالت نظرة صاحب قبعة الفراء إليّ أكثر من الحدِّ الطبيعي؟ لم ألتفت، ولم أزد سرعة خطواتي. ظللت أنظر أمامي، وتابعت سيري.

وصلت إلى العنوان الذي أعطاني إياه الشخص الذي يوجّهني. مكان في شارع لانفري، قريب جدًا من «إكسيل بوندز». وقفت أمام مبنى «الفن الجديد» الضخم، فهالتني تلك الكتلة ذات الطوابق الخمسة المغلّفة بخشب ذي أشكال متداخلة معقدة وقضبان حديدية متعرّجة خضراء بلون النعناع تتسلّق الواجهة كأنها لبلاب. كان المكان كله جزءًا من متحف فني. صعدت السلم الإسمنتي المنحني ووصلت إلى الباب الرئيسي المزدوج. قلت في نفسي إنني منتمية إلى هذا المكان... أو، بالأحرى، إن الشخصية التي صرتها منتمية إلى هذا المكان. ضغطت مفتاح الجرس الذهبي ضغطة واحدة، وعددت حتى ستة عشر، ثم ضغطت عليه من جديد. أحسست باندفاعة تعرق خفيفة عند رقبتي. فتح الباب رجل في ملابس قِسٍ. قلت له

بالروسية: «الأب بيير؟».

«الأخت آليونا. أهلًا وسهلًا». سمعت اسمي الجديد، فزال الانقباض عن صدري.

صافحته بقوة مثلما علّمتْني سالي: «يسرني لقاؤك».

«بدأنا قبل وصولك». لم أكن أعرف اسمه الحقيقي، ولم أعرف حتى إن كان الأب بيير كاثوليكيًا. كان في ملابس القساوسة، لكنه ألقى فوق كتفيه كنزة كشمير عاجية اللون كأنه عائد من لعب الغولف. كان الأب بيير في أوائل الثلاثينات، وكان ذا وسامة باهتة وشعر خفيف أشقر وعينين داكنتي الزرقة ولحية ضاربة إلى الاحمرار. دعاني إلى الدخول فصعدت السلم من خلفه.

كان أثاث الشقة فاخرًا، لكن ديكورها غير منسجم الذوق كأنه من اختيار شخص حديث العهد بالثراء، أو شخص استأجر من يمنحه ذوقًا. مزيج من الأثاث الدانماركي الحديث، وسجاد وستائر على طراز القرن السابع عشر، وخزفيات فولكلورية... مزيج يجعل المرء يحسّ كأنه يتجوّل في متحف فوضوي.

وصلت في الموعد المقرر بالضبط، لكني كنت آخر من يصل من أفراد الفريق. رجل وامرأة جالسان على أريكة على شكل كِلية يشربان الكونياك قبالة موقد تكاد ناره تنطفئ. كان الرجل الذي اسمه الأب ديفيد العميل المسؤول عن مهمتنا. وكانت المرأة، إيفانا -اسم حقيقي- ابنة لاهوتي أرثوذكسي روسي في المنفى. إنها صاحبة دار نشر بلجيكية تطبع مواد دينية. وهي أيضًا مؤسسة جماعة «الحياة مع الرب»... منظّمة سرّية تُهرّب مطبوعات دينية ممنوعة إلى ما خلف الستار الحديدي. كانت جماعتها تعمل بالتعاون مع الفاتيكان منذ افتتاح المعرض. وكان علينا أن نستفيد من توجيهاتها فيما يخص أكثر السبل نجاعة لتوزيع رواية «دكتور جيڤاكو».

رفع كل من إيفانا والأب ديفيد رأسيهما ونظرا إلينا عند دخولنا، لكنهما لم يبتسما ولم يقفا.

لم تكن هناك حاجة إلى أي تعارف بيننا: يعرفون جميعًا من أكون، تمامًا مثلما أعرف من يكونون. جلست على حافة كرسي أبيض مغلّف بالقماش. ثم تابعوا كلامهم.

كان على الطاولة الصغيرة الصقيلة السوداء أمامهم نموذج دقيق لمعرض «إكسبو 58»، فيه مرايا زرقاء اللون تمثّل النوافير وبرك الماء، إضافة إلى أشجار ومنحوتات صغيرة وأعلام تمثل البلدان كلّها، وجناح «مدينة الرب» بسقفه المائل الذي يشبه منحدرًا للتزلج. إنه الموقع الذي

سيجري فيه تنفيذ المهمّة.

كانت فكرة الاستفادة من المعرض لتوزيع الكتاب فكرة إيفانا ، لكن الأب ديفيد هو من التقطها وجعل الوكالة تتبناها. كان مقتنعًا بأن من شأن معرض «إكسبو 58» أن يكون موقعًا ممتازًا من أجل إيصال الكتاب إلى الاتحاد السوفييتي مع ما سوف يؤدّي إليه ذلك من استياء عالمي جرّاء حظره هناك.

تحدّث الأب ديفيد بصوت منخفض لكنه يرغم المرء على الانتباه... صوت ثابت واثق مثل صوت تشيت هانتلي عندما يقرأ نشرة الأخبار المسائية. كان أكثر من الأب بيير إيحاءً بهيئة قِسٍّ حقيقي: شعر قصير كشعر فتيان الكشافة ، وفم وردي رقيق ، وأصابع طويلة لا يصعب على المرء تصوّرها حاملة خبز القربان المقدس.

أشار الأب ديفيد إلى النموذج الذي أمامنا وجعلنا نرى السبل المختلفة التي سنسلكها عند دخولنا المعرض وخروجنا منه كل يوم. إذا شك أحدنا في وجود من يراقبه ، فعليه أن يتّجه إلى مبنى «أتوميوم» - مبنى نقطة المركز في المعرض ، يبلغ مئة متر ارتفاعًا ، ويمثل بلّورة معدن الحديد مكبرة مئة وخمسًا وستين بليون مرة. كان علينا أن نأخذ المصعد حتى قمة تلك المنشأة المصنوعة من الألمنيوم حيث يوجد مطعم له إطلالة بانورامية على بروكسل. سيكون في المطعم نادل مستعد لتقديم المساعدة.

بعد إعطائنا هذه اللمحة العامة ، أزاح الأب ديفيد المُجسّم فوضعه على الأرض ، ثم مد على الطاولة رسمًا تخطيطيًا لـ«مدينة الرب». أشار إلى النقطة التي ينتصب فيها تمثال «المفكر» لرودان. قال لنا: «سيكون الأب بيير في هذا المكان ، وسيتجوّل بين الناس من أجل التقييم الأولي للسوفييت الذين يمكن أن يكونوا أهدافًا محتملة. بعد تحديدهم ، سيشير إلى إيفانا بأن يدعك ذقنه بيده اليسرى». مر بظفر إصبعه على الورق مشيرًا لنا إلى الممر المؤدّي من تمثال «المفكر» إلى «كنيسة الصمت»... «وعندها ، تأخذهم إيفانا إلى كنيسة الصمت حيث تختبرهم مرة أخرى لترى إن كانوا مناسبين لأغراض الدعاية. وإذا بدا لها الهدف إيجابيًا...».

دار إصبعه حول مذبح الكنيسة ، ثم أشار إلى غرفة صغيرة مربعة من غير اسم عليها... «فسوف ترافقه إلى هذه الغرفة ، إلى المكتبة ، حيث أكون في انتظاره مع الأخت آليونا...».

نظر إليَّ ثم تابع كلامه... «وبعد التقييم الأخير ، نعطيه الكتاب». أبعد يده عن المخطط الذي أمامنا... «أوه ، هناك أيضًا شيء آخر: منذ هذه اللحظة فصاعدًا لن نشير إلى كتاب

دكتور جيڤاكو إلا باسم الكتاب الجيّد». استند إلى ظهر كرسيه ، ووضع ساقًا فوق ساق... «أية أسئلة؟». وعندما لم يجبه أحد منا ، مضى بنا في جولة جديدة لشرح الخطة ، من أولها إلى آخرها ، وبعد ذلك شرحها لنا مرة ثالثة.

بعد أن ترسّخت الخطّة في أذهاننا ، بقينا جالسين نتحدّث ونشرب نبيذًا أحمر من فناجين شاي ، وندخّن. عندها فقط ، طرحت هذا السؤال: «الكتاب الجيّد... هل هو هنا؟». نظرت إيفانا إلى الأب ديفيد ، فأومأ الأب ديفيد برأسه موافقًا. «لقد نُقلت الكتب مباشرة إلى المعرض في وقت سابق من هذا اليوم. لكن لدينا نسخة هنا». نهضت وذهبت إلى خزانة في الردهة. سحبت صندوقًا خشبيًا مغطّى بحصير قديم. أبعدت الحصير وأخرجت الكتاب. قدمته إليَّ قائلة: «تفضّلي».

كنت أتوقّع أن أحسّه شيئًا سريًا ، غامضًا. كنت أتوقّع أن تكون روح التمرّد ظاهرة عليه. لكني لم أشعر بأي شيء. بدت لي الرواية المحظورة مثل أي رواية أخرى. فتحتها وقرأت بصوت مرتفع ، باللغة الروسية: «أحب كل منهما الآخر ، لا بفعل الضرورة ، ولا بفعل 'توقّد العاطفة' الذي كثيرًا ما يوصف به الحب وصفًا زائفًا. أحبّ كل منهما الآخر لأن كل شيء من حولهما أراد ذلك ، الأشجار ، والغيوم ، والسماء فوق رأسيهما ، والأرض تحت قدميهما». أغلقت الكتاب. لم أكن أريد التفكير فيها. لم أكن قادرة على التفكير فيها.

سألت: «هل قرأتم الكتاب؟».

قالت إيفانا: «ليس بعد».

هز الأب ديفيد والأب بيير رأسيهما نفيًا.

فتحت الرواية من جديد ، فتحتها على الصفحة الأولى. لاحظت غلطة: «اسمه!».

سألني الأب ديفيد: «ماذا به؟».

«لا يجوز أن يكتب هكذا: بوريس ليونيدوفيتش باسترناك. لا يذكر الروس اسم الأب على غلاف الكتاب. لا يكتبون إلا: بوريس باسترناك». نفث الأب بيير دخان سيجاره الكوبي ، وقال: «فات الوقت الآن» ، ثم ضم يديه أمامه كأنه يتلو دعاء.

في صباح اليوم التالي ، ارتديت بعناية السروال الداخلي وحمالة الثديين المزوّدة بالحشيات ، ثم لبست فوقهما الثوب الأسود عديم الشكل وغطاء الرأس مع عصابة صلبة بيضاء تطوّق جبهتي. كان محظورًا عليَّ أن أضع أي نوع من مواد التجميل. قالت لي المرأة

التي من هوليوود إن عليَّ الاكتفاء بقليل من الفازلين على شفتيَّ وعلى وجنتي لكي أجعلها لامعة قليلًا. لكني امتنعت حتى عن فعل ذلك. نظرت في المرآة فأعجبني شكل وجهي: خشن، شاحب، وربما أكبر سنًا، بعض الشيء. تراجعت قليلًا حتى أرى جسدي كله في المرآة. بدا لي عديم الجنس... بدا لي قويًا.

وعند الساعة السادسة وثلاثين دقيقة، خرجت من الشقة لكي أبدأ يومي الأول في المعرض. إذا أنجزنا مهمتنا على نحو سليم، فسوف نفرغ من تسليم ثلاثمئة وخمس وستين نسخة من رواية «دكتور جيڤاكو» مع نهاية اليوم الثالث من المعرض.

رأيت ال« أتوميوم» عندما كنت في الترام الذي أقيم خصيصًا لنقل زائري المعرض من مركز المدينة إلى «هيزل باليه». كان الأتوميوم أكبر كثيرًا مما أوحى لي به النموذج المجسم الذي رأيته. إنه الشعار الرسمي للمعرض. كان مطبوعًا على كل ملصق، وكل نشرة دعائية، وعلى كل بطاقة بريدية أو تحفة تذكارية... كان مرادًا من الأتوميوم ذي الكُرات التسع أن يمثل العصر الذرّي الجديد. وأما في نظري، فقد بدا أشبه ببقية من ديكور فيلم «يوم وقفت الأرض ساكنة».

لن يفتح المعرض أبوابه قبل ساعة من الآن. لكن حشودًا من الناس كانت مصطفة خارج بواباته الحديدية الكبيرة. أطفال نافذو الصبر يجذبون حقائب أمهاتهم؛ وطلبة مدرسة ثانوية أميركية أدخلوا رؤوسهم وأيديهم عبر قبضان السور.

كاد أحدهم يعْلَق بين القضبان. رجل وامرأة فرنسيان يتبادلان المداعبات والقبل أمام الناس من غير اهتمام بنظراتهم. امرأة ألمانية مسنّة تلتقط صورة لزوجها الواقف إلى جوار امرأة مرتدية تنورة سوداء وسترة سوداء وربطة عنق سوداء وقبعة سوداء... واحدة من مرشدات المعرض. أثارني أن أكون بين هذه الكثرة من الناس مع بقائي غير مرئية. لم يلتفت أحد إلى تلك الراهبة.

انضممت إلى صف عاملي المعرض عند بوابة «بورت دو بارك» المؤدّية مباشرة إلى القسم الدولي. ومع اقترابي من الحارس، استنشقت نفسًا عميقًا وأخرجت شارتي، شارة «إكسبو 58». نظر الرجل إليَّ نظرة سريعة وأشار لي بالدخول.

لقد كان شيئًا استثنائيًا! لم يفلح النموذج المجسّم حتى في ملامسة تصوير ضخامة المعرض. إنه المعرض الدولي الأول بعد الحرب. وقد كان مقدّرًا أن يقصده أربعون مليون سائح من كل

ناحية من نواحي الأرض.

سرت وحدي في الشارع الرئيسي، وحدي باستثناء عمال المعرض المسرعين إلى مواقعهم، وجماعة من نساء حاملات مكانس طويلة كن يُزِلن بعض الفضلات من الشارع. مررت بجناح تايوان الذي كان سقفه على شكل طبقات متعددة تمثّل معبدًا يصعد المرء إليه على درجات رخامية بيضاء لامعة. وكان جناح المملكة المتحدة شديد الشبه بثلاث قبعات بيضاء كالتي يضعها البابا. وأما الجناح الفرنسي فكان سلّة حديثة ضخمة مبنية من الفولاذ والزجاج. كان جناح ألمانيا الغربية حديثًا أيضًا، لكنه بسيط؛ كان شيئًا يمكن أن يتخيّله المعماري فرانك لويد رايت. وكان جناح إيطاليا على هيئة فيلا جميلة من توسكانا.

سرعان ما وجدت الجناح الأميركي فلم أعرف إن كان ذلك الجناح، المحاط بالأعلام الأميركية من كل ناحية، قد بدا لي أشبه بعجلة عربة مقلوبة أو بطبق طائر. وإلى يساره مباشرة، كان جناح الاتحاد السوفييتي شديد الضخامة - أكبر جناح في القسم الدولي بفارق كبير عن أي جناح آخر. بدا كأنه قادر على التهام الجناح الأميركي التهامًا. وفي الداخل، كان هناك مجسّمان طبق الأصل لسبوتنيك 1 وسبوتنيك 2 اللذين كنت تواقة إلى رؤيتهما. ما كنت لأعترف بهذا علنًا؛ لكني لم أستطع منع نفسي من الإحساس بنفحة اعتزاز يوم إطلاق سبوتنيك. لم أزر «البلد الأم» أبدًا، لكني نظرت إلى السماء ليلة إطلاقه فأحسست بأن صلة تربطني بذلك المكان الذي وُلد فيه أبي. كان إحساسًا لم أعرفه قبل ذلك. كانت سماء واشنطن غائمة في تلك الليلة. وكنت أعرف أنني لن أستطيع رؤيته بالعين المجرّدة، لكنّي نظرت إلى السماء آملة أن أرى نقطة لامعة فضّية ترسم خطًا في السماء. كنت واقفة هناك، شديدة القرب من ذلك الشيء -أو من مجسّم له، على الأقل- فوددت كثيرًا أن أدخل الجناح الروسي حتى أراه، حتى ألمسه.

لكنّي كنت غير قادرة على مخالفة الخطة التي وضعها الأب ديفيد.

كانت وجهتي واقعة إلى الناحية الأخرى من الجناح الأميركي: مدينة الرب. بدا لي جناح مبنى الفاتيكان الأبيض، البسيط، ذي السقف المائل، صغيرًا إلى حدٍّ يسمح بوضعه في ردهة المدخل في جناح الاتحاد السوفييتي. دخلت المبنى الهادئ فتردّد صدى خطوات حذائي الجلدي الأسود الرخيص على الأرض الرخامية. كان العاملون في المكان يمضون مسرعين هنا وهناك استعدادًا لفتح أبواب الجناح. كانوا يمسحون الأرض، ويضعون النشرات الإعلانية،

ويملأون الأجران ماء مقدّسًا. كانوا يقولون لي عند مروري بهم ، مرحبًا ، يا أخت ، فأبتسم لهم الابتسامة التي أظنّها ابتسامة الراهبات: ابتسامة صغيرة من زاويتَي فمي.

كان الأب بيير قد وصل قبلي واحتل موقعه - رأيته واقفًا عند تمثال المفكّر ، يداه خلف ظهره. وعند مروري به ، لم يزح عينيه عن ذلك التمثال الشهير.

سرت في الممر المسقوف المؤدّي إلى كنيسة الصمت. رأيت فيها راهبتين تجهّزان المذبح الصغير القائم قبالة المقاعد الخشبية الطويلة. نظرت الراهبتان إليَّ ، ثم واصلتا إشعال الشموع. هل اجتزت الاختبار بنجاح ؟ إن كان الأمر غير ذلك ، فإن الراهبتين لم تفصحا عن شيء. لم تبدر عنهما أية ردة فعل عندما درت من حول المذبح وسرت في اتجاه فتحة الستارة الزرقاء الثقيلة المعلّقة من خلفه.

قال لي الأب ديفيد لحظة دخولي غرفة المكتبة السرّية: «أنت هنا...». نظر إلى ساعته... «فُتحت الأبواب أمام الزائرين. هل أنت مستعدة ؟».

اتّخذت مكاني على مقعد خشبي أمام الرف الذي ملأتْه نسخ كثيرة من الكتاب الجيّد. كان لكل نسخة منها غلاف من الورق المقوّى المغلّف بقماش متين أزرق اللون. كنت أكثر هدوءًا مما توقّعت ، لكن الأب ديفيد كان يشعّ توتّرًا عصبيًا وهو يذرع الغرفة الصغيرة جيئة وذهابًا ، أربع خطوات إلى اليمين ، ثم يعود أربع خطوات. اكتشفت في ما بعد أن سنتين قد مرّتا منذ أن كان الأب ديفيد في الميدان آخر مرة ، في هنغاريا حيث كانت له مساهمة في دفع الوطنيين الهنغاريين إلى التمرد على محتلّيهم السوفييت.

سمعنا همسات الزوار الداخلين إلى مدينة الرب ، وسمعنا وقع الأقدام الأولى المكتوم. حبست أنفاسي محاولة الإصغاء حتى أعرف اللغة التي يتكلّمونها. أهي اللغة الروسية ؟ اتضح لي أن الأب ديفيد كان مصغيًا مثلي ، وكان رأسه مائلًا صوب فتحة الستارة.

كنا في انتظار وصول الهدف الأول. أحسست تشنّجًا بين لوحَي كتفَيّ.

أزاحت إيفانا الستارة. ومن خلفها ، كان رجل وامرأة روسيان ينظران كما لو أن ستارة «ساحر أوز» قد انفرجت لتكشف لهما عن قسٍّ وراهبةٍ وبعض الكتب بدلًا من رجل يحرّك بعض العتلات. تردّدت ، لكن الأب ديفيد لم يتردّد. استقبلهما بتحية دافئة وبلغة روسية بلهجة موسكوفية لا شائبة فيها. زال عني التوتّر كلّه ، وتحوّل الأب ديفيد إلى قسٍّ بكل معنى الكلمة... شخص ساحر فيه مسحة من قوة - صار واحدًا من أولئك القساوسة الذين يرغب

أثرياء أبرشياتهم في دعوتهم إلى عشاء يوم الأحد.

طرح الأب ديفيد على الرجل والمرأة أسئلة عن زيارتهما للمعرض: هل أنتما مستمتعان بهذه الزيارة؟ ماذا رأيتما؟ هل دخلتما الجناح لرؤية تمثال رودان؟ هل زرتما مجسّم كاسحة الجليد النووية؟ إنجاز علمي مدهش. هناك صفّ انتظار طويل من أجل رؤيتها، لكنّها تستحقّ عناء الانتظار. هل ذقتما حلوى الوافل.

ومن غير تأخير، تمكّن الأب ديفيد من جعل الرجل والمرأة يرويان قصتهما. كانت المرأة - اسمها ييكاتيرينا - راقصة باليه من فرقة مسرح البولشوي التي تقدّم كل ليلة عرضًا في الجناح السوفييتي؛ وأما الرجل الأكبر سنًا منها، إدوارد، فاكتفى بوصف نفسه بأنه راعٍ للفنون.

قال الرجل مباهيًا بأداء المرأة في الليلة السابقة: «لقد تركتِ الجمهور مبهور الأنفاس... بل أبهرت حتى زملاءها وزميلاتها».

انتهز الأب ديفيد هذه الفرصة فقال لهما إنه رأى، منذ فترة وجيزة، غالينا سيرغيفنا أولانوفا، ترقص في لندن. قال: «كان ذلك شيئًا يوقظ الروح... كأن السيدة العذراء نفسها قبّلت قدمي غالينا. لقد كانت تجسيدًا حيًا للشعر. أيد الاثنان كلامه تأييدًا حماسيًا. وفي تلك اللحظة، انتقل الأب ديفيد انتقالًا شديد السلاسة إلى كلام أكثر عمومية في الفن والجمال... وفي أهمية وصولهما إلى جميع الناس.

قالت ييكاتيرينا: «أتّفق معك تمامًا». كان واضحًا من مسحة التورّد التي ظهرت على وجنتيها أنها مسحورة بالقسِ الشاب وحديثه الحماسي.

سألها: «هل تحبّين الشعر؟».

أجابه إدوارد: «نحن روسيان، ألسنا كذلك؟».

لم يكن قد مضى على دخولهما غرفة المكتبة إلا دقائق، عندما استدار الأب ديفيد صوبي طالبًا مني أن أناوله نسخة من الكتاب الجيّد. تناولها وقدمها إلى الرجل: «ينبغي الاحتفاء بالجمال»؛ قالها مع ابتسامة قدسية. أخذ الرجل الكتاب ونظر إلى عقبه. أدرك الأمر على الفور، وبدلًا من أن يعيد «دكتور جيڤاكو» إلى الأب ديفيد، مرّر لسانه على شفتيه وناول ييكاتيرينا الكتاب. تجهّم وجهها، لكنه أومأ لها فوضعت الكتاب في حقيبتها. قال إدوارد: «أرى أنّك محقٌّ، يا أبتِ». بعد أن انتهى الأمر، وأخذ الاثنان الكتاب، دعا إدوار الأب ديفيد إلى الجلوس معه في مقصورته لمشاهدة عرض ييكاتيرينا في المساء. قال الأب ديفيد إنه

سيبذل كل ما في وسعه لكي يتمكّن من تلبية الدعوة.

قلت له بعد خروجهما: «نجح الأمر».

أجابني الأب ديفيد بصوت ثابت: «بالطبع نجح».

بدأت الأهداف تأتي سريعًا بعد ذلك. عازف أوكورديون في فرقة الجيش الأحمر، أخذ الكتاب وأخفاه في حقيبة أوكورديونه الفارغة. مهرج في سيرك موسكو الحكومي وضع الكتاب في علبة المكياج. مهندسة ميكانيكية ترعرعت وهي تسمع أمها تردّد قصائد باسترناك الأولى، قالت لنا إن لديها رغبة شديدة في قراءة الكتاب، لكن من المرجح أن تقرأه خلال أيام المعرض. مترجمٌ عمل على ترجمة النشرة الخاصة بالجناح السوفييتي إلى لغات كثيرة قال لنا إنه كان على الدوام معجبًا بترجمات باسترناك، وبترجمته مسرحيات شكسبير خاصّة. قال إنه يحلم بأن يلتقيه. رآه مرة يتناول طعام العشاء في «بيت الثقافة المركزي»، لكنه لم يجرؤ على الذهاب إليه. قال: «لقد ضيعت فرصتي. لكني سآخذ الكتاب تكفيرًا عن جبني». قال هذا ورفع الرواية عاليًا بين يديه. أعطاني قبل خروجه نسخة من نشرة الجناح السوفييتي التي ترجمها. كانت في النشرة خريطة للمعرض كله، على صفحتين. ضحكت عندما لاحظت أن الجناح الأميركي وجناح الفاتيكان غير موجودين في تلك الخريطة.

الكلام بالروسية جعل ماما تحضر في ذهني، فتمنّيت أن أرى من تذكّرني بها، ولو قليلًا. لكن أكثر المواطنين السوفييت الذين دخلوا كانوا من فئة المثقفين - أشخاص متعلّمون، متحدّثون، يحظون بتقدير الدولة. وكان الآخرون من صغار السنّ الذين يعيشون خارج البلاد معظم أوقاتهم... الموسيقيون والراقصون وبقية الفنانين ممن يقدّمون عروضهم هنا. كانوا كلهم أبناء مدن؛ وكانت أيديهم ناعمة، غير متقرّنة. كانوا قادرين على تحمل تكاليف السفر، وأهم من هذا أنه كان مسموحًا لهم بأن يسافروا. ملابسهم كملابس الأوروبيين... بدلات مفصّلة أنيقة، وفساتين نهارية فرنسية الصنع، وأحذية إيطالية. صحيح أنني لم أزر البلد الأم أبدًا، لكني رأيت هنا روسًا لم أستطع التعرف فيهم على شيء روسي! كانوا مختلفين كثيرًا عن أمي، فآلمتني هذه الفكرة.

دخلت إيفانا بعد الظهر غرفة المكتبة وقالت لنا إن هناك عددًا كبيرًا من الروس الذين دخلوا لرؤية تمثال المفكّر. تظن أن النبأ قد ذاع. سألتنا: «أليس علينا أن نبطئ قليلًا؟».

أجبتها: «بل علينا أن نزيد سرعتنا. ليس أمامنا وقت طويل إن كان النبأ قد انتشر».

قال الأب ديفيد: «إنها محقّة. دعيهم يدخلون».

بعد أن وزعنا مئة نسخة. مدت إيفانا رأسها عبر الستارة ، كانت في يدها أغلفة قماشية زرقاء. إن الناس ينتزعون غلاف الكتاب عنه... «الأغلفة منثورة على درجات المدخل».

سألتها: «لماذا ؟».

أجابني الأب ديفيد: «حتى يجعلوا الكتاب أصغر حجمًا... حتى يتمكّنوا من إخفائه».

كان مقرّرًا ، بموجب الخطة ، أن نمضي ثلاثة أيام في معرض «إكسبو 58». لكننا انتهينا من توزيع نسخ الكتاب الجيّد كلها في منتصف اليوم الثاني.

انتشرت الأغلفة القماشية الزرقاء في أنحاء المعرض كلّها. نزع اقتصادي معروف صفحات كتاب إكسبو 58 التذكاري ووضع مكانها «دكتور جيڤاكو». وخبأت زوجة مهندس طيران الكتاب في علبة الفوط الصحّية. ووضعه عازف بوق فرنسي بارز داخل عنق بوقه. ولفّته راقصة أولى في فرقة الباليه في مسرح البولشوي بجواربها.

لقد تم عملنا. ودّعنا «دكتور جيڤاكو» آملين أن تتمكّن رواية السيد باسترناك من اجتياز الطريق إلى بلادها ، راجين أن يتساءل من يقرأون الكتاب عن سبب حظره عندهم... إنها بذور التمّرد المغروسة في كتاب مهرّب.

افترقنا ، بحسب الخطة... الأب ديفيد ، وإيفانا ، والأب بيير ، وأنا. ستعود إيفانا في اليوم التالي ، وتظل في إكسبو 58 لكي توزّع كتبها الدينية. وأما البقية فسوف يغادرون المعرض من غير رجعة. لا تحيات وداع كبيرة ، ولا تربيت على الظهور ، ولا عبارات من قبيل «أنجز الأمر جيّدًا» ، أو «أنجزت المهمّة». إيماءات بالرؤوس قبل أن نغادر مدينة الرب واحدًا تلو آخر. ليس مسموحًا لنا بأي تواصل لاحق. لم أكن أعرف وجهتَي الأب ديفيد والأب بيير. لكنّي سأذهب في اليوم التالي بالقطار إلى هولندا حيث ألتقي الشخص المشرف عليّ ، لكي أقدم تقريري وأنطلق إلى المهمة التالية.

شرق

أيلول - تشرين الأول 1958

الفصل الثاني والعشرون
الجائزة

بوريس واقف خلف السياج. إنه يعمل في رقعة الأرض التي زرعها ثومًا وبطاطس وكراثًا. يصل زائر فيسند بوريس مجرفته إلى شجرة بتولا.

يقول له الزائر وهو يمدّ يده من فوق السور لمصافحته: «مرحبًا ، يا صديقي».

يسأله بوريس: «أهو معك ؟».

يومئ الزائر برأسه ويسير خلف بوريس إلى داخل البيت.

يجلسان متقابلين إلى الطاولة في غرفة الطعام. يفتح الزائر حقيبته الظهرية ويضع الكتاب أمام كاتبه. لا يزال الكتاب محتفظًا بغلافه القماشي الأزرق. يمسك بوريس بالرواية. إنها أخف وزنًا بكثير من المخطوط الذي كتبه بيده ووضعه بين يدي شخص أجنبي قبل سنتين. إنها شديدة الاختلاف أيضًا عن الطبعة اللامعة التي صارت من أكثر الكتب مبيعًا في أوروبا - لم يرها إلا في الصور. تمر أظافره المتّسخة على غلاف الكتاب. تمتلئ عيناه دموعًا. يقول من جديد: «إنه هنا».

يخرِج الزائر هديته الثانية - زجاجة فودكا. يسأله: «ألا نرفع نخب الكتاب ؟».

سأله بوريس: «من قام بهذا؟».

يسكب الزائر لنفسه كأسًا: «يقولون إن الأميركيين طبعوه».

يخرج بوريس في نزهته الصباحية. إنها تمطر؛ وهذا ما يجعله يسلك في طريق العودة دربًا تظلّلها الأشجار عبر غابة البتولا متّجهًا إلى الداتشا بدلًا من اتخاذ مساره المعتاد الذي يمر عبر المقبرة، ثم الجدول، ثم إلى أعلى التلّ. الأوراق القليلة الباقية على أغصان الأشجار في الغابة الكثيفة كافية لوقايته من المطر. ملابسه ملائمة لهذا الطقس: معطف مطري، وقبعة، وحذاء مطاطي أسود مرتفع الساق. لكنه يقترب من البيت فيحسّ بردًا يتخلل عظامه.

يسمع بوريس أصواتهم قبل أن يراهم. وعند خروجه من بين الأشجار، يرى السيارات واقفة في الشارع الضيّق، ثم يرى جمعًا صغيرًا في الحديقة... أشخاصًا محتمين من المطر بمظلاتهم. شاب جالس فوق لوح مهترئ من ألواح السياج. يريد بوريس أن يصرخ به لكي ينزل عن السياج، لكنه يقف ساكنًا في مكانه مثل غزال أبصر صياده قبل أن يراه الصياد. يفكّر في التراجع إلى الغابة. لكن أحدًا يصيح باسمه فيتحرّك الجمع كله صوبه مثل حيوان ضخم. يقفز الرجل الجالس على السور ويكون أول من يصل إليه.

يستل الرجل الشاب دفتر ملاحظاته ويمسك بقلمه مستعدًا. يقول له: «لقد فزت. لقد فزت بجائزة نوبل. ألا تدلي بتصريح لصحيفة برافدا؟».

يرفع بوريس رأسه ناظرًا إلى الغيوم تاركًا قطرات المطر الباردة تسيل على وجهه. يقول في نفسه: ها هو! صار كل شيء متاحًا له، كأنها وليمة! كُتب اسمه بماء الذهب! لكن دموع الفرح لم تخالط ماء المطر المنساب على خدّيه، بل حل عليه خوف صقيعي مثل الماء الذي يستحم به كل صباح. نظر إلى الناحية القصيّة من حديقته، حيث البوابة الخربة منذ عشرين عامًا. تذكّر جاره، بوريس بيلنياك، تذكّره آتيًا عبر تلك البوابة، فرِحًا بمشاركته محصول البصل، أو أحدث فصل من فصول روايته. تذكّر في ما بعد، بعد حظر تلك الرواية واتهام بيلنياك بأنه من دبر أمر نشرها في الخارج، تذكّر كيف كان يمر بداتشا صديقه في نزهاته الصباحية فيراه واقفًا ينظر من النافذة منتظرًا. كان بيلنياك يقول له: «سيأتون من أجلي في أحد الأيام». وقد أتوا.

ينطلق فلاش إحدى الكاميرات. ترفرف عينا بوريس. يفتّش عن وجه يعرفه بين أولئك الناس... عن شخص يستند إليه... لكنه لا يرى أحدًا.

يسأله مراسل آخر: «هل ستقبل؟».

يدوس رأس قدم بوريس بركة ماء صغيرة: «لم أرد حدوث هذا. لم أرد هذه الضجة كلّها. إن فرحة كبيرة تملأني. لكن فرحة اليوم فرحةٌ تشكو الوحدة».

يعيد بوريس قبعته على رأسه قبل أن يفلح المراسلون في طرح أية أسئلة أخرى. يقول لهم: «تأتيني أفضل أفكاري خلال سيري، وأنا في حاجة إلى أن أسير قليلًا». يمر عبر فرجة بين الصحفيين، ويتابع سيره عائدًا إلى الغابة.

يقول في نفسه: سوف تدرك أن عليها أن تأتي. ستكون في انتظاري.

يرى شال أولغا الأحمر من مسافة بعيدة فينزاح ثقل عن قلبه. إنها واقفة في أعلى الهضبة المعشّبة في المقبرة حيث لا تزال الأرض بكرًا. تسير على طول قبر غير مرئي. ذراعاها مطويتان على صدرها. حتى هذا اليوم، لا تزال الدهشة تصيب بوريس كلما رآها. لقد تقدّمت في السن. ارتسمت تجاعيد عند زاويتي عينيها، وصار شعرها الأشقر قصفًا. عوّضت الوزن الذي فقدته في المعسكر؛ لكن ما عوّضته لم يذهب إلى ردفيها وفخذيها، بل إلى بطنها ووجهها. كفت عن تمويج شعرها وعن وضع الحلي منذ أن نُشرت «دكتور جيڤاكو» في الخارج. لعلّها ما عادت راغبة في لفت الأنظار إليها. أو لعلها تعبت فما عادت مهتمة. مع هذا كله، صار بوريس يراها أكثر جمالًا.

يجري للقائها. يتعانقان فتحيط به كلّه على الرغم من تكوّرها بين ذراعيه. لمستُها مثل كمّادة شافية.

يشعر بوريس بأن أولغا قد حبست أنفاسها فيدعك ظهرها كأنه يساعدها على التنفس. تبتعد عنه وتؤكّد له ما قاله جسدها... إنها تفكر. تسأله: «ماذا سيفعلون بنا الآن؟».

يقول: «هذا شيء حسن. علينا أن نحتفل. لن يستطيعوا مسّنا. العالم يراقبهم».

تقول: «صحيح...». ثم تنظر من حولها... «إنهم يراقبوننا».

يقبّل جبهتها، ويكرّر ما قاله لها محاولًا إقناعها: «هذا شيء حسن». ينظر في اتجاه الداتشا: «المفترسون ينتظرونني. عليَّ أن أواجههم».

«هل يعني هذا أنك ستقبل الجائزة؟».

يقول لها: «لست أدري». لكنه غير قادر على تخيل عدم قبولها. لقد سارت حياته كلّها حتى هذه الهاوية، فكيف لا يخطو الخطوة الأخيرة؟ حتى لو كانت خطوة إلى الهاوية! إذا تراجع

الآن ، فسوف يرى ذلك الثلم في سن محبوبته ، كلما ابتسمت له ، الثلم الباقي من أيامها في المعسكرات ؛ وسوف يتذكّر أن كل شيء كان من غير طائل.

تمسّد أولغا صدر سترته. تتوقّف يدها عند قلبه: «تعال إليَّ عندما تستطيع».

يضع يده فوق يدها ، ويضغطها على صدره.

توقّف المطر ، وذهب من كانوا مجتمعين. كان الجيران قد انضمّوا إلى المراسلين الصحافيين ، فداسوا مزروعاته... البطاطس والثوم والكراث. على مسافة قريبة ، يلُوح بضعة رجال في سترات جلدية سوداء. زينايدا واقفة إلى جانب مدخل الداتشا ، ومعها نينا تابيدزه التي أتت زائرة من جورجيا. لقد وضعتا كرسيين خشبيين عند بداية السلم للحيلولة دون دخول الناس. يجلس توبيك ، كلب بوريس ، تحت أحد الكرسيين ، ويراقب.

تزيح زينايدا كرسيًا حتى يدخل بوريس ، لكنه يتوقّف ويتحدّث مع الصحافيين. ارتفعت روحه المعنوية ارتفاعًا ملحوظًا بعد لقائه مع أولغا ؛ وعلى الرغم من أنه لا يصدّق تمامًا ما قاله لها ، فإن تلك الكلمات التي أراد بها تهدئتها أفلحت في تهدئته. كانت التهنئات المنهالة عليه من المجتمعين بلسمًا لنفسه أيضًا. يطلب مصور التقاط صورة له ، فيتّخذ بوريس وضعية مناسبة وترتسم على وجهه ابتسامة حقيقية. لكن زينايدا لا تبتسم. يجعلها حاجباها المرسومان بالقلم تبدو في حالة دهشة ، لكن عبوسها القاتم يقول غير هذا. يأتي زوجها ويصعد درجات السلم فتقول له: «لن ينتج عن هذا أي شيء حسن».

تقول نينا وهي تعيد الكرسي إلى مكانه: «بدأ الناس في شوارع موسكو يتحدّثون عن الأمر. سمعت صديقة لي بالخبر من راديو ليبراسيون».

يقول بوريس لهما: «فلندخل البيت».

ترحّب بهم رائحة فطيرة البرقوق فور دخولهم ، ويتذكّر بوريس أن هذا اليوم هو عيد اسم(30) زينايدا. يقول لها: «يا عزيزتي ، أنا في غاية الأسف. لا أعرف كيف نسيت وسط هذه الفوضى كلّها».

تجيبه: «لا أهمية للأمر الآن».

تمسّ نينا كتف زينايدا ، ثم تذهب إلى المطبخ لكي تخرج الفطيرة من الفرن. يظلّ الزوجان واقفين وحدهما في الممر: «ألست سعيدة من أجلي يا زينا ؟ من أجلنا ؟».

«ما الذي سيحل بنا ؟».

«ما هذا الهراء؟ علينا أن نحتفل. نينا...». ينادي نينا التي في المطبخ... «هاتي معك زجاجة نبيذ».

تقول زينايدا: «هذا ليس وقت الاحتفال. سيريدون رأسك مقابل هذا. تسلّم شخصًا أجنبيًا مخطوط كتابك من غير أن ينشر هنا! ثم يأتي هذا! الاهتمام، والصحف. لا يمكن أن ينتج عن هذا أي شيء حسن».

«إذا كنتِ غير قادرة على جعل نفسك تهنئينني، فاشربي كأسًا من أجل عيدك، على الأقل».

«ما أهمية هذا؟ لقد نسيتَ عيدي السنة الماضية أيضًا».

تعود نينا من المطبخ حاملة زجاجة النبيذ وثلاث كؤوس، لكن زينايدا تشير لها بأن تعيدها، وتنسحب إلى غرفتها. تذهب نينا لتهدئة صديقتها، ويفتح بوريس الزجاجة بنفسه.

في اليوم التالي، يدق الباب كونستانتين ألكساندروفيتش فيدين، جار بوريس، فتذهب زينايدا وتفتح الباب. يسألها فيدين: «أين هو؟». ومن غير انتظار إجابتها، يتجاوزها ويصعد السلم في اتجاه مكتب بوريس، يصعده درجتين درجتين. يرفع بوريس رأسه من فوق رزمة برقيات أمامه. يرحب بجاره: «كوستيا، ما الذي جعلك تأتي لزيارتي؟».

«لست هنا لكي أقدّم لك التهنئة. ولا لأنني جارك، ولا لأنني صديقك. أتيت في مهمة رسمية. بوليكاربوف جالس الآن في بيتي ينتظر إجابة».

«إجابة عن ماذا؟».

يدعك فيدين حاجبه الكثيف الأبيض: «يريد أن يعرف إن كنت سترفض الجائزة».

يرمي بوريس البرقية التي كانت في يده ويقول له: «مستحيل؛ مهما حدث».

«إذا لم تفعل هذا عن طيب خاطر، فسوف يرغمونك. أنت تدرك هذا».

«لهم أن يفعلوا بي ما يشاؤون».

يسير فيدين إلى النافذة المطلّة على الحديقة. لقد عاد عدد من المراسلين الصحافيين. يمسح صلعته بيده: «أنت تعرف ما يستطيعون فعله... وتعرف أنني مررت بهذا أيضًا. بما أنني صديقك...».

قاطعه بوريس: «لكن، ألا تذكر قولك لي إنك لست هنا بصفتك صديقي؟ فبأية صفة أتيتني، بالضبط؟».

«بصفتي واحدًا من زملائك الكتّاب. بصفتي مواطنًا».

يستلقي بوريس على سريره، فيئن السرير المعدني البسيط تحت ثقل جسده: «أية صفة من هاتين؟ هل أنت كاتب أم مواطن؟».

«الصفتان معًا، وأنت مثلي أيضًا». كان معروفًا على نطاق واسع أن فيدين ينتظر أن يصير رئيسًا لاتحاد الكتاب السوفييت. وهذا ما جعل بوريس يفكّر في إجابته مليًا. يقول له: «Inventas vitam juvat excoluisse per artes».

يقول فيدين: «هذه لفرجيل... هم من يجعل الحياة على الأرض أفضل من خلال اكتشافاتهم».

«هذه العبارة منقوشة على ميدالية نوبل».

«من هم الذين تجعل حياتهم أفضل من خلال هذه الرواية؟ أسرتك؟...». يخفّض فيديل صوته... «عشيقتك؟ أم حياتك أنت؟».

يغمض بوريس عينيه: «أعطني وقتًا».

«لا وقت لدينا أبدًا. بوليكاربوف ينتظر إجابة عند عودتي».

«إذًا، اذهب في نزهة طويلة قبل أن تعود إلى بيتك. يلزمني وقت».

يقول فيدين وهو يخرج من البيت: «ساعتان. لديك ساعتان فقط».

لكن بوريس ينهض من فراشه فور خروج فيدين. يمضي إلى مكتبه ويكتب برقية إلى الأكاديمية السويدية.

ممتن كثيرًا، متأثر، معتز، غير مصدق، خجِل.

- باسترناك

(30) عيد الاسم: لدى الشعوب السلافية، يحتفل الشخص بعيد اسمه. وتتوزّع «أيام الأسماء» على مدار السنة بحيث يكون كل يوم مخصَّصًا لعدد منها.

غرب
تشرين الأول - كانون الأول 1958

الفصل الثالث والعشرون
المُخبِرة

كان هناك... واقفًا قبالة شجرة عارية ، مرتديًا سترة مبطنة وقبعة ، ذراعه اليمنى أمام جسده ، يده أسفل قلبه. كانت المقالة المرافقة للصورة مكتوبة باللغة الفرنسية ، لكنّي وجدت فيها كلمة نوبل. سألت النادل الذي يتكلّم الإنكليزية عندما عاد حاملًا لي فطيرة بالشوكولاته.

أجابني: «فاز بوريس باسترناك بجائزة نوبل».

أجبته: «حسنًا ، هذا يعني أن مبيعات الكتاب ستزداد كثيرًا. هل قرأته ؟».

«بالطبع!».

لقد قرأ الجميع هذه الرواية. فبفضل من كنت أعمل معهم ، تمكّنت «دكتور جيفاكو» من اجتياز الحدود بسلام ، ووجدت طريق عودتها إلى البلد الذي كتبت فيه. لم يكن الفوز بجائزة نوبل جزءًا من خطة الوكالة -على قدر معرفتي- لكنّي كنت واثقة من أنهم اعتبروا ذلك إنجازًا

لهم أيضًا. كنت قادرة على تخيّلهم: واقفون في دائرة، ابتسامات على وجوههم، يشربون أقداح الفودكا احتفالًا بهذا النبأ. كان وجه هنري رينيت الوجه الوحيد الذي لم أتخيّل وجوده بين الواقفين في تلك الدائرة. كنت أعرف أنه لم يعد في واشنطن. والحقيقة أنني كنت أعرف مكانه بالضبط.

نزلت في فندق لوتيتيا عند وصولي إلى باريس - لم أنزل في الفندق باسم سالي فورستر، ولا باسم سالي فوريلي، ولا بأي اسم استخدمته من قبل، بل باسمي الجديد: لينور ميلر. وبعد ذلك كتبت رسالة إلى شركة تنظيف الملابس التي كانت بطاقتها عندي، ووضعتها في صندوق البريد ذي اللون الأصفر اللامع.

اشتملت تلك الرسالة على معلومات عن مكان وجود هنري في بيروت، وكذلك على معلومات عن مهمته الجديدة، ألا وهي المساهمة في إقامة محطة إذاعة يكون بثها ميالًا إلى الغرب، مواليًا للرئيس فؤاد شهاب.

لم تكن خطتي الأصلية أن أسلّم هنري. كان فرانك يظن هنري عميلًا مزدوجًا مدسوسًا في الوكالة. وظننت أنني أستطيع الحصول عبر القنوات السليمة -إن صدقت ظنون فرانك- على كمية من المعلومات تكون كافية لتدميره. ففي تلك السنين كلّها التي كان رجال الوكالة يظنون فيها أنني لا أفعل شيئًا أكثر من العبث بشعري والضحك من غير انقطاع عندما أسمع نكاتهم الغبية، كان ما أفعله حقًا هو الإصغاء إلى كل ما يقال. لكن هنري عرف أنني أتقصى أخباره، فوضع نهاية سريعة لعملي في الوكالة. أوه، لا بأس، إلى الخطة ب!

وحدها بيفرلي كانت عارفة بأنني غادرت البلاد. لم تسألني عن وجهتي. وعندما قلت لها إنني سأشتري بطاقة ذهاب فقط، نهضت صديقتي القديمة منذ أيام «مكتب الخدمات الاستراتيجية» من غير أن تقول أية كلمة، وذهبت إلى المطبخ، ثم عادت بعد بضع دقائق حاملة مغلّفًا فيه مبلغ كبير من المال. وضعت المغلّف في يدي وقالت: «هذه نقود مقامرته في لعب الورق. لن يفطن أبدًا إلى اختفائها». قلت لها إنني لا أستطيع قبولها أبدًا، فقالت لي أن أكفّ عن هذا الغباء. ثم خلعت من يدها سوارها الماسي العريض الذي كان هدية من زوجها -كان اعتذارًا عن واحدة من علاقاته العابرة. قالت لي: «ارهنيه».

في ليلتي الأخيرة في واشنطن، شغّلت تسجيلًا موسيقيًا، ثم أخرجت حقيبتي. حتى في تلك اللحظة، لم أكن أعرف المكان الذي سأذهب إليه. كنت أعرف أن عليَّ أن أرحل، أن أذهب

إلى مكان لا أعرف فيه أحدًا. وكنت أعرف أيضًا أنني لن أكون قادرة على العودة بعد أن أفعل ما اعتزمت فعله. وعندما أخرجت كنزة الكشمير البيج من الدرج ، اكتشفت صورة برج إيفل التي أردت تقديمها إلى إيرينا - لا تزال ملفوفة في غلافها الورقي ، مربوطة بالشريط الأحمر. وعندها ، اتخذت قراري.

كانت رسالتهم ورودًا. باقتا ورود بيضاء ، كأنهما هدية تحمل عرض سلام ، وُضعتا فوق حقيبة أدوات التجميل في غرفتي عندما كنت في الخارج. قرأت البطاقة التي كانت بين الورود: كانت رسالتك بادرة لطيفة. البطاقة مكتوبة بالإيطالية. قلبت البطاقة. لا شيء.

كان التفكير في أنهم دخلوا غرفتي وفتشوا أشيائي أمرًا مثيرًا للأعصاب. من المؤكد أنهم وضعوا في الغرفة أجهزة تنصّت. كان هذا أشبه برؤية عنكبوت في النهار ، ثم تخيل ذلك العنكبوت يدب على فراشي في الليل. لكن المراقبة كانت أمرًا متوقّعًا بعد إعطائي إياهم تلك المعلومات عن مكان وجود هنري. لم يكن لديَّ من أتكلم معه ، فضحكت عندما تخيلتهم يتنصّتون فيسمعون أغاني أسطوانة تشيت بيكر التي اشتريتها من سوق الأشياء المستعملة. لعلهم يتعبون آخر الأمر من الاستماع إلى أغنية «يوم فالنتاين غريب» وينصرفون إلى التنصت على شخص آخر.

انقضت عدة أسابيع. ذبلت الورود البيضاء ، وتساقطت بتلاتها الذابلة على حقيبة أدوات التجميل. تضاءل أثر جِدة «مدينة النور» ، وشارف المال الذي أخذته من بيفرلي على الانتهاء. بدأ جهلي بما حدث لهنري ، إن حدث له شيء ، يفعل فعله في نفسي. عندما أفكر فيه (كنت أفكر فيه دائمًا) ، أحس كأن دخانًا داكنًا باردًا يملأ جوفي. وعندما يجافيني النوم ، أستلقي في الفراش على ظهري وأتخيل ذلك الدخان الأسود خارجًا من فمي ، متموّجًا في طريقه صوب السقف.

أردت أن أعطي أيامي شكلًا ، فبدأت أزور المكتبات العامة والأكشاك ومتاجر بيع الكتب ، وكذلك من يبيعون الكتب على ضفة نهر السين. كنت أبحث عن نسخ من رواية «دكتور جيڤاكو». صحيح أنني كنت توّاقة إلى قراءتها لكني لم أستطع حمل نفسي على فعل ذلك. إن لها صلة بهم ، صلة بها. وكنت أعرف أن قراءتها ستعيد إليّ ذكريات عن أشياء لا أريد التفكير فيها ، أشياء تجعل قلبي يقفز في مكانه عندما أستيقظ فأجد نفسي وحيدة في النصف الآخر من العالم. على الرغم من هذا ، واصلت البحث عن الرواية في باريس كلها ، وواصلت إنفاق

آخر ما لدي من مال على بناء برج صغير من نسخ الكتاب.

صنعت لنفسي نظامًا جديدًا عندما صرت غير قادرة على مواصلة شراء الكتب: أجلس في غرفتي طيلة النهار، وأستمع إلى الأسطوانة التي عندي، وأستحم، وأغفو إغفاءات قصيرة. بدأت أقتات على الخبز الفرنسي البائت، ومعلّبات المشمش، وماء بيرييه المعدني الدافئ. تركت الستائر مسدلة، وراحت الأيام تمر حتى من غير أن أنظر خارج النافذة.

نفدت نقودي آخر الأمر، وبدأت أعيد نسخ «دكتور جيفاكو» نسخة بعد نسخة. حدث الأمر هناك... كنت واقفة في صف الانتظار في مكتب لو ويسترال عندما نقر أحدهم على كتفي. قالت لي امرأة صغيرة الجسم لها شعر مموَّج: «بونسوار». كانت مرتدية فستانًا ورديًا ضيّقًا وقبعة مخملية صغيرة سوداء. أخذت المرأة نسخة من رواية «لوليتا»، ثم ابتسمت لي كأنها تعرفني.

سألتني المرأة منتقلةً إلى اللغة الإنكليزية: «هل تعرفين أين هو قسم كتب الرحلات؟».

«آسفة، لا أعرف».

«إنني أبحث عن كتاب... كتاب عن بيروت. هل تعرفين أين أستطيع العثور عليه؟».

فهمت.

استدارت المرأة وخرجت من المكتبة. سرت خلفها، وأعدت نسخة «دكتور جيفاكو» إلى حقيبتي. لحقت بها عبر ساحة رينيه فيفياني. تمنّيت أن أكون قادرة على التوقف لأمسَّ شجرة «الجراد» الشهيرة بأن حظًا طيبًا يصيب من يمسّها، لكننا تابعنا السير عبر «شارع الجسر الصغير»، ثم مررنا بكنيسة سان سيفيران فأحسست بأن رؤوس التماثيل الصغيرة البارزة من جدارها تنظر إليَّ. تذكّرت إيرينا عندما مررنا بكنيسة سان سولبيس... كيف صار مظهرها في ملابس الراهبات؟

تبعتها إلى «حديقة لوكسمبورغ». وعندما سرنا من حول البركة ذات الأضلاع الثمانية، تكلّمت المرأة بصوت خافت يحجبه خرير المياه.

«لقد نزل في فندق في بيروت باسم وينستون، تمامًا مثلما قلتِ إنه سيفعل. وبعد أقل من ساعة واحدة، خرج من الفندق... خرج بمساعدة اثنين من عمال الفندق المتعاونين معنا...». توقّفت قليلًا قبل أن تضيف... «ظننّا أنك قد تكونين راغبة في معرفة هذا».

ما الذي دار في ذهن هنري عندما سمع نقرًا على باب الفندق؟ هل كان لديه إحساس بما هو

آتٍ ؟ هل أصابه الشلل ؟ هل صرخ ؟ وإن صرخ ، فهل سمع أحد صراخه ؟ أعرف أنه لم يتذكّرني عندما أخذوه ، لكني تمنيت أن يكون قد تذكّرني.

«هذا كل شيء». أنهت المرأة كلامها. توقّفتْ ثم استدارت وواجهتني وقبّلت وجنتيّ. قلت بعد ذهابها: «هذا كل شيء».

عدت إلى غرفة الفندق فوجدت أن باقة ورود جديدة قد حلّت محلّ الورود التي ذبلت. غسلت وجهي بالماء. ثم وضعت أحمر الشفاه. ارتديت بنطلونًا أسود اللون ، وسترة سوداء ، وحذاءً جلديًا مكشوفًا أسود. فتحت الستائر ، وجففت شفتيَّ ، ثم نظرت إلى نفسي في المرآة.

لقد درّبوني على ترصّد العملاء المزدوجين. الهدوءُ وقت الشدّة ، والذكاء الذي يكون أعلى من المتوسط ، والمزاج المتقلّب ، وسرعة الضجر. يكون العميل المزدوج شخصًا طموحًا ، لكن أهدافه قصيرة المدى. ويكون عاجزًا عن إقامة علاقات دائمة. كثيرًا ما يكون انشقاقه ناتجًا عن اهتماماته - المال ، أو السلطة ، أو الإيديولوجيا ، أو الانتقام. كنت أعرف هذه السمات كلّها ؛ وكنت مدرَّبة على ترصّدها. إذًا ، لماذا لزمني هذا الوقت الطويل حتى أراها في نفسي ؟

شرق

تشرين الأول - كانون الأول 1958

الفصل الرابع والعشرون
المبعوثة

لقد فاز. لقد فاز. لقد فاز. كانت أفكاري تسير مع خطواتي عندما عدت إلى البيت الصغير منتظرة وصول بوريا. صارت جائزة نوبل له. ليست لتولستوي، ولا لغوركي، ولا لدستويفسكي. كان بوريس باسترناك ثاني كاتب روسي يتلقّى هذه الجائزة. سوف يحفظ التاريخ اسمه؛ وسيظل ما أنجزه باقيًا.

ولكن... هل سيقبل الجائزة؟ كنت أخشى ما قد يأتي بعد ذلك. لقد كان فوزه بالجائزة إحراجًا للدولة؛ وسوف يعتبرون قبوله إياها إمعانًا في إهانتهم. لا تحبّ الدولة أن تتعرّض للإهانة... على يد الغرب خاصّة! وبعد أن ينتقل اهتمام العالم إلى شيء آخر، ويكفّ هذا الخبر عن احتلال عناوين الصحف... ماذا سيحدث؟ من سيحمينا؟ من سيحميني؟

أحاول تهدئة أعصابي، وأخرج إلى الحديقة الصغيرة التي ساعدني بوريا في غرس نباتاتها. توقّف مطر الصباح، وانفرجت الغيوم تاركة ضياء الشمس ينسكب على كل شيء من جديد. كل شيء... نداءات طيور العقعق في ما بينها، وكيف يدفئ شعاع الشمس صف الملفوف الأنيق، وكيف أحس الهواء على معصميَّ وكاحليَّ... كل شيء، كل شيء صار يبدو مختلفًا مثلما يحدث عندما يكون العالم الذي تعرفه موشكًا على التغير.

اقترب بوريا. قبعته في يده. تلاقَينا في منتصف الدرب. قبلني. قال لي: «أرسلت البرقية إلى استوكهولم».

سألته: «ماذا قلت فيها؟».

«قلت إنني أقبل الجائزة، وأقبل ما سيأتي معها».

سألته: «هل يعني هذا أنك ستذهب... إلى استوكهولم؟» تركت نفسي لحظة أتخيل هذا

الحلم الغريب: أنا في فستان أسود مصنوع في باريس، مفصّل على مقاسي تمامًا، كأنه جلد ثانٍ لي؛ وبوريس مرتديًا بدلته الرمادية المفضّلة التي ورثها عن أبيه. سأنظر إليه وهو يستلم الجائزة. نكون واقفَيْن على المنصّة، فأترك تصفيق الجمهور ينداح فوقي كأنه موجة تغمرني. وفي مأدبة العشاء، سأتناول فيليه دو سول بورغينيون في الصالة الزرقاء، وسيقدمني إليهم بصفتي المرأة التي ألهمته شخصية لارا، المرأة التي وقع العالم في حبها مثلما وقع بوريس في حبها.

هز رأسه وقال لي: «هذا مستحيل». أمسك بيدي؛ ومن غير أية كلمة أخرى، دخلنا البيت، دخلنا غرفتي ومارسنا الحب بطريقتنا الهادئة البطيئة التي اعتدناها.

أمضى معظم الليل معي في البيت، ولم يترك السرير إلى أن لاح ضياء الفجر الأزرق من خلف ستائري. في ذلك الضياء، رأيت على ظهره شامات جديدة، وشعرات سوداء وعلامات صفراء جديدة، ثم نظرت إلى جلدي. صدمني سنُّنا مثلما تكون صدمة القفز إلى نهر متجمِّد، وتساءلت إن كان باقيًا فينا ما يجعلنا قادرين على احتمال كل ما سيأتي.

كنت أنظر إليه وهو ينهض من الفراش، فداهمني توق عميق إلى شيء لم أفقده بعد، لكني عرفت أنني سأفقده عما قريب.

أصدر الكرملين ردّه الرسمي على قرار الأكاديمية السويدية بعد إرسال بوريس برقيته إلى استوكهولم. «أنتم، وكل من اتخذ هذا القرار، لم ينصبّ اهتمامكم على خصائص الرواية الأدبية والفنية -هذا واضح لأنها خالية من أية خصائص أدبية وفنية- بل على جوانبها السياسية. وهذا لأن رواية باسترناك تعرض الواقع السوفييتي بطريقة منحرفة مغلوطة، وتفتري على الثورة الاشتراكية، وعلى الاشتراكية نفسها، وعلى الشعب السوفييتي». كانت رسالتهم واضحة: لن يتسامحوا مع عصيان بوريس. لن يمر الأمر من غير عقاب.

قيل لنا إن مراسلين كانوا يذهبون من باب إلى باب، من بيريدلكينو إلى موسكو، فيستدعون كل شاعر وروائي وكاتب مسرحيات ومترجم إلى اجتماع طارئ في اتحاد الكتاب لمناقشة مشكلة الرواية. كان الحضور إلزاميًا.

لا شك في أن من الكتّاب من سرَّه كثيرًا أن يلقى ذلك النرجسي، ذلك الشاعر الذي بولغ في تقدير قيمته، ما يستحقّه. وسمعنا أيضًا أن بعضهم قال إن العدالة كان يمكن أن تأخذ مجراها منذ زمن بعيد، وإن التساؤلات عن السبب الذي جعل ستالين يوفّر بوريس خلال

«الرعب الكبير» لا تزال من غير إجابات. وكان واضحًا أيضًا أن كتّابًا آخرين وقعوا في حال من الضيق والتوتّر لمعرفتهم أنهم سيقفون مع غيرهم لإدانة زميلهم، صديقهم، معلّمهم... سيفعلون ذلك آملين أن يبدو شجبهم له صادقًا عند استدعائهم.

لم يكن بوريا يقرأ الصحف، لكني تابعتها.

لقد دعوه يهوذا، بيدقًا باع نفسه بثلاثين من الفضة، حليفًا لمن يكرهون بلدنا، متكبّرًا خبيثًا ليس فيه من المزايا الفنية إلا أقلها، إن وُجدت. اعتبروا رواية «دكتور جيفاكو» سلاحًا أشهره أعداء الدولة؛ واعتبروا الجائزة مكافأة من الغرب.

لم يعبِّر الجميع عن آرائهم؛ فقد اكتفى كثيرون بالتزام الصمت. غاب عنا أصدقاء ممن كانوا، فيما مضى، يجلسون في البيت الصغير وهم يستمعون منتشين إلى بوريا يقرأ عليهم فصولًا من «دكتور جيفاكو».

لم يبعثوا برسائل مساندة، ولم يأتونا زائرين، ولم يقرَّ أكثرهم - عندما سُئل - بأن صداقة تربطه ببوريس. كان الجرح الذي تركه هذا الصمت من جانب الأصدقاء، وهذه الأفواه المغلقة، أبلغ أثرًا من كل شيء آخر.

وذات يوم، عادت إيرا من المدرسة بأنباء عن مسيرة طلابية جرت في موسكو. كان بوريا جالسًا على كرسيه الأحمر عندما وقفت أمامه إيرا وهي لا تزال مرتدية معطفها وقبعتها الصغيرة. أعلنت: «قال الأساتذة للطلبة إن حضور المسيرة إلزامي».

نهض بوريا ووضع حطبًا في الموقد. وقف لحظة يدفئ يديه قبالة النار، ثم أغلق باب الموقد المعدني.

«أعطتنا الإدارة لافتات لكي نحملها، لكني اختبأت في المراحيض مع واحدة من صديقاتي إلى أن ذهبوا». كانت عيناها تنظران إلى بوريا، تلتمسان تحبيذًا لما فعلتْه، لكنه لم ينظر إليها.

سألها بوريا: «ماذا كان مكتوبًا على تلك اللافتات؟».

نزعت إيرا قبعتها وأمسكتها بين يديها: «لم أرها. لم أرها عن قرب».

وفي اليوم التالي، ظهرت في صحيفة ليتيراتورنايا غازيتا صورة لتلك «المسيرة العفوية». طالب يحمل لافتة عليها رسم كاريكاتيري لبوريا يمد يدين معوجَّتي الأصابع لكي يمسك بكيس من النقود الأميركية. ولافتة أخرى كتب عليها بحروف كبيرة سوداء: ألقوا بيهوذا خارج

الاتحاد السوفييتي! أوردت المقالة أيضًا قائمة بأسماء طلاب وطالبات وقّعوا على رسالة تدين «دكتور جيڤاكو».

أمسكت إيرا بالصحيفة: «نصف هؤلاء المذكورة أسمائهم لم يوقّع على تلك الرسالة. هذا ما قالوه لي، على الأقل».

عندما جلسنا إلى طاولة العشاء في تلك الليلة، سألني ميتيا إن كان صحيحًا أن بوريس قد صار الآن أكثر ثراء من أميركي جشع: «هذا ما قاله المعلم في المدرسة؟ فهل نحن أغنياء؟».

قلت له: «لا، يا عزيزي».

راح يدفع بإصبعه حبة فاصولياء في طبقه: «لم لا؟».

«كيف نكون أثرياء؟».

«إنه يدفع إيجار البيت. وهو يعطينا نقودًا. إذا كان لديه مال أكثر، فعليه أن يعطينا أكثر».

«من أين أتيت بهذه الفكرة؟».

رشقت إيرا شقيقها بنظرة حادّة، فرفع كتفيه.

قالت إيرا: «لكن هذا أمر منطقي، يا ماما. أظنّ أن عليك أن تطلبي منه ذلك».

قلت لها: «لا أريد سماع كلمة أخرى عن هذا الأمر...». لكني لم أستطع التظاهر بأنني لم أفكر في الأمر نفسه... «والآن، أكملا عشاءكما».

كان المطر مستمرًا منذ خمسة أيام عندما التقوا في «الصالة البيضاء» الكبيرة في اتحاد الكتاب. امتلأت المقاعد كلها، ووقف كتّاب عند الجدران. طلبوا حضور بوريا أيضًا، لكني رجوته أن يبقى في البيت. قلت له: «سيكون هذا إعدامًا». وافقني على أن حضوره لن يحقق شيئًا، لكنه كتب رسالة لكي تُقرأ في الاجتماع.

لا أزال مؤمنًا، حتى بعد هذا الضجيج كلّه، وتلك المقالات كلّها التي ظهرت في الصحف، بأنه كان من حقّي أن أكتب «دكتور جيڤاكو» بصفتي مواطنًا سوفييتيًا. كل ما في الأمر هو أن لدي فهم أكثر اتساعًا لحقوق الكاتب السوفييتي وإمكانياته. ولست أرى أبدًا أنني ألحق ضررًا بكرامة الكتاب السوفييت بأي شكل من الأشكال. لكني لا يمكن أن أعتبر نفسي متطفلًا على الأدب. بصراحة أقول إنني مؤمن بأنني قدّمت شيئًا من أجل الأدب. أما عن الجائزة نفسها، فما من شيء يجعلني أرى هذا التشريف عارًا فأرد عليه ردًا وقحًا. أسامحكم سلفًا.

ضجّت القاعة بصيحات الاستنكار المنطلقة من المجتمعين. ثم بدأ الكتّاب يتقدمون من

المنبر، واحدًا تلو الآخر، ويدينون «دكتور جيڤاكو». طال الاجتماع ساعات، ولم يبق أحد لم يتكلم ضدّه.

ثم جرى التصويت فخرجت النتيجة بالإجماع. تقرّرت عقوبة نافذة المفعول فورًا: يطرد بوريس ليونيدوفيتش باسترناك من اتحاد الكتاب.

وفي اليوم التالي، جمعت من شقتي في موسكو كل كتاب ورسالة وملاحظة ومخطوط من المخطوطات الأولى.

أخذناها، أنا وميتيا، إلى البيت الصغير لكي نحرقها. قلت لابني ونحن نجمع العيدان من الغابة: «لن أسمح لهم بأن يأخذوا مرة أخرى ما هو لي. أفضّل أن أتلف كل شيء».

سألني ميتيا: «كيف يمكنك التأكد؟».

أجبته: «سنكون في حاجة إلى مزيد من الحطب». جمعنا كومة صغيرة. وصل بوريا عندما فرغنا من صف الحجارة التي أحضرناها من الجدول على شكل حلقة. بدلًا من إلقاء التحية علينا، سألنا بوريا: «هل كان ذلك كلّه من أجل لا شيء؟».

أجبته وأنا أفرغ فوق الحطب دلوًا من أوراق الأشجار الجافة: «بالطبع لا. لقد لامست أفئدة آلاف الناس وعقولهم». سكبت النفط على الأوراق.

دار من حول حلقة الحجارة: «لماذا كنت أكتب أصلًا؟».

أجابه ميتيا: «لأنه كان عليك أن تكتب، ألا تتذكّر هذا؟ هذا ما قلته لنا. قلت إنّ هناك ما يدعوك إلى فعل ذلك، ألا تتذكّر؟».

«كان ذلك هراء. محض هراء».

«لكنك قلت...».

«إذًا، لا أهمية لما قلته».

«عندما سلّمت الإيطاليين روايتك، قلت إنك تريد لها أن تُقرأ. نعم، لقد حقّقت هذا».

«لم أحقّق شيئًا غير تعريضنا جميعًا إلى الخطر».

«قلت إن الجائزة ستحمينا. ألم تعد مؤمنًا بهذا؟ العالم كله ينظر... ألا تتذكر؟».

«كنت مخطئًا. إعدامي هو ما سينظر العالم كله إليه». مرر أصابع يديه في شعره... «لست إلا ما وصفوني به! نرجسي... شخص يظن -لا، بل يؤمن- يؤمن إيمانًا تامًا بأنه اختير لهذه المهمة!... قدَري أن أنفق عمري كلّه محاولًا التعبير عما في قلوب الناس!...». راح بوريا يخطو

خطوات متوتّرة... «السماء تسقط علينا، لكني آثرت الكتابة بدلًا من بناء سقف يحميني ويحمي من أحبهم. أما من حدود لأنانيتي؟ لقد جلست إلى طاولة مكتبي زمنًا طويلًا جدًّا. هل صحيح أنني فقدت ارتباطي بالواقع؟ هل صحيح أنني ما عدت أعرف ما في قلوب أهل بلدي، وما في عقولهم؟ كيف استطعت أن أفهم كل شيء فهمًا خاطئًا إلى هذا الحدّ... لماذا أستمر؟».

قلت له: «نستمر لأن هذا ما علينا فعله».

اندفع في طرح خطته قبل أن أفلح قول أية كلمة لتهدئته: «هذا كثير جدًا. لن أنتظر إلى أن يأتوا من أجلي. لن أنتظر وصول سيارتهم السوداء. لن أنتظر حتى يجرّوني في الشارع. لن أنتظر إلى أن يفعلوا بي ما فعلوه بأوسيب وببيتسيان».

أضفت: «وما فعلوه بي».

«صحيح، يا حبيبتي. لن أسمح لهم. أظن أن الوقت قد حان لكي نترك هذه الحياة». رجعت خطوة إلى الخلف.

«لقد احتفظت بها. الأقراص. خبأت أقراص نيمبوتال التي أعطوني إياها عندما كنت في المستشفى المرة الماضية. اثنان وعشرون قرصًا. أحد عشر قرصًا لكل منا».

لم أدرِ إن كان عليَّ أن أصدّقه. لقد هدد بوريس مرة بأن يقتل نفسه. بل إنه شرب مرة زجاجة يود، قبل عشرات السنين، عندما رفضته زوجته... قبل أن تصير زوجته... اعترف لي في وقت لاحق بأنه لم يفعل ذلك إلا ليرى ردة فعلها وليس لكي يموت فعلًا. لكن شيئًا في صوته هذه المرة، ذلك الهدوء الذي لازمه، جعلني أظن بأنه قد يكون جادًّا.

أمسك بيدي: «سوف نتناول الأقراص الليلة. وستكون التكلفة ثقيلة عليهم. ستكون هذه صفعة في الوجه».

نهض ميتيا واقفًا على قدميه. صار الآن أطول مني، بل صار قريبًا من طول بوريا نفسه. ميتيا، ميتيا اللطيف، نظر في عيني بوريس وقال له: «ماذا تقول؟ ماما، ما الذي يقوله؟».

أجبته: «دعنا وحدنا، يا ميتيا».

«لن أذهب!». قال هذا وتراجع قليلًا كأنه يهم بضرب بوريس.

وللمرة الأولى، أدركت أن يده ما عادت يد صبي صغير... صارت يد شاب! فاض صدري إحساسًا بالذنب. طيلة تلك السنين كلّها، كنت أضع بوريا أولًا.

«لن يحدث شيء». تركت يد بوريا وأمسكت بيد ابني... «أؤكّد لك هذا». أخرجت قبضة كوبيكات من جيبي وقلت له أن يذهب ويشتري مزيدًا من النفط من أجل النار.

رفض أن يأخذ المال: «ماذا بك؟ ماذا بكما؟».

«خذها، يا ميتيا. اذهب واشترِ نفطًا. ستجدني هنا».

أخذ النقود ومضى، لكنه التفت محذرًا بوريا بنظرة عينيه المتّقدتين غضبًا.

قال بوريا بعد ذهاب ميتيا: «لن يكون الأمر مؤلمًا. سنكون معًا». لقد كان يتظاهر طيلة الوقت بأن زمجرة همسات الإدانة لا تزعجه، وبأن المايكروفونات التي كنا نظن أنها مزروعة في بيتنا وبيته، لم تكن أكثر من شيء نسخر منه. وبأن المقالات التي تناولت روايته تناولًا سلبيًا لم تكن لها أية قيمة. كان تركيزه كلّه منصبًا على نقطة نور بيضاء في آخر النفق، لكن الضربة الأخيرة التي وجهها إليه اتحاد الكتاب أطفأت نقطة النور تلك.

وقد كان مؤمنًا بأنني سأسير خلفه - سأتناول الأقراص، ولن أجد في نفسي قوة للمضي وحيدة. في وقت مضى، لم تكن لدي تلك القوة. بل ربما كان ممكنًا أن أسبقه إلى اقتراح هذا الأمر. لكن ليس الآن. الآن، أنا قادرة على الاستمرار. وسوف أستمر. يستطيعون وضعه تحت الأرض، لكنهم لن يضعوني.

قلت له إن هذا سيمنحهم ما يريدون - قلت له إنه تصرّف رجل ضعيف. وقلت له إنهم سيتشدّقون بانتصارهم على الشاعر الميت، على «ساكن السحاب» الذي لم يُنه ستالين أمره.

قال بوريا إن هذا كله غير مهم إن كان الألم سيتوقّف. «لا أستطيع انتظار أن يبتلعني ظلامهم. أفضل أن أخطو في الظلام بنفسي بدلًا من أن أدفع إليه دفعًا».

«صار الأمر الآن مختلفًا بعد موت ستالين. لن يطلقوا عليك النار في الشارع».

«أنت لم تمري بما مررت به. أنت لم تريهم يأخذون أصدقاءك واحدًا تلو آخر. أنت لا تعرفين كيف يكون شعور الإنسان عندما يظلّ حيًا بعد أن يُقتل أصدقاؤه!... أن يكون الوحيد الباقي بعدهم! سوف يأتون من أجلي. أنا واثق من هذا. سوف يأتون من أجلنا».

طلبت منه أن ينتظر يومًا آخر؛ وقلت إنني أريد أن أودّع إيرا وماما. قلت أيضًا إنني أريد رؤية شروق الشمس مرة أخرى. في حقيقة الأمر، كانت لدي خطة أخيرة... إذا لم تنجح تلك الخطة، فأنا واثقة من أنني سأظل قادرة على إقناعه بالتراجع عن هذا. وإذا فشلت، فأنا واثقة من أن شمسًا أخرى ستشرق على أية حال، ومن أنني سوف أستمر. هذا ما تفعله النساء

الروسيات. إنه شيء في دمنا.

وجدت ميتيا في المطعم الصغير إلى جانب محطة القطار. كانت إلى جواره صفيحة نفط صغيرة. قلت له إنني لن أتركه أبدًا. لكنّي أدركت من نظرة عينيه أنه لم يصدقني. بكيت، وقلت له إنني آسفة، آسفة كثيرًا، فقال إنه يسامحني. لكني أدركت أنه لم يقل هذا إلا لكي أكف عن البكاء.

طلبت منه أن يذهب معي إلى داتشا فيدين - الخطوة الأولى في خطتي. خرجنا وسرنا صاعدين عبر التل الموحل.

قرعت باب البيت الكبير، بيت رئيس اتحاد الكتاب المعيّن حديثًا... بيت مبني من جذوع خشبية كبيرة. لم يأت أحد إلى الباب، فقرعت من جديد. فتحت ابنة فيديل الصغيرة. دخلتُ البيت من غير دعوة. ظل ميتيا منتظرًا في الخارج. ظهر أبوها لحظة كانت تقول لنا إنه ليس في البيت.

قال فيدين لابنته: «أعدي لنا شايًا، يا كاتيا».

أجبته: «لا أريد شايًا».

رفع فيدين كتفيه، ثم أنزلهما. «تعالي». تبعته إلى غرفة مكتبه حيث جلس على كرسيه الدوار المغلّف بالجلد. بدا أشبه ببومة ثلج جاثمة... شعره الأبيض، وصلعته المرتفعة، وحاجباه المقوسان - أشار لي بالجلوس قبالته.

قلت: «أفضل البقاء واقفة». كنت في غاية التعب من الجلوس قبالة الرجال. دخلت في الموضوع مباشرة: «سوف يقتل نفسه الليلة إذا لم يتم فعل شيء».

«لا يجوز أن تقولي شيئًا كهذا».

«لديه أقراص. جعلته يرجع الأمر، لكني لا أعرف ما أستطيع فعله أكثر من هذا».

«يجب أن تمنعيه».

«كيف؟ أنت، وبقية اللجنة المركزية، أنتم من فعل هذا».

دعك فيدين عينيه وشد ظهره: «حذّرته من أن هذا ما سوف يحدث».

صرخت: «هل حذّرته؟ متى حذّرته؟».

«حذرته يوم فاز بالجائزة. ذهبت إلى الداتشا وقلت له بنفسي إن قبوله الجائزة سوف يكون تحدّيًا للدولة. قلت له -بصفتي صديقًا- إن عليه أن يرفض الجائزة وإلا فسوف يواجه العواقب.

لا بد أن يكون قد أخبرك بهذا».

لم يخبرني. لقد أخفى عني هذا أيضًا.

تابع فيدين كلامه: «لقد صنع بوريس بنفسه الهاوية التي يقف الآن على حافتها. إذا قتل نفسه، فسوف يكون ذلك شيئًا فظيعًا بالنسبة إلى بلدنا، سيكون جرحًا أعمق من الجرح الذي سببه حتى الآن».

«أما من شيء يمكن فعله؟».

قال لي إنه سيرتب موعدًا لنا، أنا وبوريس، مع بوليكاربوف - مسؤول القسم الثقافي نفسه الذي ذهبت وتوسّلت إليه بعد أن أرسل بوريا المخطوط مع الإيطاليين. يمكننا مناقشة الأمر معه شخصيًا شريطة أن ندرك مسبقًا أن على بوريا أن يعتذر عما فعله.

وافقت. كنت مستعدّة لفعل كل شيء أستطيعه حتى أقنع بوريا بالموافقة على هذا. سأقول له إنه أناني. وسأذكّره بالزمن الذي أمضيته في بوتما. سأقول له إنهم سيستهدفونني من جديد. سأقول له إنه لم يُعطني ما أردته أكثر من أي شيء آخر: أن أكون زوجته، وأن أنجب طفله.

في نهاية الأمر، ما كانت هناك حاجة إلى هذا كلّه.

قبل أن أتمكن من قول شيء، أخبرني بوريا بأنه قد سوّى الأمر. لقد أرسل برقيتين اثنتين: واحدة إلى استوكهولم يرفض فيها الجائزة، وأخرى إلى الكرملين يبلغهم فيها بالأمر. لن تكون جائزة نوبل من نصيبه.

«إنهم آتون إليّ، يا أولغا. أحس هذا. حتى عندما أكتب في غرفتي، أستطيع الإحساس بأنهم يراقبونني. لن يطول الأمر الآن. ذات يوم، ستنتظرينني، لكنّي لن آتي أبدًا».

غرب

كانون الثاني 1958

الفصل الخامس والعشرون
المُنشقّة

يقولون حيث كنت أعمل إن من الممكن تلخيص طيف الدوافع البشرية كله واختصاره إلى «م. إ. ت. ذ.»: مال، إيديولوجيا، تسويات، ذات. لكنّي كنت أتساءل كيف سيقيّمني الطرف الآخر. هل لديهم صيغة خاصة بهم؟ أم إنهم ينظرون إلى هذه الأمور بمزيد من التفصيل؟

لم تظهر بعد المرأة التي أخبرتني بما حدث لهنري؛ لكني كنت عارفة أنها ستظهر في الوقت المناسب. وفي انتظار ظهورها، بعت شالين من شالات هرمز التي عندي، شالاتي المفضلة. وبعت النسخ الباقية من رواية «دكتور جيڤاكو»؛ لكني احتفظت بنسخة منها، بالطبعة الإنكليزية التي لم أتمكّن من إرجاعها إلى مكتبة لو ميسترال. وضعتها في درج الطاولة الصغير إلى جانب السرير حيث قد يجد المرء إنجيلًا في الفنادق الأميركية. لم أعد أمضي أيامي في غرفتي؛ ولم أعد في حالة حداد على الشخص الذي كنته. أخرج في الصباح إلى حدائق التويلري - أسير في الممرات المفروشة بالحصى بين الأشجار المعتنى بها عناية فائقة، وأطعم البطّات والبجعات في البركة، وأسحب كرسيًا أخضر أضعه في بقعة مشمسة لكي أجلس وأقرأ. وفي أوقات المساء -صار النهار يزداد قصرًا- أجلس في كل ترّاس في شارع هاشيت وأجرّب ما لدى كل مقهى من أنواع النبيذ المسخَّن. أقمت صداقة مع عامل البار في «لو كافو»، فقط حتى أستطيع الجلوس على واحدة من الأرائك الوثيرة الحمراء والاستماع إلى

ساشا ديستل تهدل ، ليلة بعد ليلة.

وحيثما جلست ، لم تكن أبدًا غائبة عن ذهني. ظللت أنتظر ذلك اليوم الذي أستيقظ فيه فلا تكون حاضرة في أول فكرة تأتيني. بل كان الأمر أكثر سوءًا عندما أحلم بها. نكون معًا في لحظة من اللحظات ، ثم أستيقظ فأشعر بالخسارة كلها تتكرّر من جديد. أشعر أحيانًا كأن شرارة تسري في جسدي فأجد نفسي مؤمنة بأنها تفكّر بي في تلك اللحظة عينها... تفكّر في سالي!

وفي يوم ميلادها ، وددت أن أتصل بها -ولو حتى لكي أسمع صوتها عندما تردّ على الهاتف- لكني لم أفعل. بدلًا من ذلك ، فتحت درج الطاولة الصغيرة ، وأخرجت الكتاب. وللمرة الأولى ، بدأت القراءة.

ساروا قدمًا ؛ ساروا منشدين «الراحة الأبدية». وكلما توقّفوا ، يشعرون كأن أقدامهم ، والخيول ، ونفحات الريح ، تحمل معها غناءهم.

كأن كلماته أمسكت بمعصمي. أعرف كيف يستمر الإحساس بالأغنية بعد انتهائها. أغلقت الكتاب ، وخرجت إلى شرفتي التي كانت صغيرة لا تتسع لأكثر من كرسي وحيد. جلست وفتحت الكتاب من جديد.

عندما قرأت ذلك الجزء حيث يلتقي يوري ولارا من جديد ، في المستشفى الميداني ، أدركت أن هذا الكتاب -هذه الرواية التي اعتبروها سلاحًا- هو قصّة حب في جوهره ، فوددت أن أغلقه من جديد. لكني لم أغلقه. قرأت إلى أن اضمحلّ ضياء الشمس ، فصار هالة أرجوانية فوق أعالي البنايات. قرأت إلى أن أضيئت مصابيح الشوارع ، وصار عليَّ أن أجهد عيني حتى أتبيّن الكلمات. وعندما اشتدت الظلمة ، عدت إلى الغرفة. تدثّرت بثوبي ، واستلقيت ، وتابعت القراءة... إلى أن سقطت نائمة وظلت يدي مشيرة إلى حيث توقفت.

كان الوقت قد قارب منتصف الليل عندما استيقظت. كنت جائعة. نهضت ، ووضعت الكتاب في حقيبة يدي.

عند مروري بردهة الفندق ، رأيت المرأة التي التقيتها في المكتبة. كانت جالسة على كرسي الاستلقاء تحت لوحة فيها صورة لفلوبير. بالغة الأناقة في فستان شانيل من نسيج التويد ، وشعر لا يزال متقن التموج ، لكنه أفتح قليلًا مما كان يوم أخبرتني عن هنري. نهضتْ عندما رأتني ، وخرجت من غير أن تلتقي أنظارنا.

مشينا زمنًا لعله طال عشرين دقيقة، ولم تلتفت المرأة خلفها أبدًا. وصلنا أخيرًا إلى نقطة توقّف عند «كافيه دو فلور» في جادة سان جيرمان. كانت مظلّة المقهى الخارجية تزدحم بأنوار عيد الميلاد البيضاء. كان الترّاس خاليًا؛ وكانت كراسيه الهزازة التي كساها الثلج تبدو كأنها مرتدية معاطف فراء بيضاء. وعلى الداربزين الحديدي في شرفة الطابق الثاني، عُلّق علم فرنسي ممزّق، علم أحمر وأبيض وأزرق، كُتب عليه: يحيا ديغول.

وفي الداخل، قبلت المرأة وجنتيّ من جديد، ثم انصرفت، لكن ليس قبل أن تشير لي إلى طاولة في الخلف كان عليها رجل عرفت أنه ينتظرني.

كنت أعرف أنهم سيأتون، لكنّي لم أتوقّع أن يأتي بنفسه.

وقف لتحيتي. اختفت النظّارة ذات الإطار العظمي، الصغيرة على وجهه، التي كان يضعها في حفلة فيلترينيلي. قال لي: «مرحبًا، يا حلوة». اختفت لكنته الإيطالية، وحلّت محلّها لكنة روسية. تناول يدي وقبلها... «تسرني رؤيتك من جديد. أظنّك آتية من أجل تنظيف فساتينك».

«أمر ممكن».

جلسنا، فناولني قائمة الطعام. «اطلبي ما تشائين...». رفع إصبعه... «لا يستطيع المرء أن يعيش مقتصرًا على الخبز والشوكولاته». كانت أمامه زجاجة نبيذ أبيض مفتوحة وطبق فضّي عليه قواقع لم يتناول منها شيئًا بعد. طلبت من النادل ذي الياقة المنشّاة طبق روكيه مونسينيور، وانتظرت أن يتكلّم الرجل.

شرب بقية نبيذه وأشار إلى النادل بأن يحضر له زجاجة أخرى. قال مازحًا: «أفضّل النساء على الرجال؛ وأفضل النبيذ على الاثنين...». شيوعيون أو رأسماليون، الرجال يظلّون رجالًا! تابع يقول... «أردنا أن نقدّم لك شكرًا شخصيًّا على كرمك».

«هل وجدتم ذلك مفيدًا؟».

«أوه، أجل. لقد كان متكلّمًا حقًّا، ذلك الشخص. كان... كيف تقولين هذا... اجتماعيًّا؟».

«صحيح! بالضبط. كان اجتماعيًا». لم أسأل عن تفاصيل ما حصل لهنري رينيت، ولم أكن أريد معرفتها. أمضيت سنة كاملة راغبة في الانتقام أكثر من أي شيء آخر. وبعد أن جعلهم يطرودنني، لم أعد راغبة في الاكتفاء بتدميره، بل في أن أحرق ذلك الشيء كلّه، أن أحرقه تمامًا. لكني لم أشعر إلا براحة بسيطة عندما أكد لي هذا الرجل المصير الذي لقيه هنري. ليس

الغضب بديلًا حسنًا عن الحزن. ما أسرع ما تذوب حلاوة الانتقام! وبعد أن ذهبت تلك الحلاوة الآن، ماذا يبقى لدي لكي أستمرَّ؟

عاد النادل حاملًا طعامي. وبينما راح صديقي يأكل حلزوناته، حكى لي كل شيء بأقل كمية ممكنة من الكلمات.

سألني: «كم يطول بقاؤك في باريس؟».

«ليست لديّ بطاقة عودة».

غمس حلزونًا في طبق الزبدة السائلة الصغير. «جيّد. يجب أن ترتحلي قليلًا. عليك رؤية العالم. هناك الكثير جدًّا مما يمكن لامرأة مثلك أن تفعله. العالم لك، وما عليك إلا أن تأخذيه».

«لكن من الصعب أخذه عندما يكون المال قليلًا».

«آه...». شَرَقَ محتويات الحلزون وأشار إليَّ بشوكته ذات الشعبتين... «لكني أرى أنك امرأة ذات إمكانيات كبيرة. وأنت امرأة تستحق كل ما ترغب فيه».

«لم أعد واثقة من أن الأمر لا يزال هكذا».

«بل أؤكّد لك أنه هكذا. أنت تقلّلين من شأن نفسك. لعلّ رجلًا أقل تبصّرًا لا يستطيع رؤية الأمر، لكني أراه. ألم يقل إمرسون إن على المرء أن يكون فاتح أبواب؟».

منذ وصولي إلى باريس، سرت عدّة مرات عند البوابات السوداء الكبيرة في جدار إسمنتي مرتفع محيط بـ«أوتيل ديسترِس»، وفي كلّ مرّة، كنت أرفع رأسي ناظرة إلى العلم الأحمر والمنجل والمطرقة الذهبيين، وكنت أتساءل: كيف يكون الأمر إن دخلت هذا المكان امرأة، وخرجت منه امرأة أخرى؟ والآن، ها هي دعوة لي حتى أكتشف الإجابة.

تذكّرت هنري بينيت يرقص معي في ردهة المطعم، ثم يفتح باب غرفة المعاطف ويغلقه من خلفي. تذكّرت أندرسون عندما مرَّ بي -بعدها- من غير أيّة كلمة. ثم تذكّرته جالسًا إلى طاولة مكتبه المصنوعة من خشب الماهوغاني يقول لي إنني لم أعد شخصًا مرغوبًا فيه، وإنه لا يحب قول هذا، لكن الاحتفاظ بي صار مخاطرة كبيرة. تذكّرت فرانك يمر بي قرب المدخل عندما غادرت المقر للمرّة الأخيرة من غير وداع، بل حتى من غير مصافحة.

تذكّرت إيرينا - تذكّرت أول مرّة أراها فيها، وآخر مرّة. لقد اعتزمت أن أذهب وأتحدّث معها بعد جنازة أمها، أن أواسيها، أن أحتضنها، أن أقول لها كلّ شيء. لكنّي لم أذهب إلى

المقبرة ، بل إلى جورجتاون حيث حضرت النصف الثاني من فيلم «الأميركي الصامت»... وحدي.

لا تزال لدي الرسالة الصغيرة التي أردت إعطاءها إياها بعد الجنازة. لا تزال في جيبي. لقد انمحت الكلمات التي كتبتها لكثرة ما دعكت الورقة بين أصابعي وأنا سائرة في شوارع باريس لكني أتذكّر ما كتبته ، أتذكّر الكلمات التي لم أعطها إياها أبدًا ، الحقيقة التي أبقيتها لنفسي.

ثم هناك أيضًا الحقيقة التي أخفيتها عن نفسي. صعدت إلى الطائرة التي ستأخذني إلى باريس ، وكنت مقتنعة بأن ما من بديل آخر أمامي. لكنّي وجدت نفسي ، في تلك الليلة الأولى ، محاطة بكثير من أسئلة «ماذا لو»... أسئلة كثيرة كأنها سربٌ من البعوض. تخيّلت بيتًا مطليًّا بالأبيض في نيو إنغلاند ، البيت الذي لم نستطع الذهاب للعيش فيه ، أنا وإيرينا... تخيّلت بابه الأصفر وأرجوحة الشرفة والنافذة المنخفضة المطلّة على المحيط. تخيّلت أننا نذهب إلى البلدة كلّ صباح لتناول القهوة والدونتس ، وكيف يظننا أهل البلدة شريكتي سكن. عندما فكّرت في تلك الدروب كلّها ، الدروب التي لم أسلكها ، أحسست بالخسارة ثقيلة كأنها بطّانيّة من رصاص.

تذكّرت الكتاب الذي في حقيبة يدي ، إلى جواري. كيف ينتهي هذا الكتاب ؟ هل يصير يوري ولارا معًا آخر الأمر ؟ أم يموتان وحيدين ، بائسين ؟

رفع النادل أطباقنا وسألنا إن كنا نريد شيئًا آخر.

سأل صديقي الجديد: «ربما زجاجة شمبانيا». كان ينظر إليَّ ، لا إلى النادل.

رفعت كأسي وقلت: «عندما تكون في باريس ، تصرّف كالباريسيين».

شرق
كانون الثاني 1959

الفصل السادس والعشرون
موظفة البريد

تناقل الناس النسخ الأولى من يد إلى يد ضمن دوائر المثقّفين الموسكوفيين. وبعد فوز بوريا بجائزة نوبل ، ثم رفضه إياها ، ظهرت نسخ جديدة من النسخ الأولى. ثم ظهرت نسخ من تلك النسخ الجديدة. كان الناس يتبادلون الهمسات عن «دكتور جيڤاكو» في أنفاق المترو في لينينغراد ، وبين العمال في معسكرات العمل ؛ وصار الكتاب يباع في السوق السوداء. صار الناس في أنحاء روسيا يسأل أحدهم الآخر بصوت منخفض: «هل قرأته ؟» ، أو «لماذا منعوه عنا ؟». وما كان الضمير المجهول في تلك الأسئلة في حاجة إلى تسمية. سرعان ما غصّت السوق السوداء بنسخ الرواية ، وصار كل شخص قادرًا على قراءة ذلك الكتاب الذي حظروه في بلادنا.

عندما أتت إيرا بنسخة إلى البيت ، لم أسمح لها بالاحتفاظ بها. صرخت وأنا أمزّق صفحات الكتاب وألقي بها في سلّة المهملات: «ألا تدركين أنها مثل مسدس محشو؟».

«أنت من اشترى رصاصات المسدس. وأنت من فضّلتِ بوريس على أسرتنا».

«إنه واحد من أسرتنا».

«وأنا أعرف أيضًا ما تخفينه هنا. لا تظنّي أنني لا أعرف». قالت هذا وخرجت من البيت مسرعة قبل أن أفلح في قول شيء.

كان المال مخفيًّا في حقيبة جلدية خمرية اللون لها قفل نحاسي. وضعت تلك الحقيبة خلف الفساتين الطويلة في عمق خزانتي. كانت رزم النقود مغلّفة بالنايلون ، مرتّبة في صفوف تحت زوج من البنطلونات.

لقد رتب دانجيلو أمر نقل هذا المال - من فيلترينيلي إلى حساب في ليختنشتاين ، ثم إلى رجل وامرأة إيطاليين يعيشان في موسكو. وكان على الإيطاليين أن يتّصلا بشقتي ويقولان إن هناك طردًا في انتظار باسترناك في مكتب البريد. وعندها ، كان عليَّ أن أستلم الحقيبة ، ثم أذهب بالقطار إلى بيريدلكينو. خبّأت الحقيبة في البيت الصغير.

لم يكن بوريا راغبًا في ذلك المال. ليس في البداية. لكن الدولة حرمته من القدرة على النشر أو على كسب عيشه من خلال الترجمة ، فقال لي إن علينا أن نعثر على سبل أخرى لإعالة أنفسنا. قلت له إن هذا المال ليس إلا جزءًا صغيرًا مما يستحقه. لقد باع فيلترينيلي نسخًا كثيرة جدًّا ؛ وقد وجد نفسه في حاجة إلى إعادة طباعة الكتاب باللغة الإيطالية اثنتي عشرة مرّة. وكان من أكثر الكتب مبيعًا في أميركا أيضًا. ثم إن هوليوود قد اشترت حقوق تحويله إلى فيلم سينمائي. لو كان بوريا في الغرب ، لصار رجلًا ثريًّا جدًّا. عندما قال إن علينا أن نتدبر أمرنا بما هو لدينا ، وأن نكون شاكرين لوجودنا معًا ، طالبته بأن يتخيّل كيف تصير أحوالي وأحوال أسرتي عندما يذهب.

اقتنع آخر الأمر.

إن قلتُ إنني دفعته دفعًا إلى قبول المال الناتج عن حقوق النشر الأجنبية ، فسوف يكون هذا تقليلًا من الأمر ؛ وإن قلت إنني كنت مهتمّة بشيء غير ضمان رعاية أسرتي فسوف أكون كاذبة. لكن ، لماذا لا أحصل على شيء لنفسي ؟ لم لا ؟ بعد كل ما فعلته!... وبعد كل ما مررت به!

لكن الرقابة ازدادت مع مجيء المال. كانوا مستمرّين في المراقبة. لم أرَ أحدًا، لكن عيونهم كانت محسوسة لي دائمًا. كنت أغلق النوافذ، وأسدل الستائر، وأبالغ في تفقد أقفال البيت الصغير. أجفل كلما انكسر غصن في الليل، وكلما هزت الباب هبة ريح، وكلما جاء هدير محرّك سيارة من بعيد. صار النوم مستحيلًا.

أردت شيئًا من الراحة، فتركت البيت الصغير وذهبت للإقامة في شقتي في موسكو. كان بعدي عن بوريا صعبًا عليّ، لكني كنت سعيدة -لأول مرة في حياتي- بصعود السلم خمسة طوابق، وبالجدران الرقيقة مثل قشور البصل، وبجيراني الكثر الذين يعيشون هنا، واحدًا فوق الآخر. إذا حدث شيء، فأنا واثقة من أن أحدهم سيسمع الصوت وسيهبّ إلى مد يد العون... ألن يفعلوا هذا؟

وأيضًا... أسعدني وجودي مع أسرتي. تلبّسني إحساس بأن عليَّ أن أكون قريبة من ابني وابنتي. شيء لم أحسّه بهذه القوة منذ كانا صغيرين. لكن ميتيا وإيرا كانا يمضيان أكثر الوقت خارج الشقة متذرّعَيْن بالدراسة وبالأصدقاء. وعند وجودهما في الشقة، كانا يعاملان أمّي بذلك الاحترام الذي ينكرانه عليَّ. كان ميتيا طفلًا مطيعًا على الدوام، لكنه بدأ يتصرّف بطريقة مبالغ فيها. يقول إنه آتٍ إلى البيت، لكنه لا يأتي؛ وتفوح منه أحيانًا رائحة كحول. وأما إيرا فآثرت قضاء معظم وقتها مع صديقها الجديد.

حذّر الأصدقاء بوريا قائلين له إن عليه أن يترك بيريدلكينو إلى أمان المدينة، لكنه رفض. «إذا أتوا لرجمي، فليأتوا. أفضّل الموت في الريف».

بعد عودتي للإقامة في موسكو، دقّت جارة بابنا، وقالت لنا إن فلاديمير يفيموفيتش سيمتشاستني سيلقي كلمة في التلفزيون يتحدّث فيها عن بوريس. ذهبت خلفها، مع إيرا، إلى شقّتها حيث وقفنا مع أفراد أسرتها متحلّقين من حول جهاز تلفزيون صغير مستقر فوق مشعّ التدفئة البارد. كانت الصورة متقطّعة على الشاشة البيضاء والسوداء، لكنا سمعنا صوت قائد «رابطة الشيوعيين الشباب» قويًا واضحًا. كان سيمتشاستني يدين بوريس ويهاجمه قائلًا: «لقد بصق هذا الرجل في وجه الشعب. إذا قارنتم بين باسترناك والخنزير، تجدون أن الخنزير لا يمكن أن يفعل ما فعله، لأنه لا يضع روثه حيث يأكل...». انتقلت الكاميرا إلى جمهور مكوّن من آلاف الأشخاص... «أنا واثق من أن المجتمع والحكومة لن يضعا أية عقبات في طريقه، بل على العكس من ذلك: سيقرّان بأن رحيله من بيننا سيجعل الهواء أكثر نقاء».

انفجر تصفيق الجمهور. كان خروتشوف نفسه جالسًا على المنصّة، فنهض واقفًا وصفّق معهم. نظرت إيرا إليّ فرأيت ذعرًا في عينيها. أمسكت بيدها وعدنا إلى شقتنا.

أيقظني ميتيا في وقت لاحق من تلك الليلة. جماعة من السكارى أمام بنايتنا. وضعت شالًا على كتفي، وخرجت إلى الشرفة ونظرت إلى أسفل. ثلاثة رجال مرتدين فساتين نسائية؛ لا شك في أن كي جي بي قد أرسلتهم. كانوا يرقصون هناك ويغنون «الغراب الأسود»، أغنية السكارى الفولكلورية التي كرهتها طيلة حياتي.

أيها الغراب الأسود، لماذا تُدوّم هكذا
فوق رأسي في دوائر منخفضة؟
دائمًا، ستفلت فريستك منك.
أيها الغراب الأسود، أنا لست لك.

أيقظت أصواتهم الجيران أيضًا، فخرجوا إلى شرفاتهم وراحوا يصيحون بالسكارى لكي يطبقوا أفواههم. رفع الرجال المرتدون فساتين النساء رؤوسهم إلينا وضحكوا. أشار أحدهم في اتجاهي، ثم شبكوا أذرعتهم معًا وتابعوا غناءهم بصوت أشد ارتفاعًا.

لماذا تنشر مخالبك هكذا
وتطير فوق رأسي في دوائر منخفضة؟
لعلك تحسّ أن الذي تحتك فريسة لك!
أيها الغراب الأسود، أنا لست لك.

همس ميتيا: «لا تستطيعين الرؤية جيّدًا من هنا، لكنّهم يضعون شعرًا مستعارًا. إنه شعر مستعار بشع. وعلى وجه أحدهم أحمر شفاه يغطي فمه كلّه، مثل المهرّجين».

خذ وشاحي الذي صارت عليه الآن بقع دم حمراء،
خذه إلى محبوبتي، محبوبتي الغالية.
قل لها إنها الآن حرّة:
فقد تزوجت غيرها.

قالت إيرا: «سكارى مجانين...». ثم وضعت يدها على كتفي... «فلندخل، يا ماما».

قال بوريا بعد أن رويت له ما جرى: «لن يكتفوا بشيء. ولن أنعم بالسلام إلى أن أرقد في قبري. لقد كتبت رسالة إلى الكرملين أطلب فيها موافقتهم على هجرتك معي».

«هل طلبت منهم هذا قبل أن تطلبه منّي ؟ ماذا لو كنت غير راغبة في الذهاب ؟».

«ألا تريدين ذلك ؟».

«ليس هذا ما قلته».

«لم أبعث بتلك الرسالة بعد».

«لم يكن هذا هو سؤالي».

«لا أستطيع الرحيل من غيرك. أفضل أن يرسلوني إلى معسكرات الاعتقال».

«وماذا عن أسرتي ؟ ماذا سيفعلون ؟».

قال لي إننا سنجد سبيلًا. لكن ما لم أكن أعرفه هو أنه ناقش الأمر مع زوجته. لم يطرح عليَّ الأسئلة التي طرحها عليها إلا بعد أن قالت له إنها لن تسافر أبدًا. ولما كان في وسعه أن يرحل ، فإن عليها ، وعلى ابنهما أيضًا ، شجبه بعد رحيله. قالت لزوجها: «أنت تدرك هذا».

وفي صباح اليوم التالي ، قال لي إنه مزّق الرسالة التي كتبها إلى الكرملين. سألني: «كيف أستطيع النظر من نافذة أخرى ، في مدينة غريبة ، فلا أرى أشجار البتولا التي عند بيتي ؟».

لقد قرّر موقفه: لن يتركهم يدفعونه إلى الرحيل عن موطنه.

كان ينبغي لي إدراك أن الرحيل لم يكن أبدًا خيارًا حقيقيًّا في نظره. فعلى الرغم من كل شيء ، سيجد بوريس نفسه ضائعًا من غير «روسيا الأمّ». كان عاجزًا عن ترك أشجاره ودروبه المكتسية ثلجًا. وما كان ممكنًا أبدًا أن يهجر طيور العقعق والسناجب الحمراء. ما كان قادرًا أبدًا على ترك الداتشا والحديقة ونظام حياته اليومي. كان يفضّل الموت على أرض روسيا حيث يعتبرونه خائنًا على العيش حرًّا في الخارج.

منعوا بوريا من تلقّي الرسائل فقطعوا خط اتصاله الوحيد بالعالم. وبعد وقت قصير من ذلك ، بدأت الرسائل تظهر عند باب شقتي. بعضها يحمل أختامًا بريدية ، وبعضها لا يحمل أختامًا ؛ بعضها عليه عناوين مرسليها ، وبعضها من غير عناوين. في كل صباح ، كنت أحزم تلك الرسائل وأغلّفها بورق مما يستعمله القصابون... كأنها قطع لحم. وكنت أذهب بالقطار مع إيرا إلى البيت الصغير حيث نجد بوريا في انتظارنا لكي يقرأ رسائله. صرت موظفة بريد عنده.

أتته رسائل من ألبير كامو ، وجون شتاينبك ، ومن نهرو ، رئيس حكومة الهند. أتته رسائل من طلبة في باريس ، ومن رسام في موسكو ، ومن جندي في كوبا ، ومن ربة منزل في تورنتو.

كانت هيئته تشرق كلّها عندما يفتح أي رسالة من تلك الرسائل.

أتت واحدة من الرسائل التي رأى فيها قيمة كبيرة من شاب في أوكلاهوما. كتب الشاب قائلًا إن «دكتور جيفاكو» كسرت قلبه، ومسَّت أعماقه. كان العنوان الذي وضعه على غلاف الرسالة: بوريس باسترناك، روسيا، في بلدة صغيرة قرب موسكو.

كان بوريا يردّ على تلك الرسائل فيملأ بخط يده المُحلّق صفحة تلو أخرى، بحبر بنفسجي. كان يكتب إلى أن تؤلمه يده، إلى أن يؤلمه ظهره، لكنه رفض إملاء ردوده عندما عرضت عليه المساعدة. قال لي: «أريد أن تلامس يدي أيديهم».

لكن رسائل أخرى كانت تصله أيضًا؛ رسائل لا يردّ عليها. كانت رسائل من أشخاص يذمّونه، ورسائل من الدولة، ورسائل تريد إخافته. فعلى الرغم من أنه رفض الجائزة، ظلّوا راغبين في رؤية «ساكن السحاب» يهبط عائدًا إلى الأرض. أرادوه أن يجثو على ركبتيه. أرادوه أن يزحف، وأن ينحني. كان يرفض ذلك، لكنّه كان يرفض مواجهتهم أيضًا. وكان امتناعه عن فعل شيء يبدو ضعفًا... يبدو ضعفًا في أعين من يراقبون مجريات الأمور من بعيد، وفي عينيّ أيضًا.

إن كان لا يريد أن يفعل شيئًا، فأنا من سيفعل. لم أكن قادرة على انتظار مجيئهم إلى بابي.

ذهبت لرؤية غريغوري خيسين، رئيس قسم حقوق الكتّاب في اتحاد الكتّاب السوفييت الذي كنت أعرفه منذ أيام عملي في نوفي مير.

كان غير مصغٍ إلى ما أقوله عندما عرضت عليه الوضع الذي يعيشه بوريا. وعندما انتهيت قال لي إنه غير قادر على فعل شيء. «لم يعد بوريس ليونيدوفيتش عضوًا في الاتحاد، وبالتالي فليست له 'حقوق' نستطيع الدفاع عنها». اندفعت خارجة من مكتب غريغوري فتقدّم مني، على الفور، رجل اقترح عليَّ حلًا آخر.

كان هذا الرجل واحدًا من معارفي البعيدين. اسمه إيزودور غرينغولتس. تذكّرت رؤيته في أمسيات شعريّة؛ لكنّي لم أكن أعرفه حقًّا. كان إيزودور شابًّا، وكان وسيمًا. شعر أشقر متموّج، وملابس أشبه بملابس الأوروبيين. ولسبب لا أعرفه، وجدت نفسي أومئ برأسي عندما قال لي إنه مستعد لفعل كل ما يستطيعه حتى يساعد بوريس.

ذهبنا إلى شقّتي حيث بدأنا العمل على الخطّة الجديدة. بعد ساعات من المناقشة مع إيرا وميتيا ونفر صغير من الأصدقاء، قال لنا إيزودور إن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو أن

يبعث بوريس إلى خروتشوف برسالة يطلب فيها الصفح وعدم إبعاده عن وطنه. تردّدت، وفكّرت في أن بوريا لن يضع اسمه على تلك الرسالة، ولن يسمح بأن يملي عليه شخص غريب ما يقوله. لكن كلام الشاب كان مقنعًا فتوصّلنا آخر الأمر إلى أنه ما من سبيل آخر أمامنا.

كتب إيزودور المسوّدة بنفسه، ثم أدخلت عليها تعديلات جعلتها أقرب إلى أسلوب بوريا. حملت إيرا الرسالة إلى بيريدلكينو. لقد أرهقوه كثيرًا، أرهقوه إلى حد جعله غير قادر على رفع صوته عندما سألته إيرا إن كان يقبل وضع توقيعه أسفل تلك الرسالة: لم يستطع غير أن يرفع قلمه ويقول لها: «فلننته من هذا الأمر».

لم يُدخل بوريس على الرسالة إلا تعديلات بسيطة. كتب لي ورقة تقول: «أولغا، فلتبق الرسالة مثلما هي». اكتبي أنني ولدت في روسيا، لا في الاتحاد السوفييتي». قالت إيرا إن يده كانت مرتعشة عندما أضاف إلى الرسالة جملة أخيرة: أضع يدي على قلبي وأقول إنني قدمت شيئًا من أجل الأدب السوفييتي، وإنني آمل أن أظل مفيدًا له.

ذهبت إيرا في اليوم التالي مع صديقة لها، وأوصلت الرسالة إلى ساحة ستارايا. رآهما حارس واقف أمام بوابة اللجنة المركزية تقتربان منه. كانت في فمه سيجارة. نظر إليهما وسألهما عن سبب حضورهما.

قالت إيرا: «معنا رسالة إلى خروتشوف».

ضحك الحارس فكادت رسالته تسقط من يده: «أنتما؟ من صاحب الرسالة؟».

«إنه بوريس باسترناك». كفّ الحارس عن الضحك.

وبعد يومين، اتصل بي بوليكاربوف وقال إن خروتشوف تلقى الرسالة، وإن على بوريا الحضور على وجه السرعة. «ارتدي معطفك وانزلي إلى الشارع. سأكون هناك. سوف تذهبين معنا لإحضار ساكن السحاب».

وبعد عشر دقائق، توقّفت سيارة زيل سوداء أمام بنايتي. كان بوليكاربوف منتظرًا في السيارة. كنت مرتدية معطفي، فنظرت من النافذة ثم نظرت إلى الساعة. انتظرت بعدها خمس عشرة دقيقة، ثم خرجت من الشقة.

ومع اقترابي، ترجل بوليكاربوف من السيارة. كان مرتديًا معطفًا ثقيلًا أسود يبلغ كاحليه. كان معطفًا من صنع أجنبي... صوف ثقيل فاخر. «لقد تركتِنا ننتظرك طويلًا».

لم أعتذر. ظهر غضبي كأنه جرأة ما كنت قادرة عليها. فتح لي باب السيارة الخلفي، ثم جلس في المقعد الأمامي، مع السائق، الذي لم تنحرف عيناه عن الطريق أبدًا. سلكتِ السيارة المسار الأوسط في الشارع، المسار المخصّص لسيارات الحكومة. ومع انطلاق السيارة سريعًا، كانت السيارات المدنية تتنحّى وتلزم جانب الطريق.

سألته: «ماذا تريدون منه أكثر من هذا؟».

استدار بوليكاربوف ونظر إليه: «هذه القضية كلّها، التي جلبها لنفسه، لم تنته بعد».

«لقد رفض الجائزة. ودان روايته. ثم رجا الصفح عنه. ماذا تريدون أيضًا؟ لقد سلبته هذه المحنة سنين كثيرة من عمره. صار الآن رجلًا عجوزًا. أكاد لا أعرفه أحيانًا...». أوقفت اندفاع كلامي. لا حاجة إلى أن يعرف بوليكاربوف أكثر من هذا.

التفت إليَّ مرة أخرى: «إننا نشكرك على مساعدتك في جعل باسترناك يوقّع على الرسالة. لن ننسى لك هذا».

«إنها بقلم بوريس، لا بقلمي».

«تعنين أنها بقلم إيزودور غرينغولتس... أظنك تعرفينه! لقد قال لي بنفسه إنك كتبت القسم الأكبر من الرسالة. نحن نقدّر أيضًا الجهد الذي بذله في هذه القضيّة».

طبعًا... هم من أرسل غرينغولتس! كيف كنت غبيّة إلى هذا الحدّ!

أضاف بوليكاربوف: «نحن الآن معتمدون عليك تمامًا لكي نضع هذه القضيّة خلف ظهورنا».

كان البيت الكبير مظلمًا باستثناء نور وحيد في غرفة مكتب بوريا. توقّفت السيارة فرأيت خياله في النافذة. انطفأ نور الغرفة، ثم ظهر نور في الطابق السفلي. وددت أن أذهب إليه، لكني لم أجرؤ على الخروج من السيارة. رأيت شخصًا آخر يسير جيئة وذهابًا... شخص محدودب الظهر قليلًا، شخص أقصر من بوريا. لن تسمح لي زينايدا حتى بالاقتراب من باب بيتها.

ظهر بوريا مرتديًا سترته ومعتمرًا قبّعته. كانت على وجهه ابتسامة غريبة كأنه ذاهب في رحلة. نزل السائق من السيارة وفتح له الباب. لم أر في وجهه أي ظل للدهشة عندما وجدني جالسة في المقعد الخلفي. لم يعبّر عن أي قلق عندما أكد له بوليكاربوف أننا ذاهبون إلى لقاء خروتشوف. لم يبدِ بوريا انزعاجًا إلا من أنه لم يرتد بنطلونًا يليق بهذه المناسبة. سأل بعد أن انطلقت السيارة في طريقها: «ألا يجدر بي أن أعود إلى البيت لتبديل البنطلون؟».

ضحك بوليكاربوف ضحكة قصيرة، والغريب أن بوريا شاركه الضحك... ضحك ضحكة هستيرية. أغضبتني ضحكته فقذفته بنظرة حادّة، لكنه تظاهر بعدم رؤيتها مما زادني غضبًا.

توقفت السيارة عند إشارة المرور، فانتابتني رغبة في فتح الباب والخروج منها وترك هذين الرجلين يتدبران أمر ما فعلاه.

وصلنا إلى المدخل الخامس لمقر اللجنة المركزية، ثم عبرنا البوابة بصحبة بوليكاربوف. أوقف الحارس بوريا قائلًا له: «بطاقة الهوية».

قال بوريس: «بطاقة العضوية في اتحاد الكتّاب، هي بطاقة الهوية الوحيدة التي كانت عندي. لكنهم أخذوها. لم تعد عندي أيّة بطاقة. وأسوأ من هذا أنني من غير بنطلون لائق أيضًا». فضّل الحارس الشاب ذو الشفتين الممتلئتين والنمش الكثير على خديه ألا يجيب بشيء بعد ما سمعه. أشار لنا بالدخول. تركنا بوليكاربوف في غرفة انتظار صغيرة جلسنا فيها ساعة كاملة. مس بوريا سواري الذهبي الذي أتاني هدية منه في رأس السنة قبل ثلاث سنين.

سألني: «هل من المستحسن أن يكون هذا السوار في يدك؟»... أزاح عن وجهي خصلة شعر... «وقرطا اللؤلؤ أيضًا. وأحمر الشفاه؟ قد يعطي هذا كله انطباعًا غير مناسب».

فتحت حقيبة يدي. لكني لم أخلع مجوهراتي ولم أمسح شفتيَّ. أخرجت من الحقيبة زجاجة صغيرة من منقوع حشيشة الهر وشربتها لكي تهدأ أعصابي.

وأخيرًا، استدعي بوريا فنهضنا واقفين. قال لي الحارس: «لا حاجة إلى دخولك»، لكنّي تأبطت ذراع بوريا وسرنا معًا في الممر المفضي إلى غرفة مكتب كان بوليكاربوف ينتظرنا فيها. رحّبت بنا رائحة كولونيا الحلاقة القوية. الظاهر أن بوليكاربوف قد استحم وحلق ذقنه وارتدى بدلة جديدة. تصرّف كأنه أمضى النهار كلّه في انتظارنا. كان ذلك أسلوبًا تخويفيًا آخر... لن نلتقي خروتشوف أبدًا. تنحنح بوليكاربوف كأنه موشك على إلقاء خطاب. قال: «بوريس ليونيدوفيتش، سوف يُسمح لك بالبقاء في روسيا».

«لماذا أتينا مع أنك كنت قادرًا على قول هذا منذ ساعة؟».

تجاهل بوليكاربوف ما قلته. أشار بإصبعه إلى كرسيين: «اجلسا. هناك المزيد».

كان صرير أسنان بوريا الاصطناعية مسموعًا. صاح به: «ما من مزيد!...». أخيرًا، انفجر الغضب الذي كنت تواقة إلى سماعه. أخيرًا... بدأ يدافع عن نفسه.

«لقد أثرت غضب الشعب كثيرًا، يا بوريس ليونيدوفيتش. لا أستطيع فعل شيء كثير لتهدئة

الشعب. ليس من حقك أن تعبث به. ثم إن من حقهم أن يعبّروا عن آرائهم. سوف تشتمل صحيفة ليتيراتورنايا غازيتا غدًا على عدد كبير من هذه الأصوات. لا نستطيع فعل شيء لمنع ذلك. إن للشعب حقوقًا. عليك أن تصالح الشعب قبل أن يعطيك إذنًا بالبقاء في البلاد. مصالحة علنية، بطبيعة الحال. نريد أن تكتب رسالة أخرى على وجه السرعة».

سأله بوريا: «ألا تستحون؟». صوته لا يزال مرتفعًا.

أشار بوليكاربوف إلى الكرسيين مرة أخرى: «هيا، فلنجلس ونتحدّث مثلما يتحدّث رجلان محترمان».

قلت له: «ليس هنا إلا رجل محترم واحد».

ضحك بوليكاربوف: «هل تتفضّل زوجة الشاعر العظيم بالجلوس».

قال بوريا: «لن أجلس. انتهى هذا اللقاء. أنت تتكلّم باسم الشعب، ماذا تعرف عن الشعب؟».

«اسمع يا بوريس ليونيدوفيتش؛ لقد اقترب هذا الأمر من نهايته. لديك فرصة لتصحيح الأمور معي ومع الشعب. أتيت بك إلى هذا المكان حتى أقول لك إن كل شيء سيعود إلى وضعه الطبيعي إذا تعاونت معنا». دار من حول المكتب ووقف بيني وبين بوريا. ربّت بيده على كتف بوريا مثلما يربّت المرء على رأس كلب... «يا صديقي... أية فوضى تلك التي أوقعتنا فيها!».

أزاح بوريا يده عن كتفه: «أنا لست تابعًا لك، ولست خروفًا تستطيع أن تقوده إلى المرعى».

قال بوليكاربوف: «لستُ من غرس سكينًا في ظهر بلاده».

«كل كلمة كتبتها كانت حقيقة. كلّ كلمة. لست أخجل من كلماتي».

«حقيقتك غير حقيقتنا. أنا أحاول مساعدتك في تصحيح مجرى الأمور».

سار بوريا في اتجاه الباب.

اختفى تبجّح بوليكاربوف كلّه. قال لي: «أوقفيه، يا أولغا فسيفولودوفنا!». بدا في تلك اللحظة راجيًا، في حالة يرثى لها. وكان واضحًا أنه تلقّى أوامر بأن ينهي الأمر كلّه بطريقة هادئة، لكنه أراد أن ينفخ صدره أولًا ففشل في ذلك.

قلت: «عليك أولًا أن تعتذر عن كلامك معه بتلك الطريقة».

«إنني أعتذر. نعم، أعتذر. أرجوك».

ظل بوريا واقفًا عند الباب. قال له: «انهِ الأمر الآن... من فضلك».

في اليوم التالي ، ذكرت صحيفة ليتيراتورنايا غازيتا اثنتين وعشرين رسالة بقلم مواطنين روس «حقيقيين». ظهرت الرسائل تحت عنوان «مواطنون سوفييت يشجبون سلوك بوريس باسترناك». حملت كل رسالة تكرارًا ببغائيًا لكلمات الحزب: يهوذا! خائن! زائف! عاملة بناء من لينينغراد كتبت أنها لم تسمع باسم باسترناك قبل الآن ، فلماذا نعيره أي قدر من الاهتمام؟ كتب عامل نسيج من مدينة تومسك قائلًا إن باسترناك لعبة في يد الغرب ، وإنه يتلقّى تمويلًا من جواسيس رأسماليين جعلوه رجلًا واسع الثراء.

قال لنا بوليكاربوف إنه يريد رسالة اعتذار أخيرة موجهة «إلى الشعب». كتبتُ المسوَّدة الأولى ، ثم أدخلتُ عليها تعديلات بناء على ملاحظات بوليكاربوف ، ثم أقنعت بوريا بالتوقيع عليها.

أتاني إلى البيت الصغير ليلة اليوم الذي ظهرت فيه تلك الرسالة الأخيرة في صحيفة برافدا. كان يريد ممارسة الحب. لكن الشاعر الجريء المتألّق كان قد اختفى وحل مكانه رجل عجوز. مس خصري عندما كنت واقفة في المطبخ أقشر البطاطس. كانت تلك أول مرة أبتعد عنه.

غرب

صيف 1959

الفصل السابع والعشرون
الطالبة

كان أكثر وقتي انتظارًا: أنتظر المعلومات ، وأنتظر المهمّات ، وأنتظر بدء كل مهمّة. كنت أنتظر في غرف الفنادق ، والشقق ، وعلى السلالم ، وفي محطات القطار ، وعلى مواقف الباصات ، وفي البارات ، وفي المطاعم ، وفي المكتبات ، وفي المتاحف ، وفي غرف تنظيف الملابس. كنت أنتظر على مقاعد الحدائق ، وفي دور السينما. وذات مرة ، انتظرت رسالة في حوض سباحة عام في أمستردام ، وبقيت منتظرة طيلة النهار ، ثم انصرفت بعد أن أحرقتني الشمس حروقًا جعلتني مضطرة إلى لف كتفي وأعلى فخذي بشاش مشبع بكريم الصبار.

بعد تسعة شهور من المعرض الدولي ، كنت منتظرة مرة أخرى ، في فندق صغير في فيينا. كنت أنتظر افتتاح مهرجان الشباب العالمي.

كان موعد المهرجان مقرّرًا في أواخر شهر تموز ؛ وكان برنامجه مشتملًا على عشرة أيام من المسابقات والاجتماعات ، والاستعراضات ، والمحاضرات ، وحلقات المناقشة ، والمباريات الرياضية. سوف تجري في المهرجان «مسيرة الأمم» وسيطلقون ألف حمامة بيضاء ، ثم يقيمون حفلة راقصة كبيرة في آخر يوم. وذلك كلّه مكرّس لتشجيع «السلم والصداقة» بين قادة الغد. وخلال المهرجان ، سيشارك عشرون ألفًا من طلبة العالم القادمين من بلاد كثيرة ، من المملكة العربية السعودية وسيلان وصولًا إلى فريزنو وكامبردج ، في جولات تنظّمها نقابة العمال لزيارة محطة لتوليد الكهرباء ، وللاستماع إلى محاضرات يلقيها قادة في

حركة معسكرات العمل التطوّعية ، أو يذهبون إلى محاضرات عن الاستخدامات السلميّة للطاقة الذرّية.

لقد استثمر الكرملين ما يقدر بمئة مليون دولار لكي يضمن بقاء أثر المهرجان في نفوس المشاركين. لكن الوكالة كانت لديها خطط أخرى.

بعد أن ظهرت رواية «دكتور جيڤاكو» في أنحاء الاتحاد السوفييتي ، وازدادت كثيرًا الشهرة السلبية التي حظي بها باسترناك ، بدأ السوفييت يفتشون أمتعة المواطنين العائدين إلى الوطن الأم من الخارج بحثًا عن كتب.

كان ذلك نجاحًا دعائيًا في نظر الوكالة. ونتيجة ذلك ، قررت مضاعفة جهودها... قرّرت أن تطبع وتوزّع مزيدًا من نسخ الرواية. وفي هذه المرة ، أصدرنا بأنفسنا طبعة جديدة صغيرة الحجم بدلًا من طبعة هولندا ذات الغلاف المقوّى والقماش الأزرق... استخدمنا ورقًا متينًا رقيقًا ، فصار الكتاب صغيرًا قابلًا لأن يوضع في الجيب.

كان عليَّ أن أذهب إلى فيينا في وقت مبكر حتى أنتظر وصول ألفي نسخة من ذلك الكتاب الصغير. كان مقررًا توزيع «مزرعة الحيوان» و«الرب الذي أخفق» و«1984» ؛ وقد كان عشرات منا في انتظار وصول الكتب التي ستملأ أكشاك المعلومات التابعة لنا في أنحاء فيينا كلّها ، بحيث تكون جاهزة لتوزيعها على وفود الطلاب التي ستتجول لرؤية معالم المدينة. كان ذلك أسلوب الوكالة في نشر السلم والصداقة.

طال شعري قليلًا بعد بروكسل ؛ وعاد إلى شقرته السابقة مع مسحة صباغ نحاسي اللون. كانت ملابسي أشبه بملابس فتاة ذاهبة لحضور أمسية شعرية: كنزة سوداء ذات ياقة مرتفعة ، وبنطلون ضيق أسود ، وحذاء خفيف أسود اللون أيضًا. لقد صرت طالبة من جديد.

كان موقعي الأول مدينة الملاهي ويرستيلبراتر. وكان عليَّ أن أستطلع مدينة الملاهي قبل بداية المهرجان حتى أحدد نقطة يكثر مرور الناس فيها بحيث أتمكّن من توزيع أكبر عدد ممكن من الكتب قبل أن يُطلب مني الانصراف (سيطلب مني الانصراف ، لا محالة).

مررت بقطار الأشباح ، وبالأرجوحة الدوارة ، وبحلبة السيارات الكهربائية الصغيرة ، وحلبات الرماية ، وحدائق البيرة ، فتوصّلت إلى أن الدولاب الدوار الضخم أفضل مكان لوقوفي لأنني انتبهت إلى أن كل طالب سائح سيكون راغبًا في جولة على أعلى دولاب دوار في العالم. ثم إنني شعرت بقدر من الإثارة عند وقوفي قريبة إلى هذا الحدّ من هذا الدولاب الذي رأيته في

واحد من أفلامي المفضلة، «الرجل الثالث».

بعد أن قرّرت المكان، كانت الخطوة التالية زيارة محل لتنظيف الملابس في تشولاوبن حيث أقول للموظف هناك إنهم أرسلوني لاستلام بدلة السيد ويرنر فايغت وأسأله إن كنت أستطيع الدفع بالفرنكات السويسرية. وعندها، سيسلمني الرجل البدلة المغلّفة ومعها بطاقة عليها عنوان أذهب إليه لاستلام الدفعة الأولى من «دكتور جيڤاكو» في نسختها المصغّرة. وسوف يبدأ التوزيع في اليوم التالي. لكني كنت جائعة. قررت التوقف وشراء فطيرتَي بطاطس كبيرتين قبل الذهاب إلى مدينة الملاهي: واحدة لعشائي، وواحدة لفطوري. كان كشك بيع الطعام في موقع استراتيجي إلى جوار ريزنراد: مصيدة لكل واقف في صف الانتظار. وهناك، أثناء وقوفي في الصفّ لشراء الطعام خلف سائح أميركي يرتدي بنطلونًا جلديًا ضيقًا قبيحًا، رأيتها. كانت واقفة هناك، في صف من ينتظرون دورهم للصعود إلى الأرجوحة الدوارة. ظهرها في اتجاهي.

كانت سالي ترتدي معطفًا طويلًا أخضر مع قفازين أبيضين. شعرها الأحمر أقصر قليلًا مما كان عندما رأيتها آخر مرة. كانت جميلة، حتى عند النظر إليها من الخلف. ذكرتني بأول مرة رأيتها في مقهى رالف. تذكّرت كيف كان شعرها أول ما رأيته عندما التفتت في اتجاهي.

كان أمرًا غريبًا أن أراها هكذا، أن أراها في مكان لم أعد فيه نفسي التي كنتها، ولم تعد فيه نفسها التي كانتها. لقد انزاح الواقع ومر زمن طويل جدًّا. خلال السنة الماضية، تركت نفسي تقتنع بأنني تجاوزتها. وقد قلت لنفسي مرات كثيرة إنه ما كان هناك شيء أصلًا -ربما- لكي أتجاوزه. لكني رأيتها. لقد أتت من أجلي.

أمالت سالي رأسها كأنها قادرة على الإحساس بأنني انتبهت إليها. لم تلتفت لترى إن كنت قد رأيتها، لكنها ما كانت في حاجة إلى الالتفات. تعرف أنني سأراها. سأراها، بالطبع سأراها. هل أذهب وأقف في الصف معها؟ هل أجري إليها وأطوقها بذراعيَّ من خلفها؟ أم أنتظر أن تأتي إليّ؟

خرجت من صف انتظار الطعام وسرت بضع خطوات في اتجاه صف الصعود إلى الدولاب الدوار. دخلت الصف أمام مجموعة طلاب يتكلّمون الفرنسية. لم يعترض أحد منهم ولم يعِرني اهتمامًا.

تقدّمت، فصرت خلف سالي بعدّة أشخاص. عندما بلغت كشك التذاكر، فتحت حقيبة يدها

وأخرجت نقودًا. لكن رجلًا ذا شعر خالطه الشيب تقدم منها لحظة مدت يدها بالنقود إلى المرأة الجالسة في الكشك فأخذ النقود من يدها. دفع الرجل ثمن تذكرتين فقبّلت سالي خده. لم يكن عليها أن تستدير استدارة كاملة حتى أفهم.

وقفت أنظر إليها بينما كان الرجل يفتح باب المقصورة الحمراء لكي تدخلها المرأة التي لم تكن سالي. اشتريت تذكرة، وصعدت بدوري. رفعت رأسي لأنظر إن كنت أستطيع رؤية تلك المرأة التي تشبه سالي في مكان ما، فوقي. لم أستطع رؤيتها. اهتزّ الدولاب عندما بدأنا نرتفع عن الأرض. مددت رأسي من النافذة المفتوحة ورحت أنظر في الأسفل، إلى الأرض التي صارت هادئة جميلة.

رأيتها مرات كثيرة. بعد زمن طويل من انتهائي من تسليم آخر نسخة من «دكتور جيڤاكو» في فيينا وذهابي إلى المهمّة التالية؛ وكذلك في المهمّة التي تلتها. كان الوقت الذي أمضيناه معًا قصيرًا، لكن ما من أهمية لذلك. ظللت أراها بضع سنين بعد فيينا: تشير إلى عربة في القاهرة، وشعرها الأحمر يرسم بقعة ضوء في الشارع المغبر؛ تصعد إلى آخر قطار منطلق إلى دلهي، حقائبها المتشابهة يحملها رجل سنّه ضعفا سنها؛ تربّت على قطة واقفة فوق كدس من علب حبوب الإفطار في متجر للبقالة في حي إسباني في نيويورك؛ تطلب ويسكي توم كولينز مع كمية مضاعفة من الثلج في فندق في لشبونة.

مرت الأعوام، لكن سنّها ظل على حاله، وظل جمالها كأنه محفوظ في الكهرمان. وحتى بعد أن عرفت ممرضة في ديترويت فتحت فيّ أبوابًا ما كنت أعرف أنني أغلقتها... حتى في ذلك الوقت، ظللت أرى سالي ترشف القهوة عند طاولة في مطعم، أو تمد ذراعها من غرفة تجريب الملابس طالبة مقاسًا أكبر، أو في شرفة سينما تتابع فيلمًا وحدها. وفي كل مرة، كنت أشعر بتلك الغصّة في داخلي، بذلك الترقّب الحاد... تلك اللحظة التي تنطفئ الأنوار عندها ويبدأ الفيلم، تلك اللحظة التي لا تستمر إلا بضع ثوانٍ، لكنني أحسّ فيها أن العالم كله موشك على الاستيقاظ.

شرق

1960 — 1961

الفصل الثامن والعشرون
شبه أرملة

اعتذرَ كثيرًا عندما وصل متأخرًا إلى البيت الصغير. ساعدته في خلع معطفه. وقلت له: «أغفر لك كل شيء يوم عيد ميلادك».

انضم إلى أصدقائنا في غرفة الجلوس. جلبتُ زجاجة شاتو مارغو أخرى اشتريتها من السوق السوداء مبررة ذلك بأن عيد ميلاد بوريا السبعين مناسبة ممتازة لفتح الحقيبة البنّية.

اشتريت أيضًا فستانًا حريريًا أحمر ذا ياقة مرتفعة... أجمل فستان لبسته في حياتي كلّها.

أكلنا وشربنا ، وتحدّث بوريا مثلما كان يفعل في الأيام الخوالي. كان في مزاج ممتاز. عاد إلى الكتابة ، وأخبر الجميع عن مشروعه الجديد: مسرحية ينوي أن يسميها «الجمال الأعمى». كان يضحك ويبتسم وهو يفتح الهدايا والبرقيات التي تحمل له أمنيات طيبة من شخصيات

مختلفة في أنحاء العالم. كنت أنظر إليه من آخر الغرفة ، وأحس بدفء النور الذي يشعّه ، نور أضاء من جديد بعد ذلك العذاب الطويل في الظلام الذي خيّم علينا ، نحن الاثنين. إنه الألق القديم نفسه الذي جذبني إليه قبل سنين كثيرة جدًا.

سهر ضيوفنا حتى ساعة متأخّرة من الليل. وعندما أرادوا الذهاب أخيرًا ، حاول بوريا استبقاءهم فوقف أمام مشجب المعاطف ورجاهم قائلًا: «كأس أخرى فقط».

صرنا وحدنا ، فجلس بوريا على كرسيه الكبير الأحمر حاملًا بيده ساعة منبّهة كانت هدية من رئيس حكومة الهند ، نهرو الذي عبّر عن مساندته لرواية «دكتور جيفاكو». قال بوريا وهو يضع الساعة ويمد يديه إليّ: «كم كان مجيء كل شيء متأخِرًا! ليتنا نستطيع العيش هكذا إلى الأبد».

بقيت تلك الليلة في ذاكرتي. كم بدا بوريا معافى في يوم ميلاده! وكم بدا سعيدًا! لكن نوره بدأ يخفت سريعًا ، تقريبًا بسرعة عودته.

تراجعت شهيته أول الأمر. وصار يكتفي بالشاي أو بالعصيدة عندما يأتي إلى البيت الصغير وقت العشاء. بدأ يشتكي من تشنجات في ساقه تبقيه مستيقظًا طيلة الليل ، ومن خدر في أسفل ظهره جعل الجلوس صعبًا.

كان مرهقًا ، وكان يجد صعوبة في التركيز على مسرحيته الجديدة ، ولم يستطع الرد على مئات الرسائل التي واصلت تدفّقها عليه. خبا لون بشرته البرونزي فصار رماديًا مزرقًّا. صارت آلام صدره أكثر تكرارًا.

وفي إحدى الليالي ، جاء إلى البيت الصغير حاملًا مسرحيته التي لم ينهِها بعد. كنت أطهو حساء الفطر ، فرجاني أن أضع المسرحية عندي لحفظها. بدا متعبًا كثيرًا فقلت له إن عليه أن يرى طبيبًا على الفور.

«غدًا ، يا بوريا. صباح غد. كيف لم تستطع زوجتك رؤية أن...».

أمسك بمخطوطة المسرحية: «هناك ما هو أكثر أهمية. إذا حدث شيء ، فسوف تكون هذه ضمانة لك. ستكون شيئًا يعيل أسرتك بعد رحيلي».

قلت له إنه يبالغ ، فدفع بالمسرحية بين يديّ. وعندما رفضت أخذها ، انهار وبدأ يبكي. مسّدت ظهره حتى يهدأ ففاجأني بروز عموده الفقري تحت يدي. أخافني ملمسه ، لكنه أفعمني بنوع جديد من الرقّة... الرقّة التي يحسّها المرء إزاء أب مريض أو أم عليلة. وعدته أن آخذ

مخطوطة المسرحية. نصب ظهره واحتضنني بين ذراعيه وقبّل خدّي ورقبتي. دخلنا غرفة نومي تواقين إلى خلع ملابسنا، إلى إحساس جلد كل منا بجلد الآخر، إلى التصاق هيكله العظمي بلحمي. اعتدت أن أترك النور مضاء عند بداية مداعباتنا لأن دهشته بجسدي كانت ممتعة لي، دهشة تبدو من غير نهاية. أما الآن، بعد هذه السنين كلّها، فقد أطفأت النور.

لم أعرف أنها ستكون ليلتنا الأخيرة. لو عرفت، لما استعجلتها. من غرفة النوم، كنت أسمع صوت الحساء يفور وينسكب على الموقد، فبدأت أحرك رِدفَيَّ بطريقة أعرف أنها تجعله ينتهي سريعًا.

تناولت العشاء وحدي بعد أن ارتدى ملابسه وعاد إلى بيته. ستكون هذه المرة قبل الأخيرة التي أراه فيها حيًّا.

وفي المرة الأخيرة، رأيته فلم أكد أعرفه. تأخّر ساعة على موعد لقائنا في المقبرة. وعندما اقترب ظننته شخصًا غريبًا. كان يسير بخطوات شديدة البطء - قدماه غير واثقتين، وظهره منحنٍ، وشعره أشعث، وجلده أكثر شحوبًا. من يكون هذا العجوز الآتي عبر بوابة المقبرة؟ ومع اقترابه، تردّدت قبل أن أحتضنه... تردّدت لأنني خشيت أن تؤلمه لمستي، وتردّدت أكثر -يا لخجلي من نفسي- لأنني أدركت أن حبيبي قد ذهب من غير عودة. هذا ليس هو! كيف يمكن أن يكون هو؟

تراجع خطوة عندما أحسّ تردُّدي. قال لي: «أعرف أنك تحبينني. أنا مؤمن بهذا».

أجبته: «أحبك». أردت أن أطمئنه. قبّلته على شفتيه المتشققتين كأنني أريد إثبات ما قلته.

«لا تغيري شيئًا في حياتنا، أتوسّل إليك. لا أقدر على احتمال ذلك. أرجوك، لا تعودي إلى موسكو».

شددت على يده وقلت: «لن أعود. سأبقى هنا».

افترقنا بعد أن اتفقنا على اللقاء تلك الليلة في البيت الصغير. لكنه لم يأت.

كان السبب قلبه. فعلى غرار يوري جيڤاكو، كان السبب قلبه آخر الأمر. خلال حياته كلّها، كان بوريا ميلودراميًا عندما يواجه المرض: يكون مقتنعًا بأن نهايته قد دنت. وأما هذه المرة، فقد ظلّ غير مقتنع بأن وعكته ستكون قاتلة. صار طريح الفراش؛ وكتب لي قائلًا إنه سيتجاوز تلك النكسة، إنه سينهض في أي يوم، وينجز مسرحيته. كتب لي في اليوم التالي قائلًا إنهم نقلوا سريره إلى الطابق السفلي حتى تصير رعايته أكثر سهولة. قال إن من المؤلم

له أن يكون بعيدًا عن طاولة الكتابة. طلب مني ألا أقلق ؛ وقال إن ممرضة أتت لكي تظل معه في البيت الكبير. قال أيضًا إن صديقته العزيزة نينا تزوره كل يوم. طلب مني أيضًا ألا آتي إليه ، وقال إن زوجته حذّرته من ذلك. يا لشدة حماقة زينايدا! ليست لديها الفطنة الكافية لكي تجنّبني هذا. لكني سأرسل في طلبك إن ساءت الأمور.

مرت الأيام ، لكني لم أتلقَ منه أية رسالة ، فأرسلت ميتيا وإيرا إلى البيت الكبير لكي يستطلعا الأمر. شاهدا الممرضة الشابة تدخل البيت وتخرج منه ، لكن الستائر كانت مسدلة. كان هذا كل ما أفلحا في معرفته.

مرَّ يوم آخر. لم تصلني أية كلمة منه ، فذهبت إلى البيت الكبير بنفسي مقتنعة بأن زينايدا تحجب الرسائل عني. كان ذلك في أول المساء. رأيت نورًا في غرفة مكتبه. من يكون هناك ؟ أهي زوجته ؟ أهو واحد من أبنائه ؟ هل بدأوا يفتّشون كتبه وأوراقه ؟... منذ الآن ؟ هل سيعثرون على رسائلي المخبأة داخل الكتب ، أو على الزهور التي قطفتها له فوضعها بين الصفحات ؟ هل سيبقى بعد موته شيء يكون علامة على الزمن الذي أمضيناه معًا ؟ انطفأ الضوء في الغرفة ، فبدأت أبكي.

خرجت الممرضة الشابة من البيت. كانت فتاة مليحة ، فأحسست بوخزة غيرة لأنها هي من تنحني فوق سريره ، وتطعمه العصيدة بالملعقة ، وتمسك يده ، وتقول له إن كل شيء سيمرّ على خير. فوجئتْ عندما رأتني واقفة خارج البوابة. قالت لي: «أولغا فسيفولودوفنا! لقد قال إنك ستأتين!».

سألتها: «أليس لديها من حسّ اللياقة ما يجعلها تسمح لي برؤيته ؟ أم إنه لا يريد مجيئي ؟».

نظرت إلى الداتشا وقالت: «لا. المسألة هي أنه لا يستطيع احتمال أن تريه».

لم أقل شيئًا. وقفت أحدّق في الممرضة.

«إنه مريض ، مريض جدًّا. صار جلدًا على عظم. وهو الآن من غير أسنانه الاصطناعية. يقول إنه يخشى أن تكفّي عن حبّه إذا رأيته هكذا».

«هراء! أيظنني سطحية إلى هذا الحد ؟». أدرت ظهري إلى الممرضة ، وإلى البيت.

«لقد قال لي كم يحبّك. يتكلّم في هذا الأمر كثيرًا... إلى حدٍّ محرجٍ...». خفضت صوتها... «تكون زوجته في الغرفة المجاورة».

قالت الممرضة إن عليها أن تلحق بالقطار الذاهب إلى موسكو ، لكنّها وعدتني بأن تبلغني

بأية تطوّرات تحدث. بقيت واقفة في مكاني. وعندما قارب الوقت منتصف الليل ولم أعد إلى البيت ، جلب لي ميتيا وإيرا شايًا وبطانية ثقيلة.

لم يبق وجودي عند البيت الكبير من غير أن تلاحظه زينايدا التي كانت تنظر من النافذة بعد أن تزيح الستائر قليلًا ، ثم تسرع فتغلقها من جديد. بقيت عدة أيام منتظرة عند البوابة. وكنت أتلقّى الأنباء من الممرضة. داهمته نوبة قلبية ، ولم يستطيعوا شيئًا غير تخفيف ألمه. رجوتها أن تقول لبوريا إنني في الخارج ، وإنني أريد توديعه. قالت إنها ستنقل إليه رسالتي.

وعندما وصلت السيارات آتية بصحافيين ومصوّرين وقفوا معي عند البوابة ، أدركت أن سهري عليه قد تحوّل إلى سهر على ميت. ذهبت ، ثم عدت مرتدية فستانًا وخمارًا أسودين. انقضت ساعات. رسمت خطواتي دربًا على عشب الربيع الجديد.

ورغم ذلك ، ظلّ لا يسمح لي بالدخول.

لم يسمح لي بدخول البيت الكبير إلا بعد رحيله. فتحت زينايدا الباب من غير أن تقول كلمة واحدة ، فتجاوزتها واندفعت إلى جسده الذي لا يزال دافئًا. كانوا قد فرغوا قبل قليل من تنظيفه وتبديل الملاءات ، لكن الغرفة ظلّت عابقة برائحة الأدوية والبراز. كنا وحدنا للمرة الأخيرة. أمسكت يده. بدا وجهه كأنه تمثال منحوت. تخيّلت قناع الموت الذي سيحولونه إليه عما قريب. حاولت خلال الأسابيع الماضية أن أحضّر نفسي لتلقي ما قد تكون عليه هذه اللحظة ، لكنها لم تكن مثل أي شيء توقّعته. لم يتغير الهواء من حولي ؛ ولم يتوقّف قلبي عن خفقانه ، ولم تتوقّف الأرض عن دورانها... كان إدراكي أن كل شيء سيظل مستمرًّا مثلما كان ، وأن العالم سيظلّ ماضيًا مثلما كان ، أشبه برفسة حصان تصيب صدري.

كنت ممسكة يده ؛ وكنت أسمع من الغرفة المجاورة كلامًا عن ترتيبات الجنازة والدفن. قبّلت وجنته ، وسويت تجاعيد الملاءة البيضاء على سريره ، ثم خرجت.

لم يكن لي هناك جسد أعتني به ، ولا جنازة أقرّر ترتيباتها ، ولا أوراق رسمية أقدّمها. ما كان باقيًا لي شيء غير أن أتذكّر.

تذكّرت تلك المرة الأولى ، عندما أمسك بيدي ، وكيف لم أكن أتوقّع أبدًا أن تنبعث رعشة من داخلي فتغمر جسدي كلّه. تذكّرته وهو يقرأ لي الصفحات الأولى من «دكتور جيڤاكو» وكيف كان يتوقّف لحظة عند آخر كل فقرة توّاقًا إلى رؤية استجابتي. تذكّرت نزهاتنا أوقات العصر في جادّات موسكو الفسيحة ، وكيف أحسست بالعالم يمتد متّسعًا كلما نظر إليّ. تذكّرت أمسيات

الحب الكثيرة ، وتذكّرت الليالي الكثيرة التي قال فيها إنه غير راغب في مغادرة فراشي.

تذكّرت أيضًا كيف ترك فراشي بعد أن رجوته أن يظلّ. تذكّرت كيف وصلت إلى محطة القطار بعد ثلاث سنين أمضيتها في بوتما ، وكيف رأيت أنه لم يأت إلى المحطة فانتابتني رغبة في العودة من حيث أتيت. تذكّرت المرات الكثيرة التي قال لي فيها إن ما بيننا قد انتهى ، والأشياء الفظيعة الكثيرة التي قلتها له ردًا على ذلك. تذكّرت ذاتَه المتضخّمة في أوجِّه ، وتذكّرت أن الرجل المنكمش الذي خلفه جيڤاكو وراءه.

ألبسوه بدلته الرمادية المفضّلة عنده ، وسجّوه في تابوت من خشب الصنوبر البكر. انتظرت خارج الداتشا حين كانوا يقيمون البانيخيدا(31) في الداخل. كان عازف البيانو الكبير سفاتوسلاف تيوفيتش ريختر يعزف في غرفة الموسيقى في بيت بوريس ؛ وكانت ألحانه تنسكب مندفعة من النافذة المفتوحة. انتهت الموسيقى ، وحملوا التابوت إلى الخارج ، وتوقّفوا عند حديقته التي أحبّها. كنت واقفة إلى جوار بوريا ، قبالة زينايدا: الأرملة ، وشبه الأرملة. كنت أنوح باكية ، وكان ميتيا وإيرا ممسكَيْن بذراعي. لكن زينايدا كانت واقفة هناك ، صامتة ، جليلة.

سار الموكب نازلًا التل ، ثم صعد إلى المقبرة حيث اختار بوريا مكان قبره تحت شجرات السرو الباسقة. أوردت الصحيفة خبر وفاته في سطر أو سطرين ، لكنهم جاؤوا. سار خلف النعش مئات منهم ، وربما آلاف. كانوا شيبًا وشبابًا ، جيرانًا وأغرابًا ، عمالًا وطلابًا ، أصدقاء وخصومًا ، عمال مصانع ورجال شرطة سرّية مرتدين ملابس عمال المصانع ، ومراسلون أجانب ومراسلون من موسكو. اجتمعوا كلّهم من حول مستقر بوريا الأخير فكان المشترك الوحيد بينهم هو كلماته التي غيّرتهم.

ألقوا كلمات ، وتلوا صلوات. كنت أنظر إلى النعش المفتوح الذي غطته أكاليل الورد وأغصان الليلك والتفاح. ومن الخلف ، ارتفع صوت شاب بالمقطع الأخير من قصيدة «هاملت» لبوريا:

لكن خطة العمل تقرّرت ،
وصارت النهاية محتومة.
وأنا وحدي ؛ في الزيف يغرق كل ما حولي:
الحياة ليست نزهة في بستان.

ومع البيت الأخير، انضم الآخرون إلى تلاوة القصيدة. وعندها، أعلن رجل بصوت ناضح سلطة أن الجنازة قد انتهت. قال: «هذه مظاهرة غير مرغوب فيها». ثم أشار إلى رجلين بأن يضعا غطاء النعش. شققت طريقي إلى مقدّمة الحشد وقبلت وجه بوريا آخر مرة. أزاحوني جانبًا، ووضعوا الغطاء. احتج الناس على هذا الإنهاء المفاجئ للجنازة، لكن ضربات المطرقة أسكتتهم عندما بدأت تغرس المسامير في الخشب.

كانت كل ضربة مطرقة تجعلني أرتعش. شددت معطفي على جسدي.

ارتفعت أصواتهم منشدة «المجد لباسترناك» عندما كان النعش يختفي في الأرض. علا النشيد وانداح بين الناس. ذكّرني هذا بأول مرة رأيته يقرأ شعره منذ سنين كثيرة جدًّا، عندما كان معجبوه غير قادرين على منع أنفسهم من إنهاء قصائده قبل أن ينهيها. تذكّرت كيف كنت جالسة في شرفة الصالة، راجية أن يستطيع رؤيتي عبر الإضاءة الباهرة المسلّطة عليه. تذكّرت كيف رآني، وكيف تغير عالمي إلى الأبد.

لم أر زينايدا بعد الجنازة. فعلتْ كل ما استطاعته حتى تمحو اسمي من تاريخه. وسارت أسرتها على النهج نفسه بعد موتها. قاومتُ هذا كلّه أعوامًا. لكن، هل لي أن ألومها؟ أعرف ما كانوا يدعونني به؛ وأعرف الشائعات التي لم تمُت. حتى إذا حملت دائمًا وصمة الزانية، المغوية، المرأة الساعية خلف المال والجاه، خرّابة البيوت، المتجسِّسة، فقد كنت راضية لمعرفتي أن لارا ستظل باقية بعد موتي.

صبيحة جاؤوا من أجلي مرة ثانية، بعد شهرين ونصف شهر من موت بوريا، كنت جالسة في مطبخي المعتم أشرب الشاي. منذ ثلاثة أيام، أبالغ في تخميره حتى يصير مرًّا.

سمعت صوت عجلات بطيئة تطحن الحصى، فلم أكن في حاجة إلى النهوض لكي أعرف أن سيارة سوداء كانت تتقدّم في الممر المفضي إلى بيتي.

أنهيت الشاي، ووضعت الفنجان وطبقه في المجلى. فكرت في إيرا التي لا تزال نائمة في غرفتها... في وقت لاحق، سترى الفنجان وأثر الحلقة البنّي عليه، وسيكون عليها أن تغسله عارفة أنه فنجاني وأنني قد ذهبت.

جعلني صوت أبواب السيارة وإغلاقها أتحرّك. ذهبت إلى غرفة ميتيا أولًا، لكنني رأيت سريره خاليًا. «لم يعد إلى البيت الليلة الماضية» كان هذا صوت إيرا من خلفي. جعلني صوتها أجفل. مضت إيرا إلى النافذة التي فوق طاولة ميتيا: «هناك الآن سيارتان».

نظرت فرأيت أربعة رجال متكئين إلى السيارتين ، يدخّنون ويتحدّثون من غير اكتراث كأنهم ينتظرون صديقاتهم. رأيت أحدهم يطفئ سيجارته في أصيص أزهاري. ورأيت آخر يغسل يديه في حوض الماء الذي وضعته للطيور. أغلقت الستائر وذهبت إلى الهاتف. قلت: «ارتدي ملابسك». خرجت إيرا من الغرفة. ارتعشت يدي ارتعاشًا شديدًا عندما طلبت رقم ماما.

«ماما».

«هل هم عندك ؟».

«هل هم عندك أيضًا ؟».

«أجل».

«إنهم يحاولون إخافتنا من جديد. ليس لديك شيء يدعو إلى القلق».

ظهرت إيرا مرتدية أكثر ملابسها احتشامًا: تنورة طويلة لونها بيج ، وسترة ملائمة لها. سألتني: «هل ميتيا في بيت بابوشكا(32) ؟».

سألت ماما: «هل ميتيا عندك ؟».

«جاء الليلة الماضية. ثملًا من جديد. لا يزال صغيرًا ، ولا يجوز أن يشرب مثلما...».

«ماما».

«إنه في الأعلى الآن. قلت له أن يلتزم الهدوء».

«جيّد. أبقهِ في مكانه».

ثلاث ضربات على الباب هزّت الأرض الخشبية هزًّا. أمسكت إيرا بذراعي. قالت لي: «عليّ أن أذهب ، يا ماما».

ذهبتُ إلى الباب. إيرا متشبّثة بذراعي كأنها طفلة صغيرة. تقدّم رجل يرتدي معطفًا مطريًا طويلًا غالي الثمن فتجاوز الرجال الأربعة ذوي البدلات السوداء الرخيصة. خلّفت قدما الرجل آثارًا موحلة على سجادة الآكستافا التي ورثتها عن جدي. قال الرجل: «ها نحن نلتقي أخيرًا».

قلت له: «أهلًا وسهلًا». تصرّفت كأنه ضيف عندي.

قال الرجل مبتسمًا: «كنت تتوقّعين قدومنا ، بالطبع!...». ازدادت ابتسامته اتساعًا... «لا؟ هل ظننت أننا لم نلاحظ نشاطاتك ؟».

أرغمت نفسي على مجاراته والابتسام مثله: «هل تحبّون تناول الشاي ؟».

«نستطيع أن نخدم أنفسنا».

كنت أعرف ما أتوا باحثين عنه... ما لن يجدوه في البيت الصغير ولا في شقتي في موسكو.

يوم احتضنتِ الأرض بوريا، نُقل المال -المال الناتج عن حقوق النشر في الخارج، ذلك المال الذي سيثبت أنني ارتكبت جرائم ضد الدولة- إلى جارة لم تسأل أبدًا عن محتويات تلك الحقيبة البنية.

مرّت ساعات، وفي آخر المطاف، خرج واحد من الرجال -الرجل صاحب الندبة الصغيرة وسط شفته السفلى- حاملًا كرسيًا من كراسي غرفة الطعام. وضع الكرسي في الممر أمام البيت حيث كنت أنتظر مع إيرا. سألنا إن كنا راغبتين في الجلوس. أجابت إيرا بالنفي، فهز الرجل كتفيه، ثم جلس على الكرسي وأشعل سيجارة. لم يكد يلقي بالًا إلينا ونحن واقفتان ننظر إلى بيتنا الذي كان الرجال الآخرون يمزّقونه إربًا.

سمعنا صوت دراجة آتية في اتجاه البيت. قفز ميتيا عن الدراجة عندما بلغ منتصف الممر، وترك الدراجة تسقط على الأرض. صاح بصوت متكسر: «هذا ليس من حقكم».

واصل الرجل ذو الندبة تدخين سيجارته. ذهبت إلى ميتيا وأمسكت بيده. انتبهت إلى الرائحة الحامضة المنبعثة من فمه، فقلت له: «هشش!». نظرت إليه فرأيت أنه قد تقيأ على قميصه... «أين بابوشكا؟ قلت لها إن عليها أن تبقيك عندها».

وقفنا كتلة واحدة، نحن الثلاثة، لحظة خرج الرجال من البيت الصغير حاملين صناديق ملأى بأشيائنا. وعندما أتوا حاملين الدفاتر التي تدوّن فيها إيرا مذكراتها (أظنها مليئة بقصص عن المدرسة والفتيان والصداقات الفاشلة)، تجمّدت ابنتي الملتصقة بي، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة. وعندما خرج الرجل ذو المعطف المطري فتعثر بلوح سائب من ألواح الأرضية الخشبية، ضغطت إيرا على يدي بدلًا من أن تضحك. ستظل صورته لحظة تعثر باللوح باقية في ذهني زمنًا طويلًا، حتى بعد أن يستجوبني هذا الرجل.

ذهبت معهم من غير ممانعة، من غير اعتراض أو احتجاج. لم يكن الرجل ذو المعطف المطري في حاجة إلى أن يطلب مني ذلك. اكتفى بالإشارة إلى السيارة السوداء الثانية. ودّعت ابنتي وابني، قبّلتهما، ثم جلست في السيارة.

لم ينظر طفلاي إلى السيارة التي سارت مبتعدة. كانت إيرا واقفة بالعتبة تنظر إلى الأضرار التي خلفها أولئك الرجال في البيت. وكان ميتيا جالسًا على الدرجة العليا أمام الباب واضعًا

رأسه على ركبتيه. أغمضت عيني، ولم أفتحهما إلى أن بلغنا المبنى الكبير الأصفر.

سألني سائق السيارة عندما نزلنا منها: «ما هو أعلى مبنى في موسكو؟».

قال له الرجل ذو المعطف المطري وهو يفتح لي الباب: «لقد سمعتْ هذا من قبل... ألم تسمعيه؟».

لم أجبه بشيء. خرجت من السيارة، وسوّيت تنورتي، وتركتهم يأخذونني.

عزيزي أناتولي،

استيقظت على صوت خرير في صدر ابنتي. إيرا الغالية. يقولون إنها ساعدتني في إخفاء المال الأجنبي؛ وهي الآن نائمة على فراش إلى جانب فراشي. إنها مريضة. أصابتها حمى. سمحوا لي بالبقاء معها إلى أن تظهر عليها علامات التحسّن. لكني لا أريد أن أسبّب لك قلقًا، يا أناتولي. ابنتي بخير. وأنا بخير. وأشكر الرب لأنهم تركوا ابني ميتيا وشأنه. إن لديَّ، على الأقل، ما أنا شاكرة له.

صحيح أنني لم أكتب إليك شيئًا منذ سنين طويلة جدًّا، لكني لم أتوقّف عن الكتابة. رسائل صغتها في عقلي وأنا أستحمّ. رسائل كنت أصوغها عندما يجافيني النوم. رسائل مكتوبة في مكان قصيّ في أعماق نفسي. لكني صرت الآن غير قادرة على منع الكلمات من الخروج.

بادلت هذا القلم وهذه الورقة بزوج من الجوارب الصوفية. أردت أن أفرغ ما تراكم في داخلي. والآن... ماذا كنت أقول؟

لست أدري شيئًا عن مكانك الآن. لماذا لم تلاقني في لوبيانكا لكي نستأنف أحاديثنا في آخر الليل؟ هل استبدلوك؟ هل استبدلوني؟ هل فكّرت بي يومًا؟ هل نطقت شفتاك اسمي يومًا؟ لعلك فضلت هذه المرة أن تظل بعيدًا عني لأنني صرت الآن أكبر سنًّا مما كنت عندما عرفتني أول مرة! لعل صحبتي كانت يومها أكثر بهجة!

كنت حبلى في تلك المرة الأولى. فقدت الجنين. وأنا الآن أكبر سنًا... أكاد أصير غير قادرة على الحمل. الرجل الذي كان أبًا طفلي الذي لم يولد صار الآن مدفونًا. الزمن شيء فظيع.

لقد كنت هنا من قبل. لكنّي، على نحو ما، لم أترك هذا المكان أبدًا.

جفّ الحبر الذي كتب به الحكم الذي أصدروه عليه. وسأمضي السنوات الثماني القادمة في هذا المكان - سأكون في السنوات الثلاث الأولى مع ابنتي، ابنتي البريئة. أظنني كنت عارفة - دائمًا- أنهم سيعثرون على المال، أو أنهم سيقولون إنهم عثروا عليه!

نحن الآن في شهر آذار من سنة 1961... الشهر الثالث بعد صدور الحكم علينا. ولا يزال ما يحيط بنا مساحة بيضاء كبيرة وأفقًا رماديًا. الوقت ليل ؛ وأنا أكتب على ضوء مصباح غاز نوره خافت جدًا. لا أرى شيئًا غير الورقة التي أمامي وظلًا يلقيه ظهر ابنتي النحيل ، ابنتي المستلقية على جنبها تحت بطانيتين من الصوف - واحدة منهما بطانيتي.

في وقت سابق من هذا اليوم ، كنت أعمل مع إيرا في حفرة. كنا نحفر من أجل مرحاض جديد. تشقّقت يداها ، وصارت شبه عاجزة عن رفع المعول. هذا ما جعلني أحفر أسرع من ذي قبل ، أشد من ذي قبل. لا أقول هذا لأي إنسان ، لكن شيئًا في نفسي كان مشتاقًا إلى هذا العمل... إلى غرس المجرفة في الأرض ، وإلى الدوس عليها بالقدمين حتى تنغرس أكثر ، حتى تخترق الأرض أكثر ، ثم تعرية التراب الذي في الأسفل وقلبه... داكنًا على الخلفية الثلجية البيضاء.

أنا مرهقة كثيرًا ، لكني لست راغبة في النوم قبل أن أروي هذه القصة. صرت الآن أضغط القلم بشدّة أكثر من ذي قبل. لون الحبر يخبو. أظنّ أن المرأة التي ترتدي الآن جواربي قد كذبت علي وغشتني في هذه المبادلة: حبر القلم شبه منته. لم يبق لدي الكثير مما أكتبه. ولعل تتمّة هذه الرسالة ستكون مكتوبة بالأثر الذي يتركه ضغط رأس القلم على الورق. أظنّك ستكون مضطرًا إلى قراءتها مثلما يقرأون بطريقة بريل. وقد تجد نفسك مضطرًا إلى تلمس آثار القلم بأصابعك حتى تستطيع إكمال القراءة.

هكذا هي الحال ، قصّتي لم تعد تخصّني وحدي. ففي المخيلة الجمعيّة ، صرت امرأة أخرى... صرت بطلة رواية ، شخصية فيها. لقد صرت لارا. لكني أنظر من حولي فلا أجدها هنا. أهكذا سيعرفونني بعد أن أكون قد رحلت ؟ أهذه هي قصة الحب التي ستبقى في ذاكرتهم ؟

أفكّر الآن في النهاية التي وضعها بوريا لبطلة روايته:

... وذات يوم ، خرجت لاريسا فيدوروفنا ولم تعد. لا بد أنها اعتُقلت في الشارع ، تلك المرة. اختفت من غير أثر ، ولعلّها ماتت في مكان ما ، ماتت منسية كأنها رقم من غير اسم في قائمة ألقوها في مكان ما... لعلّها ماتت في واحد من معسكرات لا حصر لعددها في الشمال ، معسكرات اعتقال مختلطة أو خاصّة بالنساء.

لكن ، يا أناتولي ، أنا لست رقمًا من غير اسم. ولن أختفي.

(31) البانيخيدا: قداس «الذكرى» الذي يقام على روح الميت لدى أتباع المسيحية الأرثوذكسية.
(32) بابوشكا: الجدة (بالروسية).

خاتمة
ضاربات الآلة الكاتبة

ظهر «دكتور جيفاكو» على الشاشة الكبيرة في شتاء سنة 1965. ذهبنا معًا لرؤية الفيلم. لا يزال بعضنا في الوكالة ، لكن أكثرنا صار خارج الوكالة في ذلك الوقت. لا يستمر عمل ضاربة الآلة الكاتبة زمنًا طويلًا. أتت ضاربات آلة كاتبة جديدات ، وذهبت غيرهن. ارتفعت السوية الوظيفية لرجال كثر ، ولبعض الفتيات أيضًا. نالت غيل المنصب الذي كان أندرسون يشغله ، وذلك بعد موته في أزمة قلبية عندما كان ذاهبًا مع ابنته المراهقة لحضور حفلة لفرقة بيتلز في الكوليزيوم.

وقد تزوجنا ، أو لم نتزوج. وقد أنجبنا أطفالًا ، أو لم ننجب. كبرنا في السن قليلًا ، كلنا - تظهر خطوط دقيقة عندما نبتسم ، أو عندما تتجهّم وجوهنا ، ولم تعد أجسادنا تلك الأجساد الفتية الرشيقة التي نخبئها خلف طاولات مكاتبنا.

كان أمرًا حسنًا أن نجتمع من جديد. كان آخر لقاء لنا في حفل زفاف في سنة 1963. فبعد مهمة «جيفاكو» ، تركت نورما مجموعة الآلة الكاتبة لكي تتابع الدراسة وتحصل على شهادة الماجستير في الكتابة الإبداعية ، في آيوا. وفي الوقت نفسه ، تقريبًا ، بدأ تيدي يلاحقها ، عن بعد. تزوجا بعد تخرجها. وترك تيدي الوكالة إلى وظيفة في مؤسّسة سرية أخرى قريبة من لانغلي: مارس إنكوربوريشن. جرى حفل زفاف غير رسمي في قاعة الرقص الخارجية في «غريت فولز بارك»... حفل شواء ، ونافورات شوكولاته سائلة مقدّمة من المؤسسة الجديدة التي صار تيدي فيها. كان الذعر باديًا على أبيه وأمه ، لكننا أمضينا وقتًا ممتعًا. لم يكن هنري

رينيت هناك ، ولم يفتقد وجوده أحد. بعد أن ألقت نورما باقة الزهور (التي التقطتها جودي بمهارة) ، رفع فرانك ويزنر نخب العروسين السعيدين. ستكون تلك آخر مرة نرى فيها مديرنا القديم: أنهى حياته بنفسه بعد سنتين من ذلك ، في خريف سنة 1965 ، قبل ظهور فيلم «دكتور جيڤاكو».

تبادلنا العناق والقبلات على الخدّين أمام سينما جورجتاون التي جعلَنا اسمها المكتوب بأضواء النيون نغرق في وهج أحمر. اشترينا بطاقات الدخول. عندما كنا واقفات في صف الانتظار لشراء المرطبات ، أرتنا ليندا صورًا لولديها التوأمين جالسين في حضن سانتا كلوز في متجر وودیز ، وأخرجت كاثي صورًا لشهر العسل الذي أمضته في هاواي. كم تمنينا لو أن جودي تمكّنت من الانضمام إلينا. لقد انتقلت إلى كاليفورنيا لكي تصير ممثلة. صحيح أنها لم تصب نجاحًا كبيرًا حتى الآن ، لكنها تمكّنت من الحصول على دور صغير في عرض «ديك فان دايك».

احتللنا صفَّيّ المقاعد الثالث والرابع في سينما جورجتاون. خفتت الإنارة ، ورحنا نفتح أكياس الفوشار والريزينتس(33) مع بداية الشريط الإخباري الذي عرض صورًا عن التصعيد العسكري الأميركي في فيتنام. لم تُظهِر الفتيات الباقيات في الوكالة تأثرًا عندما أظهرت الكاميرا الطائرات الساقطة ، والحقول المحترقة ، والبيوت المنهارة. كن يعرفن أكثر مما تعرفه من تركن العمل في الوكالة ؛ وأما من صرن خارج الوكالة ، فكن مدركات أن من الأفضل ألا تطرحن أية أسئلة.

عندما غرقت الصالة في الظلام ، وبدأت موسيقى الفيلم ، تبادل عدد منا النظرات والشد على الأيدي. ظهرت لارا على الشاشة مرتدية بلوزة بيضاء مع ربطة عنق سوداء. كانت جالسة خلف طاولة مكتب ، فاتجهت أذهاننا كلنا إلى اسم واحد: إيرينا. في حقيقة الأمر ، كنا نرى الممثلة جولي كريستي. لكن ، مع ذلك... شعرها ، وعيناها! لقد كانت إيرينا ، إيرينتنا ، أمامنا على الشاشة.

سرت قشعريرة في أجسادنا عندما رأى يوري لارا أول مرة ، في آخر الصالة. نشقنا دموعنا عندما ودّعها أول مرة. تعلّقنا بأملنا في أن يفترق الفيلم عن الكتاب في النهاية بحيث يعيش يوري ولارا في ذلك البيت الريفي إلى أن ينتهي عمراهما. على الرغم من معرفتنا بما سيأتي ، فقد انهمرت دموعنا عند وداعهما الأخير.

انتهى الفيلم. وبدأ ظهور الأسماء على الشاشة. مسحنا عيوننا بمناديلنا. «دكتور جيڤاكو»

قصّة عن الحرب ، وقصة عن الحب ، في وقت واحد. لكن السنين مضت بعد ذلك فلم تبق في ذاكرتنا غير قصة الحب.

قبل ثلاث سنين من إقدام الكرملين على إنزال العلم السوفييتي ذي المنجل والمطرقة ورفع العلم الروسي مثلث الألوان ، دخلت رواية «دكتور جيڤاكو» بلدها الأم للمرة الأولى... دخولًا مشروعًا. أرسلت إلينا غيل بطاقة بريدية من رحلتها إلى موسكو. كانت البطاقة إعلانًا دعائيًا للمزاد الذي أقامته مؤسسة سوذبي ، «مزاد من أجل الغلاسنوست ، 88». كتبت لنا على تلك البطاقة قائلة إن الرواية صارت في كل مكان. وفي السنة التالية ، مُنح باسترناك جائزة نوبل ، مرة ثانية. استلم ابنه الجائزة بدلًا منه.

يخجلنا أن نعترف بهذا ، لكن منا من لم تقرأ الكتاب... حتى الآن. القليلات اللواتي يتكلّمن الإيطالية قرأن الكتاب عند صدوره أول مرة. وقرأته غيرهن في السنوات التي أعقبت «المهمة». وظلت بقية الفتيات منتظرات مشاهدة الفيلم قبل أن تجلسن وتقرأن الطبعة الروسية. لكن هناك من الفتيات من لم تقرأه حتى الآن. وعندما أفلحنا آخر الأمر في جعل أنفسنا نقرأ «دكتور جيڤاكو» - نقرأ تلك الكلمات التي اعتبرتها الوكالة سلاحًا - كانت مفاجأة كبيرة لنا رؤية كم تغيّر العالم منذ ذلك الوقت ، وكم... لم يتغير!

في الوقت نفسه تقريبًا ، كتبت نورما رواية مثيرة عن عالم الجاسوسية. حملت صفحة الإهداء في تلك الرواية اسم تيدي ، زوجها. كانت أول رواية تنشرها. على الرغم من أنها لم تحظ إلا بتعليقات فاترة ، فقد ذهبنا إلى «بوليتكس آند كروز» ووقفنا في الصف لكي توقّع لنا على النسخ التي اشتريناها. أصدرت الوكالة تصريحًا نأت فيه بنفسها عن محتوى تلك الرواية (قصة عميلة استخبارات أوقعت بجاسوس مزدوج) ، لكنا رأينا في الرواية صدى حقيقيًا لقصص نعرفها.

صارت الباقيات منا تستخدمن الكمبيوتر: الكمبيوتر المكتبي ، واللابتوب ، والهواتف الذكية التي تأتينا هدايا من أبنائنا في أعياد الميلاد ، ثم يعلّمنا أحفادنا كيف نستخدمها.

«ينبغي أن تحرّكي إصبعك هكذا ، يا جدتي».

«يكفي أن تضغطي على مفتاح shit».

«هذا لأنك ضغطت على مفتاح caps lock»..

«لا تهتمي بهذا المفتاح».

«السيلفي هي أن تلتقطي صورة لنفسك».

حلّت نقرات مفاتيح الكمبيوتر محل الضرب على مفاتيح الآلة الكاتبة. ما عادت هناك تلك الرنّة التي كنا نسمعها عند الانتقال من سطر لآخر. وما عاد عدد الكلمات التي نستطيع كتابتها في الدقيقة الواحدة مثلما كان في صبانا. لكننا نستطيع فعل أشياء رائعة بهذه الآلات الجديدة. أفضل تلك الأشياء كلها قدرتنا على التواصل المستمر. فبدلًا من التقارير والمذكرات صرنا نتبادل إرسال آخر النكات والصلوات والصور التي تأتينا من أحفادنا، بل من أبناء أحفادنا أحيانًا.

لا نعرف من منا رأت ذلك أولًا - الظاهر أننا رأيناه معًا. ظهرت مقالة في صحيفة البوست تحدثت عن امرأة أميركية موقوفة في لندن بتهمة التجسّس؛ وقالت إنها في انتظار ترحيلها إلى الولايات المتحدة. لكن سبب الدهشة كان أن المرأة بلغت التاسعة والثمانين من عمرها، وأنها ارتكبت جرائم تسريب المعلومات إلى السوفييت قبل عقود من الآن. كان مقدمو البرامج التلفزيونية يناقشون ما يمكن فعله في هذه الحالة.

لكن اهتمامنا بتلك المقالة كان منصبًّا على الصورة التي رافقتها.

على الرغم من تغطية المرأة وجهها بيديها المقيدتين، فقد كانت نظرة سريعة واحدة كافية لأن نعرفها.

«هي بالتأكيد، مثلما أعيش وأتنفس».

«إنها هي».

«لا شك في هذا أبدًا».

«لم تفقد قوامها».

«بل هو معطف الفرو نفسه الذي قدمه إليها دولز هدية».

قالت المقالة إن المرأة عاشت في المملكة المتحدة خلال السنوات الخمسين الماضية - كانت شقتها فوق متجر كتب كان ملكًا لها منذ ثلاثين سنة بالشراكة مع امرأة لا اسم لها ماتت في أوائل سنة 2000. نبحث عن اسم المرأة الأخرى في مقالات أخرى، لكننا لا نجد شيئًا.

مع أن نجاح «مهمة جيڤاكو» صار أسطورة من أساطير الوكالة في السنين التي تلت ذلك، فقد ظلّ ما نعرفه عن عمل إيرينا غامضًا بعد معرض إكسبو 58. كانت في آخر ملفّها مذكرة وجيزة تقول إنها تقاعدت في الثمانينيات... لا شيء أكثر من هذا!

تطير أصابعنا فوق لوحات المفاتيح.
أهذه هي ؟
أهاتان هما ؟
هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًا ؟
في سرِّنا ، تمنينا أن يكون هذا حقيقيًا.
(33) ريزينتس: زبيب مغلف بالشوكولاته.

تعقيب المؤلفة وشكرها

كثيرة هي الكتب التي جعلت تأليف هذا الكتاب ممكنًا. أولها وأهمها «دكتور جيڤاكو» لبوريس باسترناك ، الرواية التي لا تزال محافظة على حيويتها وراهنيتها حتى يومنا هذا ، بقدر ما كانت حيوية وراهنة عندما نشرها جانجاكومو فيلترينيلي أول مرة. وسوف أظل دائمًا مدينة لهذه الهِبة الجريئة التي قدمها باسترناك إلى العالم.

خلال البحث الذي أجريته ، كان كتاب «قضية جيڤاكو» لبيتر فين وبيترا كوفيه رصيدًا لا غنى عنه. ففي سنة 2014 ، وبفضل مناشدة كل من فين وكوفيه ، كشفت «سي آي إيه» عن تسعة وتسعين مذكرة وتقريرًا لها صلة ب.«مهمة جيڤاكو» السرّية. لقد كانت رؤية هذه الوثائق بعد رفع السرّية عنها -على الرغم من حجب بعض الأسماء والتفاصيل التي اشتملت عليها- أول ما خلّف في نفسي دافعًا إلى ملء تلك الفراغات بمادة قصصية.

إن في الرواية مقتطفات مباشرة ووصفًا مباشرًا، بما في ذلك مقاطع من أحاديث جرت بالفعل، وذلك كما جرى توثيقها في قصص رواها أصحابها. هناك كتابان يلقيان ضوءًا على ما يمكن أن يكونه عيش كثير من الأحداث الموصوفة في روايتي: السيرة الذاتية لأولغا إيفينسكايا، «أسيرة الزمن»، ومذكرات سيرجيو دانجيلو، «قضية باسترناك».

وأنا أيضًا مدينة بالشكر لكتاب «أخوية الجاسوسات» لإليزابيث بتي، ولبيت ماكنتوش الذي عرّفني على عالم بطلات من الحياة الحقيقية من بينهن صاحبة الكتاب نفسها. علينا إقامة تماثيل تكريمًا لتلك النساء.

يروي كتاب «رعب الخزامى» لديفيد ك. جونسون التاريخ الذي لا يعرفه كثيرون، الاضطهاد الذي مارسته الولايات المتحدة، خلال الحرب الباردة، في حق LGBTQ(34). لقد أرغم أشخاص كثيرون على ترك أعمالهم، ودُمّرت سمعتهم علنًا، وفقد كثيرون منهم حياتهم. لا يجوز لنا نسيان هذه القصص.

من الكتب الأخرى التي استعنت بها كتابا «داخل عاصفة جيڤاكو» و«رحلة جيڤاكو السرية» لباولو بانكوسو؛ وكتاب «تركة من رماد» لتيم وينر؛ وكتاب «الوكالة» لجون ريني لاف؛ وكتاب «الحرب الثقافية الباردة» لفرانسيس ستولور سولدرز؛ و«مجموعة جورجتاون» لغريغ هيرتن، و«أفضل الرجال طُرًّا» لإيفان ثوماس؛ و«كتب حارّة في الحرب الباردة» لألفريد آ. رايخ؛ و«الجاسوس وأخوه في سي آي إيه» لكارول سيني؛ و«مخبرون» لجويل ويتني؛ و«أسرار واشنطن» لجاك ليت ولي مورتنير؛ و«إكسبو 58» لجوناثان كوي؛ و«فيلترينيلي» لكارلو فيلترينيلي وألستير ماكوين؛ و«لارا» لآنا باسترناك؛ و«سلوك آمن» لبوريس باسترناك؛ و«قصائد بوريس باسترناك» ترجمة ليفيا باسترناك سليتر؛ و«بوريس باسترناك: السنوات المأساوية: 1930 - 1960» ليفيغيني باسترناك؛ و«بوريس باسترناك: الشاعر وآراؤه السياسية» للازار فليشمان؛ و«بوريس باسترناك: سيرة أدبية» لكريستوفر بارنر؛ و«بوريس باسترناك: مراسلات عائلية» ترجمة نيكولاس باسترناك سليتر ومايا سليتر؛ و«الخوف وربة الإلهام الساهرة» لآندي ماكسميث؛ و«جائزة نوبل» ليوري كروتكوف؛ و«في اتحاد الكتاب السوفييت» لكارول وجون غارارد.

فضلًا عن تلك الكتب كلها، ما كان ممكنًا أن أكتب روايتي من غير معونة أشخاص كثيرين ومؤسسات كثيرة. أوجّه شكري إلى «كين برايز فور ليترتشور»، و«فانيا كروغر فيلوشِب»؛

و«كريزي هورس باريز» ، وذلك للمساندة التي تلقيتها منها جميعًا. أشكر أيضًا «ميتشنر سنتر فور رايترز» الذي منحني الوقت والموارد لكي أبدأ تأليف روايتي ، وقدّم لي الإشراف الذي ساعدني في إتمامها. أشكر خاصة جيم ماغنوسون وبريت أنتوني جونستون ، المديرين في ميتشنر ، فقد منحانا ، نحن «غريبي الأطوار» بيتًا نستطيع العودة إليه دائمًا. وأشكر أيضًا مارلا آكين وديبي دويز وبيلي فاكزنغر وهولي دويل لأنهم أصحاب فضل في تمكّني من إنجاز هذا العمل. وأنا مدينة بالشكر والعرفان لمن علّموني ، ولقرائي الحريصين ، ولمن أشرفوا عليَّ ؛ أذكر منهم ديب أولين أونثر ، وبين فانوتين ، وه. و. براوندز ، وإدوارد كيري ، وأوسكار كاسارز ، وليزا أولستين. شكر خاص أقدمه إلى إليزابيت ماكريغن التي كان لتوجيهها وقدرتها الأدبية ونصائحها قيمة لا تقدر. وبطبيعة الحال ، أشكر الأصدقاء وزملاء الدراسة جميعًا ؛ وأخص بالشكر: فيرونِكا مارتين وماريا ريفا وأولغا فيلتسكايا وجيسيكا توباشيولنغ ونوري ظروف لأنهم قرأوا كتابي ودفعوني إلى تحسين أدائي ، ولأنهم جعلوني أضحك كثيرًا.

وأنا أكثر من ممتنة لكل من يعمل في «كنوبف» لأنهم وضعوا ثقتهم في هذا الكتاب وساهموا بتوجيهاتهم في وصوله إلى ثمرته الأخيرة ؛ ومنهم: سوني ميهتا وغابرييل بروكس وآبي إندلر وإيميلي ديهوف ونيكولاس ثومبسون وكيلي بلير ونيكولاس لاتمير وسارا إيغيل وبول بوغاردز وكاثرين بيرنز ؛ مع شكر خاص لجوردان بافلين ، محررتي المدهشة التي زادت كل صفحة من صفحات الكتاب قوة بتشجيعها وقلمها الذكي.

أشكر العاملين في «هاتشنسون» جميعًا لما أبدوه من تفانٍ وإخلاصٍ وأعينٍ مدققة وقدرة على الإبداع. أشكر جوكاست هاملتون ونجمة فينلاي وسوزان ساندون وريبيكا إيكين وسارا رايدلي وآمبر دينيت فورد ومات واترسون وكلير سيمودز وغلين نويل ، وكذلك محررتي اللامعة في المملكة المتحدة سيلينا ووكر.

أشكر أيضًا وكيليّ الرائعين جيف كلينمان وجيني تشامبليس اللذين قرأا أول خمس وعشرين صفحة من الرواية -قبل سنين من اكتمالها- فآمنا بها. لقد غيرتما حياتي. أشكر أيضًا ميليسا سارفير وايت ونوريلا بيلي اللتين ساعدتاني في إخراج كتابي إلى العالم.

أوجّه الشكر إلى أصدقائي في «غرينسبرغ» (فريق موتلي!)، وإلى جامعات واشنطن ونورفولك وأوستن ، وغيرها: لا أدري ما كان ممكنًا لي فعله من غيركم.

وأشكر أفراد عائلتي - سارا ونيثان وبين وسام وأوين وجدّتي والعم رون ، وعماتي وخالاتي

جميعًا ، وأعمامي وأخوالي ، وأبناء أعمامي وأخوالي ، جانيت وهيلاري وبروس وباركر ونوا وسكاويت وكليمنتاين... أشكر وقوفكم الدائم إلى جانبي.

أشكر أيضًا بوب وباتي ، أبي وأمي ، لأنهما أسمياني لارا وجعلاني أرى كيف يكون الحب.

وقبل الجميع ، أشكر ماتي ، قارئي الأول والأخير. أنت لم تشجعني فقط على الإمساك بالقلم ، بل جعلت كل صفحة من هذا الكتاب أكثر قوة. وأنا مدينة لك بكل شيء.

(34) LGBTQ: رمز مختصر يشير إلى: المثليون والمثليات ، ثنائيو الجنس ، ومتحولو الجنس ، و«المتسائلون».

عن الكاتبة

حصلت لارا بريسكوت على شهادة الماجستير في الفنون من مركز ميتشنر للكتاب في جامعة تكساس ، أوستن. وقبل ذلك ، كانت عاملة في الحملات السياسية الانتخابية. ظهرت قصصها في «ذا سثرن ريفيو» و«ذا هديسون ريفيو» و«كريزي هورس» و«غاي ون» و«تن هاوس فلاش فرايدايز». نالت جائزة «كريزي هورس فيكشن برايز 2016» عن نسخة معدلة من الفصل الأول من كتاب «أسرار حفظناها». تعيش حاليًا في مدينة أوستن ، تكساس.